

الأدب العربي في الأندلس

الدكتور عبد العزيز عتيق
أستاذ بجامعة بيروت العربية

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحیم

مقدمة

فتح العرب بلادالأندلس للإسلام، واستوطنوها أكثر قليلا من ثمانية قرون من سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م الى سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م . وقد حملوا اليها فيما حملوا معهم بلاغتهم العربية ، ممثلة في لغتها وأدبها .

وفي بيئة الأندلس الجميلة وجد الأدب العربي كل ما يستثير الخيال ويستجيش العواطف والوجدان ، فنما فيها وأزهر ، واكتسب من مسيرته وتعايشه معها طابعا جديدا ، وسمات خاصة ، تميز بها عن أدب المشارقة .

وهذا الكتاب الذي نقدمه هنا يمثل محاضرات في « تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس » ألقيتها على طلاب اللغة العربية وآدابها بجامعة بيروت العربية .

وتاريخ الأدب العربيّ في الأندلس هو في حقيقته جزء من تاريخ الأدب العربيّ العام. وليس من هدفنا أن نؤرخ هنا للأدب الأندلسيّ تأريخا جامعا، فهذا يحتاج الى جهد أكبر وزمن أطول كثيرا مما له في منهاج الجامعة الدراسيّ

وإنما الهدف أن نعرض صورة موجزة لأدب العرب وبلاغتهم في الأندلس، صورة تبين أطوار هذا الأدب من نثر وشعر ، والفنون الأدبية التي توسع فيها

الأندلسيون أو استحدثوها ، مع الترجمة الكاشفة لبعض أدبائهم وشعرائهم .

ولما كان أدب أي أمة هو ابن بيئتها ، يتأثر بها ويؤثر فيها ، ويستمد عناصر نشأته ووجوده من طبيعة أرضها ، وأحداث تاريخها ، وحياة مجتمعها ، فقد عرضنا في مستهلٍ هذا الكتاب لجغرافية الأندلس ، ثم بشيء من التوسع لتاريخ العرب وحضارتهم فيها ، راجين أن يفيد من ذلك من لا يجد لديه الوقت الكافي للاطلاع على تاريخ الأندلس في مصادره الكبرى .

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد ...

المؤلف

الباب الأول

في جغرافية الأندلس وتاريخها

* كلمة الأندلس
* الأندلس جغرافيا
* فتح المغرب
* فتح الأندلس
* عصر الولاة
* الدولة الأموية الأندلسية :
  - إمارة قرطبة
  - خلافة قرطبة
* ملوك الطوائف
* دولة المرابطين
* دولة الموحدين
* دولة بني الأحمر

الفَصل الأول

الأندلس جغرافيًا

نرى قبل الشروع في عرض جغرافية الأندلس وتاريخها ، أن نتوقف قليلا أمام كلمة « الأندلس » ثم نسأل : هل عرف العرب هذا الاسم الأعجميّ قبل الإسلام ؟ الواقع أن العرب لم يعرفوه إلاّ في الإسلام ، حين أطلقوه على شبه جزيرة إيبيريا بعد فتحها . وأصل هذا الاسم مشوب ببعض الغموض ، شأنه في ذلك شأن الاسمين القديمين : إيبيريا عند اليونان ، وإسبانيا عند الرومان[1] .

وقد تكون هناك صلة بين هذا الاسم وبين اسم القبيلة الجرمانية « الڤَندال » وفي هذه الحالة يُفتَرض أنه مشتق من « ڤنداليشيا » Wandalicia . وربما كانت صيغة ڤنداليشيا تُطلق على إقليم بيتيقا Baetica القديم الذي احتله الڤندال ما يقرب من عشرين سنة من ٤١١ الى ٤٢٩ م ، أو على ثغر ترادكتا Traducta الذي عبر منه الڤندال الى إفريقية

ويقول بعض كتاب العرب إنه عيْن البلد الذي عُرف فيما بعد باسم القائد المغربيّ طريف ، ولكن من المرجح أن تكون ترادكتا هي الجزيرة الخضراء Algericas ، ويكون الفاتحون من العرب والبربر وَفقا لهذه النظرية ، قد أطلقوا اسم المدينة الصغيرة أو الإقليم ، على المنطقة التي عرفها الرومان والقوط

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ج ٣ ص ٣٥ .

باسم بيتيقا ، ثم على شبه الجزيرة بأسرها التي سرعان ما دانت لهم بما فيها من ولايات فرنسا الجنوبية ، وهي : سبتمانيا ، أي من جاليا الأربونية الى نهر الرون [1]

وفي نفح الطيب للمقّري وهو قريب مما عليه إجماع المحققين الآن : « أول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون...قوم يُعرفون بالأندلش – معجمة الشين – بهم سُمي المكان، فَعُرِّب فيما بعد بالسين غير المعجمة ، كانوا هم الذين عمّروها وتناسلوا فيها ، وتداولوا ملكها دهرا على دين التمجّس والإهمال والإفساد في الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم .... فهلك أكثرهم ، وفرّ مَن قدَر على الفرار منهم ، فأقفرت الأندلس منهم ، وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة [2] » .

ولما أخذ النفوذ العربيّ في شبه الجزيرة بالاضمحلال البطيء ، وبدأ الأسبان يسترجعون البلاد ، فقدَ اسمُ الأندلس الذي كان يُطلق على مساحة كبيرة من الأرض مدلولَه بالتدريج ، ولبِثت الأقاليم الجنوبية التي ظلت في حوزة العرب تُعرف به من وقت الى آخر ، ثم لم يعد يُعرف به بعد ذلك سوى إقليم صغير هو مملكة غَرناطة [3] .

وكثيرا ما يُطلق على الأندلس اسم « جزيرة الأندلس » والواقع أنها شبه جزيرة لا جزيرة ، وإنما سميت جزيرة بالغلبة ، كما سميت جزيرة العرب [4]

وقد جرى على الألسن استعمال كلمة « الأندلس » مُعرّفةً بالألف واللام غير أن البعض يستعملونها مجردة من أداة التعريف ، وبخاصة في الشعر . ومن ذلك قديما :

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ج ٣ ص ٣٥ – ٣٦

(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ١٣٠ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ؛ ج ٣ ص ٣٦ – ٣٧ .

(٤) معجم البلدان لياقوت : ج ١ ص ٣٦٢ .

سألت القوم عن أَنَسٍ فقالـوا : بأندلسٍ ، وأندلسٌ بعيدُ

ومنه حديثا قول شوقي :

مَن لِنِضْوٍ يتنـزّى ألَمـا برّح الشوق به في الغلَسِ
حنّ للبان وناجَى العلَمـا أين شرقُ الأرض من أندلس؟

جغرافية الأندلس

ومن الناحية الجغرافية تقع بلاد الأندلس في الجنوب الغربي من أوربا ، يحدُّها من الغرب المحيط الأطلسي ، ومن الجنوب مضيق جبل طارق وجزء من البحر المتوسط الذي يكتنفها ممتدا الى شرقيّها . أما في الشمال فتحدها فرنسا التي كان يطلق عليها العرب بلاد الفرنجة .

ويفصل بين شمال الأندلس وفرنسا سلسلة جبال البرت « البرانس » . وكانت تسمى بالجبل الحاجز أو باب الأندلس ، ولصعوبة مسلكه كان لايرام ولا يمكِّن أحدا من الدخول منه .

ويرتفع في وسط الأندلس وشمالها هضبة أطلق عليها المسلمون « جبل الشارات » ومنها ينبع نهر دويرة ونهر تاجة الذي تقع عليه مدن طليطلـة ، وطلبيرة . وشَنْتَرين ، وأُشبونة . ويصب هذا النهر في المحيط الأطلسي .

وينبع نهر شقَر ونهر الوادي الكبير من جبال شقورة ، الأول يصب في البحر المتوسط ، والثاني في المحيط ، وعليه تقع من المدن الكبيرة قرطبة ، وقَرْمونة ، وإشبيليـَة .

ويفصل الجنوب والجنوب الشرقيّ عن وسط الأندلس وشماله سلسلـة جبال نقادا ، وكانت تعرف في العصر الإسلامي بجبال الثلج ، لأن الثلج لا

يفارق قممها صيفا ولا شتاء ، ويطل هذا الجبل على مدينة غرناطة ، ومن جبال الثلج ينبع نهرا حدّاره ، وسنجل اللذان يشقان غرناطة [1] .

ويذكر بعض المؤرخين أن الأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربيّ ، وأندلس شرقيّ . فالغربيّ منهما ما جرت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالمحيط ، والشرقيّ ماصبت أوديته الى البحر الروميّ المتوسط ، وذلك مــا بين مرسية وسرقسطة . فالشرقيّ منهما يمطر بالريح الشرقية وعليها يصلح ، أما الغربيّ فيمطر بالريح الغربية وبها صلاحه ، وجباله هابطة الى الغرب جبلا بعد جبل ، وأوديته تجري من الشرق الى الغرب بين هذه الجبال [2] .

ويضيف بعض المؤرخين الى هذا التقسيم قسما ثالثا ، هو وسط الأندلس وكان يضم من المدن العظمى طليطلة ، وقرطبة ، وجيّان ، وغرناطة ، والمريّة ، ومالقة .

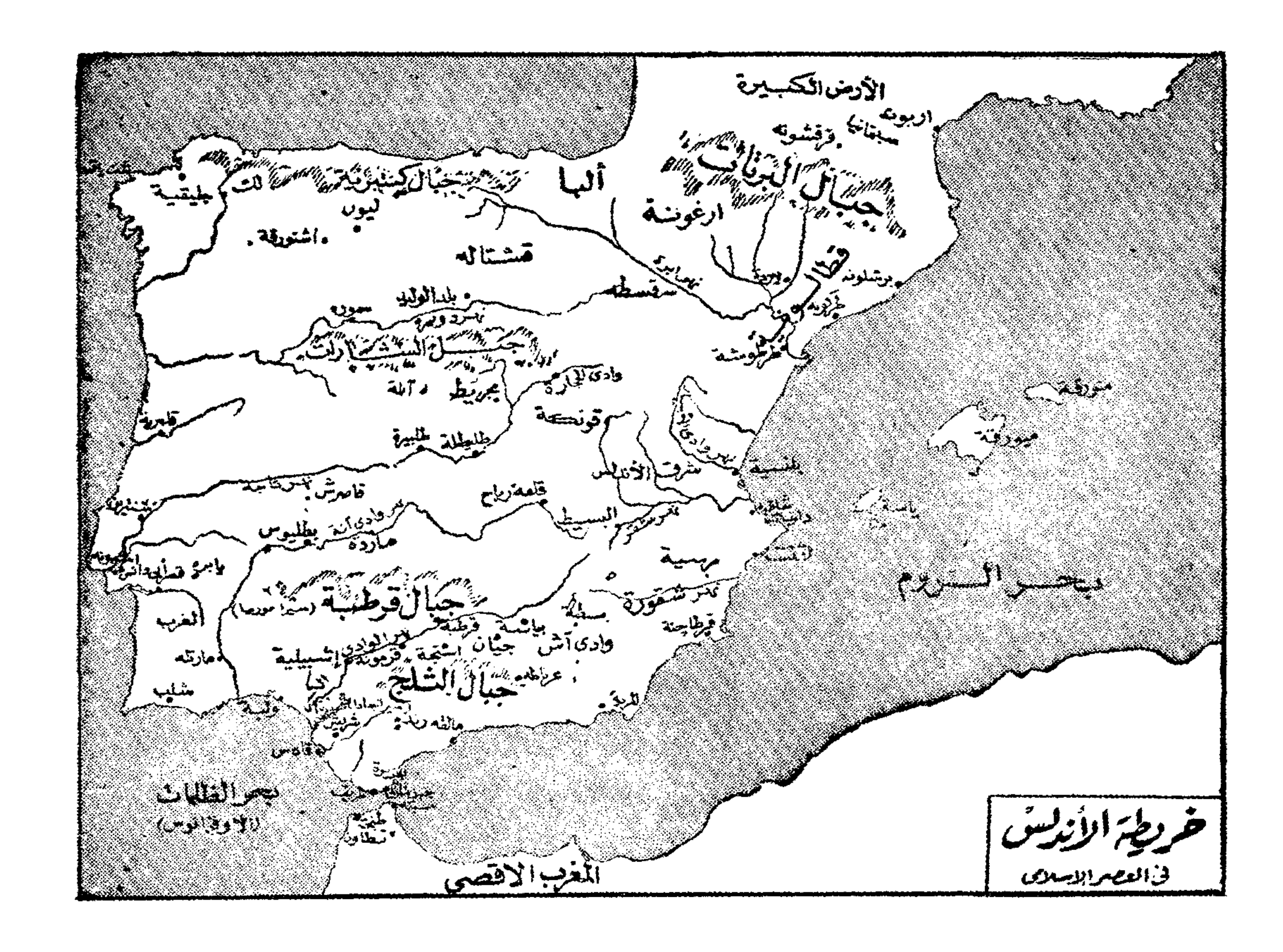
ومن المدن الكبرى في شرق الأندلس مرسية ، وأوريولة ، ودانية ، وشاطبة ، وبلنسية ، وطرطوشة ، وطرّكونة ، وبرشلونة ، وسرقسطة ومنها في الغرب إشبيلية ، وماردة ، وأشبونة ، وشلب .

وقد تعددت أقوال العلماء في وصف جزيرة الأندلس وبيان محاسنها ومزاياها .

من ذلك على سبيل المثال قول أبي عبيد البكري : « الأندلس شامية في طيبها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائهـــا ،

---

(١) معجم البلدان لياقوت : ج ٤ ص ١٩٥ .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ١٢٨ – ١٢٩ .



خريطة الأندلس
في العصر الإسلامي
الأرض الكبيرة
جبال البرتات
ألبا
ارغونة
جبال كنتبرية
جليقية
ليون
اشتورقة
قشتالة
سرقسطة
برشلونة
بلد الوليد
جبال الشارات
مجريط
وادي الحجارة
قونكة
طليطلة
طلبيرة
شرق الأندلس
بلنسية
قلعة رباح
البسيط
قاصرش
بطليوس
ماردة
مرسية
جبال قرطبة
قرطبة
شقورة
بسطة
قرطاجنة
وادي آش
جيان
بياسة
إشبيلية
قرمونة
جبال الثلج
المرية
مالقة
الغرب
مارتلة
شلب
شريش
قادس
بحر الظلمات
(الاوقيانوس)
بحر الروم
ميورقة
منورقة
يابسة
المغرب الاقصى

أهوازية في عِظَم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عَدَنية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة .... » .

ومنها قول الشيخ أحمد بن محمد الرازي : « بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع الى المغرب ، وهو عند الحكماء بلد كريمُ البقعة ، طيبُ التربة ، خِصبُ الجناب ، مُنْبجسُ الأنهار الغزار والعيون العِذاب ، قليلُ الهوام ذواتِ السموم معتدلُ الهواء والجو والنسيم ، ربيعُه وخريفه ، ومَشْتاه ومَصيفه على قدرٍ من الاعتدال ، .... ، تتصل فواكهه أكثرَ الأزمنة ، وتدوم متلاحقة غير مفقودة...

وللأندلس المدن الحصينة ، والمعاقل المنيعة ، والقلاع الحريزة ، والمصانع الجليلة ، ولها البر والبحر ، والسهل والوعر ... »

ومنها كذلك قول الوزير لسان الدين بن الخطيب في بعض كلام له أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية : « خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرَّيْع وغَدَق السُّقْيا [1] ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان [2] ، ودُرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتَبحر العُمْران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، ، وكثرة السلاح وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونُبْل الأذهان ، وفنون الصنائع وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك [3] ، وإحكام التمدُّن والاعتمار [4] ، بما حُرِمَهُ الكثيرُ من الأقطار مما سواها [5] » .

ووصفها بعض المؤرخين بقوله : « طول الأندلس ثلاثون يوما ، وعرضها تسعة أيام ، ويشقها أربعون نهرا كبارا ، وبها من العيون والحمامات والمعادن

---

(١) الريع : النماء والخصب ، والغدق : الماء الكثير .
(٢) فراهة الحيوان : نشاطه وخفته .
(٣) نفوذ الإدراك : حدة الفهم وسرعة معرفته للمدركات .
(٤) الاعتمار : أراد به التعمير .
(٥) نفح الطيب : ج ١ ص ١٢٤ – ١٢٨ .

ما لا يُحصَى . وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار . وأزيدُ من ثلاثمائةٍ من المتوسطة .

وفيها من الحصون والبروج والقرى ما لا يحصى كثرةً . حتى قيل : إن عدد القرى التي على نهر إشبيليَة اثنا عشرَ ألفَ قرية ، وليس في معمور الأرض صُقْع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه الا بالأندلس .

ومن بَركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين [1] دون ماء أصلا . وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والصحاري والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت [2] ، وغير ذلك من ضروب الأطعمة [3] » .

وما من شك في أن كل هذه المحاسن التي حبَت الطبيعةُ بها هذه البقعةَ من الارض ، كان لها الأثر القوي في عقول أبنائها وأخلاقهم ، وأمزجتهم وصفاء أخيلتهم . كما سنرى بعدُ في أدبهم ، ولا سيما شعرهم الحافل بوصف طبيعة الأندلس الجميلة ، من مثل قول ابن خفَاجة :

إنَّ للجنـــة بالأنــــدلسِ مُجتلَى حُسْنٍ وريًّا نَفَسِ
فسَنَا صُبْحتِهـــا من شَنَبِ ودُجَى ليلتها من لَعَسِ
وإذا ما هبّتِ الريـــحُ صَبـــاً صِحتُ واشوقي الى الأندلس!

(١) الفرسخ : فارسي معرب ، وهو ثلاثة أميال أو ستة .
(٢) الحوت : السمك ، وقيل : هو ما عظم منه .
(٣) نفح الطيب للمقري : ج ١ ص ٢١٠ .

فَتح المغْرِب

من وصايا أبي بكر الصديق المأثورة وصيتُه لأسامةَ بنِ زيد وجيشه ، عندما خرجوا الى الشام لملاقاة الروم الذين سخِروا من دعوة الرسول ، واعتدوا على رسله ، وقتلوا أصحابه .

في هذه الوصية يقول أبو بكر لأسامة ومن خرجوا معه من المسلمين : « لا تخونوا ، ولا تَغدروا ، ولا تُمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقعروا [1] نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع [2] . فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له . وسوف تُقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام . فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقَوْن أقواما قد فَحصوا [3] أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم [4] بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله [5] » .

(١) قعر النخلة : قطعها أو اقتلعها من أصلها .

(٢) جمع صومعة : وهي دير الراهب ومعبده .

(٣) أي حلقوا أوساط رؤوسهم ، وهذه كناية عن أن الشيطان قد فرخ في رؤوسهم ، وعشش في قلوبهم . وفي الحديث أن الرسول أوصى أمراء جيش مؤتة بقوله : « وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف » . أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص ، كما تستوطن القطا مفاحصها ، أي مجاثمها وأماكنها .

(٤) من خفقه بالسيف أو السوط يخفقه خفقا : ضربه به ضربا خفيفا .

(٥) تاريخ الكامل لابن الأثير : ج ٢ ص ٢٢٧ .

في هذه الوصية كما نرى شرّع خليفة رسول الله للمسلمين آداب القتال ، فنهاهم عن الخيانة والغدر والمُثْلة [1] ، وأوصاهم بالضعفاء خيرا ، وحثهم على أن يؤمّنوا الناس على أرواحهم وأموالهم ، ولا يتعرضوا لشعائرهم الدينية ، عملا بكتاب الله والسنة .

وقد رأينا ونحن في مستهل الحديث عن الفتح الإسلامي للأندلس أن نبرز هذه الحقيقة ، ردا على مزاعم الحاقدين على الإسلام ، ممن يرمونه زورا وبهتانا بأنه دينُ الوحشية والسيفِ وعدمِ احترام الإنسانية .

والحق أن العرب بعد الإسلام لم يخرجوا بجيوشهم من الجزيرة العربية من أجل دنيا يُصيبونها، أو لاستعباد الأمم وإذلال الانسان كما يزعم الزاعمون، وإنما خرجوا للدين لا للدنيا .

خرجوا بعد أن خلقهم الإسلام خلقا آخر جديدا ، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ويدعون الناس كافة الى توحيد الله ، والإيمان برسالته ، رسالة الإسلام الخالدة . ذلك هو الحق الذي لامراء فيه .

ولما كان الانسان بإيمانه يخوض اللظى فيحرق اللظى ، فإن العرب الذين خرجوا من جزيرتهم للجهاد بقلوب عامرة بالإيمان ، استطاعوا على مدى ثلاثة قرون تقريبا ، أن ينشروا الإسلام في بقاع شتى من الأرض ، من الصين شرقا الى المحيط الأطلسي غربا ، وأن يؤسسوا أكبر دولة عرفها التاريخ !

* * *

وكان فتح المغرب مقدمة لفتح بلاد الأندلس لأنه المجاز الطبيعي اليها . وقد استغرق فتحه ونشر الإسلام فيه حوالي سبعين سنة ، بدأت ببعث استطلاعي قام به عُقبة بن نافع الفهري في ذي القعدة سنة ٢١ هـ / سبتمبر ٦٤٢م ، وانتهت بحملة موسى بن نُصَير التي أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م .

(١) التنكيل بالقتلى وتشويه أجسامهم .

وقد لقي العرب في هذا الفتح من الجهد والخسائر ما لم يلقوا مثله في فتح آخر، ولكن النتيجة التي وصلوا اليها كانت رائعة حقا ، فقد عُرِّبَ المغربُ الى حد كبير ، وتحول الى الإسلام تحولا عميقا .

ولا ريب أن هذا الفتح العربيَّ الذي تمّ خلال القرن الأول الهجري والسابع الميلادي ، قد أحدث ثورة كبرى ، تمثلت في انهيار الحاجز المغلق الذي كان يفصل الشرق عن الغرب ، وفي امتداد رِواق الإسلام على مسافات شاسعة من الأرض ، تمتد من حدود مصر غربا الى المحيط الأطلسيّ ، ثم فتحِ الطريق أمام المسلمين الى الأندلس .

والثابت أن العرب لم يتصوروا اتساعَ المغرب الشاسع واختلافَ شعوبه، حينما أقبلوا على فتحه ، وأنهم فتحوه جزءا جزءا : كل إقليم يؤدي بهم الى الذي يليه حتّى وصلوا الى النهاية .[1]

وقد اضطلع بهذا الفتح نخبة من رجالات العرب وقوادهم المشهود لهم بالمقدرة ، من أمثال عمرو بن العاص ، وعقبة بن نافع الفهري وبنوه عياض وعثمان وأبو عبدة ، وأبو المهاجر دينار ، وزهير بن قيس ، وحسان بن النعمان وموسى بن نصير ، وبنوه عبد الله وعبد العزيز ومروان .

وأربعة من هؤلاء كان لهم أثر بارز في فتح المغرب ، هم عمرو بن العاص وعقبة بن نافع ، وحسان بن النعمان ، وموسى بن نصير .

أما عمرو فلم يكد يفرغ من فتح مصر حتّى خرج بجيشه الى برقة وفتحها وهناك استطاع أن يستميل قبيلة لَواتة الى جانب المسلمين ،وقد دخل بعضُها في الإسلام ، وكان هذا أولَ كسب للإسلام فيما يلي حدود مصر الغربية .

أما عُقبة بن نافع الفهريّ فكان إذ ذاك قائدا صغيرا في جيش عمرو بن

---

(١) فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس : ص ٣٤ – ٣٥ .

العاص ، وقد استفاد عمرو بجهوده أثناء فتح برقة ، فبعثه الى زَويلة وفزان ووَدّان .

وفي هذه النواحي الصحراوية المنعزلة أقام عُقبة نحو عشرين سنة يدعو فيها للإسلام ، ويضرب لأهلها خير مَثل للمسلم المتفاني في دينه . وهكذا استطاع بحسن سياسته في هذه المناطق ، وطول مُقامه فيها أن يكسب الى جانبه قلوب الكثيرين من أبنائها : فمن أسلم منهم انضمّ الى جيوش المسلمين وكان له أثره في نجاح فتوحهم وتقدمها ، ومَن لم يسلم صار صديقا للمسلمين يواليهم بالعون ، ويؤيدهم على الروم والبربر المستقرين والمتحضرين بالحضارة الرومانية .

ولما كان عُقبة أقدمَ المسلمين عهدا بإفريقية وأعرفَهم بأحوالها ، وكان في نفسه رجلا شديد الإيمان ، تميل نفسه نحو نشر الدين لا الى مجرد الفتوح والانتصارات ، فقد ولاّه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوح في المغرب سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م . ولم تكد تؤول اليه ولاية إفريقية ، حتى بادر فأنشأ جنوبيَ قرطاجنّة مدينةَ « القيروان » والمسجدَ الجامع بها ، وقضى في عملية الإنشاء هذه نحو أربع سنوات ، ابتداء من سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م . ويبدو أنه لم يرد إنشاء مدينة بالمعنى المعروف وإنما معسكرا ، فقد قال : « وأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرا ، وتكون عزا للاسلام الى آخر الدهر [١] » .

ولم تكد مدينة « القيروان » تقوم حتى بدأت « ولاية إفريقية » الإسلامية تظهر ، ولم يعد العرب مجرد غُزاة يخرجون من مصر للغزو ثم يعودون إليها ، بل أصبحت العاصمةُ الجديدة مركزا تخرج منه الغزوات ، وتُنظّم منه شئون البلاد .

واشتغل عُقبة أثناء بناء المدينة بإرسال السرايا [٢] في كل وجه ، وكان

---

(١) فجر الأندلس : ص ٣٩ .

(٢) جمع سرية : وهي القطعة من الجيش نحو أربعمائة .

من نتائج ذلك أن القبائل البربرية المقيمة في سهل تونس وفي الهضاب المجاورة بدأت تشعر بقوة المسلمين ، واجتذبتهم المدينة الجديدة ، وأثرت فيهم شخصية عُقبة القوية ، فأخذوا يقتربون من المسلمين وأسلم منها كثيرون ، وبهذا نشأت في سهل تونس جماعات إسلامية بربرية ، وزادها أهمية أن هؤلاء البربر الذين أسلموا أخذوا ينتظمون في جيوش المسلمين ويسيرون معهم لإتمام فتح البلاد .

وبينما يتأهب عُقبة لفتح إفريقية على نطاق واسع فاجأه معاوية بن أبي سفيان بالعزل سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م ، نتيجة لسعايات والي مصر مسلمة بن مُخلّد الذي كان يغار من عقبة ويحسده [١]

واستمر عُقبة مبعدا عن ولاية إفريقية حتى رده اليها يزيد بن معاوية حينما وَلِي الخلافة سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م . وهنا نرى عُقبة يُعدّ نفسه وجيوشه مُدّة سنتين ، ثم يخرج في غزوته الكبرى التي أتمّ بها فتح المغرب كله الى المحيط الأطلسيّ ، وهناك وقف على شاطئه ورفع يديه الى السماء داعيا : « اللهم اشهدْ أني بذلت المجهود . ولولا هذا البحر لَمضيتُ في البلاد أقاتل مَن كفرَ بك حتى لا يُعبَد أحد مِن دونك » . وكان هذا هو الفتحَ الأول للمغرب .

ولكن حدث أن لقي عقبةُ مصرعه أثناء عودته عند تهودة على يد البربر وبعض أحلافهم من الروم سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ في خلافة مروان بن الحكم ،وكان من نتائج ذلك ان احتل البربر وحلفاؤهم الروم مدينة القيروان ، وأن تراجع مَن بقيَ من المسلمين الى برقة ، وبهذا خرجت إفريقية من أيدي المسلمين .

* * *

هذا عن عُقبة بن نافع . أما القائد العربي الثالث الذي كان له شأن ملحوظ

---

(١) فجر الأندلس : ص ٣٩ — ٤٠ .

في فتوح المغرب فهو حسان بن النعمان ، الذي قاد جيوش الإسلام المظفرة في هذا الدور الخطير من أدوار الفتح في إفريقية .

لقد اضطربت أحوال المغرب بعد استشهاد عُقبة ، وانحسر المدّ الإسلامي حتى عاد الى برقة التي فتحها عمرو بن العاص منذ أكثر من ثلاثين سنة . وظل الأمر كذلك حتى وَلِي الخلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥ م ، فأدرك هذا الخليفة بفطنته أن إفريقية لن تفتح فتحا كاملاً ثابتا إلاّ إذا سار إليها جيش كبير حسَنُ الاستعداد . وقد واتته الظروف بعد القضاء على ثورة ابن الزبير ، فوضع تحت تصرف حسانِ بن النعمان جيشا كبيرا حسَنَ العُدّة يبلغ عددُ جنوده أربعين ألفا . وبهذا الجيش القويّ سار حسان للقضاء على مقاومة البربر والروم الذين كان قد استفحل أمرهم في إفريقية .

وكان أولُ ما فعله أن توجه بكامل قوته وعُدته الى قرطاجنة ، وهناك حارب مَن فيها من الروم أعداء العرب ، حتى هزمهم في معركة طويلة مريرة ، أما مَن نَجوْا منهم فقد لاذوا بالهرَب والفِرار ، وتركوا البلاد جملة على مراكبهم : منهم مَن توجهوا الى صقلية ، ومنهم من توجهوا الى الأندلس . ولم يقف حسان عند دخول قرطاجنة ، وإنما مضى بعد ذلك يهاجم الروم في كل ما عسى أن يعرفه من مراكزهم الباقية . وبهذا قضى على مقاومة الروم التي ظلت مصدر قلق للمسلمين نحو ثلاثين سنة .

وما أن فرغ من محاربة الروم حتى توجه بكل قواه نحو مركز المقاومة الآخر ، وهم البربر ، وكانوا قد تجمعوا حول امرأة لقّبها البربر « بالكاهنة » وكانت على جانب من القدرة والمهارة .

وعندما شجرت الحرب بين الفريقين كانت الغلبة للكاهنة ومَن معها من البربر على العرب ، وقد تتبعت العربَ في تقهقرهم حتى أخرجتهم من إفريقية جملة . وبهذا خرجت هذه البلاد عن يد العرب مرة أخرى بعدما تكبدوه من جهد وتضحية ، وأرادت الكاهنة أن تقطع أمل العرب من هذه

البلاد ، فأمرت رجالها فخرّبوا ما استطاعوا تخريبه من مظاهر العمران . وكان من شأن هذا التصرف من « الكاهنة » أن أثار البربر عليها ، وجعلهم ينظرون الى العرب على أنهم خير منها ، لأنهم لا يخرّبون ما يدخلونه من البلاد . ورأى الروم ما حلّ بالعرب فعادوا في سفنهم ، ودخلوا قرطاجنة ، وطردوا مَن كان بها من المسلمين .

أما حسان فارتد الى برقة ، وأقام بها خمس سنين ، حتى أرسل له عبد الملك بن مروان المدد ، فتحرك الى إفريقية من جديد سنة ٨١ هـ / ٧٠١ م . ولم يكد يصل الى سهول تونس حتى انضم اليه جمع عظيم من البربر والأفارقة وعندما عرفت « الكاهنة » تقدمه نحوها لملاقاتها ، أخذت تتراجع متوغلة في جبال أوراس ، وبعثت ولديها ليستأمنا حساناً فأمّنهما ، وولّى كلاّ منهما على ستة آلاف ممن استأمنَ مِن البربر والأفارقة . ومع ذلك لقيت العرب ، لكن الهزيمة حلت بها في هذه المرة عند مكان يُدعَى « بئر الكاهنة » .

وبهزيمة « الكاهنة » قضَى العربُ على آخر حركة قام بها أهالي البـلاد لردّهم عنها .

ومع أن حسانا سار بعد ذلك نحو قرطاجنة وطرد الحامية التي كانت قد عادت اليها واستقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا ، فإنه لم يطمئن من ناحية الروم ، ورأى انسقوط قرطاجنة في يده لا يمنع الروم من العودة الى مكان آخر من الشاطىء الإفريقيّ ، ولهذا فكر في إنشاء ميناء إسلامي جديد قرب قرطاجنة ليشرف منه على البحر ، ويحولَ بين الروم وبين الاقتراب ، ومن ثم أنشأ مدينة « تونس » التي لم تزد في عهده على مخفر صغير به بعض المساجد والمباني . وقد أتم إنشاءها بعد ذلك بثلاثين سنة عبدُ الله بن الحَبحاب ، وأصبحت ثغر إفريقية الكبير ، وتكوَّن فيها أسطول عظيم غزا المسلمون به جزيرة صقلية ، وجنوبيّ إيطاليا ، بل جنوبيّ فرنسا ، ومهدوا به السبيل للسيطرة على غرب البحر المتوسط

ولم يقف نشاط حسان عند هذا الحد ، فلم يكد يفرغ من فتح المغرب ،

حتى بادر الى تنظيم أمور الولاية الجديدة ، فدوّن الدواوين ، وصالح على الخراج ، وكتبه على أهل إفريقية ، وعلى مَن قام بينهم على دين النصارى وقسّم البلاد خِططا ، لكل قبيلة خِطة ، وفرض على القبائل أن يقدموا للمسلمين عددا من الجنود يحاربون معهم ، وأقبل البربر على الإسلام في حماس فعمَرت بهم جيوش المسلمين في المغرب منذ ذلك الحين ، وسوّى بين العرب والبربر في الفيء ، وأقام العمال على نواحي الإدارة من خراج وزكاة وجند ، وأرسل الخليفةُ في عهده قاضيا للقيروان أسوة بغيرها من العواصم الإسلامية الكبرى . وبهذا تم فتح المغرب وتنظيمه .

ويرجع الفضل الأول في كل هذه الفتوح والإصلاحات العمرانية الى حسان بن النعمان ؛ فقد دخل إفريقية سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥ م فوجدها مضطربة ثائرة ، ووجد الإسلام فيها من ناحية يناهضه خصومه ، ومن ناحية أخرى لم يترسّخ ويعمقْ بعدُ في نفوس معتنقيه من الأفارقة ، ثم غادر البلاد سنة ٨٦ هـ / ٧٠٦ م ، وهي ولاية إسلامية هادئة منظمة ، وأهلها مقبلون على الإسلام وليس أدلّ على ذلك من أن معظم الجيش الإسلامي في إفريقية كان من البربر

ولعلنا نرى من كل ما تقدم مقدار ما بذل هذا القائد العربي المحنك في سبيل فتح المغرب وإصلاح أحواله ونشر الإسلام فيه . ولو قُدِّر لولايته أن تطول وتمتد لجني المغرب على يديه خيرا كثيرا ، ولكن خلافا نجم بينه وبين عامل مصر عبد العزيز بن مروان ، وبسبب ذلك اعتزل هذا الرجلُ القدير العملَ سنة ٨٦ هـ / ٧٠٦ م ، والمغرب في أشد الحاجة اليه .

* * *

أما الشخصية الرابعة والأخيرة والتي كان لها دور كبير في فتح المغرب والأندلس فهي شخصية موسى بن نُصَير مولى عبد العزيز بن مروان عامل مصر . وقد ولاّه الوليد بن عبد الملك على إفريقية وما خَلْفَها سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م فخرج موسى في نفر قليل من المتطوعين للجهاد ، فلما ورد مصر

أخرج معه من جندها بَعْثاً ، وفعل ذلك في إفريقية ، وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ، ويفضُّ جموعهم ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، حتى بلغ مدينة طنجة ، وهي قصبة ملك البربر وأمّ مدائنهم ، فحصرها حتى افتتحها ، وأسلم أهلها ، ولم تكن فُتحت قبله ، وقيل فُتحت ثم استُغلقت [1]

ثم سار موسى بجيشه بعد ذلك الى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس قد غَلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأسُ تلك المدائن « سبتة » ، وعليها عِلْج [2] يُسمّى « يُليان » ، قاتله موسى فألفاه في نجدة وقوة وعُدّة فلم يُطقه . فرجع الى مدينة طنجة فأقام بمن معه ، ثم أخذ في الغارات على من حولهم والتضييق عليهم ، والسفنُ تختلف اليهم بالمِيرة [3] والأمدادِ من الأندلس من قِبَل ملكها « غَيْطَشة » القوطيّ الى أن هلك وتولى مُلك الأندلس من بعده واحد من كبار قواد القوط وفرسانهم يقال له « لُذَريق » [4]

وهكذا تمكن موسى بن نُصير من فتح بلاد المغرب كلها ، للمرة الثانية ولم يقف في طريقه غيرُ قلاع « سبتة » الحصينة على مجاز الزقاق ، الذي عُرف فيما بعد بمضيق جبل طارق .

وقد عاد موسى الى القيروان مقرّ ولايته ، بعد أن قلّد طارقا ولاية طنجة ، وعهد اليه بالعمل على نشر الإسلام فيما جاورها من قبائل البربر .

هذا ما كان من أمره في فتح المغرب . أما ما كان من أمر طارق بعد

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢) العلج : هو في الأصل الحمار الوحشي إذا كان سمينا ، ثم قالوا لكل قوي ضخم علج ، ثم أطلقوه على الرجل من كفار العجم .

(٣) الميرة : الطعام .

(٤) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٣٤ .

رحيل مولاه موسى الى القيروان ، فقد عسكر بمن معه من جند المسلمين عند طنجة المطلة على المحيط الأطلسيّ ، وهناك أخذت أنظارهم ترنو مرة الى « سبتة » ومرة الى « إسبانيا » في الشاطىء الآخر [٤] .

---

(١) رجعنا في فتح المغرب والأندلس الى مراجع شتى ، من أهمها : كتاب فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، وكتاب تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ، وكتاب النبوغ المغربي للأستاذ عبدالله كنون الحسني ، وكتاب نفح الطيب للمقري .

الفَصْــل الثـالث

فَــتح الأَنْـدلس

إن الدارس لتاريخ شبه جزيرة إيبيريا ، منذ أواخر القرن الرابع الميلادي حتى أوائل القرن الثامن ، يرى أنها ظلت طَوال هذه الحِقبة من الزمن ، مسرحَ صراع وقتال بين طائفتين من القوط : القوط الغربيين الزاحفين من وسط أوربا وغربها على شبه الجزيرة ، والقوط الشرقيين المستقرين فيها ، هم ومن معهم من قبائل السويف والوندال المتبربرة .

وقد خرج القوط الغربيون من هذا الصراع في النهاية منتصرين ، وبهذا بسطوا سلطانهم على شبه الجزيرة كله ، ووحدوه تحت سلطانهم ، واتخذوا من « طليطلة » عاصمة لهم .

وهكذا بدأت « إسبانيا » تظهر كوحدة سياسية وجنسية واحدة للمرة الأولى في التاريخ . وذلك أمر له خطره ؛ لأن الإغريق حين أتوا اليها لم يعرفوا منها الا الغرب وبعض الجنوب ؛ ولأن الرومان إبَّان تبعيتها لهم ، كانوا يقسمونها ولايات مختلفة ، لا علاقة بين بعضها وبعض [1] .

وكان المأمول بعد أن صـــار حكم البلاد إليهم ، أن تنهض هذه البلاد وترقى في عهدهم ، ولكنْ حدث أن تضافرت على حكمهم عدة أسباب أدَّتْ

---

(١) فجر الأندلس : ص ٦ .

به إلى الضعف تدريجيا ، ثم الزوال .

وتتمثل هذه الأسباب في تقسيم البلاد بين الأشراف ورجال الدين ، ونزوع الفريقين الى الترف ، وسوء استغلال الطبقة العاملة والطبقة الوسطى ، وإثقال كاهل عامة الشعب بالضرائب ، واضطهاد رجال الدين لكل يهودي في البلاد امتنع عن اعتناق ا سيحية .

وسبب آخر من صُنع أيديهم ، هو أنه حينما تقادم العهد بهم في البلاد ، وتمتعوا بخيراتها الوفيرة ، مالت بهم نفوسهم الى الدعة ، ومن ثَمّ وكلوا أمور الحرب الى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على الأحرار في الجيش . وكانت كثرة العبيد في الجيش من أسباب ضعفه ، لأنهم كانوا ناقمين على الدولة ، يتحيّنون الفرصة للتخلي عنها وتركها لمصيرها [1] .

هذا إلى ما أصاب إسبانيا من بؤس وشقاء في أواخر حكمهم ، فقد حدث في أوائل القرن الثامن الميلادي ، أن تفشّى الوباء في البلاد ثلاث سنوات متتابعة حتى قضى على أكثرَ من نصف سكانها .

تلك هي حال إسبانيا قبيل الفتح العربيّ ، وفي الوقت الذي كان فيه أهل شماليّ إفريقية يتمتعون بحكم العرب ، وينعمون بعدْلهم . فلا عجب إذاً ما تمنّى الأسبان زوال الحكم القوطيّ والخلاصَ من نِيره ، غيرَ آبهين بتغلب حاكم على حاكم .

* * *

وبعد ، فقد عرضنا في الفصل السابق فتحَ العرب للمغرب . ولئن كان هذا الفتح يُعَد في حدّ ذاته غايةً قُصِد من ورائها نشرُ الإسلام في رُبوع إفريقية ، فإنه من ناحية أخرى قد مهّد السبيل أمام العرب لفتح الأندلس .

---

(١) فجر الأندلس : ص ٢٧ — ٢٨ .

هذا موسى بن نصير أميرُ المغرب وعاملُ الوليد بن عبد الملك على إفريقية يصل بفتوحه في المغرب الى طنجة على المحيط الأطلسيّ ، في أواخر القرن الأول الهجريّ وأوائل القرن الثامن الميلاديّ .

وها هوذا يعود بعد ذلك الى مقر ولايته بالقيروان ، مُخلِّفا وراءه مولاه طارق بنَ زياد والياً بطنجة من قِبَله . ثم ها هوذا طارق ومَن معه من جند العرب والبربر على الساحل المغربيّ عند طنجة وما حولها ، وقد أخذت أعداد جنده تزداد مع الزمن .

ولمّا لم يكن ليرضى هذا القائد الشجاع أن يظل قابعا في مكانه لا يفعل شيئا ، وهو المسلم العميق الإيمان ، فقد بدأت أنظاره تتطلع فيما حوله الى ميدان جديد يشغل فيه هذه القوى العظيمة التي تحت يده ، جهادا في سبيل الله .

وكان فيما حوله إذ ذاك ميدانان ، كلاهما يلفت نظره هو ومن معه من الجند ، ويغريهم بالتقدم لفتحه ونشر الإسلام فيه : إسبانيا وما هي عليه من ضعف واضطراب وسوء حال ، وحصونُ « سبتة » تلك التي حاول المسلمون فتحها مرتين : الأولى بقيادة عُقبة بن نافع ، والثانية بقيادة موسى بن نصير ، ثم كان يصدهم عنها صاحبها « يوليان » النصرانيّ ، مُتقوِّياً بمن كان يجاوره مِن البربر ، ثم بصلات المودة والولاء التي كانت تربطه « بغَيْطشة » ملكِ إسبانيا في ذلك الحين .

وقد اختار طارق لزحفه الأولِ ميدان « سبتة » واتجه اليها بجيشه وحاول الاستيلاء عليها ، وإذا كان لم يستطع فتحها ، فإنه خرج من هذه المحاولة مكتفيا بمودة صاحبها ، وفي ذلك يقال : إن طارقاً راسل يوليانَ ولاطفه حتى تهاديا . ولعل طارقا أراد بذلك أن يستعين به على إخضاع مَن تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون [1] .

---

(١) فجر الأندلس ، ص ٥٥ .

وحدث في هذه الأثناء أن تُوفي « غَيْطشةُ » صديق « يوليان » وتولّى مُلك إسبانيا من بعده « رودريك » أو « لُذَريق » كما يسميه العرب . ولكن « يوليان » ، ولأسباب تضاربت أقوال المؤرخين فيها ، لم يكن على مودة مع ملك إسبانيا الجديد ، ولهذا راح يحقد عليه ، ويتآمر ضده ، ويعمل في الخفاء للقضاء عليه وعلى مُلكه .

ولما لم يكن قادرا بنفسه على محاربة عدوه لُذَريق ، فقد خطر له أن يستعين في القضاء على ملكه بجيوش البربر والعرب في شمال إفريقية . ولم يكد يقنع نفسه بهذه الفكرة ، حتى مضى لِيَتَوَّه إلى موسى بن نصير في القيروان ، وأخبره بأن الحرب بينهما قد انتهت ، « وكلمه في غزو الأندلس ، ووصف له حُسْنها وفضلها ، وما جمعت من أشتات المنافع ، وأنواع المرافق ، وطيب المزارع ، وكثرة الثمار ، وثَرارة المياه وعذوبتها ، وهوَّن عليه مع ذلك حالَ رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغَناء ، فشوَّق موسى الى ما هناك ، وأخذ بالحزم فيما دعاه اليه« يوليان » فعاقده على الانحراف الى المسلمين ، واستظهر عليه بأن سامه [1] مكاشفة أهل مِلَّته من الأندلس المشركين ، والاستخراج إليهم بالدخول إليها ، وشن الغارة فيها . ففعل ذلك يوليان . وجمع جمعا من أهل عمله ، فدخل بهم في مركبين ، وحلّ بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبَى وغَنِم وأقام بها أياما ، ثم رجع بمن معه سالمين وشاع الخبر عند المسلمين فأنِسوا لِيُوليان واطمأنوا اليه ، وكان ذلك عقبَ سنة تسعين [2] » .

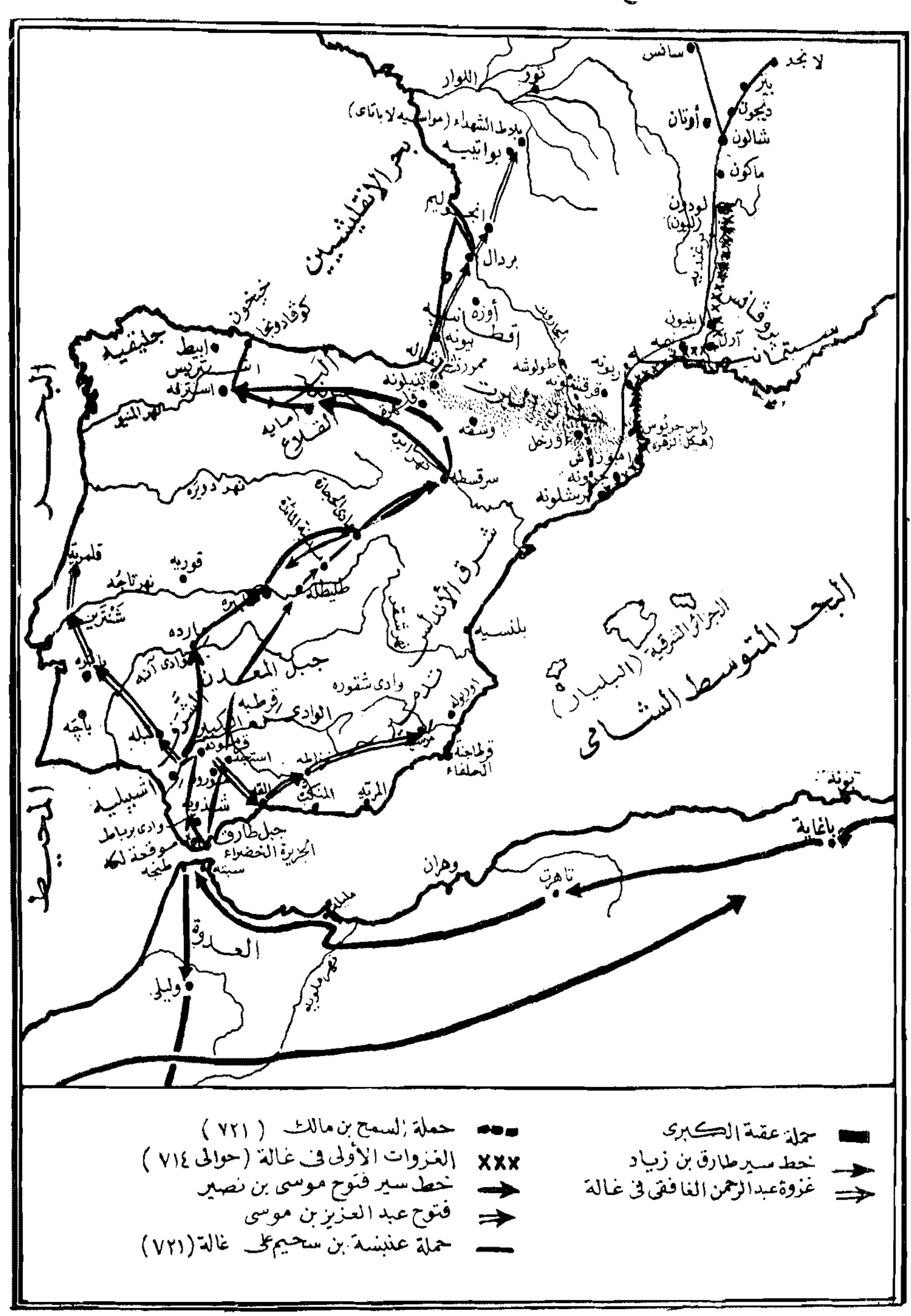
لم ير موسى بن نصير بُدّاً من الرجوع في هذا الأمر الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولذلك كتب اليه يخبره بما دعاه اليه يوليان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في فتحها . فكتب اليه الوليد : « أن خُضْها بالسرايا [3] حتى ترى

---

(١) سامه : كلفه .

(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٣) جمع سرية ، وهي القطعة أو الطائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة .


البحر المتوسط الشامى
الجزائر الشرقية (البليار)
بحر الإنقليشيين
شرق الأندلس
جبل المعدن
العدوة
سرقسطة
طليطلة
قرطبة
اشبيلية
ماردة
بلنسية
برشلونة
بردال
بواتييه
بلاط الشهداء (مواسيه لابانائ)
نهر دويره
نهر تاجُه
وادى آنه
وادى شقوره
الوادى الكبير
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طنجة
سبتة
وهران
تاهرت
باغاية
تونس
وليلى
قلمرية
شنترين
باجه
قوريه
المرية
قرطاجنة الحلفاء
أوريولة
استجة
ساليس
لا نجد
أوتان
شالون
ماكون
ليون (لودون)
أرلى
نيمه
ناربونه
قرقشونه
طولوشه
أوزة
بيونه
بنبلونه
وشقه
لريدة
أوربل
حمله عقبة الكبرى
خط سير طارق بن زياد
غزوة عبد الرحمن الغافقى فى غالة
حملة السمح بن مالك (٧٢١)
الغزوات الأولى فى غالة (حوالى ٧١٤)
خط سير فتوح موسى بن نصير
فتوح عبد العزيز بن موسى
حملة عنبسة بن سحيم على غالة (٧٢١)

وتختبر شأنها ، ولا تُغرِّرْ بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » .

فراجعه موسى بأنه ليس ببحر زخّار ، وإنما هو خليج ،منه يتبين للناظر ما خلفه . فكتب اليه الوليد ثانية : « وإن كان .... فلا بُدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه » .

عندئذ انتدب موسى واحدا من كبار رجاله هو أبو زَرعة طريف بن مالك المَعافريّ ، وبعثه في أربعمائة راجل ومائة فارس ، أقلتهم أربع سفن قدّمها لهم يوليان ، فسار بهم أبو زرعة حتّى نزلوا في جزيرة عُرفت فيما بعد « بجزيرة طريف » .

وفي الوقت ذاته خفّت قوة من اتباع يوليان وغَيْطشةَ لعونهم ، وقامت بحراسة المعبر حتّى تمّ نزول المسلمين على ساحل الأندلس الجنوبي ، وهناك قاموا بسلسلة غارات سريعة ، استطلعوا فيها أحوال البلاد ، وأصابوا من ورائها مغانم شتى ، ثم عادوا من حملتهم هذه الى إفريقية سالمين . وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٩٠ هـ / يوليه سنة ٧١٠ م .

وقد أنعشت هذه الحملة الناجحة آمال المسلمين في الأندلس ، وفي الوقت ذاته عاود يوليان القدوم على موسى بن نصير ، وخبّره بما كان منه ومن طريف وما نالوه من أهل البلاد وباشروه من طيبها ، وراح يستحثّه على اقتحامها ولهذا تشجع موسى ، وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة لفتح الأندلس .

حملة طارق بن زياد

وعندما أتم موسى إعداد الحملة التي يريد توجيهها لفتح الأندلس ، ندب للاضطلاع بهذا الأمر الخطير رجلا من خيرة رجاله وأكفئهم ، هو مولاه طارقُ بن زياد ، قائدُ جيشه وحاكم طنجة من قِبَله .

كان طارق أحد الموالي الذين شاركوا في الفتوح الإسلامية وأبلَوْا فيها

بلاء حسنا . ومن عجب أن يختلف المؤرخون في نسب واسم قائد فذ وفاتح مشهور مثله ! فمن هؤلاء المؤرخين من يرون أنه بربري الأصل ، ثم يختلفون بعد ذلك فينسبه بعضهم ، الى قبيلة زَناتة ، وبعضهم الى قبيلة نَفْزَة التي كانت تقيم فيما يطلق عليه الآن اسم تونس . ومنهم من يقول : إنه من موالي الفرس من مدينة همَذان .

ومنهم من يسميه طارق بن زياد الليثي . ومن يسميه طارق بن زياد بن عبد الله ، ومن يقول : إن اسمه طارق بن عمرو وليس طارق بن زياد (١) .

ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف ، فالذي لا شك فيه هو أنه كان مولى لموسى بن نصير ، وأن موسى وثِق به ، فقرّبه اليه ، وأمّره على بعض الجيوش وجعله في مقدمة جيشه الذي فتح به بلاد البربر ، وولاّه طنجة ، ثم ندبه لفتح الأندلس ، لِما عرفه عنه من صدق العزيمة ، وقوة الشكيمة(٢) ، وشدة البأس وصلابة العود . هذا الى ما امتاز به من بلاغة الكلام وسحر البيان والقدرة على التأثير في قلوب سامعيه ، وما تجلّى منه في وقائع الفتوح التي شهدها من الإخلاص في الجهاد . ورجلٌ هذا شأنه وتلك سريرته خير من يضطلع بهذا الأمر الجليل الخطير الذي ندبه له موسى بن نصير . وقد بعثه في سبعة آلاف من المسلمين ، جُلُّهم من البربر والموالي وليس فيهم من العرب الاّ اليسير .

وكان الاتفاق قد تمّ بين موسى ويوليان على أن يكون هذا الأخير وأصحابُه أدِلاّء للمسلمين ومُعينين لهم في أعمال الحملة ، وتعهد يوليان بأن ينقل المسلمين الى الأندلس على سفن من عنده . وكانت سفنه التي تصلح لمثل هذا العمل قليلة لا تزيد على أربع ، فلم يكن بُدّ إذن من نقل المسلمين عبر المضيق على دَفَعات (٣) ، وأن يقيم مَن يعبر منهم في خفية عن أهل الشاطىء حتى

---

(١) انظر في ذلك كتاب نفح الطيب : ج ١ ص ٢١٧ ، ٢٣٨ .
(٢) الشكيمة هنا : تعني قوة القلب والنفس .
(٣) جمع دفعة : وهي انتهاء جماعة القوم إلى موضع بمرة .

يتم عبور الجيش كلّه ، وكان نزول المسلمين وتجمّعُهم عند صخرة الأسد التي أسمَوْها أولاً جبل الفتح ، ثم أطلقوا عليها بعد ذلك اسم « جبل طارق »

وفي شعبان سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م تمّ عبور الجيش كلّه ، وكان طارق في آخر فوج من أفواج العبور [١] . وعلى الفور بادر بتحصين الموضع الذي نزل به جنده ، ليتخذوا منه حصنا يحتمون به إذا حدث ما لم يكن في الحُسبان .

ثم بدأ طارق وجيشه في الزحف على بلاد الأندلس ، ففتحوا الجزيرة الخضراء ميناءَ الأندلس . وملكوا المجاز اليها ، واستولوا على أعمالها الى البحيرة .

في ذلك الوقت كان لُذَريق ملكُ الأندلس منشغلا بإخماد ثورة في شماليّ البلاد ، فلما بلغه خبر اقتحام العرب ساحلَ الأندلس ، وتوالي غاراتهم على الجزيرة الخضراء ، وأن يوليان السببُ في ذلك هاله الأمر ، وأدرك ما يُحدق ببلاده من خطر ، ولهذا بادر بالعودة الى الجنوب ، وجمع في طريقه جيشاً جرّاراً قيل : إنه بلغ سبعين الفا ، وقيل : مائة ألف .

ولكن هذا الجيش الكثيف الجرار ، لم يثن عزيمة طارق ، أو يضعف من إيمانه ، بل استمر في زحفه يفتتح القلاع والمدن . وفي الوقت ذاته كتب طارق الى موسى يُنبئه بما حققه المسلمون من فتح ، ويستمده العون لملاقاة لذريق الذي بدأ يزحف نحوه بما لا قِبَل له به ، الاّ أن يشاء الله .

وكان موسى منذ أن وجّه طارقا الى الأندلس ، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدد كثير ، ولهذا سارع فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مَدَدا ، كملت بهم عِدّةُ مَن معه اثني عشر ألفا أقوياء حِراصا على اللقاء . ومعهم يوليان المستأمن [٢] اليهم في رجاله وأهل عمله ،

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٣٨ .

(٢) المستأمن : الذي أعطاه المسلمون أمانا على نفسه وماله وأهله ورجاله . وأمن هو الى ذلك .

يَدُلُّهم على العورات ، ويتجسَّس الأخبار .

ورأى طارق مظاهر الخوف والتردد تبدو على وجوه بعض أصحابه ، حين علموا بزحف لُذريق اليهم في جيش يفوقهم عددا وعُدَّة . ولكي يُزيل من النفوس كل مشاعر الخوف والتردد ، هبَّ من فوره وألقى على جنده خطبته الخالدة ، تلك التي حثَّهم فيها على الجهاد والصبر ، ومَنَّاهُم فيها الأماني الطيبة ، وبشَّرهم بما سيفتحون من بلاد ، ويصيبون من غنائم ، وينعمون به في دنياهم وآخرتهم .

ونحن نورد هنا نص هذه الخطبة البليغة حقا ؛ لأنها من ناحية تمثل أسمى ما وصلت اليه الخطابة العربية شكلاً ومضمونا قبيل نهاية القرن الأول الهجري ، ولأنها من ناحية أخرى تُعد نموذجاً رائعا لخطب قواد الفتوحات ، تلك التي كانوا يلقونها على جنودهم قبل الزحف والقتال ، حتى يقبلوا على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، بإيمان ثابت ، وعزائم قوية ، ونفوس راضية مطمئنة .

خطبة طارق :

قال : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم . والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدقُ والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مأدُبَة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأقواتُه موفورة وأنتم لا وَزَرَ [1] لكم الا سيوفُكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم !

وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمرا ، ذهبت

(١) الوزر : الملجأ تلجأ اليه .

ريحكم ، وتعوَّضت القلوبُ من رُعبها منكم الجرأةَ عليكم . فادفعوا عـن أنفسكم خِـذلانَ هذه العاقبةِ من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقتْ به اليكم مدينتـهُ الحصينة .

وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لـم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة . ولا حمَلتكم على خُطة أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ الاّ وأنا أبدأ بنفسي . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا . استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفَى من حظي .

وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُور الحِسان من بنات اليونان الرافلاتِ في الدّر والمَرجان ، والحلل المنسوجة بالعِقيان [1] ، والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُزْباناً [2] ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا [3] ... ليكون حظه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليٌّ إنجادكم على ما يكون لكم ذِكْرا في الدارين .

واعلموا أني أول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمرَه ، ولم يُعوزْكم بطلٌ عاقل تسنـدون أموركم اليه ، وإن هلكت قبل وصولي اليه فاخلُفوني في عزيمتي هذه ،

---

(١) العقيان : الذهب .

(٢) عزبانا : جمع عزب ، ومعناه الذي لا زوج له ، وذلك يناسب قوله بعد ذلك : « أصهارا وأختانا » .

(٣) جمع ختن ، وهو أبو امرأة الرجل ، وأخو امرأته وكل من كان من قبل امرأته . وللتفرقة يقال : الأحماء من قبل الزوج ، والأختان من قبل المرأة ، والصهر يجمعهما .

واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخذَلون [1] » .

وما من شك في أن هذه الخطبة هي . كما يقول الأستاذ أحمد ضيف . أول ريح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب ، وأول كلام بليغ عبر عبيره هناك ، بل أول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغتها في الأسلوب وحده ، بل في الشجاعة التي هي من طبع العربي . وهي من نوع الكلام الذي يوحى به حب الجهاد ، وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب في القتال ما لا يكون الا من قلب حديد وقائد مجرب .

فلما فرغ طارق من استثارة حماس أصحابه وتحريضهم على الصبر في قتال لُذريق وما وعدهم من الخير الجزيل ، انبسطت نفوسهم وقالوا له : قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه ، فاحضُرْ اليه فإنا معك وبين يديك .

ويصف لنا المقّريّ [2] المعركة التي دارت بين الفريقين وتم فيها النصر للمسلمين بقوله : « فلما أصبح الفريقان تجمعوا وعبّئوا جيوشهم ، وحُمِل لُذريق وهو على سريره ، وقد حُمِل على رأسه رِواقُ [3] ديباجٍ يظلله ، وهو مقبل في غابة من البنود والأعلام ، وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق في أصحابه عليهم الزَّرَد [4] ، ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض ، وبأيديهم القِسِيُّ [5] العربية ، وقد تقلّدوا [6] السيوف ، واعتنقوا [7] الرماح

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .
(٢) انظر نفح الطيب للمقري : ج ١ ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .
(٣) الرواق هنا : القبة .
(٤) الزرد : الدروع .
(٥) جمع قوس .
(٦) تقلدوا السيوف : حملوها .
(٧) التزموها .

فلما نظر اليهم لُذريق داخله منهم الرعب ، ورآه طارق فقال : هذا طاغية القوم ، ثم حمَل وحَمل أصحابه معه ، فتفرقت المقاتلة من بين يدي لُذريق، فخلَص[1] اليه طارق فضربه بالسيف على رأسه ، فقتله [2] على سريره فلما رأى أصحابُه مَصرع صاحبهم ، اقتحم [3] الجيشان ، وكان النصرُ للمسلمين ، ولم تقف هزيمة العدو على موضع ، بل كانوا يُسَلِّمون بلدا بلدا ومعقلا معقلا » .

وقد عُرفت هذه المعركة في التاريخ بمعركة وادي البرباط على مقربة من مدينة « شذونة » ، وبدأ اللقاء فيها بين الجانبين يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ / التاسع عشر من يوليه سنة ٧١١ م .

ولم يكد خبر هذا الانتصار يصل الى إفريقية ، حتّى أخذت سيول البربر تتدفق على الأندلس وتستوطن النواحي المفتوحة ، ثم تتابعت جحافل المسلمين أفواجا بعد أفواج تجتاز البحر بكل وسيلة ممكنة ، وتنضم الى جيش طارق ، حتّى لقد اضطر بسبب تضخمه أن يقسمه الى فرق ، تقوم كل منها بالفتح في ناحية من النواحي .

وقد أشرنا من قبل الى أن طارقا كتب الى موسى بعد فتوحه الأولى ينبئه بما حققه من نصر ويستمده العون لملاقاة لذريق ، فأمده موسى فعلا بخمسة آلاف من المسلمين . ولكنه في الوقت ذاته كتب الى طارق يتوعده إن توغّل بغير إذنه ، ويأمره الاّ يتجاوز مكانه حتّى يلحق به [4] .

ولو عمل طارق بأمر موسى لكان الواجب الاّ يتجاوز المكان الذي فتحه

---

(١) خلص اليه : وصل اليه .
(٢) هذا قول المقري في نفح الطيب ، ويوافقه عليه مؤرخون آخرون ، ومنهم من يقول إنه غرق عندما حاول عبور البرباط ، والواقع أنه لم يقتل ولم يغرق في هذه المعركة ، كما سنرى فيما بعد .
(٣) هجم كل من الجيشين على الآخر .
(٤) نفح الطيب : ج ١ ص ٢١٨ .

حتى يأذن له مولاه ، ولكنه ، وقد وجد الأبواب قد فتحت أمامه بعد هزيمة لذريق في معركة وادي البرباط ، لم يشأ أن يدع هذه الفرصة السانحة تفلت من يده ، ولهذا استمر في فتوحاته حتى بلغ بها الى مدينة طليطلة وما وراءها .

ويذهب بعض مؤرخي العرب الى أن موسى بن نصير لم يكد يسمع بأخبار فتوحات طارق حتى دبت الغيرة الى نفسه . وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس ، ولهذا قرر أن يذهب الى الأندلس ليعاقب طارقا وليفتح بنفسه فتوحا أعظم من فتوحه .

ولكننـــا نستبعد أن يكون شعور الغيرة أو الحسد هو الذي دفع موسى للخروج الى الأندلس ، فتاريخ طارق يشهد له بالتواضع والقناعة ، وهو قد فتح كلّ ما فتح في الأندلس باسم مولاه وأميره ، والأقرب الى المعقول أن خروج موسى الى الأندلس إنما كان استجابة لنجدة طارق . نقول ذلك ؛ لأن ابن قتيبة يحدثنا بقوله : « وكتب طارق الى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث ! » [1] .

* * *

وكان عبور موسى الى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ — يونيه ٧١٢ م وقد استصحب معه ثمانية عشر ألفا من خيرة جنده ، جُلُّهم من العرب ، وفيهم عدد عظيم من القيسية واليمنية ومعهم أتباعهم ومواليهم . وكان هؤلاء العرب الذين ذهبوا مع موسى هم الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجري العرب الى الأندلس . وقد قسّم موسى جنده قبل العبور فرقا بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم ، وجعل لكل فرقة راية ، ثم سبقهم في العبور وانتظرهم في مكان على مقربة من الجزيرة الخضراء ابتنى فيه مسجدا عرف بمسجد الرايات .

---

(١) انظر كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة : ج ٢ ص ٦٠ .

وعندما اكتمل توافد الرايات عليه في ذلك الموضع ، نزل موسى بالجيش في الجزيرة الخضراء عند موضع قريب من جبل طارق سُمِّي مَرْسَى موسى ومن هناك سار الى « شذونة » ومنها سار الى « قَرْمونة » و « رَعْواق » فاستولى عليهما ، وبهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشذونة ورَعْواق وقَرْمونة وإستِجه وقرطبة في يد المسلمين ، وأصبح في إمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح إشبيليَة كبرى مدائن شبه الجزيرة بعد طليطلة إذ ذاك .

وقد سقطت إشبيليَة في يد المسلمين بعد أشهر من الحصار والقتال ، ومن إشبيلية سار موسى قاصدا « ماردة » وفي الطريق اليها استولى على مدينة « لَقَنت» وقد وجد ماردة أحصن وأقوى مما كان يظنها ، فحاصرها بضعة أشهر حتى استسلمت له في شوال سنة ٩٤ هـ — يونية ٧١٣ م

ولما فرغ موسى من أمر ماردة وأراد السير نحو طليطلة ، أحس أن الطريق طويل محفوف بالمخاوف ؛ لأن فلول القوط بقيادة لُذريق كانت تتجمع في هذه النواحي ، وتتحين الفرصة للانقضاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة الى طليطلة وهؤلاءفي ظهره ، ولهذا استدعى طارقا ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، فسار طارق للقاء مولاه .

ثم حدث ما كان يتوقعه موسى ، وأنقضَّ لذريق وأصحابه على جيش موسى في موضع يُدعَى « السواقي » ولكن المسلمين ثبتوا لهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، وقُتل لُذريق نفسُه ، قتله مروان بن موسى بن نصير ، فشهدت هذه البقعة مصرع آخر ملوك القوط .

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه المعركة الحاسمة الأخيرة ، قد شجع نفرا من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين

فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى الى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر [1]

* * *

ولم يصل موسى الى ما وصل اليه من فتح الأندلس حتّى بعث برسولين الى الخليفة الوليد ينهيان اليه أنباء هذا الفتح العظيم ، وكان أحدَ الرسولين مغيثٌ الروميّ فاتِح قرطبة ، ويبدو أن مغيثا كان حانقا على موسى لشيء في نفسه فراح يشهر به .

وفي طليطلة قضى موسى بعض الوقت يريح جيشه ، ويستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه الجزيرة . وعندما أتمَّ استعداده خرج بالجيش ومعه طارق وبعض كبار جنده ، ثم سار في اتجاه الشمال الشرقي ففتح : وادي الحجارة ، وسَرَقُسْطة ، ووشقة ، ولارِدةَ ، وطَرَّكُونة . وحاول موسى بعد ذلك أن يتابع سيره نحو جبال البرت (البرانس) ، ولكن جنده استوحشوا مما رأوه من قفر هذه النواحي وقلة عمرانها ، فأبدوا رغبتهم في العودة .

وفي ذلك الحين أقبل عليه مغيث الروميّ ، ومعه أمر من الخليفة لموسى وطارق بأن يشخصا الى دمشق . وأحس موسى بما وراء هذا الطلب ، وأن مغيثا لا بد أن يكون قد أوغر صدر الخليفة عليه لسبب أو لآخر .

ومع ذلك تابع سيره في قشتاله ليتّم فتحها ، وذلك بعد أن قسم جيش المسلمين قسمين : قسما يسير به هو ، وقسما يسير به طارق .

وفي هذه الخُطة عهد موسى الى طارق بالسير نحو جبال كَنْتَبْرِيَة ، فبدأ طارق بمهاجمة « البشكنس » غربي نهر إبرة ، فلم يجد صاحبها «فُرْتُون»[2]

---

(١) انظر في فتح ماردة كتاب فجر الأندلس : ص ٩٣ — ٩٩ .

(٢) من « فرتون » هذا تسلسل « بنو قسي » أصحاب الثغر الأعلى الذين كان لهم شأن طوال تاريخ المسلمين في الأندلس . انظر فجر الأندلس : ص ١٠٤ .

بُدّاً من الدخول في طاعة المسلمين بل اعتنق الإسلام، ثم تابع طارق سيره استولى على أماية ، واشترقة ، وليون .

أما موسى فسار بجيشه على الضفة الشرقية لنهر إبرة في إقليم قشتالة ، فأطاعه معظم مَن مرَّ بهم من رؤساء هذه الناحية ، وبدلا من أن يمضي الى اشترقة ليلتقيَ فيها بجيش طارق ، انحرف هو بجيشه نحو الشمال حتى بلغ « خيخون » فأقر فيها حامية ، واتخذ منها حصنا لما فتحه من البلاد في هذه النواحي القاصية ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة پلاي .

وعندما أدركت فرسان موسى البحر من الشمال أحس أنه فتح شبه الجزيرة كله ، فاكتفى بوصوله الى خيَخْون ، وأزمع العودة الى دمشق ، امتثالاً لأمر الوليد بن عبد الملك . وقبل رحيله ولّى ابنه عبد العزيز على الأندلس ، وابنه عبدَالله على إفريقية ، ثم أبحر من إشبيلية ومعه طارق ومغيث الروميّ وكبار جنده في ذي القعدة سنة ٩٥ هـ — سبتمبر ٧١٤ م ، ووصل الى دمشق في ربيع الأول سنة ٩٦ هـ — يناير ٧١٥ م ، أي قبل وفاة الوليد بأربعين يوما .

وكان سليمان بن عبد الملك وليُّ العهد قد أحسّ بدنوِّ أجل أخيه الوليد ، فكتب الى موسى يأمره بالتريث حتى يصل بعد موت الوليد ، فتؤول الذخائر التي كان يحملها معه اليه ، ولكن موسى لم يستجب لطلب سليمان ، ورأى أن الأمانة تقتضيه أن يمضي في طريقه ، فإن وصل والوليد حي كانت الغنائم له ، وإلاّ فهي لمن يخلفه بالحق والعدل .

وكان من سوء الطالع بالنسبة لموسى أن وصل الى دمشق والوليد حيٌّ ، فلم يُحسن الوليدُ لقاءه ، ثم لم يلبث أن لقِيَ ربه ، فتولى الخلافة من بعده أخوه سليمان ، وكان أشد من الوليد غضبا عليه لما كان منه معه .

وهكذا ومنذ خلافة سليمان بدأ نجم موسى بن نصير في الأفول ، بعد أن أبلى ما أبلى في سبيل نشر الإسلام ، وبعد تاريخ طويل مثير قضاه في فتوح المغرب والأندلس !

أما طارق ... طارق بن زياد المسلم الإفريقي المثاليّ وفاتحُ الأندلس ، فقد انتهت حياتُه في غموض كما بدأت في غموض ! وكل ما ذكره المؤرخون عنه أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير بعد فتح الأندلس الى الشام وانقطع خبره !

وإذا كان المؤرخون قد غمطوه حقه في كتبهم ، فإن الزمن قد أنصفه بتخليد اسمه على أول بقعة وطئتها قدماه من الأندلس ، على « جبل طارق ... هذا الاسم العربيّ الذي كان ولا يزال وسيظل الناسُ يذكرونه ويرددونه ما بقيت الأرض ... ! !

* * *

وبعد ... فإن فتح الأندلس له شأن كبير في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وعلى وضوح صورة هذا الفتح يسهل فهم المراحل التالية من تاريخ العرب في الأندلس بكل أحداثه وأبعاده وتطوراته .

وإذا كنا قد أسهبنا بعض الشيء في عرض تاريخه هنا ، فشفيعنا في ذلك الرغبة في رسم صورة واضحة لهذا الفتح بقدر الإمكان ؛ تعين على تتبع المراحل التالية من تاريخ الأندلس واستيعابها ..



الفصل الرابع

عصر الولاة

٩٥ — ١٣٨ هـ — (٧١٤ — ٧٥٥ م)

يطلق « عصر الولاة » على فترة من تاريخ المسلمين في الأندلس دامت ستة وأربعين عاما هجريا . وقد وليَ الأندلس في هذه الفترة ثمانية عشر واليا [1] من قِبَل خلفاء بني أمية في دمشق حينا ، ومن قِبَل عمالهم في إفريقية حينا آخر .

وأول هؤلاء الولاة الذين لم يكن الواحد منهم يلبث في الحكم الاّ قليلا ، هو عبد العزيز بن موسى بن نصير . وآخرهم هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي تغلب عليه عبد الرحمن بن معاوية المرواني ، المعروف بالداخل ، وأقام إمارة قرطبة المستقلة ، تلك التي كان لها شأن كبير وخطير في تاريخ الاندلس

ويبدأ عصر الولاة ، كما ذكرنا ، بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد ولاّه أبوه على الأندلس عند عودته هو وطارق بن زياد الى دمشق سنة ٩٥ هـ — ٧١٤ م . وقد اتخذ عبد العزيز من « إشبيليَة » عاصمة للأندلس طوال ولايته ، ثم انتقلت العاصمة من بعده الى « قرطبة » وظلت هكذا عاصمة المسلمين في الأندلس طوال عصر الولاة .

وعبد العزيز يُعد في الواقع ثالث الثلاثة الذين نهضوا بعبء المرحلة الأولى

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

من الفتوح الإسلامية في الأندلس . فإذا كان والده موسى قد عبر بجيشه من إفريقية لنجدة طارق وإكمال عمله في الفتح ، فإن عبد العزيز قد أكمل عمل الاثنين بعد رحيلهما الى دمشق ، تلبية لأمر الخليفة الأموي ، الوليد بن عبد الملك .

ويتمثل عمله هذا في أنه لم يكد يضطلع بولاية الأندلس . حتى بادر فأعد جيشه ، ثم سار به مواصلا الفتوح في الغرب ، ففتح يابُرَه وشَنْتَرين ، وقُلُمْرِيَة ، ومن هناك اتجه الى جنوب شرقي الجزيرة ، ولم يكن المسلمون قد وصلوا اليه بعد ، ففتح مالقة ، وغَرناطة ، ثم زحف على إقليم مرسية وكان يحكمه قائد قوطي يسمى تدمير . فلما اقترب من بلاده عبد العزيز وجنوده خشيهم تدمير وفاوضهم على التسليم صلحا ، فصالحوه على سبع مدائن هي : أوريولة ، وبلَنْتِلَة ، ولَقنت ، ومُولَة ، وبَقسَرة . وأنّه ، ولُورقة .

تلك هي أعمال عبد العزيز الحربية أثناء ولايته ، وبها تمت المرحلة الأولى من فتح الأندلس ، تلك المرحلة التي بدأت في رجب سنة ٩٢ ه وانتهت في أوائل سنة ٩٦ للهجرة ، بعد حروب متواصلة دامت نحو أربع سنوات ، أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا .

وقد أجمعت معظم المراجع التي عرضت لتاريخ عبد العزيز ، على أنه من خيرة ولاة المسلمين ، وأنه كان متسامحا في الدين ، فشجع مصاهرة الأسبان بتزوجه أمّ عاصم زوجة لُذريق ، الاّ أن مدة ولايته لم تطل ، فقد وثب عليه الجند وقتلوه بتدبير من حبيب بن أبي عبيدة الفهري سنة ٩٨ ه ـ ٧١٦ م لأسباب اختلف المؤرخون فيها .

* * *

وقد تعاقب على ولاية الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى سبعةَ عشرَ واليا وبسبب كثرة هؤلاء الولاة ، ومنافسة بعضهم بعضا على الحكم ، وقصر مدة

ولاية الواحد منهم ، أصبحت البلاد مسرحا للفتن والاضطرابات ، التي كان يـُذكي أوَراها ظهورُ العصبية القبلية بين العرب في الاندلس .

ومع هذا الصراع القبليّ المعوّق لهمم الفاتحين ، فإن العرب في هذا العصر أوغلوا بشجاعة في أنحاء الجزيرة غير المفتوحة حتى وصلوا الى قلب فرنسا عند مدينتي « تور » و « بواتيه » في ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، ولولا تغلبُ الافرنج عليه بقيادة « شارل مارتل » في موقعة بلاط الشهداء ، واستشهاده فيها سنة ١١٤ هـ — ٧٣٢ م ، لظلت جيوش المسلمين تتقدم من فتح الى فتح ، ولوقعت أوربا في أيديهم وانتشر الإسلام فيها .

ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنج بعد هذه الموقعة ، بل أخذوا يتراجعون الى بلاد الأندلس ، حتى إنه لم يبق لهم فيما وراء جبال البرت « البرانس » إلاّ مقاطعة سبتمانيا .

وكان هذا الصراع القبلي الذي شهده عصر الولاة في الأندلس مؤسفا حقا ، فقد شغل العربَ بأنفسهم ومآربهم عن هدفهم الأسمى ، هدف نشر الإسلام في البلاد التي عبروا البحر لفتحها .

ولم يقلّل هذا الصراع من هيبة العرب في أعين أهل البلاد التي فتحوها فحسب ، وإنما جرّأهم عليهم أيضا ، فإذاهم يستجمعون قواهم ، ثم يحاربونهم وينتزعون منهم البلاد شيئا فشيئا ، كلما سنحت الفرصة لذلك .

وكأني بنبوءة « شارل مارتل » قد صدقت فيهم ، حين فزِع اليه الفرنجة يحرضونه على قتال المسلمين عندما رأوا انتصاراتهم في بلاد الأندلس ، فقد قال لهم : « الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل مَن يصادره ، وهم في إقبال أمرهم ، ولهم نيات تـُغني عن كثرة العدد وقلوب تـُغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض

فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر [1] »

ولا عجب فقد قام الصراع القبلي بين العرب والبربر الذين كانوا يعتدون بأنفسهم ، على أساس أن الفاتح الأول طارق بن زياد منهم ، وأن الفتح قد تم على أيديهم ، وأنهم لهذا أولى وأحق من غيرهم بمقاليد الحكم .

وقد اضطر الخليفة هشام بن عبد الملك إزاء ثورة البربر في الأندلس أن يبعث بنجدات من الشآمين بقيادة بلج بن بشر لإخمادها . وسوف يكون لهؤلاء الجند الشآمين فيما بعد دور ملحوظ في قيام دولة الأمويين بالأندلس .

وما كاد شر البربر يزول حتى ظهر نزاع قبلي آخر بين البلديين والشآميين ، والبلديون هم عرب الأندلس القدماء ، وهؤلاء يمثلون أفواج العرب الأولى ممن وفدوا مع موسى بن نصير وحاربوا معه ، ثم استقروا في الأندلس ، واعتبروا أنفسهم أهل البلاد وأصحابها ، وتسموا بالبلديين . وهؤلاء كرهوا أن يقبل عليهم الشآميون ، وأن يقاسموهم خيرات البلاد ، وأن يروْهم بالإضافة الى ذلك ينازعونهم السيادة عليها . ومن هنا كان الصراع بين هذين الفريقين .

ثم كان هناك صراع قبلي ثالث بين المضرية واليمنية ، ومنشأ هذا الصراع ان أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي — وهو يمني — تولى بلاد الأندلس سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م ، فقام في وجهه الصُميل بن حاتم — وهو مضري — وخلعه وأسره ، وولّى عليهم واحدا منهم هو ثوابة بن سلامة الجذامي سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م ، ولكن هذا الوالي الجديد توفي بعد سنتين .

وأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار ، فامتنعت مضر بزعامة الصُميل ، وافترقت الكلمة ، وأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير . فلما تفاقم الأمر اتفق رأيهم على يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، فوليها يوسف — وكان مضريا — سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٦ م ، واستقر الأمر فيما بينهم على أن يلي سنة ثم

---

(١) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن : ج ١ ص ٣٢٢ .

يُرَدّ الأمر الى اليمنية ، فيولّون مَن أحبوا من قومهم .

فلما انقضت السنة أقبل اليمنية بأسرهم يريدون أن يولّوا رجلا منهم ، فهمّ الصميل فقتل منهم خلقا كثيرا ... واجتمع القوم على يوسف ولم يعترضه أحد ، وبقيَ يوسف واليا على الأندلس الى أن غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية المرواني ، المعروفُ بالداخل ، وأسس فيها دولة الأمويين الثانية في المغرب ، بعد أن زالت دولتهم الأولى بالمشرق على أيدي العباسيين .

وبعد فهذا عرض موجز لتاريخ عصر الولاة ، أو عصر فتوح المرحلة الثانية في الأندلس ، والذي انتهى على يد عبد الرحمن الداخل – مؤسس الدولة الأموية في الأندلس ، والواقع أن ما استجد في هذا العصر من أحداث ستكون له نتائج يظهر أثرها فيما يلي من مراحل تاريخ المسلمين بالأندلس .

ففيه توغل العرب في شجاعة الى أن وصلوا الى قلب فرنسا عند مدينة تور وبواتيه . وفيه قامت الولايات المسيحية الأسبانية في شمال غربي الجزيرة وشمالها وفيه نشأ الصراع القبلي بين العرب والبربر ، وبين البلديين والشآميين ، وبين المضرية واليمنية . وكلها ظواهر تاريخية ذات آثار ومضاعفات تاريخية دائمة [1]

---

(١) فجر الأندلس : ص ٣٥٤ .



الفَصْل الخامِس

الدولة الأموية الأندلسية

إمـارة قـُرطبَة

١٣٨ ــ ٣٠٠ ﻫ ــ (٧٥٥ ــ ٩١٢ م)

سقطت الخلافة الأمويــة في دمشق سنة ١٣٢ ﻫ ــ ٧٤٩ م ، وقضى العباسيون على دولة بني أمية ، وأباحوا دماءهم ، ثم راحوا يقسُون عليهم ويتتبعونهم بالقتل أينما وُجدوا . وكان من شدة قسوتهم أن نرى مثلا أبا العباس السفاح خليفة العباسيين الأول يعطيهم الأمان ، ثم ينقضه ويـُوقع بأكثر من سبعين أمويا منهم في دير الجماجم !

ثم شاء الله أن يفلت بأعجوبة من أيديهم ، وأن ينجو بنفسه من شرهم وفتكهم أمير واحد من بني مروان في العشرين من عمره . هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان .

لقد فرّ من وجه العباسيين الى فلسطين ، ثم الى مصر ، ثم خلَص الى المغرب ، وهناك تقلّب في كل أنحاء إفريقية متخفيا ، حتى انتهى الأمر به بعد خمس سنوات من الهرب والتجوال والمغامرة الى قبائل نَفْزَة على مقربة من طنجة ، وكانت أمه من سبيهم . ويبدو أنه استطاع كسب وُدّهم ، لأن كثيرا منهم عطف عليه وقام برعايته .

ومن مخبئه لدى آخواله بني نفزة كانت تترامى اليه أخبار الأندلس التي مزقتها الانقسامات ، فرأى ذلك المغامر الأموي بعين بصيرته أن مستقبله ليس في إفريقية ، وإنما هو في الأندلس ، ولهذا بعث مولاه بدرا الى مَن بالأندلس مِن الشآميين وموالي المروانيين وأشياعهم ، فاجتمع بهم وبثُّوا له في الأندلس دعوةً ونشروا له ذكرا .

ولما نجحت الدعوة له ، رجع بدر مولاه اليه بالخبر ، فعبر البحر الى ساحل المنكّب ، ودخل الأندلس في شهر ربيع الأول سنة ١٣٨ للهجرة في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي . وقد سُمي عبد الرحمن بالداخل ، لأنه أول داخل من أمراء بني مروان الى الأندلس .

ووافق قدومه الى الأندلس ما كان من الإحَن والعداوة بين العصبيتين اليمنية والمضرية ، فأصفقت اليمنية على أمره وآزرته ، وأقبلت عليه الوفود من شتى الأقاليم والمدائن تبايعه ، وبذلك تضخّم عدد أنصاره ، واستطــاع بحسن سياسته أن يستميل قلوب الرعيه ، حتى انقاد له كل أبيّ ، وأطاعه كل عصيّ .

ولما آنس من نفسه القوة راح يستولي على بلاد الأندلس مدينة تلو مدينة . وعلم والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهريّ بخبره ، وكان غازيا بجليِّقيَّة ، فكرّ راجعا بجيشه الى قرطبة ، وهناك التقى الجيشان ، ودارت المعركة بينهما على مقربة من المصارة إحدى ضواحي قرطبة ، فكانت الغلبة لعبد الرحمن وجنده .

وبهزيمة يوسف الفهريّ استقام أمر عبد الرحمن الداخل بالأندلس ، فاستقر بقرطبة ، واتخذ منها قاعدة لبناء إمارة تكون نواة لدولة ثانية للأمويين ، تُجدّد ما انطمس بالمشرق من معالم خلافتهم ، وما انقرض من آثارهم : فشيد الدور والقصور ، وبنى المسجد الجامع بقرطبة ، كما بنى مساجد في مدائن أخرى ، وبدأ فدوّن الدواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجنّد الأجناد ،

وأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته ، حتى بات يُخشى جانبه ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقلّ له الأمر فيها ، وهنا تشجع وقطع الدعوة للخليفة المنصور العباسي وآله من فوق منابر الأندلس [1] .

* * *

وهكذا استطاع عبد الرحمن الداخل بألمعيته وذكائه وجرأته أن يبنيَ الأمويين ملكا جديدا في المغرب بعد زوال ملكهم في المشرق . على الرغم مما واجهه من صِعاب ومشقات !

ولعل من أصعب الصعاب التي واجهته ما كان من أمر أبي جعفر المنصور معه . لقد حاول المنصور منذ توليه خلافة العباسيين أن يجعل من الأندلس ولاية عباسية ، فلما بلغه ما أصابه هذا الفتى الأمويُّ من نجاح في الأندلس هاله الأمر فسيّر اليه جيشا كثيفا بقيادة العلاء بن مغيث والي إفريقية من قِبَل المنصور ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يهزم هذا الجيش هزيمة منكرة بنواحي إشبيلية وأن يبعث برؤوس كثير من القتلى الى القيروان ومكة ، فألقيت في أسواقها سِراً ، ومعها لِواءُ العباسيين الأسود ، وكتابُ المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك وقال : ما هذا الاّ شيطان ! الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر ! [2]

ومع ذلك فإن أبا جعفر المنصور كان يعدل عبد الرحمن الداخل بنفسه ، ويُكثر ذكره ، وهو الذي سماه « صقر قريش » ، وذلك أنه سأل بعض أصحابه : « أخبروني عن صقر قريش، مَن هو ؟ قالوا : أميرُ المؤمنين الذي راض الملك ، وسكّن الزلازل ، وحسم الأدواء ، وأباد الأعداء . قال : ما صنعتم شيئا .قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان .

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٠٨ – ٣١٠ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣١١ .

قال : ولا هذا . قالوا : فمَن ياأمير المؤمنين ؟ قال : عبدُ الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا مُفرَدا ، فمصَّر الأمصار وجنَّد الأجناد ، ودوَّن الدواوين ، وأقام مُلكا عظيما بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته » .

« إن معاوية نهض بمركبٍ حمله عليه عمر وعثمان وذلَّلا له صعبه ، وعبدَ الملك ببيعة تقدم له عَقْدُها ، وأميرَ المؤمنين بطلب عشيرته ، واجتماعِ شيعته، وعبدَ الرحمن منفردا بنفسه، مؤيَّدا برأيه، مستصحبا لعزمه، وطَّد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة . فقال الجميع : صدقت والله ياأمير المؤمنين [1] » .

تلك شهادة صدق من الخليفة المنصور لعدوه الذي استقل بالأندلس عنه . وقد شهد له المنصور مرة أخرى بكلمة موجزة جامعة ، وكأنه بها يلخص سيرة هذا الأمير الأمويّ فقال : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مِراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر فتى قريش ، الأحوذيِّ [2] الفذِّ في جميع شئونه وعُدْمِه لأهله ونشَبه [3] ، وتسلِّيه عن جميع ذلك ببعد مَرْقَى همته ومَضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه في لُجَج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرةً شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جُندها بخصوصيته وقمعَ [4] بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عَصيُّهم ، وذلّ له أبيُّهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملِكا

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٨٨ ، والبيان المغرب لابن عذارى المراكشي : ج ٢ ص ٨٩ .
(٢) الأحوذي : السريع في كل ما أخذ فيه .
(٣) النشب : المال .
(٤) قمع : قهر وذلل .

على قطيعته [١] ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره [٢] ، مانعا لِحَوْزَته [٣] ، خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه . إن ذلك لهو الفتى كلُّ الفتى لا يكذب مادحه [٤]

هذا هو عبد الرحمن الداخل أميرُ قرطبة : نجا بنفسه من مجازر العباسيين في آل بيته وهو في العشرين من عمره ، وقضى خمس سنوات من الهرب والتجوال والمغامرة في أنحاء إفريقية ، ودخل الأندلس في الخامسة والعشرين من عمره ، ثم قضى فيها أكثر قليلا من ثلاث وثلاثين سنة ، استطاع خلالها أن يستقل بهذه البلاد عن حكم العباسيين ، وأن يؤسس فيها إمارة قرطبة ، تلك التي كانت نواة لدولة الأمويين الثانية في المغرب ، بعد أن زالت دولتهم الأولى في المشرق على أيدي العباسيين .

وكان عبد الرحمن الداخل فصيحا بليغا ، حسن التوقيع ، مطبوع الشعر كما كان عربيا في سياسته وأخلاقه وعاداته ؛ ومن صفاته أنه كان يقعد للعامة ويسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويتوصَّل إليه مَن أراده من الناس ، فيصل الضعيفُ منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة . وكان من عادته أن يأكل معه مِن أصحابه مَن أدرك وقت طعامه ، ومَن وافق ذلك من طُلاَّب الحاجات أكل معه [٥] . وكانت وفاته سنة ١٧٢ هـ — ٧٨٨ م ، في خلافة هارون الرشيد

* * *

وتداول الحكمَ من بعده في إمارة قرطبة الأموية ستةٌ من أبنائه وأحفاده ، هم هشام بن عبد الرحمن الداخل ، والحكَمُ ابنه ، وعبدُ الرحمن بن الحكم

---

(١) القطيعة هنا : تعني أرض الأندلس التي استقل بها .
(٢) ذمار الرجل: هو كل ما يلزمه حفظه وحياطته وحمايته والدفاع عنه، وإن ضيعه لزمه اللوم.
(٣) لحوزته : أي لحدوده ونواحيه .
(٤) نفح الطيب : ج ١ ص ٣١٠ .
(٥) المرجع السابق : ص ٣١١ .

وولدهُ محمد ، ثم المنذرُ وعبدُ الله ولدا محمدِ بنِ عبد الرحمن بن الحكم [1] .

وباستثناء هشام الذي دام حكمه على إمارة قرطبة ثماني سنوات والمنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الذي دام حكمه سنتين ، فإن الأربعة الباقين قد تراوحت مُدَدُ حكمهم بين خمس وعشرين وخمس وثلاثين سنة ، أتيح لكلٍ منهم فيها أن يسهم بشكل ملحوظ في توطيد أركان هذه الإمارة الأموية الفتيَّة ، والنهوض بها سياسيا واجتماعيا .

وقد تحرك نشاط أمراء قرطبة طوال حكمهم في ميدانين : ميدان خارجيّ وميدان داخليّ . ففي الميدان الخارجيّ تمثل نشاطهم في الخروج بجيوشهم من وقت الى آخر لقمع الأعداء ، وفتح بعض المدائن والحصون والثغور ، وإخماد ثورات الفرنج التي تكرر قيامها في نواحي جِلِّيقيَّة ، وأربونة ، وألبة ، والقِلاع ، وبرشلونة ، واضطرهم انبعاثُ هذه الثورات وتكررها الى العنف في مجابهتها ، وتدميرِ المواقع التي كانت تنطلق منها ، مدنا كانت أو حصونا . وقد اهتم عبد الرحمن بن الحكم بدعم الأسطول الأندلسيّ بعد ما عاينه من غارات النورمانديين بأسطولهم على سواحل الأندلس ، وتدميرهم للمدن من مثل إشبيليَة وأُشبونة وغيرهما .

وبلغ من قوة المسلمين بالأندلس في عهد عبد الرحمن هذا أنْ وفدت عليه في سنة ٢٢٢ هـ — ٨٣٦ م رُسُل إمبراطور القسطنطينية بالهدايا ، وطلبوا اليه

---

(١) فيما يلي تواريخ حكم كل واحد من هؤلاء الأمراء :

هشام بن عبد الرحمن الداخل	:	١٧٢ — ١٨٠ هـ	(٧٨٨ — ٧٩٦ م)
الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل	:	١٨٠ — ٢٠٦ هـ	(٧٩٦ — ٨٢١م)
عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل	:	٢٠٦ — ٢٣٨ هـ	(٨٢١ — ٨٥٢م)
محمد بن عبد الرحمن بن الأوسط بن الحكم بن هشام	:	٢٣٨ — ٢٧٣ هـ	(٨٥٢ — ٨٨٦م)
المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم	:	٢٧٣ — ٢٧٥ هـ	(٨٨٦ — ٨٨٨م)
عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم	:	٢٧٥ — ٣٠٠ هـ	(٨٨٨ — ٩١٢م)

عقد معاهدة . ومما يدل على حُسْن سياسته الخارجية تحالفه مع مقاطعة نافارا الواقعة شماليّ جبال البرت (البرانس) ، لتكون حاجزا بين بلاده وبـــلاد الفرنج [١]

أما في الميدان الداخليّ فقد اهتموا بحركة البناء والتشييد ، وعملوا ــ وربما لا شعوريا ــ على أن تكون إمارتهم امتدادا للدولة الأموية في نظمها وإدارتها ، وعاداتها وتقاليدها .

ومن هؤلاء الأمراء مَن اتخذ من سيرة بعض أسلافه مثالا يحتذيه في سياسته ، فهشام بن عبد الرحمن الداخل مثلا كان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز في توخّي العدل . ومن ذلك أنه كان يبعث ببعض ثِقاته الى الكُوَر [٢] فيسألون الناس عن سِيَر عُمّاله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا عرف عن أحدهم حَيْفاً أو جَوْراً عاقبه وعزله ولم يستعمله مرة أخرى .

ومن مآثره تجديد قنطرة قرطبة التي أنشأها السمح الخَوْلانيّ عاملُ عمر ابن عبد العزيز ، والتي كان يضرب بها المثل ، ويقال إنه بعد أن أكمل بناءها سأل أحد وزرائه : ما يقول أهل قرطبة ؟ فقال : يقولون: ما بناها الأمير الاّ ليمضيَ عليها الى صيده وقنَصه . فآلى هشامٌ على نفسه أنْ لا يسلك عليها ، فلم يمر عليها بعدُ ، ووَفـَى بما حلف عليه [٣] .

وكان الحكم بن هشام يُشبَّه بأبي جعفر المنصور العباسيّ في شدة الملك وتوطيد الدولة وقَمْع الأعداء . وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويقرب العلماء والفقهاء ، ويؤثر منهم الفقيه زيادَ بنَ عبد الرحمن ، كما كان يُعيِّن القضاة ليَكفوه أمور الرعية بعدلهم .

---

(١) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن : ج ٢ ص ٢٣٦
(٢) الكور : المدن ، جمع كورة .
(٣) نفح الطيب : ج ١ ص ٣١٦ – ٣١٧ .

ويقول عنه ابن خلدون وغيرُ واحد : إنه أول مَن جعل للملك بأرض الأندلس أُبَّهةً [1] ، وأول مَن جنّد الأجناد والمرتزقة ، وجمع الأسلحة والعُدَد ، واستكثر من الخدم والحواشي والحشم ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك بالآلاف ما بين فارس وراجل . وكان له عيون يطالعونه بأخبار الناس ، وهو الذي وَطّأ الملك لعقبه بالأندلس . وكان نَقْش خاتَمه « بالله يثق الحكم ويعتصم [2] » .

ولعل أهم أمراء قرطبة جميعا هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، المعروف بعبد الرحمن الأوسط [3] . وقد عُرِف هذا الأمير بتشجيع حركة العلوم والآداب والفلسفة ، حتى ظهر في أيامه نوابغ العلماء في كل فن ، ولا عجب في ذلك ؛ فقد كان هو نفسه شاعرا أديبا وعالما بعلوم الشريعة والفلسفة .

وقدم عليه من العراق في سنة ٢٠٦ هـ « زِرْياب [4] » المغني ، مولى الخليفة المهديّ وتلميذُ إبراهيم الموصليّ ، فركب الأمير بنفسه للقائه ، وبالغ في إكرامه وأقام عنده « زِرياب » بخير حال ، ونشر صناعة الغناء بالأندلس ، ثم خلفه في صناعته وحظوته ابنه الأكبر عبد الرحمن .

وفي عهده برزت شخصية علمية جديرة بالذكر هي شخصية عباس بن فِرناس ، وهو شاعر كيمائيّ فلكيّ ، اشتهر بتجاربه العلمية في الكيمياء ، ومحاولته الطيران .

ومن مآثره أنه اتخذ القصور والمتنزّهات ، وجلب اليها المياه من الجبال ، ونظم شوارع قرطبة ، وأصلح الطرق الرومانية القديمة ، وبنى المساجد في أكثر

---

(١) الأبهة : العظمة والبهاء .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٣١٩ – ٣٢٠ .
(٣) لأن الأول هو عبد الرحمن الداخل ، والثالث هو عبد الرحمن الناصر .
(٤) اسم زرياب . علي بن نافع .

مدن الأندلس ، وجعل بجانب كل مسجد مدرسة ومستشفى ، وزاد في جامع قرطبة رِواقين ، وسَنّ القوانين التي يعمل بمقتضاها الناس [1] .

وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط — كما وصفه لينبول — نقيّ الذوق ، ليِّن الخلق ، سهل القياد ، ملك زمامه طوال حياته أربعةٌ نالوا عنده الحظوة الكاملة ، وهم : مُغَنٍّ ، وفقيهٌ ، وامرأة ، وعبد أسود . وكان أشد هؤلاء تسلطا عليه الفقيه يحي بن يحي الليثيّ . وكان للأميرة طروب وعبدِه « نصر » سلطة نافذة في شئون الملك ، أما زِرياب المغنّي فإنه استغل حظوته عند عبد الرحمن في إنهاض الفنون والثقافة [2] . وكان نقْش خاتَمه « عابد الرحمن بقضاء الله راض » .

وقد حرص هؤلاء الأمراء في تأسيس إمارتهم المستقلة في قرطبة على أن تكون لها كل مظاهر الدولة ومقوماتها ، ولهذا كان لكل أمير منهم حاجبه [3] ووزراؤه وقضاته وكتّابه ، وقواد جيوشه .

ولعل خير ما تميّز به أمراء قرطبة أنهم كانوا على كثير من التسامح الدينيّ فقد منحوا أهل بلاد الأندلس الحرية في إقامة شعائرهم الدينية . وكثيرا ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنبا الى جنب ، كما كانوا يُعيّنون في أرقى المناصب السياسية والحربية . وقد كان لهذا السلوك السمح مع أهل البلاد أثره في اعتناق كثير منهم للأسلام ، وفي تخلقهم بأخلاق العرب وعاداتهم . ثم لا

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٢٥ .

(٢) ترجمة علي الجارم : ص ٧٢ .

(٣) لم يكن الحاجب على المعنى المصطلح عليه اليوم ، بل كان هذا اللقب خاصا بكبار الوزراء ، فإن قاعدة الوزارة بالأندلس كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة منهم يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصا ينوب عنه ، فيسميه الحاجب . وقد عظمت هذه السمة حتى كانت أعظم ما تنوفس فيه .

عجب بعد ذلك أن نراهم يقبلون على تعلم العربية وإجادتها ، حتى صاروا يتكلمونها ، ويصنفون بها الكتب ، وينظمون بها الشعر !

* * *

وبالإضافة الى كل ما تقدم كان لأمراء قرطبة الأمويين فضل كبير فيما ظهر في الأندلس من نهضة قوية في العلوم والآداب والفنون . وقد كانت كل العوامل مشجعة على قيام هذه النهضة الثقافية وازدهارها . فالأمراء بحكم طبيعتهم العربية بلداء فصحاء يجيدون القول نثرا وشعرا ، ودوافع القول الملحة بالنسبة لهم لم تكن تنقصهم : فانتصاراتهم في الفتوح ، ونجاحهم في تأسيس دولة الأمويين الثانية ، والحنين الى ماضيهم في المشرق ، وطبيعة الأندلس الجميلة التي تستثير الخيال وتحرك الوجدان ، والحب الذي يفجأ قلوبهم الشاعرة فيسعدها حينا ويشقيها حينا آخر ، كل هذه الدوافع كان كل واحد منها كفيلا بأن يفجر في نفوسهم أرق المعاني وأسماها ثم يطلقها على ألسنتهم أدبا جديدا جميلا . قد لا يكون لهذا الأدب كل ما للأدب المشرقي من الناحية الفنية ، ولكنه أدب لا تستطيع الا أن تحبه وأن تقبل عليه ، لما فيه من نبض قوي وعاطفة جياشة ، ولما له من مذاق حلو ، والحان شجية آسرة .

ولم يقف أمراء قرطبة عند حد التعبير عن خواطرهم الذاتية ، وإنما تجاوزوا ذلك الى تشجيع الأدباء والشعراء ، والى عقد مجالس للأدب والشعر أشبه بمجالس عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، فإذا الأدباء والشعراء يقبلون عليها للمناشدة والمطارحة ! وإذا هؤلاء وهؤلاء يتكاثرون على تعاقب الأيام ، ويملئون الأندلس أدبا رائقا وشعرا فائقا !

* * *

وبعد ... فلنسمع الى بعض نماذج من شعر الأمراء ، وشعر بعض معاصريهم من الشعراء ، لنرى على ضوئها كيف بدأ الشعر الاندلسي يتطور ويتخذ لنفسه طرائق جديدة .

* رأى عبد الرحمن الداخل في رُصافة [1] قرطبة بعد أن أنشأها نخلة منفردة ، فهاجت شجنه ، وتذكر وطنه ، فقال بديهة :

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرصافة نخلةٌ
تناءتْ بأرض الغرب عن بلد النخلِ

فقلت : شبيهي في التغرُّب والنوَى
وطولِ التنائي عن بنيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقاكِ غوادي المُزْن من صوبها الذي
يَسُحُّ ويستمري السماكين بالوَبْلِ [2]

ولما توطد ملكه نظم هذه الأبيات ، وأخرجها الى وزرائه ، فاستغربت من قوله إذ صدقها فعله ، وهي :

ما حقُّ مَن قام ذا امتعاصٍ
بمنتضَى الشَّفرتَين نصلاَ ..

فبزَّ مُلْكاً وشادَ عِزّاً
ومنبرا للخطاب فصلا

(١) هي مدينة أنشأها عبد الرحمن الداخل وسماها الرصافة تشبيها برصافة الشام التي أنشأها جده هشام بن عبد الملك في غربي الرقة ، وكان يقضي فيها أشهر الصيف .

(٢) يستمري : يستدر ، والسماكان : نجمان منيران . البيان المغرب : ج ٢ ص ٩٠

فجـــاز قفـــراً وشـــقّ بحـــراً
مُساميـــاً لُجّـــةً ومَحـــلا

وجنّـــد الجنـــد حين أَوْدَى
ومصّـــرَ المِصـــرَ حين أجـلى

ثم دعـــا أهلـــه جميعـــا
حيث انتـــأوْا : أنْ هَلُمَّ أهـلا

فجـاء هـذا طريـدَ جـوعٍ
شريـدَ سيفٍ أُبيـد قتـلا

ألم يكـن حقٌّ ذا عـلى ذا
أوجبَ من منعـمٍ ومَـوْلى ؟[1]

ويرى راكبا يتهيأ للسفر الى الشام ، وهو لا يستطيع أن يفعل مثله ، فيشتد به الحنين الى موطن آبائه وأجداده ، ، ثم لا يملك غير هذه الرسالة الحزينة الشاجية يبعث بها الى أرضه وأهله :

أيها الراكب الميمّمُ أرضي
أقْرِ من بعضيَ السلامَ لبعضي

إن جسمي كما تراه بأرضٍ
وفؤادي ومالكيه بأرضِ

قُدّر البينُ بيننا فافترقنا

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه : ج ٤ ص ٤٨٨ .

وطوَى البينُ عن جفوني َغمْضي

قد قضى الله بالبِعاد علينـــا
فعسى باقترابنا سوف يقضي ![1]

* وكان الحكم بن هشام فصيحا بليغا ، وشاعرا مجيدا . ومن شعره الذي يفخر فيه بالقضاء على الخارجين عليه وإقرار الأمن في البلاد قوله :

رأبتُ صُدوعَ الأرض بالسيف راقعاً
وقِدماً لأمتُ الشَّعبَ مذْ كنت يافعا[2]

فسائلْ ثغوري : هل بها الآن ثُغرةٌ
أبادرُهَا مُستنضِيَ السيفِ دارعَـــا

تُنَبِّيك أني لم أكن عــن قِراعِهِـمْ
بِوانٍ وأني كنت بالسيف قارعَـــا

فهذي بلادي ، إنـــني قـد تركتُها
مِهاداً ، ولم أترك عليها مُنازِعَا [3]

وكان له أشعار كثيرة في خمس جوارٍ قد استخلصهنّ لنفسه وملّكهنّ أمره ، فذهب يوما الى الدخول عليهن ، فأبين عليه وأعرضن عنه ، وكان لا يصبر عنهن ، فقال :

قُضْبٌ من البان ماستْ فوق كُثْبانِ

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي : ج ٢ ص ٨٩ .
(٢) لأمت الشعب : أصلحت الفساد
(٣) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٩٢ .

وتَلَيْنَ عنّي ، وقد أزمعنَ هجراني

مَلكْنني مَلِكاً ذَلّتْ عزائمهُ
للحُب ، ذُلّ أسيرٍ مُوثَقٍ عانِ

مَن لي بمغتصباتِ الروحِ من بدني ؟
غَصبْنني في الهوى عِزي وسلطاني !

ومن رقيق غزله فيهن قوله :

ظلّ من فَرْطِ حُبّه مملوكا
ولقد كان قبلَ ذاك مَليكا

إن بكى أو شكى الهوى زِيدَ ظلما ،
وبعاداً يُدْني حِماماً وَشيكا

تركَتْه جآذرُ القصر صَبّا
مُستهاماً ، على الصعيد تريكا

يجعل الخدّ واضعا فوق تُرْبٍ ،
للذي يرتضي الحرير ، أريكا

هكذا يحسن التذلُّل للحُرّ ،
إذا كان في الهوى مملوكا [1]

* ومن غزل عبد الرحمن الأوسط بن الحكم في جاريته « طروب » التي نالت عنده كل حظوة قوله :

(١) البيان المغرب لابن عذارى : ج ٢ ص ١١٩ .

إذا ما بدت ليَ شمس النهارِ
طالعةً ذكّرتني طروبا

أنا ابن الميامين من غالبٍ
أَشُبُّ حروباً وأُطفي حروبا

وخرج غازيا الى جِلِّيقيّة فطالت غيبته ، فبعث الى طروب بالأبيات التالية وفيها يصف شجاعته وجهاده في سبيل الله . قال :

عَداني عنكِ مَزارُ العِدا
وقَوْدِي اليهم سِهاماً مُصِيبَا

وكم قد تعسّفتُ من سَبْسبٍ
ولاقيتُ بعد دُروبٍ دُروبا

وأدَّرِعُ النقع حتى لبستُ
من بعد نُضرة وجهي شُحوبا

أُلاقي بوجهي سَموم الهجير ،
وقد كاد منه الحصى أن يذوبا

بيَ ادَّاركَ الله دينَ الهدى
فأحييتُه وأَمَتُّ الصليبا

وسرتُ الى الشرك في جحفلٍ
ملأتُ الحُزون به والسُّهوبا[1]

---

(1) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣٢٦ – ٣٢٧ . والحزون : جمع حزن، وهو المكان الغليظ الخشن

ومن شعره في وصف حال المعزول :

أرى المرءَ بعـد العزل يرجع عقلُه ،
وقد كان في سلطانـه ليس يعقـلُ

فتُلفيه جَهْمَ الوجه ما كان والياً
ويسهل منه ذاك ساعة يُعـزَلُ [1]

* وكان آخرُ أمراء قرطبة ، الأميرُ عبد الله بنُ محمدِ بنِ عبد الرحمن الأوسط شاعرا مطبوعا، أكثر من الغزل في صباه ثم من شعر الزهد في أخريات أيامه . ومن شعره في الغزل قوله [2] :

يامهجةَ المشتاقِ ما أوجعكْ !
ويا أسيرَ الحب ما أخضعك!

ويارسول العين مِن لحظها
بالرد والتبليغ ما أسرعك !

تذهب بالسر فتأتي بـهِ
في مجلس يخفَى على مَن معك

كم حاجةٍ أنجزتَ إبرازها
تبارك الرحمن ما أطوعك !

---

(١) البيان المغرب : ج ٢ ص ١٣٩ ، وانظر في المرجع ذاته نماذج أخرى من شعر عبد الرحمن بن الحكم .

(٢) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣٣٠ .

ومن شعره أيضا ما تغلب عليه روح الفكاهة . ومن ذلك ما يُروَى أن وزيره النضر بن سلمة عرض عليه أمرا مكتوبا في ورقة ، فلما اطلع عليها الأمير لم يعجبه ذلك الأمر ، فعلّق عليه شعرا بقوله :

أنت يانضرُ آبــــدةْ ليس تُرجَى لفائــدةْ
إنما أنت عُـــــدّةٌ لكنيف ومائــدةْ (١)

* * *

وإذا كان الجزء يُنبيء عن الكل ، فإن هذه النماذج من شعر أمراء قرطبة تدل فيما تدل على أن الشعر كان طبيعة متأصلة فيهم وسجية من سجاياهم ، كما يتجلّى منها صدق عاطفتهم وإشراق ديباجتهم ، وتنوع الأغراض التي كانوا يستوحونها من تجاربهم الذاتية ووقائع الحياة في مجتمع الأندلس الجديد . ولكن شعرهم – كما نرى – لا يزال قريب الشبه بشعر المشارقة في سماته وخصائصه .

لقد كانوا أمراء أُحسِن تثقيفهم ، ولهذا كانوا مدفوعين بحكم ثقافتهم ومحبتهم للأدب والشعر إلى تشجيع حركة العلوم والفنون والآداب في إمارتهم ومن ثَـم ازدهرت هذه الحركة في عصرهم وكثر فيه العلماء والأدباء والشعراء.

ومن الشعراء الذين ظهروا في إمارة قرطبة : عباس بن فرناس ، والعتبي وهاشم بن عبد العزيز ، وابن سبعين العكي ، وعبد الرحمن بن الشَّمِر ، وابن المثنّى ، والعباس الجزيري ، وأبو الفياض القلفاط القرطبي ، وقمر جارية إبراهيم بن حجاج ، وابن عبد ربه .

وإذا تأملنا شعر هؤلاء وغيرِهم من معاصريهم ، نرى أنه لم يتطور كثيرا عن شعر المشارقة ، وأنه لم يتأثر بعد بطبيعة الأندلس الجميلة ، بمقدار ما تأثر

---

(١) البيان المغرب : ج ٢ ص ٢٣١ ، وكني بالكنيف والمائدة هنا عن أن وزيره لا هم له الا في ملء بطنه وإفراغه .

بالأحداث والوقائع الدائرة على أرضها .

فأغراض شعرهم لا تزال هي هي أغراض الشعر العربي التقليدية من مدح وهجاء ، وحنين ، وشكوى ، ووصف وعتاب ، وإن كان ثمة تطور في شعرهم، فهو في رقة ألفاظهم ، ووضوح أساليبهم ، وقرب معانيهم ، ووصف المعارك الحربية ، والإشادة بفتوح جيوش المسلمين وانتصاراتها . وفيما يلي بعض نماذج من شعر هؤلاء الشعراء :

• قال عباس بن فرناس يصف انتصار جيش الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط على جيش الأعداء في معركة وادي سليط ، وهي من أمهات المعارك التي لم يُعرَف مثلها في الأندلس قبلها :

ومختلفِ الأصوات مؤتلِف الزحف
لَهُومِ الفَلا عَبْلِ القنَابلِ مُلْتَف [1]

إذا أومضتْ فيه الصوارمُ خِلتَها
بُروقاً تراءَى في الجَهام وتستخفى [2]

بكى جبلاً وادي سليطٍ فأعْوَلاَ
على النفَرِ العُبدان والعُصبة الغُلفِ [3]

يقول ابنُ يُلْيوسٍ لموسى وقد وَنَى :

---

(١) لهوم : من اللهم وهو الابتلاع ، والفلا : جمع فلاة : الأرض لا ماء فيها ، وعبل : ضخم ، والقنابل : جمع قنبلة بفتح القاف : وهي الطائفة أو الجماعة من الناس ومن الخيل . قيل : هم بين الثلاثين إلى الأربعين ونحوه .

(٢) الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه .

(٣) الغلف : جمع أغلف ، وهو الذي لا يعي .

أرى الموتَ قدامي وتحتي ومن خلفي

قتلناهُمُ ألفاً وألفاً ومثلَها
وألفاً وألفاً بعد ألفٍ الى ألفِ

سوى مَن طواه النهر في مُستلجِّه
فأُغرِق فيه أو تَدأْدَأ مِن جُرْف (١)

* وقال الشاعر العتبي يمدح الأمير محمدا في قصيدة طويلة منها :

سائلْ عن الثغر الصوارم تصدقِ
واستنطقِ السُّمْرَ العواليَ تنطقِ

تركتْ وقائعَ في الثغور ، وقدغدتْ
مثلاً بكل مُغربٍ ومُشرقِ

وأداخَ أرض المشركين بوقعةٍ
تركتهمُ مثلَ الأَشاء المُحرَقِ (٢)

جادت عليهم حربُه بصواعقٍ
تركتهمُ مثلَ الرمادِ الأزرقِ (٣)

* ومن شعراء هذا العصر عبد الرحمن بن الشَّمِر ، وهو من أصدقاء الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، وكان يتجنب الوقوف ببابه مخافة «نصر»

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٩٥ ، وتدأدأ : تدحرج ، والجرف : ما جرفته السيول .
(٢) الأشاء : صغار النخل ، واحدته أشاءة .
(٣) البيان المغرب : ج ٢ ص ١٦٩ .

عبدِ والده الذي كان له سلطة نافذة في شئون الملك . فلما مات « نصر » كتب ابن الشّمِر قصيدة يمتزج فيها الاعتذار بالهجاء وبالمدح ، ثم بعث بها الى الأمير محمد . وفيما يلي أبيات من هذه القصيدة نرى على ضوئها طبيعة شعر الاعتذار والهجاء لدى شعراء هذا العصر في الأندلس . قال عبد الرحمن بن الشَّمِر :

لئن غاب وجهي عنك إن مودتي
لشاهدةٌ في كل يومٍ تُسَلِّمُ

وما عاقني الاّ عدوٌّ مُسلَّطٌ
يُذلُّ ويُقصي مَن يشاء ويُرغِمُ

ولم يستطل الاّ بكم وبعزّكم
ولا ينبغي أنْ يُمنَحَ العزَّ مُجرمُ

فمكّنتموهُ فاستطال عليكمُ
وكادت بنا نيرانهُ تَتَضرَّمُ

فجمّع إخواناً لصوصاً أراذلاً
ومَنّاهمُ أن يقتلونا ويغنموا

فنحمدُ ربّاً سرّنا بهلاكه
فما زال بالإحسان والطّوْل يُنْعم

أراد يكيد اللهَ نصرٌ فكادهُ
ولله كيدٌ يغلب الكيدَ مُبْرَمَ

بكى الكفرُ والشيطان نصراً فأعولاَ
كما ضحكت شوقاً اليه جهنمُ

وكانت له في كل شهرٍ جبايةٌ
جبايةُ آلافٍ تُعَدّ وتُختَم

فهل حائط الإسلام يوماً يسومهم
بما اجترموا يوماً عليه وأقدموا ؟ (١)

* ومن شعر الشكوى ما بعث به هاشم (٢) بن عبد العزيز من سجنه الى جاريته « عاج » :

وإني عداني أن أزورك مُطبَقٌ (٣)
وبابٌ منيع بالحديد مُضَبَّبُ

فإن تعجبي يا « عاجُ » مما أصابني
ففي رَيب هذا الدهر ما يُتعجَب

تركتُ رشاد الأمر ، إذ كنت قادرا
عليه ، فلاقيتُ الذي كنت أرهب

وكم قائلٍ قال : انْجُ ويحكَ سالماً
ففي الأرض عنهم مُستراد ومذهب

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٩٣ — ٤٩٤ .

(٢) كان هاشم وزيرا للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، وكان يحسد لمكانته منه ، فلما توفي الأمير محمد وتولى الحكم بعده ابنه المنذر ، سعى بهاشم خصومه عند الأمير المنذر ، فحبسه ثم قتله وسجن أولاده ، وهدم داره وصادر أملاكه . انظر في ذلك البيان المغرب : ج ٢ ص ١٧٣ — ١٧٥ .

(٣) المطبق : السجن .

فقلت له : إن الفرار مَذلّــــــــةٌ
ونفسي على الأسواء أحــلى وأطيبُ [1]

سأرضى بحكــم الله فيمـا ينوبــني
وما من قضاء الله للمــرء مَهــربُ

فمَن يلك أمسى شامتــاً بي ، فإنــه
سينهــل من كأسي وشيكــاً ويشرب

* ومن شعر « قمر » جارية إبراهيم [2] بن حجاج في عتاب عُذّالها :

قالوا : أتتْ قمرٌ في زيّ أطمــــارِ
من بعدما هتكــت قلبــاً بأشفــارِ

تمشي على وَحَلٍ ، تغدو عــلى سُبُلٍ
تشق أمصار أرضٍ بعــد أمصــارِ

لا حُرّةٌ هيَ مــن أحرار موضعها ،
ولا لهــا غيرُ ترسيــل وأشعــار

لو يعقلون لمــا عابـوا غريبتهــم
لله من أمــةٍ تُزري بأحــــرار

(١) الأسواء : جمع سوء ، وهو اسم جامع لكل آفة وداء .
(٢) كان أبو إسحاق إبراهيم بن حجاج واليا على إشبيلية وقرمونة : وكان جوادا ممدحا يرتاح للثناء ويعطي الشعراء ويتشبه في فعله بكبار الأمراء . وقد سمع بجارية شاعرة في بغداد اسمها « قمر » فبعث الى المشرق بمن ابتاعها له بأموال عظيمة ، ثم أحضرها اليه في إشبيلية فاستقرت بها . وكانت « قمر » مع جمالها ذات فصاحة وبيان ، ومعرفة بالغناء والألحان ، ولها شعر يستحلي ويستحسن . انظر البيان المغرب : ج ٢ ص ١٩٤ .

ما لابن آدمَ فخرٌ غـيرُ همتـه
بعد الديانـة والإخلاص للبـاري

دعني من الجهل لا أرضَى بصاحبـه
لا يَتخلص الجهل من سَبٍّ ومن عارِ

لو لم تكـن جَنةٌ إلاّ لجاهلـةٍ
رضيتُ من حُكْم رَبِّ الناس بالنـار

* ومن شعر أحمد بن عبد ربه الأندلسي في مدح إبراهيم بن حجاج :

ألاَ إن إبراهيمَ لُجّة ساحـلِ
من الجود أرست فوق لجة ساحل

فإشبيلةُ الزهراءُ تزهو بوجهـه
وقرْمونةُ الغراء ذاتُ الفضائـلِ

إذا ما تحلّتْ تلك من نور وجهه
غدتْ هذه للناس في زيٍّ عاطلِ [1]

* * *

وبعد ... فهذه نبذة تاريخية عن إمارة قرطبة التي أسسها « صقر قريش » عبد الرحمن الداخل ، وأتم بناءها من بعده ستة من أبنائه وأحفاده .

ومن خلال هذا العرض التاريخيّ ، رأينا مدى ما بذله أمراؤها من جهود متواصلة ، في إقامة الدولة الأموية الناشئة في بلاد الأندلس ، والنهوض بها في

---

(١) البيان المغرب : ص ١٩١ .

شتى ميادين العمران والفنون والآداب والعلوم . وقد رأينا مثلا على ذلك في النهضة الشعرية ، التي أسهموا فيها بأنفسهم ، وشجعوا عليها شعراء عصرهم .

وإذا كان قد أُتيح للدولة الأموية في الأندلس أن توطد أركانها في عهد إمارة قرطبة المستقلة ، فإنها بلغت بحكم التطور المستمر ذروة الرقي والحضارة في عهد الأمير عبد الرحمن الثالث ، الملقب بالناصر .

فمنذ ولاية هذا الأمير الأمويّ الشاب سنة ٣٠٠ للهجرة ، بدأت الخلافة الأموية في الأندلس ، وفي ظلها أزهرت آداب العرب وحضارتهم في جميع أرجاء البلاد ، كما سنرى في الفصل التالي .

الفَصْل السَادس

خلافة قرطبة

٣٠٠ – ٤٢٢ هـ – (٩١٢ – ١٠٣١ م)

عبد الرحمن الناصر

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الى الأندلس بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأمويّ [١]

ولد أبو المطرف عبدُ الرحمن يومَ الخميس لثمانٍ بقين من رمضان سنة ٢٧٧ هـ، وكان مولده قبل مقتل[٢] أبيه محمد بواحد وعشرين يوما. ووَليَ الملك صبيحة هلال ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ ، في اليوم الذي توفي فيه جده الأمير عبد الله .

وفي يوم ولايته الذي اقترن بظهور الهلال يقول ابن عبد ربه الأندلسيّ من قصيدة :

بدَا الهلالُ جديداً والملكُ غضٌّ جديدُ

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير : ج ٦ ص ١٤٣ .
(٢) انظر خبر مقتل أبيه في كتاب البيان المغرب : ج ٢ ص ٢٢٤ .

يانعمةَ الله زيـــدي إن كان فيكِ مَزيدُ
إن كان للصوم فِطـرٌ فأنتَ للدهر عيدُ [1]

وكان جده يؤثره على بنيه ويخصه دونهم بالحظوة ، حتى لقد كان الوحيدَ الذي يسكن معه في قصره ، وربما أقعده في بعض الأيام والأعياد مقعد نفسه لتسليم الجند عليه . ومن ثمّ تعلقت آمال أهل الدولة به ، ولم يشكّوا في مصير الأمر اليه . وقيل : إن جده رمَى بخاتَمه اليه إبانةً لاستخلافه .

ويبدو أن رأي أعمامه وأعمام أبيه فيه لم يكن دون رأي جده ، ذلك لأنهم أقبلوا جميعا على مبايعته يوم توليه الحكم ، وأثنَوْا عليه بكل جميل .

وكان عبد الرحمن الثالث شاباً في منتصف الرابعة والعشرين من سِني عمره حينما آلتْ اليه مقاليد الحكم في قرطبة ، وقد دام ملكه خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام ، من مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م الى ليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م [2] .

وعبد الرحمن الثالث هذا هو أول مَن تسمّى من أمراء الأمويين في الأندلس بأمير المؤمنين . وقد حدث ذلك حين اضطرب أمر الخلافة بالمشرق واستبد الأعاجم مِن تُرْك ودَيْلم بشئونها في أوائل القرن الرابع الهجريّ ، ولم يتركوا منها لخلفاء العباسيين غير الاسم فقط ! عندئذ اغتنم عبد الرحمن الثالث هذه الفرصة السانحة وأعلن نفسه خليفة، وتلقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وعهد الى صاحب الصلاة بجامع قرطبة القاضي أحمد بن بقيّ بن مخلّد ، بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م بذلك .

وفي الوقت ذاته بعث بكتاب الى جميع عماله يطالبهم فيه بأن تكون الدعوة

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٣٠ .
(٢) البيان المغرب : ج ٢ ص ٢٣٤ .

له في مخاطباته والمخاطبات في جميع ما يجري ذكرُه فيه بأمير المؤمنين . لمـا استحقه من هذا الاسم الذي هوَ له بالحقيقة ، ولغيره بالانتحال والاستعارة [١]
وقد توارث أبناؤه من بعده التلقيب باسم أمير المؤمنين واحدا بعد واحد [٢]

ولم يشهد التاريخ الإسلاميّ عصرا زاهرا كعصره من حيث أعمالـــه ومنجزاتـه ، على الرغم مما واجهه من مشقات وأخطار . ولم يكن كلٌ ما تمّ له في خلافته راجعا الى طول مدة حكمه فحسب ، وإنما كان راجعا أيضا الى مقدرته وحسن سياسته في مواجهة الأحداث وتصريف شئون البلاد والعباد .

وكما يقول ابن عبد ربه الأندلسيّ : تولى الملك عبد الرحمن بن محمد أميرُ المؤمنين ، والأرض جمرة تحتدم ونار تضطرم ، وشقاق ونفاق ، فأخمد نيرانها وسكّن زلازلها ، وافتتحها عَوْداً ، كما افتتحها بَدْءاً سَمِيُّه عبد الرحمن ابن معاوية [٣]

والواقع أن هذه الكلمة على إيجازها تلخص أحوال الأندلس المضطربة الممزقة في مطلع ولايته ، وما كان ينتظره من كفاح وجهاد ، في سبيل إعادة الأمن والاستقرار الى ربوعها .

كانت هيبة الدولة قد ضعفت قبل مجيئه ، فطمع فيها الطامعون وتعددت في جميع أرجائها الثورات من العرب والبربر والنصارى : من ثائر ينقضُّ فيقتطع جزءا من جسم الدولة ، ومن ثائر آخر يحاول أن ينقض فيُجهز على قطعة أخرى من جسمها .

كان الأمر خطيرا إذن ، وكان على عبد الرحمن الثالث الذي نصَّب نفسه خليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين أن ينهض فيرأب الصدع ، وأن يعيد فتح

---

(١) البيان المغرب : ص ٢٩٧ .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٠٩ .
(٣) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٩٨ .

البلاد التي افتتحها بدءاً سميه عبد الرحمن الداخل الى الأندلس

ومن هنا كانت غزواته التي دامت إحدى وعشرين سنة ، من سنة ٣٠١ الى سنة ٣٢٢ هـ ، والتي استطاع بها أن يخضع كل الثوّار ويستنزلهم من معاقلهم وأن يعيد للأندلس وحدتها وأمنها واستقرارها . وقد أطال الشعراء وأطنبوا في مدحه ، ومنهم ابن عبد ربه الذي نظم في غزواته أرجوزة يبلغ عدد أبياتها ٤٤٨ بيتا [١]

ويقول عنه المقّريّ صاحب نفح الطيب : « كان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى بلاد الحرب ، الى أن هُزم عامَ الخندق ، ومحّص [٢] الله فيها المسلمين فقعد عن الغزو بنفسه ، وصار يُردّد الصوائف [٣] في كل سنة ، فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطؤوه قَبلُ في أيام سلفه ، ومدّت اليه أُمم النصرانية من وراء الدروب يدَ الإذعان ، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم ، ... ووصل الى سُدّته [٤] الملوكُ من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين والتمسوا رضاه ، ثم سما الى ملك العُدوة فتناول « سَبتة » ونقل الفُرضة من أيدي أهلها سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، وأطاعه بنو إدريس أمراء العُدوة وملوك زَناتة والبربر ... وبدأ أمره أول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا [٥] » .

وفي موضع آخر من نفح الطيب ذكر المقّريّ عن ابن حيان وغير واحد : أن مُلك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم

---

(١) العقد الفريد : ص ٥٠١ – ٥٢٧ .

(٢) محص : خلص .

(٣) الصوائف : جمع صائفة ، وهي الفرقة تغزو في زمان الصيف .

(٤) السدة : أمام باب الدار ، وقيل : هي الباب نفسه .

(٥) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٣١ .

وازدلفت [1] اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم الا ّ وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية . ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فإنه هاداه ورغب في موادعته [2] »

وقد بلغت الدولة ذروة مجدها في خلافة عبد الرحمن الناصر ، ولم يكن نشاطه مقصورا على غزواته تلك التي أعاد بها الأمن الى البلاد ، وجعلها مرهوبة الجانب في الداخل والخارج ، وإنما تجاوز نشاطه ذلك الى الاصلاحات التي اضطلع بها في شتى الميادين .

وفي عصره نهضت الآداب والعلوم بفضل اهتمامه بها وتشجيعه عليها . ومن ذلك أنه كان يرسل الى القسطنطينية ، والى العراق والحجاز والشام ومصر وإفريقية مَن يشتري له الكتب النادرة ، حتى قيل إن عاهل القسطنطينية وجد من أسباب الحظوة لدى هذا الخليفة أن يُهديَ اليه نسخة بديعة من كتـــاب الحشائش الذي ألفه ديسفوريدس العالم النباتي المشهور .

وكان الناصر أندى الناس كفاً على الشعراء والكتـــاب وأهل الموسيقى وغيرهم ، وتولى حماية من يشتغل بالفلسفة ، حتى طارت شهرة قرطبة في أوربا ، فأمها الناس أفواجا في زمنه وزمن ابنه الحكم ، واختلطوا بالأندلسيين في حلقات العلم .

والواقع أن زمن هذا الخليفة كان شباب الأدب ، ولغلبة العلوم عليه من اللغة والنحو والحديث والفلسفة ، لم يكثر شعراؤه كثرتهم في أواخر هذا القرن والقرنين الخامس والسادس ، وكان من تأثير ذلك أن صار أكثر الفقهاء وسائر أصناف العلماء رواة للشعر والأخبار [3] .

---

(١) ازدلفت اليه : تزلفت له وتقربت اليه .

(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٤٣ ، وموادعته : مهادنته ومسالمته .

(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي : ج ٣ ص ٢٨٣ – ٢٨٤

وأشهر شعراء الناصر ابن عبد ربه الأندلسي صاحب كتاب العقد الفريد ووزيراه أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وعبد الملك بن جهور .

ومن قول ابن عبد ربه فيه :

قد أوضح الله للإسلام منهاجـــا
والناس قد دخلوا في الدين أفواجـا

وقد تزينت الدنيا لساكنهـــا
كأنما لبست وَشياً وديباجـــا

مات النفاق وأعطى الكفر ذمتـهُ
وذَلّتِ الخيل إلجاما وإسراجـــا

أدخلت في قبة الإسلام مارقـــةً
أخرجتَهم من ديار الشرك إخراجا

في نصف شهر تركتَ الأرض ساكنة
من بعد ما كان فيها الجور قد ماجـا

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيـت
حتى عقدت لها في رأسك التاجا (١)

ذلك في إيجاز هو أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله ، الذي لم يشهد التاريخ الإسلاميّ عصرا أزهى من عصره . وقد وافته منيته وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، ووُجِد بخطه تاريخٌ قال فيه : أيام السرور التي صَفَتْ

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٩٩ .

لي دون تكدير يومُ كذا من شهر كذا من سنة كذا ، فعُدَّتْ تلك الأيامُ فوُجد فيها أربعةَ عشرَ يوما ! فاعجب لهذا الخليفة الذي تجاوز السبعين من من عمره ، والخمسين من حكمه، ثم لم يَصْفُ له من الدنيا الاّ أربعةَ عشرَ يوما ! (1)

وإن ذلك ليذكرنا بقول أبي فراس الحمداني :

ما العمر ما طالت به الدهورُ
العمر ما تمَّ به السرورُ

أيامُ عزي ونفاذِ أمري
هي التي أحسبُها من عمري !

وممن رثاه جعفر بن عثمان المصحفي ، ومن مرثيته فيه :

ألاَ إن أياما هفت بإمَامِها
لجائرةٌ مشتطة في احتكامها

تأملْ ! فهل من طالع غير آفلٍ
بِهنَّ ؟ وهل من قاعد لقيامها ؟

وعاينْ ! فهل من عائش برضاعها
من الناس إلاّ ميتٌ بعظامها ؟

كأن نفوس الناس كانت بنفسه
فلما توارى أيقنت بحِمامها (2)

---

(1) البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٤٦ .
(2) البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٤٧ .

الحكـــم المستنـــصر بالله

(٣٥٠ – ٣٦٦ هـ – (٩٦١ – ٩٧٧ م)

تولى الحكَم المستنصر الخلافة بعد أبيه الناصر لثلاثٍ خلون من رمضان سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، ودعا الناس الى بيعته فبايعوه ، واتخذ من جعفر المصحفي حاجباً [١] له ، وجرى على رسم أبيه وطريقته ، حتى ليقال إن سياسته في مجملها كانت امتدادا لسياسة أبيه في الحُكْم .

وافتتح الحكَمُ المستنصر خلافته بثلاثة أعمال كان لها صدى كبير وتأثير عظيم في نفوس العامة : وأولُ هذه الأعمال هو القيام بتوسيع المسجد الجامع بقرطبة ، وثانيها هو الإشهاد أمام الفقهاء والقضاة وأعيان الناس ووجوههم بعتق كل مملوك له من الذُّكْران . وأما العمل الثالث الذي أشهد عليه أيضا ، فهو أنه وقف على ثغور الأندلس كافةً رُبْعَ جميع ما آل اليه بالوارثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كُوَر الأندلس وأقاليمها ، بحيث تُفرَّق غلاتُ هذه الضياع عاما بعد عام على ضعفاء أبناء الثغور ، إلاّ أن يكون بقرطبة مجاعة فتُفرَّق على المعوزين من أهلها حتى يجيرهم الله .

وكان من أمره بعد ذلك أن أنفذ الكتب في محرم من سنة ٣٥١ هـ الى جميع الولاة والقواد والعمال بأقطار الأندلس ، يأمرهم بارتباط الخيل والقيام عليها ، والاستعداد بالأسلحة والآلات برسم الجهاد في سبيل الله ، ثم خرج بما أعده من الجيوش غازيا [٢] .

---

(١) إن لقب الحاجب في الأندلس كان خاصا بكبار الوزراء ، ذلك لأن قاعدة الوزارة بالأندلس كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً ينوب عنه فيسميه بالحاجب ، وقد عظمت هذه السمة حتى كانت أعظم ما تنوفس فيه .

(٢) البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٤٨ – ٣٥٠ .

وكوالده كان له غزوات كثيرة وفتوح ، وكانت شتى الوفود من ملوك الروم والجلالقة وأمراء الأدارسة بالمغرب تقبل عليه للمهادنة أو إظهار الولاء والطاعة .

ومن مآثره إنشاء المدارس والمكاتب ، ويذكر ابن عذارى أنه أنشأ في قرطبة سبعة وعشرين مكتبا للقرآن ، واتخذ لها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين ، وأجرى عليهم الرواتب ، وعهد اليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله .

كذلك أكمل القبة القائمة على المحراب بجامع قرطبة ، وجملها بالفسيفساء التي أهداها اليه ملك الروم ، وذلك اقتداء بما فعله الوليد بن عبد الملك في بنيان مسجد دمشق . وبالإضافة الى ذلك جلب الماء العذب الى الجامع من عين بجبل قرطبة ، وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة ، أودع في جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنَس ، وقد ابتنى بغربيّ هذا الجامع دار الصدقة ، واتخذها معهدا لتفريق الصدقات (١)

* * *

وكان الحكم المستنصر محبا للعلوم ، مكرما لأهلها ، جمّاعا للكتب بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، حتى بلغ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعا وأربعين فهرسة ، في كل واحدة عشرون ورقة ، ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لا غير ، وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة (٢) ، جلبت اليها بضائعه من كل قطر .

وكان يبعث الى الأقطار في شراء الكتب رجالا من التجار ، ويرسل اليهم

---

(١) البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٨ .

(٢) يقال : « نفقت السوق تنفق » إذا راجت وكثر طالبو ما فيها .

الأموال لشرائها ، حتى جلب منها الى الأندلس ما لم يعهدوه ، وبعث في كتاب « الأغاني » الى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ، وكان نسبُه في بني أمية ، وأرسل اليه فيه بألف دينار ذهبا ، فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرجه الى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك . وجمع بداره الحُذّاق في صناعة النسخ ، والمهَرَة في الضبط والإجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا بعده ، الاّ ما يُذكر عن أحمد الناصر العباسي بن المستضيء .

قال ابن خلدون : ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أكثرها في حصار البربر ،وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب « واضح » من موالي المنصور ابن أبي عامر ، ونُهب ما بقِيَ منها عند دخول البربر قرطبة ، واقتحامِهم إياها عَنْوةً [1] .

وقال بعض المؤرخين في حق الحكَم وعنايته بالكتب : .... إنه جمع من الكتب ما لا يُحد ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل : إنها كانت أربعمائة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ، وكان عالما نبيها ، صافي السريرة .... وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي ، باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها .

وقد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمُه ، ودق نظره، وجمّت استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحْوَذِيّاً نسيجَ وحده وكان ثقة فيما ينقله ، وقلما يوجد كتاب من خزائنه ، الاّ وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الاّ عنده لعنايته بهذا الشأن [2] . فرجل هذا

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٦١ – ٣٦٣ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٧١ – ٣٧٢ .

شأنه في نشر التعليم ومحبة العلم وإكرام أهله ، لا يمكن الاّ أن يكون عصره عصرَ العلماء والأدباء .

* * *

أما الشعر في عصره فهو من نوع « شعر المناسبات » يدور أكثره على مدح بعض أعمال الخليفة الحكم المستنصر أو تهنئته بميلاد أولاده . ولا يعرف من مشاهير عصره في الشعر غير حاجبه جعفر بن محمد المصحفي ، وهو معدود في الطبقة الثانية من شعراء الأندلس .

وبجانب المصحفي ظهر في زمن المستنصر بعض شعراء آخرين من أمثال الرمادي ، وعبد الملك بن سعيد ، ومحمد بن شخيص ، ويوسف بن هارون ، ومنذر بن سعيد البلوطي ، وهؤلاء يعدون في الطبقة الثانية

ومن الكتب التي ألفت للحكم المستنصر كتب في شعراء الأندلس ، منها أخبار شعراء « ألبيرة » في عشرة أجزاء لمطرف بن عيسى الألبيري المتوفى سنة ٣٥٧ ه ، و « ألبيرة » لم تكن الاّ مدينة من مدن الأندلس ، فكيف بسائرها ؟ الاّ أن الشعر كان كثيرا في علماء اللغة والنحو وغيرهما [١] .

وفي زمنه أيضا نبغ بإشبيلية محمد بن هانيء الشاعر الشهير ، ولكنه رحل عن الأندلس الى إفريقية ، ومدح المعز لدين الله صاحبِ مصر وغيرَه ، وتوفي سنة ٣٦٨ ه .

وكان المستنصر نفسه شاعرا ، ومما ينسب اليه من النظم قوله متغزلا :

عجبتُ وقد ودَّعْتُها كيف لم أمت
وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي ؟

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي : ج ٣ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

فيامقلتي العَبْرى عليها اسكبي دَمـــاً
وياكبدي الحَرَّى عليها تقطّعي [1]

الحـــاجب المنصـــور

هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، وينتهي في نسبه الى عبد الملك المَعافريّ الوافد على الأندلس مع طارق بن زياد في أول الداخلين من العرب . وذكر المؤرخون أنه من قرية « تركَش » وأنه رحل الى قرطبة وتأدب فيها ، ثم اتخذ لنفسه دكانا عند باب القصر يكتب فيه لمن يَعنُّ له كتابة أي شيء من الخدم ومرافقي السلطان ، الى أن طلبت السيدة أم هشام مَن يكتب عنها ، فعرَّفها به مَن كان يأنس اليه بالجلوس من فتيان القصر ، فكتب عنها فاستحسنته ، ولفتت نظر الحكم اليه فولاَّه قضاء إشبيلية ولبلة ، وأظهر ابن أبي عامر في قضائه ذكاء أهلّه لمزيد من الترقي حتى استوزره الحكم .

ولما توفي الحكم سنة ٣٦٦ هـ ووليَ ابنُه هشام المؤيد، وهو شاب في الثانية عشرة من عمره ، تحركت الروم ضده، فجهز حاجبُه المصحفيُّ ابنَ أبي عامر لدفاعهم ، فنصره الله عليهم ، وتمكن حبه من قلوب الناس .

وكان ابن أبي عامر ذا عقل ورأي وشجاعة وبصَرٍ بالحروب ، وقد حدَّثه طموحه بالتغلب على هشام ، فاتخذ الدهاء طريقا الى ذلك ، حتى غلب على هشام ومنع الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من الأيام يسلمون وينصرفون.

وقد استعان في ذلك بالجند فزاد في أعطياتهم ، وبالعلماء فأعلى من مراتبهم ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عاندوه وزاحموه ، فمال عليهم ، وقتل بعضا

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٧٢ .

ببعض باسم هشام وخطه وتوقيعه ، ومن هؤلاء الحـــاجب المصحفيّ الذي نكبه وسجنه ثم محا أثره من الدولة .

وهكذا تغلب على هشام ، ومنعه من التصرف ، واستولى على الدولة ، واستقل بالملك ، وقدّم البرابرة وزَناتة وأخّر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم ، وبنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة ، ونقل اليها خزائن الأمــوال والأسلحة ، وقعد على سرير الملك ، وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك وتَسمىّ بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يُبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثرَ من الدعاء له على المنابر .

وعندما تأكد الحاجب المنصور من أن سلطان الدولة صار له ، استأنف الغزو بنفسه الى دار الحرب ، فغزا ستا وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه ، لم تنتكس له فيها راية ، ولا فُلّ له جيش ، ثم عبر بجيشه الى شمالي إفريقية ، وضرب ملوك البرابرة بعضَهم ببعض ، حتى انقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه .

وتوفى المنصور سنة ٣٩٢ هـ ودفن بمدينة سالم في أقصى شرق الأندلس وذلك عند منصرفه من بعض غزواته . وقد دام ملكه ستا وعشرين سنة [١]

* * *

وكان الحاجب المنصور بن أبي عامر أديبا شاعرا ، محبا للعلوم ، مؤثرا للأدب . وكان يبالغ في إكرام من يقبل عليه من العلماء والأدباء والشعراء ، وجُودُه مع أبي العلاء صاعد اللغويّ البغداديّ حين قدم عليه سنة ٣٨٠هـ مشهور . ومن ذلك أنه اتخذ له مرة قميصا من رِقاع الخرائط التي كانت تصل اليه فيها الأموال منه ، وجعـــل ذلك حيلة الى بلوغ الغاية من كرمه . وقد ألف له

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٧٣ – ٣٧٦ .

أبو العلاء صاعد كتبا غريبة في السياسة والأدب ، على غرار كليلة ودمنة .

وكان للمنصور مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم والمناظرة بحضرته أثناء مقامه بقرطبة ، لأن غزواته المتصلة الى بلاد الروم كانت تشغل معظم وقته.

وإمام الشعراء في أيامه عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ وقيل ٤١٩ هـ وهو أول من أتقن الموشحات بالأندلس حتى كأنها لم تسمع الا منه . ومن مشاهيرهم الرمادي ، وابن دراج القسطلي ، وعمرو بن أبي الحباب ، والوزير محمد بن حفص بن جابر ، وسعيد الشنتريني ، وأبو بكر محمد بن نهور ، والوزير الجزيري الذي كان يخاطب المنصور بلسان أزهار رياضه التي توافق أسماء كرائمه وعقائله ، كاسم نرجس العامرية ، أو بهار العامرية ، أو بنفسج العامرية (١) .

وفي عصر المنصور الذي اتصل فيه الغزو والجهاد تشدد العلماء في الدين ، ونتيجة لذلك فشا في العامة اتهام كل من يشتغل بالفلسفة في دينه ، ولم يسلم الشعراء أنفسهم من هذه التهمة ، كابن هانيء الذي رموه بالزندقة فاضطر الى الرحيل عن الأندلس الى إفريقية ، وكالشاعر أبي عبد الله البجالي الذي وفد على المنصور ، واتهم في دينه ، فسجنه المنصور في المطبق زمنا .

وكان المنصور نفسه أشد الناس في التغير على من عنده شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد ، والتكلم في شيء من قضايا النجوم وأدلتها ، والاستخفاف بشيء من أمور الشريعة . وقد أحرق ما كان في خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضر كبار العلماء : منهم الأصيلي وابن ذكوان والزبيدي وغيرهم واستولى على جميع حرقها بيده .

وممن أوقع به المنصور في مثل هذه المعاني المنكرة محمد بن أبي جمعة بلغه عنه قول من الإرجاف في القطع على انقراض دولته ، فقطع لسانه ثم قتله وصلبه

---

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٧١ .

فخَرِست ألسن جميعهم لذلك . وكذلك أيضا عبد العزيز بن الخطيب الشاعر وكان أرفع أهل هذه الطبقة منزلة ، وكان مقدما في أصحاب المنصور حتى فسَد ضميره عنده ،وبقي مدة يلتمس غرة منه ، الى أن قال بعضَ أبيات أفرط فيها ، فأمر بضربه خمسمائة سوط ، ونودي عليه باستخفافه ، ثم حبسه ونفاه بعيدا عن الأندلس [1] . وقد بقيت الفلسفة بعد ذلك مضطهدة في الأندلس من عامتها .

ومع ذلك نهض الأدب في زمن المنصور حتى صار حلية الشباب ، وزينة النشأة الأندلسية ، والشعرُ الغالب في هذا العصر هو شعر المدح ، والغزل ، والوصف ، والفخر بانتصارات المسلمين في غزواتهم ، وشعر الاستعطاف من قبَل بعض مَن سجنهم المنصور في المطبق ، كالحاجب جعفر بن عثمان المصحفيّ .

* وكان المنصور ابن أبي عامر شاعرا ، ومن شعره في الفخر :

رميت بنفسي هولَ كلِّ كريهة
وخاطرت ، والحر الكريم يخاطرُ

وما صاحبي إلاّ جَنان مُشيَّعٌ [2]
وأسمرُ خطيٌّ وأبيضُ بَاترُ

وإني لَزجّاءُ الجيوش الى الوغَى
أسودٌ تلاقيها أسودٌ خوادر [3]

رفعنا المعالي بالعوالي حديثةً

---

(١) البيان المغرب : ج ٢ ص ٤٣٧ – ٤٣٨ . (٢) جنان مشيع : قلب شجاع
(٣) الخوادر : جمع خادر ، وأسد خادر : مقيم في عرينه .

وأورثناها في القديم معافرٌ

ومن شعره يُمنّي نفسه فيه بملك مصر والحجاز :

منع العينَ أن تذوق المناما حبُّها أن ترى الصّفا والمقاما
لي ديون بالشرق عند أناسٍ قد أَحلُّوا بالمشعَرَيْن الحراما
عن قريب ترى خيول هشامٍ يبلغ النيلَ خطوُها والشآما [1]

* ومن شعر الاستعطاف ما بعث به الحاجب المصحفي من سجنه الى المنصور بن أبي عامر :

هبني أسأتُ فأين العفو والكرمُ
إذ قادني نحوك الإذعان والندمُ ؟

ياخير مَن مُدَّت الأيدي اليه : أمَا
ترثي لشيخ نعاه عندك القلمُ ؟

بالغتَ في الحطِّ فاصفحْ صفحَ مقتدرٍ
إن الملوك إذا ما استُرحِموا رَحِموا

فأجابه المنصور بقوله :

الآن ياجاهلاً زلتْ بك القدمُ
تبغي التكرُّم لمّا فاتك الكرمُ

(١) البيان المغرب : ج ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

أغريتَ بي ملكـــاً لولا تثبُّتُـــــه
ما جاز لي عنده نطـــق ولا كلِمُ

فايأس من العيش ، إذ قد صرت في طبَقٍ
إن الملوك إذا ما استُنقِموا نَقَمُـــوا

نفسي إذا سخِطت ليست براضيـــة
ولو تشفّع فيك العُـــرْب والعجـمُ !

ولكن الحاجب المصحفيّ يعود فيستعطفه بأبيات تثير الأسى حقا :

عفا الله عنك ! ألاَ رحمـةً تجود بعفوك إن أبعـــدا ؟
لئن جلّ ذنبي ، ولم أعتمده فأنت أجلُّ وأعلى يـــدا
ألم تر عبداً عـــدَا طـوره ومولىً عفَا ورشيداً هدى ؟
ومفسدَ أمرٍ تلافيتَـــــــه فعاد فأصلح ما أفسَدَا ؟
أقلني ! أقالك مـــن لم يزلْ يقيك ، ويصرف عنك الردى[1]

ومن وصف الشراب للمصحفيّ في أيام عزه قوله :

صفراء تُبرق في الزجاج ، فإن سرَتْ
في الجسم دبّتْ مثلَ صِلٍّ لاَدغِ

عبِث الزمان بحُسْنها فتستّـــرتْ
عن عينـــه في ثوب نورٍ سابـــغِ

(١) البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٩٩ .

خفَيتْ على شُرّابِها ، فكأنما
يجدون رِيّاً في إناءٍ فارغِ [1]

* * *

وبموت المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٩٢ هـ ، ومقتل ابنه عبد الرحمن الحاجب بن المنصور ، ذهبت الدولة العامرية كأن لم تكن ، ثم عادت السلطة الى البيت المرواني ، وتعاقب فيها خلفاء مستضعفون ، الى أن انتهت بخلع هشام الثالث المعتدّ بالله سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م ، فكان آخرَ خليفة أمويّ في قرطبة . وبخلع أهل قرطبة له ، انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب . وبانقراض الخلائف قام الطوائف من أمراء ورؤساء البربر والعرب والموالي يقتسمون خطط البلاد ، ويبدءون في تاريخ الأندلس عصرا جديدا هو عصر ملوك الطوائف .

(٢) البيان المغرب : ص ٣٨١ .

الفصل السابع

ملوك الطوائف

(٤٠٠ – ٥٣٦ ﻫ (١٠١٩ – ١١٤١ م)

ذكرنا في الفصل السابق أن عصر ملوك الطوائف بالأندلس بدأ بعد انتهاء ملك الأمويين فيها بخلع هشام الثالث سنة ٤٢٢ ﻫ / ١٠٣١ .

والواقع أن عصر ملوك الطوائف قد بدأ قبل هذا التاريخ بنحو عشرين سنة وعلى التحديد بعد ذهاب دولة المنصور بن أبي عامر ، وقيام الصراع بين أمراء المروانيين على الخلافة .

وكان من نتائج هذا الصراع الذي زاد من ضعف الدولة وقلّل من هيبتها في الداخل والخارج ، أن أغرى الطامعين فيها وجرّأهم عليها . ومن ثَم أخذ يغتنم هذه الفرصةَ المتاحةَ كلُّ من يأنس في نفسه القدرة من رؤساء الطوائف من العرب والموالي ، فيستقل بإمارته ، ويسمّيها دولة يُنصّب نفسه ملكا عليها ويتخذ من أهم مدينة فيها عاصمة له .

ولم تكد الدولة الأموية تبلغ نهايتها وينفرط عِقدُها ، حتى استحالت الى دول كثيرة صغيرة ، يحكمها ملوك عُرفوا في تاريخ الأندلس بملوك الطوائف ومن دول الطوائف ما دام حكمها نحو قرن وثلث قرن كدولة بني هود ، وما دام نحو قرن كدولة بني رَزين ، وما دام نحو ربع قرن كدولة بني مُزَين .

أما زمن الحكم في بقيتها فيزيد أو ينقص قليلا عن نصف قرن . وفيما يلي أهم هذه الدول :

* دولة بني هود

في سرقسطة وما إليها ، ودام ملكها من سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م الى سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م ، وهي دولة عربية ، ومن أشهر ملوكها المقتدر بالله وكان شاعرا ، وابنه يوسف المؤتمن كان عالما بالرياضيات ، وله فيها تآليف ، منها كتاب الاستكمال والمناظر . ومن شعر المقتدر بن هود قوله في مبانيه :

قَصْرَ السرور ومجلسَ الذهبِ بكما بلغتُ نهاية الأربِ
لو لم يَحُز ملكي خلافكما كانت لديّ كفايةُ الطلبِ [1]

* بنو رزين :

بالسهلة وحاضرتهم شنتمرية الشرق ، أو شنتمرية عبود بن رَزين ، حكموا من سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ م الى ٤٩٧ هـ/ ١١٠٦ م . وبنو عبود من البربر الذين وُلدوا بالأندلس ، ومن ملوكهم عبد الملك بن عبود بن رزين وكان أديبا شاعرا [2] .

* بنو حمود

وهم ينتمون الى علي بن حمود الحسني من عقب إدريس ملك فاس وبانيها. وقد عبر علي بن حمود مع البربر من المغرب الى الأندلس بقصد إقامة دولة

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٤١٦ – ٤١٧ .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير : ج ٧ ص ٢٩٣ .

علوية فيها ، وهناك دعا لنفسه بالخلافة ، واستطاع أن يستوليَ على قرطبة سنة ٤٠٧ / ١٠١٦ م ، وأن يقتل خليفة الأمويين سليمان المستعين ، وأن يلي الحكم بعده ويلقب نفسه بالناصر ، ولكن بعد سبع سنين من حكمه رجع الملك الى بني أمية ،ثم عاد هو فاسترجعه منهم لمدة عامين ،الى أن قتله صقالبته بالحمام . فوليَ مكانه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون .

وقد تعاقب على الحكم في دولة بني حمود العلوية أحد عشر ملكا ، وتنقلوا بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ، ثم انقرضت دولة الأشراف الحموديين بمقتل آخر ملوكها القاسم الواثق سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، بعد أن كانوا يدّعون الخلافة ، وصارت الجزيرة الخضراء من بعدهم للمعتضد بن عباد .

وكان إدريس بن يحيى أحدُ ملوك الحموديين أديبا جيد الشعر . وهو الذي مدحه أبو زيد عبد الرحمن بن مَقانا الفَنداقي الأُشبوني بقصيدته الشهيرة التي مطلعها :

ألبرقٍ لائحٍ من أندرينْ	ذرفتْ عيناك بالدمع المعينْ ؟

ومنها في مدحه :

وكأن الشمس لمّا أشرقتْ	فانثنت عنها عيونُ الناظرينْ
وجهُ إدريسَ بنِ يحيى بن علي	بنِ حمودٍ أميرِ المؤمنين
فبيسراه يسارُ المعسرين	وبيمناه لواءُ السّابقين
يابني أحمدَ ياخير الورى	لأبيكم كان وفدُ المسلمين
خُلقوا من ماء عدلٍ وتُقىً	وجميع الناس من ماء وطين
انظرونا نقتبسْ من نوركم	إنه من نور ربِّ العالمين

قيل : إن الشاعر أنشده إياها من وراء حجاب ، اقتفاء لطريقة خلفاء

العباسيين وبعض خلفاء [1] الأمويين من قبلهم ، فلما بلغ الشاعر الى قوله :

انظرونا نقتبسْ من نوركـم إنه من نور ربِّ العالمـين

أمر يحيى حاجبه أن يرفع الحجاب ، وقابل وجهُه وجهَ الشاعر دون حجاب [2] .

* بنو عامر :

من أعظم ملوك الطوائف الموالي العامريون ، وكانت حاضرتهم بلنسية ، ومنهم زهير العامري الذي أخرج المؤيد هشام بن الحكم من « المريّة » عندما ظهر بعد اختفائه وانقطاع أخباره . وقد حكم بنو عامر من سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م الى سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ م.

* بنو الأفطس :

وهم من مشاهير ملوك الطوائف ، وينتمون في الأصل الى بربر مكناسة ، وحاضرتهم بطليوس وحكموا من سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م الى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م . ولدولة بني الأفطس أثر في نهضة العلوم والفنون ، ومنهم ابن الأفطس الملقب بالمظفر ، صاحبُ التاريخ المسمّى « بالمظفري » . وكان المتوكل ابنه في بطليوس كالمعتمد بن عباد بإشبيليَة ، وقد قُتل على يد جيش يوسف بن تاشفين ، ومن قبله قتلوا ولديه وهو ينظر اليهما . وفي رثائه ورثاء ملوك بني الأفطس ، قال ابن عبدون رائيته المعدودة من غُرر القصائد الأندلسية ، والتي مطلعها :

---

(١) كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ : ص ٣١ – ٣٢ .

(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٤٠٦ – ٤١٠ .

الدهر يفجع بعد العين بالأثرِ
فما البكاء على الأشباح والصورِ ؟

ومن شعر المتوكل ما خاطب به وزيره أبا غانم :

انهض أبا غانم الينا
واسقط سقوط الندى علينا

فنحن عقدٌ من غير وُسطَى
ما لم تكن حاضرا لدينا [1]

* بنو عبَّاد :

وهم ملوك إشبيليّة وغربِ الأندلس ، حكموا من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م الى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، وكانت دوله بني عبَّاد من أبهج الدول كرماً وفضلا وأدبا . ومن ملوكها المعتمد بن عبَّاد : كان أكبر ملوك الطوائف . وأكثَرَهم بلادا . وكان يُشبّه بهارون الرشيد : ذكاءَ نفسٍ وغزارةَ أدب . وشعرُه من طبقة عالية ، واجتمع له من الشعراء وأهلِ الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من الملوك . وكان مجلسه ملتقى الرجال ، وموسمَ الشعراء وأفاضلِ الأدباء وقد كانت نهايته على يد الأمير يوسف بنْ تاشفين من أفجع النهايات . وشعره الذي يصور فيه نكبته من أفجع الشعر حقا !

* بنو جهور :

قامت دولتهم في قرطبة بعد سقوط الخلافة الأموية ، وحكموا من سنة

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر : ج ٢ ص ١٩ و ٢٢٨ .

٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م الى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ، وأول ملوكهم أبو الحزم بن جهور ، وكان وزيرَه ابنُ زيدون صاحب « الرسالة الجدية » التي بعث بها الى أبي الحزم يستعطفه عندما غضب عليه وسجنه .

* **بنو ذي النون :**

في طليطلة ، ودام ملكهم من سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م الى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وأصلهم من بربر المغرب ، وكانت لهم دولة كبيرة ، وبلغوا في البذخ والترف الغاية .

* * *

وبعد ... فهؤلاء هم ملوك الطوائف : أخلاط من العرب والبربر والموالي استقلوا بولايات الأندلس المختلفة ، منذ سقوط الخلافة الأموية في قرطبة ، ثم راحوا يتنازعون الأمر فيما بينهم .

لم يكن عندهم غَناء لدفاع العدو المغير عليهم ، لتفرق كلمتهم ، ومحاربة بعضهم بعضا ، وانهماكهم في اللهو والمجون ، على حين وقف العدو لهم بالمرصاد ، يستخلص منهم الجزية لقاء الكف عن قتالهم ، ولا يفتأ يغير عليهم في الأندلس ، ويستولي على بلادهم من أطرافها ، مهددا لهم بالاكتساح الشامل عند أول فرصة .

وقد روَّعهم حقا أن يروا الفونسو السادس ملك قشتالة يبلغ في إحدى غاراته عليهم جزيرة طريف ، ثم يُقحم بفرسه في البحر ويقول متبجحا : «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئتُه ، وهنا يجب أن تنتهي جنودي» .

فلما بلغ الخطر بالبلاد وبهم الى هذا الحد ، التمسوا النصح عند كبيرهم المعتمدِ بن عبَّاد ملك إشبيليَة ، وكان يَهمُّ بطلب معونة المرابطين ، فحذروه

من ذلك قائلين : « السيفان لا يجتمعان في غمد واحد». فأجابهم بكلمته المشهورة : « رعيُ الجمال خير من رعي الخنازير » فاقتنعوا برأيه ، وكتب ابن عبّاد الى الأمير يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين الفتية بالمغرب يسأله العون والنجدة ، وسرعان ما لبّى يوسف النداء ، وعبر بجيوشه الى الأندلس لنصرة الإسلام فيها ، وهناك التقى بجيش الفونسو السادس قرب مدينة بطليوس ، وهزمه شر هزيمة في معركة « الزلاّقة » الحاسمة . وكان ذلك في يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ ﻫ / ١٠٨٦ م .

ثم عاد يوسف الى المغرب بعد زوال الخطر عن الأندلس ، تاركا وراءه قطعة من جيشه تحت تصرف ملوك الطوائف لحماية الثغور ودفاع العدو ، ولكن سرعان ما نسي ملوك الطوائف خطر العدو ، واستأنفوا حياتهم الأولى ، حياةَ اللهو والمجون والتناحر فيما بينهم معرّضين بلادهم بذلك للفقد والضياع من جديد !

ورأى أهل الأندلس ما آل اليه حال ملوكهم من الضعف والتردّي ، ثم رأوا معاودة العدو إيّاهُم والانقضاضَ على بلاد الإسلام، فتعالى الصريخ الى يوسف في هذه المرةِ من فقهاء الأندلس وأعيانها وعامتها مستغيثين به ، فأسرع الى نجدتهم سنة ٤٨٣ ﻫ / ١٠٩٠ م ، وأوقف العدو عند حده .

وفي هذه المرة شرع يوسف في خلع ملوك الطوائف الواحد إثر الآخر ، بعدما ثبت له من تخاذلهم وتواطؤ بعضهم مع العدو ، ولم تأت سنة ٤٩٥ ﻫ / ١١٠١ م حتى تمت للمرابطين السيطرة على الأندلس ، وضموها لدولتهم ، وبذلك أصبح القطران : المغرب والأندلس دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش .

* * *

ومهما قيل في تقييم ملوك الطوائف من الناحية السياسية ، فإن الأدب الأندلسيّ في عصرهم كان قد عدا طور نشأته ، ولهذا سار في وجهته غير مبالٍ

بقيام الملوك وسقوطهم، لأنه بطبيعته لايقوم بهم ولا يسقط معهم الا في أوائل نشأته

في عصر الدولة الأموية كان للأدب مركز واحد يصدر عنه ويرد اليه هو قرطبة عاصمة الخلافة، أما في عصر ملوك الطوائف فقد تعددت مراكز الثقافة بتعدد عواصمهم، وراح هؤلاء الملوك يتشبهون بالخلفاء في كل شيء حتى في انتحال ألقابهم من مثل المنصور والمؤيد والمعتضد والمعتمد.

ولما كان أغلبهم شعراء من أمثال المقتدر بن هود، والمعتصم بن صمادح، وعبد الملك بن رزين، وإدريس بن يحيي، والمظفر بن الأفطس، وأبي الحزم ابن جهور، والمعتمد بن عبّاد، فقد راحوا يتنافسون في استمالة العلماء والأدباء والشعراء الى عواصمهم، ويعمل كل واحد منهم على تشجيع الحركة العلمية والأدبية والفنية في وطنه ومقر حكمه وملكه. ويستقدم أكابر علماء المشرق للإفادة من علمهم.

وهكذا نرى الأندلس بفضلهم تنهض في القرن الخامس وأوائل السادس نهضة واسعة في أدبها من شعر ونثر، حتى ليعد عصرهم من أزهى عصور الأندلس الأدبية.

ولم يفت بعض شعراء هذا العصر أن ينقدوا ملوكهم سياسيا واجتماعيا. وأن يأخذوا عليهم انشغالهم باللهو والمجون ومظاهر الملك الكاذبة عن مقاومة أعداء البلاد الطامعين فيها.

ومن ذلك الشعر قول ابن رشيق القيرواني:

مما يزهّدني في أرض أندلسٍ
سماعُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ
ألقابُ مملكة في غير موضعها
كالهرِّ يحكي انتفاخاً صَوْلةَ الأسدِ[1]

---

(١) نفح الطيب: ج ١ ص ١٩٩.

ومنه قول عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن الغسّال في سقوط طليطلة :

يأهل أندلسٍ حُثّوا مَطيّكمُ
فما المقام بها إلاّ من الغلطِ

الثوب ينسل من أطرافه ، وأرى
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

مَن جاور الشر لم يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيّات في سَفَطِ ؟ (١)

ومنه قول الشاعر أبي القاسم بن الجَدّ :

أرى الملوك أصابتها بأندلسٍ
دوائرُ السوء لاتُبقي ولا تذرُ

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قمرٌ
هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا

وكيف يشعر مَن في كفّه قدحٌ
يحدو به مُلهياه : النايُ والوترُ ؟

(١) النبوغ المغربي لعبدالله كنون : ج ١ ص ٦٦ .

الفصل الثامن

دولة المرابطين في الأندلس

٤٩٥ ــ ٥٥٥ هـ ــ (١١٠١ ــ ١١٦٠ م)

عرفنا من الفصل السابق كيف استولى المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على الأندلس ، وجعلوا منها ومن المغرب دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش ابتداء من سنة ٤٩٥ هـ/١١٠١ م .

وقبل الاستطراد الى ما كان من أمر المرابطين في الأندلس بعد سيطرتهم عليها ، نرى أن نشير بإيجاز الى نشأة هذه الدولة في المغرب ، والى الدعوة التي قامت عليها ، واتخذتها دستورا لحكمها ، لما سيكون لذلك من انعكاس على حكمها في الأندلس .

نشأت دولة المرابطين في المغرب ، والفضل في وجودها يرجع الى يحيى بن إبراهيم الكدالي ، أحد زعماء قبائل صنهاجة التي كانت تسكن صحراء شنجيط « موريتانيا حاليا » .

كان يحيى الكدالي رجلا صحيح الإسلام ، وتلميذا غير مباشر لعالم من قبائل زناتة يدعى أبا عمران الفاسي . وقد ساء يحيى أن يرى الجهل بالدين فاشيا بين قبائل صنهاجة ، وتلافيا لذلك استعان بأبي عمران على إصلاح هذا الأمر ، فأمده سنة ٤٣٠ هـ بفقيه من أهل الدين الأذكياء ، هو عبد الله بن ياسين الجزولي ليقوم بين القبائل بالدعوة والإرشاد .

ودخل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة بقصد تعليمهم القرآن وتفقيههم في الدين ، فوجد القوم هناك على جهل مطبق ، لا يفرقون بين حلال وحرام ، ولا يعرفون من الإسلام غير الشهادتين ، ويتزوجون أكثر من أربع نسوة، فجعل يقرئهم القرآن ، ويبين لهم أصول الدين ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فثقلت وطأته عليهم ، ونفرت منه قلوبهم .

وحدث أن مات راعيه يحيى بن إبراهيم ، فزاد ذلك في إعراضهم عنه . فخرج مع مَن ثبت منهم على دعوته الى رباط [1] ناءٍ في أقاصي الصحراء ، حيث أقاموا يعبدون الله ، ويطبِّقون تعاليم دينه ، وما لبثوا هنالك الاّ قليلا حتى تسامع بالفقيه الناس ، فأقبلوا عليه . وبلغ عدد أتباعه من زعماء صنهاجة ورؤسائها نحو ألف رجل ، فسمّاهم هو أو سمّاهم الناس « المرابطين » من أجل ملازمتهم لذلك الرباط . وكان من عادتهم أن يضعوا لثاما على وجوههم فسُمّوا أيضا « بالملثمين » .

وقضى عبد الله بن ياسين إحدى وعشرين سنة في تربية المرابطين وإعدادهم دينيا وروحيا للدعوة ، وحربيا إذا اقتضى الأمر . ولما كثرت جموع أتباعه من المرابطين ، وقويت شوكتهم ، ندبهم للجهاد وخرج على رأسهم : مَن أطاعهم وأخذ بمبادئهم سالموه ، ومن خالفهم قاتلوه .

وحدث أن استشهد هذا الزعيم المرابطيّ ابن ياسين سنة ٤٥١ هـ ، فوليَ أمرَ المرابطين من بعده أبو بكر بن عمر اللمتونيّ ، الذي لم يلبث أن سلّم سلطاته الى ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونيّ ، وانقطع هو الى الجهاد في بلاد السودان

ولما كان يوسف رجلا ذا حزم وعزم ، فقد صبَتْ همته الى توحيد المغرب تحت إمرته ، ومن ثَمّ خرج بجيشه يفتتح مدائن المغرب ، ولم تأت سنة ٤٥٤هـ

---

(١) الرباط في الأصل : الإقامة في الثغر على جهاد العدو بالحرب ، وهو هنا مكان ينفرد به المسلمون للعبادة ويتأهبون فيه للجهاد ، فهو بيت دين وحرب .

/ ١٠٦٢ م ، حتّى دان له كلٌّ من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط ، ونقل عاصمة ملكه من فاس الى مراكش التي بناها في ذات السنة .

ثم حدث أن توفي ابن عمه أبو بكر بن عمر بعد أن بلغ بجهاده في سبيل الله الى السودان ونهر النيجر ، فدخلت هذه البلاد كلها أيضا في طاعة يوسف وبذلك عظم أمره ، وذاع صيته .

* * *

هذا عن نشأة دولة المرابطين والأطوار التي مرت بها حتّى سيطرت بقيادة يوسف بن تاشفين على المغربين : الأقصى والأوسط ، وعلى بلاد السودان الى نهر النيجر .

أما عن الأساس الذي قامت عليه دعوتها فهو العلم ، مع الاهتمام بعلوم الدين ، وأما عن شعارها أو طابعها الخاص فهو الزهد والتقشف ، وأما عن الدستور الذي سارت عليه منذ نشأتها ، فهو العمل على إصلاح الفساد ، وتطهير المجتمع من عوامل الشر ، ونشر الفضائل الدينية ، وتطبيق الشريعة الإسلامية كما جاء بها صاحب الرسالة المحمدية .

وفي الوقت الذي بلغت فيه دولة المرابطين بالمغرب ذروة قوتها على يد مؤسسها يوسف بن تاشفين ، كانت الأندلس على الجانب الآخر تعاني من ضغط الغزو المسيحيّ من الشمال ، ومن ملوكها الذين أسرفوا على أنفسهم في المجون واللهو ، وفي معاداة بعضهم بعضا الى الحد الذي أطمع أعداء البلاد فيها .

ولما استصرخ أهل الأندلس بالأمير يوسف ، لبّى نداء الأخوة الإسلامية وعبر اليهم بجيش المرابطين ، وأنقذهم من عدوهم الخارجيّ مرتين : الأولى في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، والثانية في سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، وفي هذه المرة قضى على ملوك الطوائف ، وضم الأندلس الى ملكه ، ونفّذ فيها دستور المرابطين القائم على تطبيق الشريعة الإسلامية .

* * *

ويقول ابن الأثير في تاريخه عن يوسف بن تاشفين : « ولما ملك الأندلس جمع الفقهاء وأحسن اليهم ، فقالوا له : ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجبَ طاعتك على الكافة ، فأرسل الى الخليفة المستظهر بالله العباسي رسولا ومعه هدية كبيرة ، وكتب معه كتابا يذكر ما فتح الله من بلاد الفرنج ، وما اعتمده من نصرة الإسلام ، ويطلب تقليدا بولاية البلاد ، فكتب له تقليدا من ديوان الخلافة بما أراد ، ولُقّب أميرَ المسلمين ، وسُيِّرت اليه الخِلَع فسُرَّ بذلك سرورا كثيرا [1] » .

* * *

ولما توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، قام بأمر دولة المرابطين من بعده ابنه علي بن يوسف . وتلقب أيضا بأمير المسلمين وجرى على سَنَنِ أبيه في الغزو والجهاد .

وفي سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م خرج أذفونش صاحب طليطلة بجيش كثيف بغية الاستيلاء على بلاد الإسلام في الأندلس ، فلقيه أمير المسلمين عليٌّ بجيشه وهزمه هزيمة نكراء ، ثم عقد لولده تاشفين على غرب الأندلس ، ولأبي بكر ابن إبراهيم المسوفي على شرق الأندلس ، وهو ممدوح ابن خفاجة أرق شعراء الأندلس ، وولّى ابنَ غانيةَ الجزائر الشرقية : ميورقة ودانية .

وكان علي بن يوسف ورعا زاهدا ، وقد بالغ في إكرام العلماء والفقهاء فعظم شأنهم عنده ، وكان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة ، ولان قلبه ، وظهر ذلك عليه [2] . ولكن إقباله على الدين وعلومه جعله ينصرف عن شئون الدولة ، ويتراخى في إدارتها : فاختل حالها ، وفقد المرابطون في الناحية الحربية صفاتهم التي جعلت منهم جنودا محاربين ، وتراجعت جيوشهم أمام

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير : ج ٧ ص ٢٣٦ .
(٢) المرجع السابق : ج ٧ ص ٢٣٧ .

جيوش القشتاليين والبرتغاليين والأرغونيين ، كما أصابهم انهيار خلقي نتيجةً لاستغراقهم في الترف ، وبذلك انحطت هممهم ، فثار عليهم أهل الأندلس وطردوا عمالهم

ففي سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ثار أهل إشبيلية وخرجوا عن طاعة المرابطين وبايعوا عبد المؤمن بن عليّ خليفةَ المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب ، تلك التي أطاحت بدولة المرابطين .

وعادت الأندلس الى مثل حالتها في عهد ملوك الطوائف ، وتعددَ الثوار في أعقاب دولة المرابطين ، وعاد الأسبان يجددون هجماتهم على المدن الإسلامية وعاد الأندلسيون يلتمسون النجدة من الموحدين ، فعبر عبد المؤمن بن علي الأندلس سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، واستولى على كثير من مدنها وضمها الى ملكه ، واتخذ من إشبيليّة حاضرة لدولته في الأندلس ، وولى ابنه أبا يعقوب يوسف عليها ، وكان ذلك نهايةَ المرابطين في الأندلس وبدايةَ الموحدين فيها . ودام حكم المرابطين في الأندلس ستين سنة .

* * *

الحياة الفكرية في عصر المرابطين :

رأينا كيف استولى يوسف بن تاشفين على الأندلس وضمّها الى المغرب وجعل منهما وطنا واحدا يتبادل سكانه المصالح والمنافع . فبعملية التوحيد هذه التي وحدت تاريخ البلدين في عهد المرابطين ، انتفت الفوارق السياسية بين أبنائهما ، فسكن بعضهم الى بعض ، وتقاربوا واتصلوا ، لا كما كان تقاربهم واتصالهم من قبل ، بل بصفة مجدية ومؤثرة في جميع مناحي الحياة .

فالمغرب يبذل حمايته للأندلس ، ويدافع عنه العدو والمغير ، والأندلس تبذل ثقافتها ومعارفها للمغرب ، فرجالها في خدمة الدولة ، وكتابها وشعراؤها يزينون بلاط مراكش . وقد فعل الاحتكاك بالأندلسيين فعله في تقدم الحياة الفكرية ونهضة العلوم والآداب بالمغرب .

وفي هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي : « وانقطع الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أهل الجزيرة من أهل كل علم فحولُه ، حتّى أشبهت حضرتُه حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار [1] »

ففي عصر المرابطين نشطت الحركة العلمية في شتّى العلوم وظهر أكابر العلماء في كل علم ، ونالوا الرعاية من المرابطين ، ومن هؤلاء :

* كبير فلاسفة العصر أبو بكر بن باجة (٥٣٣ هـ) الذي حظي برعاية أحد أمراء المرابطين ، ولم يكن فيلسوفا وحسب . وإنما كان عالما أيضا بالطب والموسيقى ، ومشهورا بالأدب والعربية .

* وأبو الوليد بن رشد (٥٩٥ هـ) ، وأبو بكر بن طفيل (٥٨١ هـ) . هما من فلاسفة هذا العصر وممن نبغوا وانتشرت معارفهم في عصر الموحدين .

* وأبو العلاء بن زهر الطبيب ممن حظي عند عليّ بن يوسف بن تاشفين وكان ابنه عبد الملك المعروف بابن زهر الإشبيلي (٥٥٧ هـ) من أطباء العصر أيضا .

* وأبو بكر الطرطوشي المعروف بابن رندقة (٥٢٠ هـ) كان ممن كتبوا في السياسة والإدارة .

هذا بالإضافة الى عشرات وعشرات من علماء الفقه والتصوف ومن اللغويين والنحويين والمفسرين والمقرئين الذين ظهروا في هذا العصر

* * *

ولم يكن المرابطون أقل برا بالأدب وأهله منهم بالعلم والعلماء . فمنذ اليوم

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي . وانظر النبوغ المغربي لعبدالله كنون : ص ٧١ .

الذي توطدت فيه دعائم ملكهم ، نراهم يرعون الأدباء عامة وأدباء الأندلس خاصة، حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم يُنَط به عمل في بلاط يوسف بن تاشفين بمراكش ، أوابنه عليّ ، أو في ديوان أحد أمراء الأقاليم ، وكان حظ كتّاب الأندلس أوفى من حظ غيرهم من الأدباء الاندلسيين ، لحاجة الدولة اليهم . ومن هؤلاء الكتّاب من كتب أو وزر لبعض ملوك الطوائف من قبل . ومن شعراء الأندلس من كانوا يفدون على أمراء المرابطين بالمدائح وينالون عطاءهم .

وما من شك في أن الرعاية التي كان يحظى بها أدباء الأندلس وشعراؤه من أمراء المرابطين ، وكانت داعية لاختلاطهم بهم ، قد أثرت في الأدب الأندلسي تأثيرا محسوسا ، وخاصة في الشعر ، فقد عادت الى أساليبه صفاتُ القوة والفخامة والجزالة ، وانتحى الشعراء في شعرهم مناحي الجد والتوقر ، كنتيجة لتشبعهم بروح الحِفاظ الذي كان يسيطر على رجال الدولة ، وارتفاع معنويات أهل الأندلس عامة ، بمـا آتاهم الله من نصر على عدوهم بفضل المرابطين .

ومن أمثلة هذا الشعر قول الوزير ابن أرقم في مدح الأمير عبد الله بن مزدليّ

سريتَ والليل من مسراك في وهَلٍ (١)
مبرّأ العزم من أينٍ (٢) ومن كسلِ

وسرت في جحفلٍ يـَهدي فوارسَه
سناك تحت الدجى والعارضِ الهطِلِ (٣)

---

(١) الوهل : الفزع والجبن .
(٢) الأين : الإعياء والتعب .
(٣) العارض : السحاب المطل يعترض في الافق .

لله صومُك بِرّاً يوم فِطرهِـم
وما توخَّيت من وجهٍ ومـن عملِ

نحرت فيه الكُماة الصِّيدَ مُحتسباً
وحَسْبُ غيرِك نحرُ الشاءِ والإبـلِ

وكلما رامت الرومُ الفرار أتَـتْ
من كل أوْبٍ[1] وضمّتهايدُالأجلِ

فصار مُقبلهم نهباً ومُدبرهـم
وعاد غانمهم من جملة النَّفَـلِ[2]

فكم فككت من الأغلال عن عُنقٍ
وكم سددت بهذا الفتح من خَلَلِ[3]

---

(١) أتت من كل أوب : أي من كل مآب ومستقر .
(٢) الغنيمة .
(٣) النبوغ المغربي لعبدالله كنون : ص ٨٤ .

الفَصْل التاسِع

دَوْلة المَوَحّدين في الأندلس

٥٢٤ ـ ٦٦٧ ﻫ (١١٢٩ ـ ١٢٦٨ م)

قامت دولة الموحِّدين في أعقاب دولة المرابطين ، وكلتاهما دولة إفريقية قبلية دينية .

وإذا كانت دولة المرابطين ترجع في نشأتها الى قبائل صهناجة ، فإن دولة الموحدين هي الأخرى ترجع في نشأتها الى قبائل المصامدة . واذا كان قوام دعوة المرابطين هو نشر الدين الصحيح بين القبائل التي غلب عليها الجهل بأصول الدين الإسلاميّ ، فإن قوام دعوة الموحِّدين هو الأمر المعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالتوحيد على طريقة الأشاعرة ، من تأويل المتشابه من آيات القرآن الكريم وحديث الرسول . ومن أجل ذلك سُمِّي أتباع هذه الدولـة بالموحِّدين .

ويرجع الفضل في ظهور دولة الموحدين الى رجل من إحدى قبائل المصامدة ينتسب الى آل البيت ، ويُدعى « محمد بن تومرت » . وأول ما عُرف عنه أنه خرج من إفريقية سنة ٥٠١ ﻫ في طلب العلم ، فدخل الأندلس ثم رحل الى المشرق فحج ، ولقيَ الأئمة وأفاد الكثير من علمهم ، كما لقيَ الإمام الغزاليّ في أخريات أيامه وتأثر بأفكاره .

وكان ابن تومرت ذا فصاحة وبيان وحجة قوية ، إلى ورع ونسك وغيرة

شديدة على الدين ، ولعل هذه الغَيرة هي التي جعلته ينتدب نفسه للدعوة والإصلاح الديني ، وخاصة بعد ما كان يراه من انتشار البغي والفساد في المجتمع الإسلامي ، مع سكوت علماء الدين على ذلك .

ولم ينتظر ابن تومرت في مباشرة دعوته حتى يعود الى المغرب ، وإنما نراه في طريق عودته من رحلته التي دامت زهاء عشر سنوات ، يصطدم بالعامة وأولي الأمر ، إذ كان كلما رأى منكرا ، بادر الى تغييره . فهو يُريق الخمر ، ويكسر آلات الغناء والطرب ، ويُغلظ على أهل المجون ، فعلَ ذلك في الإسكندرية ، والمهدية ، وتونس ، وقسنطينة ، وبجاية ، وتلمسان وغيرها من المدائن التي مرَّ بها في طريق عودته الى المغرب ، وما كان ينجيه من طائلة العقاب الاّ ما يلوح عليه من سمة الصلاح والتقوى !

وعندما جهر بدعوته وكثر انتقاده للحكام في مراكش أُشخِص أمامَ أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين ، فلم ير فيه غير داعية دينيّ مخلص ، فتأثر بكلامه وخلّى سبيله ، على الرغم من إلحاح أهل مجلسه عليه بالبطش به ، اتقاءً لما قد يُتوقع منه مستقبلا .

ولما كانت دعوته الدينية بعيدة عن العصبية القبلية ، فقد توجه بها الى جميع القبائل ، آملا في الوقت ذاته أن تلقى صدى لدى العلماء فيؤيدوه فيها ، وبدل أن يلقى العون والتأييد منهم ، رآهم يقاومونه ويحرضون أمير المسلمين عليه ! وهنا لم يسعه الاّ النجاةُ بنفسه واللجوءُ الى قومه في جبال سوس ، يَنشُد عندهم الحماية والنُّصرة .

وخلال مدة إقامته بينهم عكف على تعليمهم وتربيتهم تربية دينية ، وقد عَرف بذكائه وقوة منطقه كيف يستميل القلوب الى دعوته ، وكيف يخرج بها من قبائل المصامدة الى ما جاورها من القبائل ، وإذا الناس يقبلون عليه من كل فج ، ويتبعونه في دعوته ، حتى أصبح سلطانا مطاعا في جميع القبائل .

وكانت أخبار التفاف القبائل حول دعوته تصل الى مراكش فتثير حفيظة

الدولة عليه ، ولما كثر أتباعه الى حدٍّ يؤذن بالخطورة ، عقدت الدولة العزم على محاربته ، فأرسلت اليه أول طليعة سنة ٥١٥ هـ ، وهو بجبل « تينمَلّ » من بلاد سوس فهزمها ، وكانت هذه جولته الأولى مع الدولة .

وقد ثابر بعد ذلك في محاربة المرابطين ، وكان حريّاً أن يشهد نهاية هذه الدولة التي شاخت قبل الأوان ، لولا أن المنية عاجلته فتوفي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩ م .

* * *

وخلَف ابنَ تومرت بعهد منه تلميذُه وأحب صحابته إليه عبد المؤمن بن علي الكومي ، فواصل عمله في الدعوة والجهاد ومحاربة كل من المرابطين في المغرب ثم بني زيري الصنهاجيين في الشمال الإفريقي ، ولم تأت سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م حتى كان قد قضى على الدولتين وأقام دولة الموحدين في المغرب العربي كله ، واتخذ من مراكش عاصمة لدولته .

وكان أول اتصالٍ له بالأندلس سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م عندما جاءته وفود من أهلها تبايعه وتستنجد به على العدو الذي اغتنم فرصة الانقلاب الموحديّ فأغار على أطراف البلاد .

واستجابةً لأهل الأندلس عبر البحر الى الأندلس بجيشه سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م ، وغزا غرب الأندلس وكان الظفر في هذه الغزوة للمسلمين سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م . ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك الى المغرب ليعد جيشا آخر يعبر به الى الأندلس ، وحين كان على أتم أهبة توفى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م برباط سَلا ، فخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي دام حكمه من سنة ٥٥٨ هـ ــ ٥٨٠ هـ ، وقد عبر الى الأندلس عبوره الأول سنة ٥٦٧ هـ فاستولى على شرق الأندلس ، وكان لم يدخل قبلُ في طاعتهم ، وحقّق أمل والده في غزو أرض العدو ، وأقام بالأندلس يغزو ويعمر ويُشيِّد الآثار حتى

سنة ٥٧٢ هـ ، ثم عاد الى المغرب وقضى فيه سبع سنين يتعهد أحوال دولة الموحدين هناك بالإصلاح والتنظيم .

وفي سنة ٥٧٩ هـ عبر الى الأندلس عبوره الثاني وحارب الأعداء ، ولكنه أصيب على أبواب مدينة شنترين وتوفى سنة ٥٨٠ هـ ، وهناك بويع لولده أبي يوسف يعقوب المنصور الذي دام حكمه من سنة ٥٨٠ هـ – ٥٩٥ هـ ، وقد بلغت دولة الموحدين في عهده أوج قوتها وعظمتها ، وفي الأندلس ظل يواصل الجهاد بنفسه وبواسطة كبار قواد جيشه ، وكان له مواقف مشهودة في جهاد نصارى الأندلس ، ومن أعظمها « غزوة الأَرَك » التي تضاهي وقعة « الزلاّقة » أو تزيد ، وكانت يوم الخميس ٩ شعبان سنة ٥٩١ هـ .

في هذه الغزوة خاض يعقوب المنصور الحرب بنفسه ضد صاحب قشتالة وجموع النصارى عند حصن الأَرَك ، وهزمهم هزيمة شنعاء في معركة كبرى غنم فيها المسلمون ما عظم قدره ، وقُتل من الإفرنج ما يُنيف على مائة ألف وأسر منهم عشرات الآلاف ، ثم عاود النصارى الكرَّة فهزمهم المنصور مرة ثانية ، اضطروا بعدها الى طلب الصلح معه .

وفي عهده بلغت إشبيليَة ذروة مجدها وبهائها ، وكان محبا للبناء والتشييد فما كاد يظفر بالبيعة حتى أكمل بناء جامع إشبيلية ، ثم أتم بناء مئذنته المعروفة بالجيرالدا بعد انتصاره في موقعة الأرك .

* * *

وتوفى أبو يوسف يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ هـ، فولي الأمرَ بعده ابنُه محمد الناصر ، ودام حكمه حتى سنة ٦١١ هـ ، وكان الناصر كأبيه المنصور همة ونجدة وشجاعة .

وفي عهده أخذ ملوك إسبانيا المسيحية يَعدُّون العُدَّة ، ويَدعون لحرب صليبية في إسبانيا يثأرون فيها لأنفسهم من هزيمتهم في الأرَك . ولما أحسن محمد الناصر بما يبيتون عبرَ البحر الى الأندلس من المغرب سنة ٦٠٩ ه ، ودارت الحرب بين الفريقين فانهزمت جيوش الموحدين في معركة العِقاب هزيمة لم تقم للمسلمين بعدها قائمة تحمد ، وبها بدأت عوامل الضعف تسري في كيان دولة الموحدين .

ومع ذلك فقد نجد من خلفاء الموحدين الضعاف شخصيات لامعة ، مثل أبي العلاء إدريس المأمون (٦٢٦ – ٦٢٩ ه) الذي حاول أن يعيد لإشبيلية ما كان لها من ازدهار في عهد أبيه يعقوب المنصور ، ولكن بموته تلاشى كل أمل في إنقاذ إشبيلية ، فقد استولت جيوش فرناندو الثالث « القديس » على قرطبة ، حاضرةِ الأندلس القديمة في ٢٣ شوال سنة ٦٣٦ ه / ٢٩ يوليو سنة ١٢٣٦ م ، وأثار سقوطها في أيدي المسيحيين الحزن والهلع في نفوس المسلمين . وعلى إثر ذلك أخذت إسبانيا الإسلامية تنكمش رقعتها أمام الزحف السريع للاسترداد الأسباني عقب سقوط بلنسية ومُرسية سنة ٦٣٧ ه / ١٢٣٩ م ، واجتاحت الأندلس موجات عاتية من الاضطراب والفوضى . وبعد حصار دام ١٧ شهرا ، دخلت جيوش قشتالة مدينة إشبيلية حاضرة الموحدين ، وبذلك انتهت دولتهم في الأندلس !

* * *

تلك نبذة تاريخية عن دولة الموحدين ، يهمنا منها في المحل الأول الجانب الخاص بتاريخهم السياسي في الأندلس ، فعلى ضوء أحداث هذا التاريخ نستطيع أن نرى موقف الموحدين من الحركة العقلية التي شهدتها الأندلس في عهدهم ومدى ما نالته هذه الحركة من رعايتهم وتشجيعهم .

ومع تمسك الموحدين بالدين ، فإنهم كانوا أقل تعصبا من المرابطين . وأكثر ميلا منهم الى العلوم والآداب وتشجيعها .

ففي ميدان العلوم نرى كثرة من العلماء ، ونرى إقبالا زائدا منهم على الاشتغال بالتأليف في شتى العلوم من إسلامية وعربية ، مما يشعر بأنه كان هنالك نهضة حقيقية تتدرج بهذه العلوم في مدارج التطور والتقدم .

ومن خلفاء الموحدين مَن أولَوا علوم الحكمة ورجالَها عناية خاصة ، وكانوا في ذلك أشبه بخلفـــاء العباسيين . وأكثرهم شأنا في ذلك مأمون هذه الدولة يوسف بن عبد المؤمن الذي ناصر علوم الفلسفة ووالى أهلَها ، ومِن صحبه أبو بكر بن طفيل أحدُ فلاسفة الإسلام ، وهو الذي أرشد يوسف الى أبي الوليد بن رشد ، فشجعه على تلخيص كتب أرسطو . وكان يوسف ذاتُه واسع الاطلاع متبحرا في العلم ، وليس أدل على ذلك من مكتبته التي كانت تضاهي مكتبة الحكم المستنصر الأموي . وكان يعقوب المنصور بن يوسف كوالده في رعايته الفائقة لعلماء عصره وفلاسفته وإكرامه لهم ، وممن اختُصُّوا به الطبيب الفيلسوف أبو بكر بن زُهْر .

وفي عصرهم ظهر بعض كبار الصوفية من ذوي النزعات الفلسفية من أمثال ابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، والشُشتري . وقد أثرت النهضة الموحدية على العقول في الأندلس ، فأصبح الفكر الإسلامي مُحرَّرا مـــن القيود التي كانت تجعله يثور لأقل بادرة من الخروج عن دائرة المسلّمات .

ولم يكن اهتمام الموحدين بالحركة الأدبية أقل من اهتمامهم بالحركة العلمية ، ذلك لأن أغلبهم كانوا من ذوي الثقافة العلمية والأدبية ، وممن عرفوا

---

(١) رجعنا في تاريخ دولة الموحدين الى الجزء الأول من كتاب نفح الطيب ، والنبوغ المغربي للأستاذ عبدالله كنون ، وخلاصة تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان ، وكتاب الأندلس تاريخها وحضارتها للدكتور عبد العزيز السيد سالم .

فضل الأندلسيين في تقدم المعارف العامة ، ومن هنا جاء تشجيعهم للأدب الأندلسي . وقد تمثل هذا الاهتمام والتشجيع في إكرام الأدباء والشعراء ، وتوجيههم ونقدهم أحيانا .

ومن ذلك ما كان من أمر عبد المؤمن بن عليّ عندما عبر البحر الى الأندلس لأول مرة ، فقد أقبلت عليه وفود الشعراء تهنئه وهو يعقّب على قصائدهم بالنقد أو التقريظ ، وربما أثاب على مطلع القصيدة مكتفيا به . مدحه محمد ابن أبي العباس السمعاني بهذا المطلع :

ما هزّ عِطفيه بين البيض والأسَلِ
مثلُ الخليفة عبدِ المؤمن بن علي

فاستعاده عبد المؤمن مرات ، وأمره بأن يقتصر عليه قائلا له : لقد قلت في هذا كل شيء .

وكان أعظمَ من عبد المؤمن في حبه للشعر وإقبال الشعراء عليه حفيدُه يعقوب المنصور ، ذُكر أنه لما رجع من غزوة الأرَك المشهورة بالأندلس ، ورد عليه وفود المهنئين والشعراء من كل ناحية ، فكان كل واحد منهم يُنشد من قصيدته بيتا أو بيتين لكثرتهم ، ويترك رقعتها أمامه ، فما استتموا الإنشاد حتى حالت رِقاع القصائد بينه وبين الناس ، وهذا إن صح كان أعظم شاهد على ما بلغته الحياة الأدبية في هذا العصر من النمو والازدهار[1]

ومنهم موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية ، فقد أُنشد له من شعره قوله يخاطب أبا الحسن بن حريق يستحثه على نظم الشعر في عروض الخبب :

خذ في الأشعار على الخببِ   فقصورك عنه من العجبِ

---

(١) النبوغ المغربي لعبدالله كنون : ج ١ ص ١٦٣ .

هذا وبنو الآداب قضَــــوْا بعلوِّ محلك في الرتـــــبِ

من ذلك يظهر أن منهم مَن كانوا يوجهون الأدباء ويقترحون عليهم ما يقولون و كيف ينظمون ، ومثل ذلك رُوي عن المنصور نفسه .

وإذا كانت الموشحات قد اخترعت في الأندلس من قبل ، ولقيت من أمراء المرابطين كل تشجيع ، فإنها قد بلغت أوج الكمال في عصر الموحدين .

ففيما يخص التوشيح نرى جماعة من فرسانه ينقطعون الى بعض أمراء الموحدين يمتدحونهم بموشحاتهم التي كانت تقع منهم أحسن وقع ، ومن أسبق هؤلاء الوشاحين الوزير أبو بكر بن زُهر ، الذي اختص بالخليفة يعقوب المنصور ، وحظي عنده غاية الحظوة .

واصطناع رجال الدولة من الموحدين لأهل هذا الفن واحتفالهم به هو – بلا ريب – اصطناع للفن نفسه ، ينمُ عما وراءه من إعجاب وتقدير ، وهو في الوقت ذاته تشجيع للوشاحين على الإجادة في موشحاتهم والتفنُّنِ في صورها وأنواعها ، عملا بالمثل القائل : الناس على دين ملوكهم .

و كان الأدباء المحافظون في عصر الموحدين يقفون من الموشحات موقف الحذر والارتياب ، وما أشبه موقفهم هذا بموقف الأدباء المحافظين في العصر الحاضر من « الشعر الحر » .

و كان للأدب الأندلسي في هذا العصر تأثيره على أدب المغاربة ، وبخاصة في فن الموشحات ، وممن تأثر به منهم الوشاح المغربي القاضي أبو حفص بن عمر ، فله موشحات يغنّى بها في الأقطار ، كما قال ابن سعيد المغربي في الغصون اليانعة . ومنهم من تأثر بطرائق بعض الشعراء الأندلسيين ، كتأثر أبي عبد الله الحبُّوسي الفاسي بطريقة محمد بن هانيء الأندلسي ، من حيث قعقعة الألفاظ ، والمبالغات الكثيرة ، والإفراط في المدح .

الفَصل العَاشِر

دَوْلة بني الأحمر

(٦٣٥ ـ ٨٩٨ هـ ـ (١٢٣٧ ـ ٢ من يناير ١٤٩٢ م)

اغتنم محمد بن هود الثائر بمُرسية[1] فرصة زوال الموحدين من الأندلس ، فنهض يحقق هدفين : توسيع مملكته ، وحمايتها من أعدائه النصارى بمحاربتهم ، وإذا كان النجاح قد حالفه ، فبسط سلطانه على بعض المدائن الأندلسية ، حتّى صار ملكه يشمل بطليوس وإشبيلية وقرطبة ومرسية ، فإنه لم ينجح في محاربة أعدائه ؛ لأنه كان أضعف من أن يردهم عن مملكته ويصون سلطانها .

وخلال هذه الفترة التي كانت فيها الأندلس ترزح تحت عبء من الفتنة والضعف وتتنازعها الأهواء ، ظهر بنو الأحمر ، وهم آخر ملوك العرب في الأندلس ، ومن يدهم استولى النصارى على جميع ما بقي للمسلمين فيها من بلاد!

وأصل بني الأحمر كما يذكر المقّريّ من«أرْجونة»، حصنٍ من حصونِ قرطبة ، ولهم فيه سلف من أبناء الجند ، يعرفون ببني نصر ، وينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج [2] .

وقد نجح محمد بن يوسف بن نصر ملك أرْجونة سنة ٦٣٥ هـ في أن يضم الى

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٤٢١ . (٢) المرجع السابق

مملكته خمس مدن هي : بسطة ، ووادي آش ، وشريش ، ومالقة ، وجيَّان ، وفي سنة ٦٣٦ هـ استولى على مدينة غرناطة ، وجعلها حاضرة لدولته .

وكان محمد بن يوسف معقد آمال أهل الأندلس في إنقاذ ما بقي من دولة الإسلام من الخطر الذي بات يتهددها ، وما كاد يستولي على غرناطة حتى عمد الى توسيع رقعة مملكته ، فضم اليها المَريّة .

وهكذا أقام بنو الأحمر مملكة غرناطة بين مظاهر الاضطراب والمطامع التي كانت تجتاح ما بقي من ملك المسلمين في شبه جزيرة الأندلس . ومع ذلك فقد قُدِّر لها أن تدوم نحو قرنين ونصف قرن من الزمان ، على الرغم من أمرين : الصراع غير المتكافيء وقتذاك بين النصرانية والإسلام ، والحروب الداخلية التي عانت منها مملكة غرناطة ، تلك التي تعاقب الحكم فيها من أبناء محمد بن يوسف بن نصر وأحفاده عشرون ملكا .

ومن الناحية السياسية كان عصر بني الأحمر أسوأ عصر مُنِيَ به المسلمون بالأندلس ! ففيه كثرت الفتن والانقلابات ، وفيه حروب مقدسة متصلة بين أبناء الديانتين ، تنحسر فيها رقعة المسلمين على أرض الأندلس شيئا فشيئا أمام المدّ المسيحي !

وفيه نجدة من ملوك المغرب وتونس لإخوانهم مسلمي الأندلس حينا ، وقعود منهم عن هذه النجدة أحيانا ! وفيها معاهدات صلح ونقض لها من كلا الجانبين !

وفيه سلاطين أقوياء من بني الأحمر وقفوا في وجه العدو وقهروه ، وآخرون ضعفاء تخاذلوا أمامه ودخلوا في طاعته وتنازلوا له عن بعض أملاكهم !

وفيه صراع ضارٍ على الحكم بين سلاطين بني الأحمر ، أدّى ببعضهم في سبيل تحقيق مطامعه الشخصية وانتصاره على منافسه ، الى مُوالاة أعداء أمته وملته !

وقد بلغ هذا الصراع ذروته بين السلطان أبي الحسن علي بن سعد وابنه أبي

عبد الله محمد من ناحية ، ثم بين الأخير وعمه أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغَل [1] من ناحية أخرى !

ولي السلطان أبو الحسن علي بن سعد الحكم في دولة بني الأحمر زهاء إحدى وعشرين سنة من ٨٦٦ هـ إلى ٨٨٧ هـ ، وكان بما عُرف به من صفات البسالة والإقدام حريًا أن يبلغ بمملكة غرناطة مكانه عالية من القوة والمنَعة والصمود في وجه الاعداء ، لو مُكّن له .

وكانت أوائل حكمه تبشر بذلك ، ففي عهده تولى ملك قشتالة فرديناند وإيزابلا ، وحدث أن سألهما المهادنة فأجاباه اليها شريطة أن يعترف بسيادة ملك قشتالة ، ولكنه أبى هذا الاعتراف .

عندئذ أرسل فرديناند وإيزابلا سفراءهما بطلب الجزية واقتضاء الخضوع من صاحب غرناطة ، فلما عرضوا ذلك على السلطان أبي الحسن أبى قبوله كل الإباء وقال لهم : « اذهبوا وأخبروا من أرسلكم أن الملوك الذين كانوا يؤدون الجزية قد ماتوا من زمن طويل ، وأن دار الضرب في غَرناطة عادت لا تضرب ذهبا ولا فضة ، ولا تضرب الآ سيوفا وحرابا [2] » .

فسلطان هذه روحه كان ينتظر منه الكثير لخير قومه ودينه ، ولكنه نُكب بابنه أبي عبد الله الشقي آخرِ ملوك العرب في الاندلس .

وكان الصراع الذي نشب بين الأب وابنه عجيبا وأليما حقا ! يخرج أبو الحسن لملاقاة فرديناند ملك قشتاله في حرب ثم يعود منها الى غرناطة منتصرا فيحتفل أهلها بلقائه ، ثم يخرج لملاقاة عدوه فرديناند في حرب أخرى يعود منها مهزوما ، فيجد أهل غرناطة قد بايعوا ابنه أبا عبد الله محمدا، وأقفلوا

---

(١) الزغل عندهم : الفتى الغض الشباب . انظر في ذلك خلاصة تاريخ الأندلس الى سقوط غرناطة ، للأمير شكيب أرسلان : ص ٢٤٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

أبواب المدينة في وجهه ، فيميل الى مدينة بسطة ، ثم يبقى بها متربصا .

ويخرج أبو عبد الله محمد بعد أن صار الحكمُ له في عرناطة ، لمحاربة النصارى فيقع أسيرا في يدهم ، وبذلك يخلو الجو لوالده أبى الحسن عليّ فيثب الى الحكم مرة ثانية .

ثم يُطلق فرديناند وإيزابلا سراح أبي عبد الله محمد شريطة الاعتراف بسلطانهما ، وإطلاقِ مَن في جانبه من أسرى المسيحيين ، وهما لم يطلقا سراحه في الواقع إلا ليجدد صراعه مع أبيه ، وبذلك يُضعف كلاهما الآخر .

ويعود أبو عبد الله محمد الى غرناطة ، فتؤدي عودته الى انقسام الناس : منهم مَن ينادي باسم أبي عبد الله ، ومن ينادي باسم أبي الحسن والده ، ثم يقتتل الفريقان وتسيل الدماء ، وتصبح حمراء غرناطة اسماً على مسمى ، حتى كلّ الناس من تقتيل بعضهم بعضا والعدوُّ على الأبواب !

ويطول الصراع بين الأب وابنه من أجل الحكم ، إن ضعف هذا تولاه ذاك ، وإن ضعف ذاك تولاه هذا .. !

ولما نال الكِبرُ من السلطان أبي الحسن وذهب بصره وتعذر أمره ، أقام أخاه أبا عبد الله ، وخلع له نفسه ، ونزل بالمنكّب ، وظل بها الى أن مات سنة ٨٨٧ هـ ، واستقل أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده .

وكان أبو عبد الله بن محمد وقت تنازل والده لعمه عن الحكم في المريّة ، فلما علم أهلها بهذا التنازل هاجوا عليه ، وقاموا ببيعة عمه ، ولم يلبث أن حضر هذا اليهم وافتتح قلعة المرية ، ففر ابن أخيه شريدا الى قرطبة مستغيثا بالملك فرديناند والملكة إيزابلا .

ثم تمكن بعد مدة من الدخول الى غَرناطة، فتجدد الصراع الدموي بينه وبين عمه الزغل وأنصارهما ، وبينما هم كذلك بلغهم تأهب العدو لاكتساح البلاد ، فتكلم الناس في الصلح ، واتفقوا على قسمة الملك بين الزغل وابن أخيه ، وقد

أدت هذه القسمة بدورها الى ضعف مملكة غرناطة وطمع النصارى فيها ، فزحف فرديناند بجيش جرار من نصارى أوربا ، وأعلنوا الحرب المقدسة .

وفي الوقت الذي كان فيه مسيحيو إسبانيا وأوربا يتوغلون فيما بقي للمسلمين من بلاد الأندلس ، كانت الحرب على أشدها داخليا بين السلطانين ، وإزاء هذا الخطر الداهم نصح المسلمون لهما بالعدول عما هم فيه . فأبى أبو عبد الله وأصر على صراعه مع عمه ، غير متأمل في عواقب هذه الحال التي ستنزع الملك منه ومن عمه ومن جميع أهل بيته وملته في أرض عمروها ثمانية قرون ! !

وراح السلطان أبو عبد الله الزغل يحارب ابن أخيه على الجبهة الداخليه ، ويحارب مسيحيي إسبانيا وأوربا بقيادة الملك فرديناند على الجبهة الخارجية ، وتتوالى هزائمه أمامهم ، على الرغم من قتاله البطولي .

ولما دخل فرديناند مالقة حوّل المسجد الأعظم فيها الى كنيسة ، فبعث السلطان أبو عبد الله محمد يهنيء الملكة والملك بهذا الفتح ! ولم يكن هذا المغامر الشقي يدع فرصة لإظهار ولائه لهما الا انتهزها ، ولم تنفعه هذه الموالاة الا حينما كان مُظاهراً للطاغية على عمه ، وللأسبان على قومه ؛ حتى إذا ضعفت مقاومة المسلمين ، وظن الأمرَ قد استتب له ، نزلت الصاعقة على رأسه ، وأُخذ من حيث كان يرجو الأمن ، وخُتم به ملك آبائه ، كما سنرى .

أما أبو عبد الله الزغل الذي جاهد عدوه جهاد الأبطال فبعد أن رأى بلاده تسلّم الواحدةُ تلو الأخرى ، لم يسعه الا أن يقرر مكرها تسليم ما بيده من البلاد للملك والملكة ، وأن يكون حليفا لهما . وقد بلغ حقده على ابن أخيه أبي عبد الله محمد حليف النصارى ، الى الحد الذي كان يفضل فيه أن يرى رايات العدو خفاقة فوق أبراجه وحصونه على أن يسلمها لهذا الشقي !

وفي الطور الأخير من هذا الصراع الطويل الرهيب ، أخذت الأحداث تتوالى وتتلاحق بين جزر ومد : العرب الذين فرقتهم أهواؤهم واستنزفت قواهم الانقسامات الداخلية ، يرون الخطر المحدق بهم بات وشيكا ، فيخلقون

من الضعف قوة ، ويستميتون في الدفاع عن وطنهم ودينهم ، ومسيحيو إسبانيا وأوربا الموحَّدون يزحفون في حربهم المقدسة بقيادة فرديناند الرابع وإيزابيلا ، حتى يبلغوا مشارف غرناطة ويرى السلطان أبو عبد الله محمد من شرفات قصر الحمراء جيوش الطاغية مقبلة ، وقد غطى عجاجُها الفضاء ، فيعقد مجلسا من أعيان غرناطة ورؤساها للاستشارة ، فيشيرون عليه بتسليم مقاليد أمره الى كرم فرديناند ، أملا في أن يحصلوا منه على شروط صلح مقبولة .

ولكن فارسا واحدا لا يزال يجري في عروقه دم أبطال العرب فاتحي الأندلس ،هو الأمير موسى بن أبي الغسان يعارض إجماعهم قائلا : لقد عجِلتم الى الكلام في أمر التسليم . إن وسائلنا لم تنقطع ، ولم يزل عندنا بقية قوة عظيمةِ الفعل شديدة التأثير . وطالما كانت الاستماتة سبب الفتح ، فلنستنفرَنَّ العامة الى الجهاد ، ولنسلِّحنَّهم ونقتحمَنَّ صفوف العدو حتى نخالط أسنتهم . وإنني لحاضر أن أمضيَ في هذا السبيل ، وأتوغّل في كثيف جمع الأعداء . وخيرٌ لي مرارا أن أُعدَّ فيمن استأكلهم الدفاع عن غرناطة ، من أن أُعدَّ في الأحياء من بعدها (١) » . ولكن كلماته لم تحرك منهم ساكنا ، ولم تثر عزما ، لأن اليأس كان قد استولى عليهم !

وبينما العرب مختلفون في أمرهم بين الإحجام والإقدام ، كانت جيوش فرديناند قد طوقت مدينة غَرناطة وأحكمت الحصار حولها . وكان على المسلمين أن يدافعوا عن غَرناطة آخرِ ما بقي لهم في الأندلس ، وأن يقاوموا المغيرين عليهم ، وقد دافعوا وقاوموا ما وسعتهم المقاومة .

ولما طال الحصار على غرناطة واشتد ، واستنفد أهلُها آخرَ جهدهم في المقاومة ، عقد السلطان أبو عبد الله محمد مجلسا آخر في قصر الحمراء حضره أكابر القواد وحماة الحصون والفقهاء وأعيان القوم ، وسألهم رأيهم في الأمر ،

---

(١) خلاصة تاريخ الأندلس الى سقوط غرناطة للأمير شكيب أرسلان : ص ٣٢٩ .

فآجابوه بالاستسلام والتسليم ، ما دام العدو مُصراً على البقاء حيث هو ، ولا يرضى الا بالتسليم أو الموت .

وعندما قرأ الوزير أبو القاسم شروط التسليم بمحضر من أهل غرناطة بعد عودته بها من معسكر النصارى ، لم يبق واحـــد ممن حضر الا أجهش بالبكاء ، ما عدا الأمـــيرَ موسى بن أبي الغسان فإنه بقي ثابت الجأش عصيّ الدمع ، ثم التفت نحو الجميع قائلا : « دعوا يا موالينا البكاء والنحيب للنساء والأولاد ، فنحن رجال ولنا قلوب لا لذرف الدموع بل لأجل سفك الدماء . وإنني لأرى عزائم هذه الأمة قد ارتخت ، وقطعوا أملهم من نجاة هذا الملك ، فوالله لقد بقي علينا أشرفُ الخطتين ، وهي الموت . فلنمت إذن في سبيل استقلالنا والانتقام من عدو غرناطة ، فأمُّنا الأرض تتلقى أبناءها في أحشائها غيرَ مقيدين بسلاسل العبودية . ولا قدَّر اللهُ أن يكون أشراف غرناطة صاروا يخافون الموت في الدفاع عنها [1] »

ثم سكت موسى وخيّم على المجلس جوٌ من الكآبة واليأس ، ولما رأى أن الإجماعَ قد وقّع على قبول شروط التسليم ، قام من بينهم غاضبا والتفت نحوهم قائلا : « يا قوم لا تغشوا أنفسكم ، ولا تتسلّوْا بالمحال ، ولا تظنوا أن ملوك النصارى وافون بعهودهم لكم ، وأنهم كرام عند المقدرة ، كما هم فتاكون عند القتال . فوالله إن الموت الأحمر هو أهون ما نتوقع ، وإنما نحن مستقبلون أمرا أيسره اكتساح الأوطان ، وفضيحة العيال ، وانتهاب الأموال ، وقلب المساجد ، وتدمير المنازل . هذا عدا السوط والنار والنِّطع والنفي من الأرض ، والضنى في أعماق الحُبوس ، الى غير ذلك مما نحن صائرون اليه .

وإذا لم يكن من الموت بُـــــدٌ   فمن العجز أن تموت جبـــانا

---

(١) خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان : ص ٣٣٠

أما أنا فوالله لن أشهد ذلك[1] » .

قال هذه الكلمات ، ثم غادر محل الاجتماع واجما مطرقا ، حيث طاف بقاعة الأسود وسائر أبهاء الحمراء دون أن يكلم أحدا من الحشم الواقفين في الأبواب ، ثم دخل منزله وتقلد سلاحه الكامل ، وأمر فأُسرِج له جواده ، فركب وخرج من باب البيرة ، الى حيث لم يُسمع له بعدُ خبر ، ولم يوقف له على أثر ! !

* * *

وفي اليوم التالي خرج المغامر المقهور أبو عبد الله محمد من الحمراء محفوفا برؤساء غرناطة وخاطب الأمة قائلا : « لا ذنب الاّ عليّ ! أنا الذي عققت والدي ، وجلبت الأعداء على المملكة ! لكن الله قد أخذني بجرائري وأنزل النقمة كلها على رأسي ! وها أنا ذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لأجلكم يا قومي ، ضناً بدمكم أن يراق . وبأطفالكم أن يموتوا جوعا ، وبنسائكم وذراريكم أن ينزل فيهن معَرَّات الحرب ، وحفظا لأموالكم وأملاككم ، وحريتكم وشريعتكم وديانتكم ، في ظل ملوك أسعد طالعا من أبي عبد الله المشؤوم[2] » ! !

وفي الحال أرسل الى الملكين : فرديناند الرابع وإيزابيلا يعرض عليهما التسليم في اليوم التالي فأجاباه الى طلبه وتأهبا لدخول قصر الحمراء .

وقضى المغامر الشقي أبو عبد الله هو وآلُ بيته ليلتهم الأخيرة في الحمراء يَزُمُّون حقائبهم استعدادا للرحيل . وقبل أن تبلّج الفجر انساب آل بيته من أحد أبواب القصر ، وغادروا غرناطة والناس نيام والشوارع خالية ، أما عائشة الحرة والدته فكانت متجلدة ، وأما امرأته وسائر جواري القصر فقد غلبهن البكاء ! ولما وصل الركب الى قرية على الطريق المؤدي الى المكان المعين

---

(١) خلاصة تاريخ الاندلس لشكيب أرسلان : ص ٣٣١

(٢) المرجع السابق : ص ٣٣٩ .

لهم في جبل الشارات ، وقف الركب ينتظر وصول أبي عبد الله .

وعند مطلع شمس يوم ٢ من يناير عام ١٤٩٢ م ، التقى الملكان بالسلطان أبي عبد الله الشقي بجانب جامع صغير قريب من النهر ، وهناك سلماه ابنه الذي كان مرهونا ، فضمه الى صدره وأخذ يقبله ، وكأنما الشقاء قد زاد من تعلق أحدهما بالآخر !

ثم سلم أبو عبد الله آخرُ ملوك غَرناطة مفاتيحها الى الملك قائلا : « هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في إسبانيا ، خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا ، كما قضت مشيئة الله تعالى ، فتقبلها بالرأفة التي وعدت بها ، والتي ننتظرها منك » .

قال أبو عبد الله هذه الكلمة ، ثم انفصل عن الملكين ، ومضى في طريقه حيث لحق بآل بيته عند مرقب عال يشرف على غرناطة ، وهناك وقف يودع مدينته ، فلم تكن أجمل منها في تلك الساعة ، فأخذ يتأمل في أبراجها وقلاعها ومنائرها الصاعدة في السماء ومروجها الخضراء المنقطعة النظير !

وبينما هو على هذه الحال ، وإذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة ! وإذا بأصوات المدافع تدوّي في الفضاء إيذانا بأن غرناطة قد دخلت في حوزة الإسبان ، وانقطعت منها دولة الإسلام !

عندئذ لم يتمالك أبو عبد الله الشقي نفسه من هول ما رأى وما سمع ، فصاح « الله أكبر » ثم أجهش بالبكاء ، فمشت اليه أمه ، لا لتواسيَه ، ولكن لتقول له كلمتها الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ : « أجل ، عليك أن تبكي بكاء النساء ، على ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال [1] » !! وفي رواية أخرى قالت له :

---

(١) خلاصة تاريخ الأندلس للأمير شكيب أرسلان : ص ٣٤١ .

ابكِ مثل النساء ملكا مُضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال !

واجتهد وزيره يوسف بن كماشة في تعزيته فلم يقبل قلبه العزاء ، وظل في مكانه يذرف العبرات ، ويُصعّد الزفرات ، وهو يردد : « أيُّ شقاء مثل شقائي » ؟

وقد سمى الإسبان تلك الذّروة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبيب « بآخر حسرات المغربي » ! !

ولم يطق أبو عبد الله بعد هذا اليوم أن يبقى طويلا في الاندلس ، فعبر البحر الى المغرب ، ونزل بمدينة فاس واتخذها مقرا حتى مات عام ٩٤٠ ﻫ .

وهكذا انطوى بسقوط غَرناطة آخر صفحة من تاريخ الإسلام في الأندلس وزال ملك العرب من بلاد خلفوا وراءهم فيها آثارهم وحضارتهم ، بعد أن فتحوها وعمروها أكثر قليلا من ثمانية قرون ، من سنة ٩٢ ﻫ / ٧١٠ م الى سنة ٨٩٨ ﻫ / ١٤٩٢ م .

ثم جلا آخر عربيٍّ من فردوس أمته المفقودة تحت تأثير اضطهاد الأسبان الذين لم يفوا بعهودهم ! !

وكأن لسان الحال يردد قول أبي البقاء الرندي في نكبة الأندلس :

وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك
كما حكى عن خيال الطيف وسنانُ

وللحوادث سلطانٌ ... يُسَهّلها
وما لما حلّ بالاسلام سُلوان !

* * *

ذلك ما كان عليه وما انتهى اليه عصر بني الأحمر من الناحية السياسية ، وقد أدّى تقلص الإسلام في الأندلس ، وارتداد المسلمين تدريجيا أمام الغزو المسيحي الى فرار أهل الفنون والعلوم والآداب من وجه العدو والالتجاء الى غرناطة .

وكان تأثر الأدب الأندلسي بأحداث هذا العصر السياسية أكثر من تأثيرها فيها ، فالأدب في دولة بني الأحمر ، والشعر منه بخاصة ، يغلب عليه طابعَ الاستغاثة واستنهاض همم ملوك المغرب وتونس للمؤازرة في الدفاع عن مجد العرب المهدد بالضياع في الأندلس ، فيستجاب لصريخ هذا الشعر حينا ، وتصَم الآذان عنه أحيانا .

وقد كثُر هذا اللون من الشعر وغزُر ، حتى صار يؤلف فنا من فنون الشعر الأندلسي التي سنتحدث عنها فيما بعد . وجانبٌ من هذا الشعر يؤرخ فيه أصحابه لهزائم عرب الأندلس بإقبالهم على اللذات وإهمالهم أمور الجهاد، والدفاع عن بلادهم، ومن هذا القبيل مثلا خروج أهل بلنسية بثياب الزينة ليصدوا العدو عن مدينتهم، ثم هزيمتُهم أمامه في موقعة « بَطرْنة »! ففي ذلك يقول أحد شعرائهم :

لبِسوا الحديد الى الوغى ولبستمُ
حللَ الحرير عليكم ألوانـــا

ما كان أقبحَهم وأحسنَكم بها
لو لم يكن ببَطرْنةٍ ما كانـا !

ومن الفنون الشعرية التي استحدثها الأندلسيون من قبل ، ثم بلغت كمال نضجها في عصر بني الأحمر فن الموشحات والزجل .

وأكبر شعراء هذا العصر لسان الدين بن الخطيب وتلميذه ابن زمرك

ولسان الدين بن الخطيب هو وزير محمد الخامس بن الأحمر ، وهو أشهر وزراء الأندلس على الإطلاق ، وهو الذي بنى المقّريّ التلمساني أكثر كتابه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » على سيرته وأخباره ونظمه ونثره .

وعلى الرغم من الأخطار التي واجهت ملوك بني الأحمر في الخارج والداخل ، فإن منهم مَن كان له فضل على النهضة الفنية والأدبية في عصره بالمشاركة فيها بعلمه أو رعايتها . ومن هؤلاء محمد الثاني رغم كونه ضريرا ، وأبو الحجاج يوسف الأول وابنه محمد الخامس .

والى الأخيرين هنا يرجع الفضل في بناء قصر الحمراء الأسطوري بغرناطة ، هذا القصر الذي وضع فيه رجال الفن ، من مسلمي الأندلس ، خلاصة فنهم ، وعصارة ما وصلت اليه عبقريتهم ، والذي يُعَد بحق متحف الحضارة الأندلسية.

الباب الثاني
الحياة الاجتماعية في الأندلس

* عناصر الشعب الأندلسي
* نظام الحكم في الأندلس
* صفات أهل الأندلس
* حياة الأندلس الفكرية

الفصل الأول

عناصر الشعب الأندلسي

فتح العرب بلاد الأندلس في أواخر القرن الأول الهجريّ ، واستوطنوها زهاء ثمانية قرون ، استطاعوا خلالها أن ينشروا دينهم ولغتهم ، وأن يقيموا فيها مجتمعا إسلاميا جديدا له سماته الخاصة وطابعه المميز .

ولما كانت الحياة العقلية لأي أمة هي وليدة مجتمعها بكل ما يمثّله من بيئة طبيعية وشعب ونُظُم تحكُم حياته وسلوكه وضروب النشاط الإنساني التي يضطلع بها ، فسوف نحاول هنا التعرف بإيجاز الى مكونات المجتمع الأندلسيّ ، تلك التي تضافرت على صنع حياته الفكرية من علمية وأدبية ، والتي هي هدفنا الأساسيّ من وراء هذا البحث .

* * *

ونبدأ أول ما نبدأ بالكلام عن عناصر الشعب الأندلسيّ . والعناصر التي سادت الأندلس خمسة : العرب ، والبربر ، والموالي ، والمولّدون ، وأهل الذمة من نصارى ويهود .

(١) العرب : فالعرب كانوا يُحسُّون إحساسا قويا بنوع من الأرستقراطية نابعٍ من غلبتهم على الإسبان والبربر وإدخالهم في الإسلام ، وكذلك من لغتهم التي تفوق غيرها . ولعل شعور التعالي هذا من قِبَل العرب ، هو ما كان يولّد ثورة البربر عليهم أحيانا .

وكان العرب في مستهل الفتح قِلّةً بالقياس الى العناصر الأخرى ، ثم أخذت أعدادهم تتكاثر وتنتشر في أنحاء شبه جزيرة الأندلس ، بفعل الاستيطان والتوالد ، وبالمهاجرين العرب الذين أخذوا يرحلون اليها أفواجا تلو أفواج بعد الفتح الإسلاميّ .

(٢) البربر : وهم يشاركون العرب في البداوة والإسلام والشجاعة والعصبية القبلية . وكانوا في أول أمرهم أكثر عددا وقوة من العرب ، وكان تيـــار هجرتهم متصلا بحكم الجوار .

وقد تأثرت جماعات البربر المستقرة في الأندلس بالبيئة الجديدة تأثراً عظيماً . ولم يكد الجيل الأول منهم ينقضي حتى طلع الجيل الثاني أندلسيا قد نسِيَ أصله واتخذ الأندلس وطنا .

ومن الناحية العقلية كانوا يجتهدون في التعرُّب : يتعلمون العربية ، ويُقبل مَن له ميل منهم على دراسة الإسلام والتفقُّه فيه ، ومن الناحية المعاشية ارتبطوا بجيرانهم من أهل البلاد عن طريق المصاهرة ، ومنهم من اتخذ له اسما عربيا زيادة في التعربِ .

وكانوا أسرع اندماجا من العرب في البيئة الجديدة ، فقد حال بين العرب وبين الاندماج السريع الكامل لغتُهم واعتزازهم بعصبيتهم العربية ، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الاندماج ، فلا عصبية ولا لغة مكتوبة . ومع الزمن أصبحت غالبيتهم في جملة العرب الأندلسيين ، وكان لهم أعظم الأثر في بناء الأندلس الإسلاميّ .

(٣) الموالي : وهم موالي بني أمية ، وهؤلاء يمثلون ثلاث طوائف : مَن دخلوا الأندلس إبّان الفتح ، ومن دخلوها بعد الفتح ، ثم من دخلوا في ولاء البيت الأموي من أهل البلاد . وقد كان لهؤلاء الموالي اليدُ الطولَى في إقامة دولة عبد الرحمن الداخل .

هذه العناصر الثلاثة هي التي دخلت الأندلس مع الإسلام أو بالإسلام ، ووضعت أساس إسلام الأندلس وعروبته . أما الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس ، فهم : المولّدون ، وأهل الذمة من نصارى ويهود .

(٤) المولّدون : وهم العنصر الناشيء من تزاوج العرب بالبربر ، أو العرب بالإسبانيات والصقالبة . وقد خرج من هذا الازدواج بين عربيّ وبربرية ، أو عربيّ وإسبانية جيل جديد مولّد يشبه ما كان في الشرق من تزاوج بين عربيّ وفارسية . وظل اسم « المولدين » يُطلق على هذا العنصر حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم تلاشت هذه التسمية بعد ذلك بسبب اختلاط الناس ، وتحوّلِ أهل الدولة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز . ومن صفات المولّدين من النساء الإسبانيات الشجاعة والذكاء والجمال ، وكان لهم في الأندلس تاريخ طويل .

وقد حبّب العربَ في هذا الزواج ما عُرف عن الإسبانيات والبربريات من جمال وبياضِ بشرَة واصفرارِ شَعر وزُرقة عيون ، وهي صفات يحبها العربيُّ ، لأنها جديدة عليه .

(٥) أهل الذمة : وهم الإسبان الذين بقُوا على مسيحيتهم ولم يدخلوا في الإسلام ، وهؤلاء كانوا يرون أن البربر والعرب دخلاءُ عليهم ، وأنهم أحقُّ بمُلك بلادهم . ويندرج مع هذا العنصر الإسبانيّ المسيحيّ يهودُ البلاد من حيثُ معاملةُ المسلمين لهم ، فقد ضمِن المسلمون لهذين العنصرين حريتهم ، وأدخلوهم في ذمتهم ، مقابل الجزية والخراج على ما تقضي به الشريعة الإسلامية .

وفي مستهل القرن الرابع الهجري أنشأ الخليفة عبد الرحمن الناصر جيشاً من المماليك يوطد به سلطته ، وكان هؤلاء المماليك من « الصقالبة » وهو اسم كانوا يُطلقونه على أسرى الحرب من جميع البلاد الأوربية ، وعلى مَن وقع في أيدي المسلمين من الرقيق . وبهذا أَدخل الناصرُ على الأندلس عنصرا جديدا

هو عنصر الصقالبة ، مقلّدا في ذلك الخليفةَ المعتصم العباسيّ الذي أنشأ جيشا من الأتراك يعتمد عليه لمّا تعب من العرب [1] .

وهكذا امتزجت كلُّ هذه العناصرِ والأجناس بعضُها ببعض امتزاجا تسرّب في عقولهم كما تسرّب في دمائهم ، فكانت لهم نزعةٌ عقلية جديدة ، ساعد على تكوينها بالإضافة الى عملية الامتزاج ، بيئةٌ طبيعية غنية ، حافلةٌ بشتى المناظر وصور الجمال . وكان من أثر ذلك كله أنْ أصبحت لهم مميزات عقلية خاصة ، وصفاتٌ لم تكن لغيرهم من العرب الخلّص [2] .

(١) انظر في ذلك ظهر الإسلام لأحمد أمين : ج ٣ ص ١ — ٢

(٢) بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : ص ٨ .

الفَصل الثاني

نظام الحُكم في الأَندلس

كانت السلطة العليا في مختلف العهود التي تعاقبت على حكم الأندلس بيد الأمير أو الخليفة . وقد اعتاد الأندلسيون والمشرقيون أيضاً ألا يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، ولا يعتمدوا على أنفسهم في النظام وتدبير الشئون . وإنما اعتادوا الاعتماد على رجل قوي حازم يحكمهم ويقودهم . هذا في الأندلس ومثلُه في الشرق .

ولذلك نرى الأمور تستقيم ما دام على رأس الدولة رجل قويٌّ حازم ، فإذا زال كان الاضطرابُ والفوضى ، وكان هذا في الأندلس أقوى ، لأن سكانها ذوي عناصرَ مختلفة ، فما لم يُثبت الحاكم كفايته للضغط على هذه العناصر المتباينة ، انتقضت عليه . ومن ثَمَّ كان تاريخ الأندلس حوادثَ مختلفةً في النظام والفوضى ، فتستقر عند وجود الحاكم الحازم وتضطرب عند عدمه .

والقارىء لتاريخهم يعجب من ازدهار الحضارة والعلم في وسط هذا الاضطراب ، ويفسر هذا شيئان : الأول أن بعض الأمراء الحازمين حكموا مدة طويلة كخمسين سنة أو نحوِ ذلك ، استقامت فيها الأمور وازدهرت فيها الحضارة والعلم ، كعبد الرحمن الداخل ، والحكم بن هشام ، وعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد ، وعبد الرحمن الناصر ، والحاجب المنصور بن أبي عامر . والأمر الثاني هو أن العلماء أو بعضهم ، فيما يبدو ، كانوا يكوِّنون

لأنفسهم جوا هادئا يسود فيه العلم ، ويبتعدون فيه ما آمكن عن السياسة رغم الفتن والقلاقل التي حولهم [1] .

وكان للأندلسيين خُطط لتنظيم أعمال الحكم في البلاد ، تبدأ بالوزارة . فالوزارة كانت قاعدتُها في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعيِّنهم صاحبُ الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصُّهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب .

وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك ، الى أن جاء عصر ملوك الطوائف ، فكان الملك منهم – لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية ، وأنه كان نائبا عن خليفتهم – يُسمِّي نفسه بالحاجب ، ويرى أن هذه السمةَ أعظمُ ما تنوفس فيه وظُفِر به ، وهي موجودة في مدائح شعرائهم وتواريخهم .

وصار اسم الوزارة عاما لكل مَن يجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يُعرف بذي الوزارتين ، وأكثر ما يكون فاضلا في علم الأدب .

وقد يُستوزَر الشخصُ لشطرة من الشعر ! رُوي أن الأمير عبد الرحمن الأوسط صنع في بعض غزواته شطر بيت من الشعر ، وهو :

* نَرى الشيءَ مِما يُتَّقَى فنهابهُ *

ثم أرتِج عليه وكان عبد الرحمن بن الشّمِر نديمُه وشاعره غائبا عن حضرته ، فأراد مَن يجيزه ، فأحضر له بعضُ قواده كاتبَه محمدَ بن سعيد الزجالي أصمعيَّ الأندلس ، فأنشده الأميرُ شطر البيت ، فقال ابن سعيد :

* وما لا نَرَى مما يقي اللهُ أكثرُ *

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين : ج ٣ ص ١٧ .

فاستحسنه الأمير وأجازه ، وحمله استحسانُه على أن استوزره [1] .

* وكانت الكتابة عندهم على ضربين ، أعلاهما : كاتب الرسائل ، وهو كاتب أديب يتولى كتابة الرسائل الرسمية وغير الرسمية ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرفُ أسمائه الكاتب ، وبهذه السِّمة يخصه مَن يعظمه في رسالة ، وكان أهل الأندلس كثيري الانتقاد على صاحب هذه السِّمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصا عن درجات الكمال ، لم ينفعه جاهه ولا مكانه عند سلطانه من تسلُّط الألسُن في المحافل ، والطعن عليه وعلى صاحبه .

والكاتب الآخر كاتب الزِّمام ، وهو كاتب حسابيّ ، وكانوا يلاحظون ألا يكون كاتب الزمام نصرانيا ولا يهوديا ، لأن عظماء الناس ووجوهَهم يحتاجون اليه ، وهم يأنفون أن يحتاج المسلم لمن ليس من دينه .

* وصاحب الخراج أو الأشغال الخراجية في الأندلس كان أعظمَ من الوزير ، وأكثرَ أتباعا وأصحابا وأجدى منفعة ، فإذا اغترّ بجاهه أو بدت عليه أعراض كسب غير مشروع نُكِب وصودر ، وهذا راجع الى تقلب الأحوال وكيفية السلطان .

* وخُطة القضاء أو وظيفة القضاء بالأندلس ، كانت أعظم الخُطط أو الوظائف وأسماها عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمور الدين ، ولأن القضاة كان لهم سلطة كبيرة ، حتى يستطيع القاضي أن يستدعيَ الأمير أو الخليفة ليمثُل بين يديه لسماع كلامه في قضية من القضايا ، هذا كان وصفها في زمان بني أمية ومن سلك مسلكهم .

وكان لا يشغل مناصب القضاة سوى أكابر العلماء والفقهاء ، ولا يُطلَق لقبُ القاضي إلاّ على مَن هو والٍ للحكم الشرعي في مدينة جليلة ، فإن كانت

---

(1) تاريخ آداب العرب للرافعي : ج ٣ ص ٢٧٤ .

صغيرة أطلق على قاضيها لقب « المُسدّد » . وكان على رأس القضاة قاض كبير يقال له : قاضي القضاة ، أو قاضي الجماعة .

• أما خُطة الشرطة بالأندلس فكان يُعرَف صاحبها عند العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيمَ القدر عند السلطان ، كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلاّ في حضرة السلطان الأعظم ، وصاحب المدينة هذا هو الذي يَحُدُّ على الزنا وشرب الخمر ، وكثيرٌ من الأمور الشرعية راجع إليه باتفاق مع قاضي المدينة ورضاه . وكانت وظيفة القاضي ، أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

• خُطة العسس : ويلحق بخطة الشرطة خطة العسس أو خطة الطوّافين بالليل ، وهؤلاء كانوا يُعرفون في الأندلس « بالدرّابين » لأن بلاد الأندلس لها دروب بأقفال تُقفَل عليها بعد العتمة ، ولكل زقاق بائت فيه ، أو خفير يخفره ، له سراج معلق ، وكلب يسهر في حراسته ، وسلاح مُعَد لوقت الحاجة .

• خُطة الحِسبة : وكان بجانب وظيفة القضاء في المدينة وظيفة « الحِسبة » يتولاها عالم فطِن كأنه قاض ، وكان يتمثل عمله في المرور على الأسواق راكبا ، ومعه أعوانه وميزانه، فيزن الخبز الذي كان محدد الوزن ، ويمتحن الأسعار ، ويراقب البطاقات على السلع ، إذ كانت بطاقات الأسعار توضع على الخبز واللحم .

وقد يرسل المحتسب إلى البائع مَن يمتحنه سرا ، فإن عُهدت عليه خيانة ضُرِب وجُرِّس[1] في الأسواق ، فإن لم يرتدع نُفيَ من البلد !ولهم فيأوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تُدارس أحكام الفقه .

---

(١) الأصل في هذه المادة الجرس المعلوم ، وهو أداة من أدوات الإعلان والتشهير ، ثم قالوا : « جرس فلان فلانا » إذا فضحه وشهر به وأعلن على الملأ مساويه ، وندد عليه بها . وكأنما وضع في رقبته جرساً فشهره .

الفَصـل الثالث

صِفاتُ أهـل الأنـدلس

والشعب الأندلسيُّ كسائر الشعوب له صفاته الخاصة التي تميزه وتكشف عن طباعه وأخلاقه ومألوف عاداته . وفيما يلي عرض لأهم صفات الأندلسيين وعاداتهم التي اشتهروا بها :

• حب النظافة : وعن هذه الصفة ينبئنا المقّريُّ بقوله : « وأهل الأندلس أشدُّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون ومـــا يفرشون وغيرِ ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم مَن لا يكون عنده إلا ما يَقُوته يومَه ، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها »[1] .

• كراهيتهم للتسول : وعادة التسول مستقبحة عندهم الى النهاية ، وإذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على العمل يستجدي الناس في الطرقات والأسواق سبُّوه وأهانوه ، فضلا أن يتصدقوا عليه ، ولهذا لا تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر .

• زِيُّهم : ومن حيث الزي ، فالغالب على أهل الأندلس تركُ العمائم ، ولا سيما في شرق الأندلس ، أما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم فقيها ولا قاضيا مشاراً إليه إلا وهو بعمامة . وكثيرا ما يتزيّا سلاطينهم وجنودهـم بزي النصارى المجاورين لهم .

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٠٨ ويطويه صائما : يقضيه صائما

ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامّهم مَن يمشي دون «طيْلسان»[1] ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم غيرُ عظماء الشيوخ ، وكثيراً ما يلبسون غفائر[2] الصوف حُمْرا وخُضْرا ، والصفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودي أن يتعمم ألبتة .

والذؤابة[3] لا يُرخيها إلا العلماء ، ولا يُصرّفونها بين الأكتاف ، وإنما يُسدلونها من تحت الأذن اليسرى . وهم لا يعرفون أشكال العمائم المشرقية ، وإن رأوا على رأس مشرقي داخلٍ الى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف دون أن يحاكوه ، لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك الشأن في تفصيل الثياب .

أما الأندلسيات فيغلب على زيهن الأناقة والبذخ ، والتفنن في الزينة وأشكال الحُلِيّ .

* شعار الحِداد : وإذا كان اللون الأسود هو شعارَ الحداد عند المشارقة، فإن شعار الحداد عند الأندلسيين هو اللون الأبيض ، ولهذا اعتادوا أن يلبسوا البياض عند الحداد ، وعن ذلك يقول ابن بُرد الأصغر :

يقولون : البياضُ لباسُ حزنٍ
بأندلسٍ ، فقلت : من الصوابِ

ألم ترني لبِستُ بياضَ شَعري
لأني قد حزِنت على الشباب ؟

---

(١) الطيلسان : ثوب موصول به غطاء للرأس .
(٢) الغفائر : جمع غفيرة ، وهي لباس يغطي العنق والقفا .
(٣) الذؤابة : هي الشعر المضفور من شعر الرأس .

• حسن تدبيرهم : والأندلسيون في شئون حياتهم المعيشية أهل احتياط وتدبير وحفظ لما في أيديهم مخافةَ ذلِّ السؤال ، ولهذا فهم أبعد الناس عن الإسراف والتّبذير . وقد يَنسُبهم للبخل مَن لا يعرف حقيقة بواعثهم لهذا السلوك ، مع أن لهم مروآتٍ على عادة بلادهم ، لو فطِن لها حاتم الطائي ، كما يقول المقّريّ ، لفضَّل دقائقها على عظائمه ! .

ولعل فيما وقع لابن سعيد [1] ووالده في إحدى قرى الأندلس ما يفسر بواعث هذا السلوك عند الأندلسيين . قال ابن سعيد [2] : « لقد اجتزت مع والدي على قرية من قراها — الأندلس — وقد نال منا البرد والمطر أشدَّ النّيْل ، فأوينا اليها ، وكنا على حال ترقُّبٍ من السلطان وخلوٍّ من الرفاهية ، فنزلنا في بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم فحما تسخنون به ، فإني أمضي في حوائجكم ، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحما ، فأضرم نارا ، فجاء ابنٌ سغير له ليصطليَ فضربه ، فقال له والدي : لمَ ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنامَ أموالِ الناس والضجرَ للبرد من الصغر .

ثم لما جاء النوم قال لابنه : أعطِ هذا الشاب كساءَك الغليظة يزيدها على كسائه ، فدفع كساءَه إليّ ، ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبيَّ مُنتبها ويدُهُ في الكساء . فقلت ذلك لوالدي ، فقال : هذه مروآت أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم : أعطاك الكساء وفضّلَك على نفسه ، ثم أفكر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يَطِب له منام حتى يأخذ كساءه خوفا من انفصالك بها وهو نائم ، وعلى هذا الشيء الحقيرِ فقس الشيءَ الجليل [3] » .

---

(١) الذخيرة لابن بسام : القسم الأول — المجلد الثاني : ص ٣٨ .
(٢) هو عبد الملك بن سعيد صاحب كتاب « المغرب في حلى المغرب » .
(٣) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

• تدينهم : ولأهل الأندلس قواعد في ديانتهم تختلف باختلاف الأوقات وبالنظر إلى حكامهم ، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود ، وإنكار التهاون بتعطيلها ، وقيامُ العامة في ذلك ، وإنكارُه إن تهاون فيه أصحاب السلطان . وقد يقع السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ، ولا يعبئون بخيله ورَجْله [1] حتى يُخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في أخبارهم . وأما الرجمُ بالحجارة للقضاة ووُلاةِ الأعمال — إذا لم يعدلوا — فكلَّ يوم [2] .

• نساؤهم : وكانت نساؤهم على العموم ، أشبهَ شيءٍ بنساء أهل المشرق : أكثرهنَّ أميّات ، وفيهن الجواري اللائي يُحسِنَّ الغناءَ والموسيقى ، ويُبَعنَ بعد أن يتعلمنَ بأثمان غالية .

وكان يغلب على الحرائر من الأندلسيات الحجابُ كأهل الشرق ، بل ربما كان حجاب حرائر الأندلسيات أشدَّ وأعنف ، أما الإماء والسَّراري [3] فكان يُتسامح معهن في الحجاب . ولما سفرت ولاَّدة بنت المستكفي الأمويّ ، وشاركت في الشعر والأدب ، قوبل سفورها في المجتمع الأندلسي بشيء من الاستغراب !

وكانت البيوت الأندلسية حتى قصورُ الأمراء والخلفاء مملوءة بالحرائر والإماء من الإسبانيات وغيرهن ، وأدَّى ذلك الى أن يتعدد الأولاد في البيت الواحد من هؤلاء وهؤلاء ، وإلى أن يشيع الحقد والنزاع في البيوت بين الحرائر والإماء ، وأن يسريَ ذلك الى أولادهن . وكثيرا ما تدخلت النساء في السياسة ،

---

(١) المراد أنهم لا يبالون بقوته وما يمنع به نفسه من الجند .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٠٤ .
(٣) جمع سرية ، وهي الجارية يتسرا اها مالكها ، فإن ولدت منه سميت « أم ولد » وعندئذ لا يحل لسيدها بيعها ولا هبتها ، وتبقى حلا له طوال حياته ، فإذا مات صارت حرة تجري عليها كل أحكام الحرائر ، أما أولادها فأحرار منذ ولادتهم .

فمن الإسبانيات مَن كنّ يتظاهرن بحب العروبة والإسلام ، ولكنهن في الحقيقة لم ينسَيْن نصرانيتهن ولا إسبانيتهن . ومِن هؤلاء مَن كنّ يتجسسن على الخلفاء ، وينقلن لقومهن دقائق الأمور ، ويُوقِعن المسلمين في أشد أنواع الحرج ، وكذلك فعل بعض أبنائهن . ومن أمثلة ذلك يحيى بن السلطان أبي الحسن علي بن الأحمر ، وأخو السلطان أبو عبدالله محمد بن عليّ آخر ملوك العرب بالأندلس . فأمُّ يحيى واسمها « ثريا » كانت إسبانية ، وقد تنصّر يحيى سرا ودخل في خدمة ملوكِ الإسبان ، وكان يتجسس لهم على أخيه ، وعلى عمه أبي عبدالله الزغَل ، ويوهن من عزيمتهما أمام ملوك الإسبان [1] .

والأندلسيات كالمشرقيات نبغ بعضهن في الشعر، وشعرِ الغزل خاصة، مثل ولاّدة بنت المستكفي ، وأمِّ الكرام بنت المعتصم بن صمادح ، وحفصةَ بنت الحاج الغرناطية ، واعتمادَ جارية المعتمد بن عباد ، والتي يقال : إن المعتمد تلقب بهذا اللقب من أجل جارية له إسبانية الأصل كانت تسمى اعتماد .

وكانت الكتابة شائعة بين نساء الأندلس ، حكى عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » أنه كان بمدينة قرطبة نحو ١٥٠ امرأة تكتب القرآن بالخط الكوفيّ ، فكيف بغيرها [2] .

• حبهم للغناء : ومن صفات الأندلسيين شغفهم بسماع الغناء ، حتى ليفضلون الضروريَّ من العيش مع السماع ، على العيش المترف مع الحرمان من سماع الغناء .

وكان أمراء الأمويين كغيرهم شغوفين بالغناء ، واليهم يرجع الفضل في ظهور حركة الغناء وانتشارها في الأندلس .

---

(١) خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان : ص ٣٣ — ٣٥ .
(٢) ظهر الإسلام : ج ٣ ص ٣٠ — ٣٢ .

ففي عصر عبد الرحمن الداخل وفدَ على الأندلس من مغنيات الشرق « فضل » المدنية ، و « علم » المدنية ، و « قلم » الأندلسية التي أخذت الغناء عن أربابه في المدينة ، ثم عادت الى الأندلس . وقد أسس الأمير الداخل لهؤلاء المغنيات داراً بقصره تعرف بدار المدنيات ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ، ونصاعة ظَرفهن ، ورقة أدبهن .

ثم سما فنُّ الغناء في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وذلك بوفود المغني « زرياب » عليه من الشرق ، وهو الذي أسس مدرسة الغناء والموسيقى والرقص بقرطبة ، ووضع الأسس القوية التي قامت عليها الموسيقى الأندلسية . وكان لزرياب تلاميذ نهجوا سبيله في الفن ، ونبغ من تلاميذه أبناؤه الثمانية الذكور ، وبنتاه « علية » و « حمدونة » وكلهم مارسوا الغناء ، كما أجاد من جواريه « متعة » التي كلِف بها الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فأهداها اليه زرياب .

وكان أبو الأصبغ عبدُ العزيز بن الخليفة عبد الرحمن الناصر مغرما بالخمر والغناء ، وحدث أن انقطع عن الخمر ، فقال أخوه المستنصر : وددت لو أنه ترك الغناء أيضا ، فلما سمع بذلك أبو الأصبغ قال : « والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها » !

ومن أهل الأندلس من اشتغل بصناعة ألحان الغناء أو التأليف فيه : فإلى أبي بكر بن باجة تُنسب الألحان المطربة في الأندلس ، وليحيى المرسي كتاب « الأغاني الأندلسية » وهو شبيه بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

وكان أهل الأندلس يغنون القصائد الشعرية ، وظل الأمر كذلك حتى ظهرت الموشحات الأندلسية ، فأخذوا يغنونها مع نغمات الموسيقى .

ولم يخل عصر من عصور الأندلس من مغنيات أندلسيات وموسيقيات وراقصات ، وهكذا كثرت مجالس الغناء في كل مكان ، وتعددت مراكزها ، ومن جميع مدائن الأندلس اشتهرت إشبيليّة بحب الغناء والموسيقى ، حتى صحَّ

فيها قول أبي الوليد بن رشد : « إذا مات عالم بإشبيليّة فأريد بيع كتبه حُملت الى قرطبة حتى تُباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُملت إلى إشبيلية »[1]

فشغفُ أهل الأندلس بالغناء إلى هذا المدى . إن دلَّ على شيء فإنما يدل على صفة من أبرز صفاتهم ، ألا وهي رقة عواطفهم .

• رغبتهم في العلم : ومن صفات أهل الأندلس أنهم أحرص الناس على التميز . فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم ، أو لم تتهيأ له أسبابه ، يعمل على أن يتميز بصنعةٍ ما ، ويربأ بنفسه أن يُري عالةً على الناس ؛ لأن هذا عندهم في نهاية القبح .

والعالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة ، يُرجَع اليه ، ويعلو قدره وذكره عند الناس ، ويكرَم في جِوارٍ أو ابتياع حاجة ، وما أشبه ذلك .

ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرءون جميع العلوم في المساجد بأُجرة ، وهم يقرءون أو يتعلّمون لذات العلم لا للوظيفة . ومِن ثَمَّ فالعالم منهم بارعٌ ؛ لأنه يطلب العلم بباعثٍ من نفسه يحمله على أن يترك العمل الذي يستفيد منه ، وينفق مِن عنده حتى يعلَم .

وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلاّ الفلسفةَ والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيما عند خواصهم . وهؤلاء لا يتظاهرون بها خوفا من العامة ، فإنه كلما قيل : « فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه العامة اسم « زنديق » وقيّدتْ عليه أنفاسه . فإن زلَّ في شُبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا للعامة . وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأنِ إذا وُجِدت ، وبذلك تقرّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن .

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ١٤٧ .

وقراءةُ القرآن بالسبع وروايةُ الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهبَ لهم إلاّ مذهبُ مالك ، ولقبُ « الفقيه » عندهم لقبٌ جليل ، حتّى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم بالفقيه إعلاءً لشأنه ، وقد يقولون للكاتب والنحويّ واللغويّ فقيه ؛ لأن هذا اللقب عندهم أرفع السمات .

وعلم النحو عندهم في نهايةٍ من علوّ الطبقة ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظِ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكلّ عالم في أي علم لا يكون متمكنا من علم النحو ، بحيث لا تخفى عليه دقائقه ، فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالمٍ من الازدراء .

هذا مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام بعيد عمّا تقتضيه أوضاعُ العربية ، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ، ولكن النحو مراعىً عندهم في القرآن والمخاطبات والرسائل .

والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهةٌ ورواتب جارية ، والمجيدون منهم يُنشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويُوقّع لهم بالصلات على أقدارهم . وإذا كان الشخص بالأندلس نحويا أو شاعراً فإنه يعظُم في نفسه لامحالةَ ويسخُف ويُظهرالعُجْبَ ، عادةٌ قد جُبِلوا عليها [1] .

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٠٥ – ٢٠٧ .

الفَصْل الرابع

حياة الأَندلس الفكريَّة

عرضنا في الفصول السابقة لحياة الأندلس الاجتماعية ، من حيث عناصر شعبها ، ونظُمُ حكمها ، وصفاتُ أهلها المميزة . وتتمة لهذا الموضوع نعرض هنا لحياة الأندلس الفكرية كظاهرة اجتماعية ، بقصد التعرف الى نشأة حركة العلوم والآداب والفنون في الأندلس ، والجهودِ التي تضافرت على خلق هذه الحركة وتدعيمها ، والوسائلِ التي أدَّت الى تنوعها وتطورها .

والتأريخ لهذه الحركة يقتضينا ابتداءً أن نقرر بأن السمة المميزة للعصر الأول من تاريخ المسلمين في الأندلس ، هي أنه لم يكن عصر علم ، وإنما كان عصر فتح وغزو ، وصراع سياسيّ بين العصبيات القبلية من أجل الحكم .

وإذا كان الأمر كذلك ، صح القول بأن هذا العصر لم يُتِح للعلم ما تتطلبه طبيعته من الهدوء المشجع على الاشتغال به . وعندما استقرت أحوال الأندلس نسبيا بقيام إمارة قرطبة ، بدأ المسلمون يفكرون في العلم ويُعنَون به .

ولأنهم كانوا لا يزالون يعيشون في جوٍّ الفتوح المشبّع بالحماس الدينيّ فإن أول ما فكروا فيه هو الدين ، ثم تلا بعد ذلك اهتمامُهم بالعلوم الأخرى .

وكان لهم وسائلهم الخاصة في اكتساب العلم وتأسيس حركته في بلادهم ، ولعل أهم الوسائل التي استخدموها في ذلك هي الوسائل الأربع التالية :

* * *

الوسيلة الأولى :

وتتمثل في دعوة بعض علماء المشارقة الى الأندلس ليفيد أهلَه من علمهم وأدبهم ، ومن ذلك على سبيل المثال رحيلُ أبي عليّ القالي صاحب كتاب « الأمالي » من بغداد الى الأندلس بدعوة من الخليفة عبد الرحمن الناصر ، حيث لقي عنده كل إكرام ، واختص بابنه الحكم المستنصر ، وأورث أهل الأندلس علمه [1] .

وكان أبو علي القالي إماماً في اللغة حافظاً لأشعار العرب ، فنشر ما شاء الله أن ينشر من علمه في الأندلس ، وأخذ يروي مختارات من الأدب حيثما اتفق ، ثم يشرح ما يحتاج الى الشرح نظما ونثرا .

ومن ذلك أيضا أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي ، عالم اللغة والأدب والأخبار ، فقد رحل الى الأندلس في ولاية المنصور بن أبي عامر ، ونال عنده كل حظوة وجمع له كتابا سماه « الفصوص » نحا فيه منحى القالي في أماليه ، وكان نبوغه ومهارته يتجليان في حُسْن بديهته الأدبية ، ورواياته الشعرية .

وانتشر علم أبي علي القالي وأبي العلاء صاعد بين تلاميذهما ، ومن تلاميذهما إلى تلاميذهم ، وهكذا ، وكانا من أوائل واضعي أساس الثقافة المشرقية بالأندلس في اللغة والأدب .

ثم نشأت طائفة من أهل الأندلس تؤلف كما ألَّفا ، ومن هذه الطائفة أبو عمر أحمد بن عبدِ ربِّه، صاحبُ كتاب « العقد الفريد » فقد اختار في كتابه زبدة أدب المشارقة ، واعتمد على كتبهم ، ولا سيما كتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، وكان قصده من وراء تأليف كتابه العِقد أن ينقل الى الأندلسيين أدب المشارقة .

* * *

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٦٢ .

الوسيلة الثانية :

وتتمثل في رحيل بعض الأندلسيين إلى المشرق ، ممن ندبوا أنفسهم لتحصيل علم من علوم المشارقة والتبحُّر فيه ، ثم العودةِ الى الأندلس لنشر ذلك العلم بين أهله .

وخير مثال على ذلك يحيى بن يحيى الليثي ، فقد رحل الى المدينة ، وتتلمذ للإمام مالك ، وأخذ عنه كتابه المسمّى « موطأ مالك » كما سافر الى مصر وأخذ من أكابر علمائها ، ثم عاد ونشر علمه بين أهل الأندلس [1] .

وكان يحيى مشهوداً له بالأمانة والدين ، معظما عند الأمراء ، متعففا عن الولايات والقضاء ، ومع ذلك أسند اليه الأمير عبد الرحمن الأوسط اختيار القضاة ، فكان يختار مَن كان على مذهب مالك .

ومِثلُ يحيى الليثي كثيرٌ من أهل الأندلس الذين رحلوا الى الشرق في طلب العلم . وقد أورد المقّريّ في كتابه « نفح الطيب » تراجم كثيرة لمن انتجعوا الشرق للعلم ، وقد بلغ من إقبالهم على ذلك أنْ كان الرجل يُعاب بأنه لم يرحل الى الشرق [1] .

ومن هؤلاء جميعاً ظهرت بعد ذلك طبقة من الأندلسيين يتقنون العلم ، ويحملون عبء نشره في كل فرع من فروع العلم .

والفضل الأكبر في نشأة الحركة العلمية والأدبية في الأندلس وازدهارِها ، يرجع في الواقع الى هاتين الوسيلتين ، وأعني بهما رحلةَ أهل العلم من الأندلس واليـــه .

فقد كان تيار هذه الرحلة العلمية مُطَّرداً ، يحمل مَن يرحلون من الأندلس الى المشرق للعلم ، ومَن يرحلون من المشرق إلى الأندلس بالعلم !

---

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) انظر في ذكر من رحل من الاندلسين للمشرق كتاب نفح الطيب : ج ٢ ص ٢١٣

كان هناك علماء يضيق بهم المشرق من الفاقة أو الاضطهاد ، فيرحلون إلى الأندلس بعلمهم وينشرونه بين أهله، وكان هناك علماء من الأندلس يُعوزهم العلم فيرحلون في طلبه إلى المشرق .

ومن هؤلاء مَن تقصر همته ، فيكتفي برحلته إلى المغرب ، فإذا زادت همته قليلا عن ذلك رحل الى مصر ، ومنهم مَن بَعُدت همته ، وكان لديه الجرأة والصبر على مشاق السفر الطويل ، فرحل الى مصر والشام والحجاز والعراق ، وغيرها من مراكز العلم المشرقيّ وحواضره .

وهؤلاء الرحالون كانوا يتبحّرون في علوم مختلفة : فبعضهم قصد من رحلته الفقه وعلوم القرآن والحديث ، وهم الغالبية العظمى، وبعضهم طلب الفقه وعلم الكلام كأبي محمد بن حزم الظاهريّ العالم المشهور ، والذي قال عنه صاعد في تاريخه : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعَهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسِّيَر والأخبار [1] . ومن شعره لما أحرق المعتضد بن عبّاد كتبه في إشبيلية قوله :

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمّنه القرطاسُ ، بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلّت ركائبي
وينزل إنْ أنزلْ ، ويُدفَن في قبري

ومن هؤلاء الرحالين مَن خرج في طلب الأدب كابن عبد ربّه صاحب العِقد، وأبي العباس أحمد الشَّريشي جامع مشاهير قصائد العرب ومختصرَ

(٢) نفح الطيب : ج ٢ ص ٢٨٣ .

نوادر أبي علي القالي [1] ، وأبي عبدالله محمد الزُّهريّ الإشبيلي صاحب كتاب « أقسام البلاغة وأحكام الصناعة » [2] ، ومَن رحل في طلب النحو والصرف كإمام النحاة أبي عبدالله محمد بن مالك صاحب الألفية [3] ، ومن رحل للتصوف كأبي العباس المرسي [4] ، ومحيي الدين بن عربي الصوفيّ الفقيه المشهور [5] ، ومَن رحل لطلب الفلسفة والعلوم الدخيلة كابن زُهْر ، ومن رحل يطلب الأخلاق وعلم السياسة ، كالزاهد الورِع أبي بكر الطُّرطُوشي ، صاحب كتاب « سراج الملوك » الذي كتبه للمأمون البطائحي وَليّ الأمر في مصر . حُكي أنه كتب عليه عند إهدائه اليه :

الناس يُهدون على قَدْرِهمْ   لكنني أهدي على قَدري
يُهدون ما يَفنَى وأُهدي الذي   يبقَى على الأيام والدهرِ [6]

وبعض هؤلاء الرحالين استقر في البلد الذي رحل اليه ، ولكن أكثرهم عادوا من رحلتهم العلمية إلى بلادهم ، ثم راحوا يتعاونون مع مَن استقر من علماء المشرق عندهم ، في تدعيم حركة العلوم والآداب التي أخذت تشق طريقها الى جميع أنحاء الأندلس ، وفي إثراء هذه الحركة بما يبذلونه من جهود في التأليف والتدريس .

* * *

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣١٦ .
(٢) المرجع السابق : ص ٤١٣ .
(٣) المرجع السابق : ص ٤٢١ .
(٤) المرجع ذاته : ص ٣٨٩ .
(٥) ذات المرجع : ص ٣٦١ .
(٦) المرجع ذاته : ص ٢٩٠ .

الوسيلة الثالثة :

وتتمثل في جمع الكتب وإقامة المكتبات العامة يؤمها الدارسون والباحثون ، وقد كان لهذه الوسيلة دورُها هي الأخرى ، في تنشيط الحركة العلمية والأدبية بالأندلس ، وتحريك هِمَم الناس للإقبال على قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

ولعلنا نتذكر في هذا الصدد ما سبق أن أوردناه من عناية الخليفة عبد الرحمن الناصر باقتناء الكتب النادرة ، وكيف أنه كان يرسل مَن يبحث عنها ويشتريها له من القسطنطينية والعراق والحجاز والشام ومصر .

كما نتذكر ابنه الحكم المستنصر ومكتبته الضخمة بما جمعت وأوعت من كتب لا تُحد ولا تُوصف كثرةً ونفاسة ، وبما حشد لها من الحذّاق في صناعة النّسخ والضبط والتجليد . ثم لعلنا نتذكر أيضا مكتبة مأمون دولة الموحّدين ، يوسفَ بن عبد المؤمن ، تلك التي كانت تضاهي مكتبة الحكم المستنصر الأموي (١)

* * *

الوسيلة الرابعة :

وتتمثل هذه الوسيلة الأخيرة في أمراء الأمويين وخلفائهم في الأندلس ، ثم فيمن تلاهم من ملوك الطوائف والمرابطين والموحّدين وبني الأحمر .

فأغلب هؤلاء لم يكن منهم إلاّ مَن هو أديب أو شاعر أو عالم ، وهذا يعني أنهم لم يقفوا بمعزل عن الحركة العلمية والأدبية والفنية في الأندلس ، بل

---

(١) انظر ما ذكرناه عن هذه المكتبات في صفحات : ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٦ من هذا الكتاب .

على العكس نراهم يزجُّون بأنفسهم في هذه الحركة، ويكُونون من فرسان حلبتها ، ويُثْرونها بالكثير من نتاجِ عقولهم وقرائحهم .

وإذا شئنا الإلمام بعدد من شاركوا منهم بالقول في نهضة الأندلس الأدبية والعلمية، كان علينا أن ننطلق من إمارة قرطبة ، تلك التي قامت في القرن الثاني الهجريّ واستمرت حتى نهاية القرن الثالث .

فمؤسس هذه الإمارة الأمير عبد الرحمن الداخل كان شاعراً ، ومِن بعده ظهر من أبنائه وأحفاده خمسة عشر شاعرا ، أوردنا فيما سبق نماذج من شعر بعضهم .

وفي القرن الرابع تميز ستة من أبناء وأحفاد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، أوّلُهم ابنه الحكم المستنصر وكان للأدب والعلم ، والباقون عُرفوا بالشعر ، وكان أشعرَهم حفيداه : محمد بن عبد الملك بن الناصر ، ومروان بن عبد الرحمن ابن عبد الملك بن الناصر ، وهو في بني أمية شبيهٌ بعبدالله بن المعتز في بني العباس ، لنفاسة شعره وحسن تشبيهه . وقد خرج منهم بعد القرن الرابع شعراء كثيرون يتفاوتون في الجودة والإحسان ، وهي ذرية بعضها من بعض .

ومن ملوك الطوائف الشعراء: المعتصمُ بن صمادح صاحب المَريّة ، وأولاده : الواثق ، ويحيى ، وأبو جعفر ، وأم الكرام . ومنهم المعتمد بن عبّاد صاحبُ أشبيليَة ، وملكُ شعراء الأندلس ، وكذلك أولاده : الرشيد ، والراضي ، وبثينة .

ومنهم ملوك بني الأفطس أصحاب بطليوس وما إليها ، وأشهرهم المظَفّر صاحب كتاب « المَظفّريّ » في الأدب والتاريخ . ثم بنو هود ، وعلى رأسهم المقتدر بن هود الذي نبغ في علم النجوم والهندسة والفلسفة .

هؤلاء هم أعلام ملوك الأندلس ، فكل أمير ، وكل خليفة ، وكل ملك منهم ، قد أسهم بنصيبٍ مّا من أدبه ، أو علمه في نموِّ الحياة الفكرية في البلاد وتوسيع مجالاتها .

وما من شك في أن موقفهم الإيجابي هذا، ممثّلا في نتاجهم العقليّ ، قد رفع من شأن الأدب والعلم في أعين الناس ، وشجع منهم ذوي الطموح والمواهب على الاشتغال بهما ، والتنافس في الإبداع والابتكار إنشاءً أو تأليفاً ، مما أكسب الحركة الأدبية والعلمية في الأندلس أبعادا جديدة ، وأخذ بيدها صُعُداً على طريق النمو والازدهار .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان هؤلاء الملوكُ هم رُعاةَ الحركة الأدبية والعلمية بالأندلس ، في كل طور من أطوارها . فهم يتخذون حجّابهم ووزراءهم وكتّابهم من مشاهير الأدباء، وفي ذلك ميدان جديد للتنافس بين أدباء كل عصر في نيل حظوة الملوك والتقرب اليهم بالأدب أو العلم ، فمن لا تحدثُه نفسه منهم بأن يكون يوما وزيرَ ملك أو كاتبا للملك ؟

وهم بالإضافة إلى ذلك يَعرفون كأدباء وعلماء فضلَ الأدب والعلم ، ومن أجل ذلك كانوا حريصين على تشجيع طوائف العلماء والأدباء والشعراء بالعطاء الجَمّ والاستماع اليهم في مجالسهم الأدبية ، وكان من شأن هذا التشجيع أن يزيد من حماسهم ، وأن يغريهم بالإجادة والإبداع والتفنّن في كل ما ينشئون من نثر وشعر ، وكل ما يؤلفون في شتّى فروع العلم والمعرفة .

* * *

وهكذا ... وبكل هذه الوســائل نمت آداب الأندلس وتطورت حتّى بلغت ذروة كمالها ، ثم بفنونها وألوانها وطابعها المشرق البهيج أضافت الى أدبنا العربي تراثا نفيسا يعتز به كل الاعتزاز .

وسوف نرى صورا ونماذج شتّى من آثار أدباء الأندلس وشعرائه ، وذلك عندما نعرض بالقول للأدب الأندلسيّ وفنونه في الفصول التالية ....

الباب الثالث

فنون الشعر الأندلسي

* الشعر الأندلسيّ والتقليد
* الفنون التقليدية
* الفنون المُوَسَّعة
* الفنون المُحدَثة



الفصل الأول

الشعر الأندلسي والتقليد

أرى قبل الشروع في الحديث عن الشعر الأندلسي أن أعرض لعلاقة هذا الشعر بشعر المشارقة . وبعبارة أخرى أهو شعر مستقل كل الاستقلال بطابع خاص وسمات مميزة ، أم هو محاكاة وتقليد للشعر المشرقيّ ؟

والذي دعانا إلى طرح هذا السؤال أننا نرى أحد الاندلسيين أنفسهم ، وهو ابن بسّام صاحب الذخير يقول :

« إن أهل هذا الأفق — الأندلس — أبَوْا الاّ متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتّى لو نعَق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لَجَثَوْا على هذا صنما، وتلَوْا ذلك كتاباً محكماً [1] »

ومعنى ذلك أن ابن بسَّام يقرر أن أهل الأندلس يتبعون أهل المشرق ويقلدونهم وينظرون اليهم على أنهم المثل الأعلى لهم في كل شيء ، ومن ذلك الشعر طبعاً . وهذا يعني أن ابن بسَّام يقرر بطريق غير مباشر أن شعراء الأندلس مقلدون لشعراء المشرق وغيرُ مستقلين عنهم بطابع خاص أو سمات مميزة .

ومن مؤرخي الأدب العربيّ المحدّثين مَن جارى ابن بسَّام في رأيه هذا .

---

(١) الفن ومذاهبه لشوقي ضيف : ص ٣٠٨ .

فالأستاذ أحمد أمين يقول عن ذلك : « وأيّاً ما كان ، فشعراء الأندلس في نظرنا لم يُفلحوا كثيراً في استقلالهم عن الشرق ، وابتكارهم ، وتجديدهم ، كما لم يفلح في ذلك اللغويون والنحويون والصرفيون . ولذلك لو أغمضنا أعيننا وجهلنا قائل القصيدة : أهو شرقيّ أم أندلسيّ ، لم نكد نحكم حكماً صحيحاً جازماً على الشاعر أغربيّ هو أم شرقيّ . ولذلك كثيراً ما تُنسب بعض الأبيات إلى أندلسيّ ، وينسُبها بعينها بعضُهم إلى مشرقيّ ، لعدم التمييز الواضح ، حتى عند الخبراء .... ولو كانت شخصية الأندلس واضحة في شعر أهلها، لصعُب نسبة أبيات أندلسية إلى شاعر شرقيّ[1] » .

ولعل أصحاب هذا الرأي من قدامَى ومحدَثين كانوا مدفوعين اليه بالاعتبارات التالية :

* رؤية الأندلسيين أنفسِهم يلقّبون نابغيهم بأسماء المشارقة ، فيقولون مثلاً في الرصافي : إنه ابن روميّ الأندلس ، وفي مروان بن عبد الرحمن : ابنُ معتز الأندلس ، وفي ابن خفاجة : صَنَوْبريُّ الأندلس ، وفي ابن زيدون : بحتريُّ الأندلس ، وفي ابن دَرَّاج القسطليّ : متنبي الأندلس ، وفي حمدة بنت زياد الشاعرة الأديبة : خنساء المغرب .

* محاكاة شاعر أندلسيّ لشاعر مشرقيّ في النسج على منواله في موضوع واحد ، ووزن واحد ، وقافية واحدة . فهارون الرشيد مثلا يقول في جواريه الثلاث :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عِنانـي ... وحللْنَ من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البريـةُ كلُّهـا ... وأطيعهنّ ، وهُنّ في عصياني؟
ما ذاك إلاّ أنّ سلطان الهـوى ... وبه قوِينَ أعزُّ من سلطـاني

---

(١) ظهر الاسلام : ج ٣ ص ١٠٤ – ١٠٥ .

فيأتي سليمان المستعين الأمويّ « ٤٠٣ – ٤٠٧ هـ » ، وكان أديباً بليغاً ، فيعارض الرشيد بقوله :

عجباً يهاب الليثُ حدَّ سنــاني ... وأهاب لحظَ فواترِ الأجفــانِ
وأقارع الأهوال لا متُهيِّبــاً ... منها سوى الإعراض والهجران

وتملكت نفسي ثلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوجوه نواعمُ الأبـدان
ككواكب الظلماء لُحْن لناظري ... من فوق أغصانٍ على كثبــان

حاكمتُ فيهنَّ السلوَّ إلى الهـوى ... فقضى بسلطانٍ على سلطاني
هذي الهلالُ ، وتلك بنتُ المشتري ... حُسْناً ، وهذي أختُ غصنِ البان

فأبحنَ من قلبي الحمَى وتركنني ... في عزِّ ملكي كالأسير العاني
لا تعذِلوا ملِكاً تذلّل في الهوى ... ذُلُّ الهوى عزٌّ ومُلْك ثــاني

ما ضرَّ أني عبدُهنَّ صَبابــةً ... وبنو الزمان وهنَّ من عُبداني
إن لم أطعْ فيهنَّ سلطانَ الهوى ... كلَفاً بهنَّ فلستُ من مَرْوانِ

* ما يُرى أحياناً من التطابق التام بين شاعر أندلسيّ وآخر مشرقيّ في طريقة النظم ، وفي الخصائص الأسلوبية وطبيعة المعاني ، إلى الحد الذي يصعب معه التمييز بينهما .

من ذلك ما يُروى أن شاعر الأندلس وحكيمها يحيى الغَزال ، دخل العراق بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة ، فوجدهم هناك يلهجون بذكره ، ولا يساوون شعر أحد بشعره ، فجلس يوما مع جماعة منهم فأزرَوْا بأهل الأندلس ، واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس ، فقال لهم : من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيت الشَّربَ أكْدَتْ سماؤهم ... تأبّطتُ زِقّي واحتسبت عَنائي[1]
فلما أتيتُ الحانَ ناديتُ رَبَّه ... فثابَ خفيفَ الروح نحو ندائي

قليلَ هجوعِ العين إلاَّ تَعِلَّةً ... على وَجَلٍ مني ومن نظرائي
فقلت : أذِقْنيها . فلما أذاقني ... طرحتُ عليه رَيطتي وردائي

وقلت : أعِرْني بذلةً أستتِرْ بها ... بذلتُ له فيها طلاق نسائي
فوالله ما بَرَّتْ يميني ولا وَفتْ ... له ، غيرَ أنّي ضامن بوفائي

فأبتُ إلى صَحْبي ولم أكُ آئباً ... فكلٌّ يُفَدِّيني ، وحَقَّ فدائي

فأعجبوا بالشعر ، وذهبوا في مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم : خفّضوا عليكم فإنه لي ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي أولها :

تداركتُ في شُرب النبيذ خَطائي ... وفارقت فيه شيمتي وحيائي

فلما أتم القصيدة بالإنشاء خجلوا ، وافترقوا عنه[2] .

* * *

فهذه الاعتبارات وأمثالها هي التي دعت بعض مؤرخي الأدب العربيّ الى القول بالتقليد في الشعر الأندلسي ، وعدم وضوح الشخصية الأندلسية فيه ، وبالتالي نَفْي صفةِ الاستقلال الذاتيّ عنه .

وإذا كنا نلتقي مع أصحاب هذا الرأي الى حدٍّ ما في إدراك هذه الظاهرة الأدبية ، فإننا نختلف معهم في موقفهم منها والنظر اليها . فنحن نسلم معهم بأن الشعر الأندلسي من جنس الشعر المشرقيّ ، ولو كان جنسا آخر مستقلا بذاته

(١) الشرب بفتح الشين : جماعة الشاربين ، وأكدت سماؤهم : أصل معناه احتبس مطرها . وهي هنا كناية عن قلة ما عند أصحابه من الشراب .
(٢) نفح الطيب : ج ٣ ص ٢١ — ٢٨ .

وصفاته ، لكان ذلك هو الأدعى الى الغرابة والتساؤل عن أسبابه .

حقا إن الشعر الأندلسيّ يلتقي مع الشعر المشرقي من حيث صفاتُه العامة وموضوعاته ، ولكن لهذا الالتقاء أكثر من عامل نفسيّ .

فالعرب بطبيعتهم من أشد الشعوب حبا للشعر ، فالشعر عميق متأصل في نفوسهم ، وجزء من طبيعتهم التي فُطروا عليها ، وللرسول في ذلك كلمة كاشفة يقول فيها : « لا تدع العربُ الشعرَ حتّى تدعَ الإبلُ حنينَها [1] » .

والعرب بطبيعتهم يعتزون بأصلهم وعروبتهم ووطنهم غاية الاعتزاز ، وفي تاريخهم منذ الجاهلية ما يشهد لهم باعتزازهم بهذه الصفات وتمسكهم بها . إن رحلوا الى بيئة جديدة عمِلوا على تعريبها . فنشروا فيها دينهم ولغتهم ، وأدبهم وحضارتهم ، حتّى يشعروا بأنهم لم يغتربوا ، وأنهم لا يزالون يعيشون في بيئتهم الأولى بكل قيمها وعاداتها وتقاليدها ، وأن الوطن الجديد بالنسبة لهم ، ليس بديلا عن الوطن القديم ، ولا منفصلا عنه ، بل هو امتداد له .

وذلك ما حدث للعرب عندما دخلوا الأندلس فاتحين . ففي العصور الأولى للفتح العربيّ ، كان غالبية أهل الأندلس نصارى ، وكان لهم لغتهم الخاصة التي يتخاطبون بها ، ويستخدمونها في مكاتباتهم . وشيئا فشيئا أخذوا يهجرون لغة بلادهم الأصلية ، ويتخذون من العربية لساناً لهم في كل شيء ، ومنهم مَن أجادها الى حد نظم الشعر بها .

ولم يأت القرن الرابع الهجري حتّى كانت معالم الحضارة العربية منتشرة في رُبوع الأندلس ومدائنه على غِرار ما هي عليه في المشرق .

فالمساجد والعمائر والقصور والمتنزهات ودور الصناعة هنا وهناك ، تكاد تكون صورة طبق الأصل من نظائرها في حواضر الشرق ، والعلوم هي العلوم ، والأدب هو الأدب ، ورحلة العرب الدائمة من الأندلس وإليه، تطوي الأبعاد ،

---

(١) العمدة لابن رشيق : ج ١ ص ١٥ .

وتربط الغرب بالشرق . حتى ليشعر كل عربيّ مرتحل بأنه في وطنه وبين أهله ، ومجالس العلم والأدب والغناء والشراب هنا كما هي هناك ، والعلماء والأدباء والشعراء وأرباب الفنون ينالون من تشجيع حكام الأندلس وعطائهم وحظوتهم مثلَ ما يناله أمثالهم من حكام الشرق ، وقرطبة هي دمشق الأندلس ، وإشبيليةَ هي حِمصها . وهكذا ... وعلى الإجمال كل شيء هنا ككل شيء هناك ، مع اختلاف كثير أو قليل في العَرَض لا في الجوهر .

وإذا كانت الحضارة الأندلسية قد مضت تبني نفسها على قوالبَ مستعارة من حضارة الشرق . حتى بدا عليها طابع الاحتذاء والتقليد . فإن بُناة هذه الحضارة من أمراء وخلفاء وملوك ، لم يكونوا مدفوعين الى ذلك بباعث المنافسة لحضارة العباسيين في بغداد ، بمقدار ما كانوا مدفوعين ، كما يبدو ، بباعث نفسيّ ، هو الرغبة في أن يجعلوا من الوطن الجديد امتدادا للوطن الأُمّ ، وأن يكون نسيج حضارتهم من جنس نسيج حضارتهم الأولى ، حتى يظلوا يشعرون أنهم في بُعدهم غيرُ بعيدين ، وفي اغترابهم غيرُ مغتربين !

وكان الأدب الأندلسيّ ، والشعرُ بخاصة ، أحدَ جوانب هذه الحضارة العربية الجديدة ، فإذا بدا عليه سيماء الاحتذاء والتقليد لشعر المشارقة ، فليس لعجز الشعراء عن الابتكار ، وان كانوا قد ابتكروا وجدّدوا . وإنما هو لشعور الانتماء الى الأصل والرغبة في استمرار الارتباط به . وما الإبقاء من جانبهم على تقاليد الشعر العربي المتوارثة الا صورةٌ من صور هذا الانتماء .

وإذا كان الشعر يتمثّل في شكله ومضمونه وموضوعه ، فمن أيّ هذه النواحي قلّد الأندلسيون المشارقة ؟

إن الدارس للشعر الأندلسيّ يرى أن ظاهرة التقليد فيه ترجع الى الشكل والموضوع دون المضمون. فمن حيث الشكلُ مُتَمَثّلاً في تقاليد القصيدة العربية القديمة ، لم يكن شعراء الأندلس بِدْعاً في التزامه ، وإنما كان التزامه اتجاها عاما لدى شعراء العربية في جميع العصور وحيثما كانوا ، على أساس أنه جزء

من تراثهم العربيّ الذي يعتزون به ويحافظون عليه ، ويضعونه فوق كل اعتبار فنيّ . وليس في هذا الالتزام ما يعيبهم أو يعيب غيرهم من شعراء العربية ، لأنه التزام نابع من رغبة لا شعورية بالارتباط الدائم بكل ما هو عربيّ ، مهما تطاول الزمن وتباعدت الديار . ومع ذلك فسوف نرى أنهم طوَّرُوا صورة القصيدة العربية باختراع الموشَّحات .

وإذا كانوا قد نظموا الشعر في فنونه المتعارف عليها من مدح ورثاء وغزل وما أشبه ، فليس ذلك في حقيقته تقليدا ، ففنون القول هي هي في كل زمان ومكان ، وغاية ما هنالك أن منها ما يقل فيه مجال القول أو يتسع ، تبعا للأحداث والأوضاع المتغيرة في المجتمعات . وليست العبرة بفنون القول ، وإنما هي بمدى الإجادة أو عدم الإجادة فيها .

وأما مضمون الشعر الأندلسيّ ، والمتمثِّل في تجارب شعرائه الذاتية ، وفيما تخلَّقَ في نفوسهم من معان وأفكار نابعة من بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، فهو مضمون يغلب عليه سيماء الحضارة والتجديد والابتكار ، وفيه تتجلى شخصية الأندلس واضحة . وما يُرى فيه أحيانا من معان سبق اليها شعراء المشرق ، فسببه في نظري ما تسرَّب اليهم لا شعوريا من هذه المعاني ، نتيجة دراستهم ومطالعتهم وحفظهم لأدب المشارقة . وهو أمر بعيد عن السرقات الشعرية .

ذلك ما بَدا لي من رأي في دعوى القائلين بأن شعراء الأندلس مقلدون لشعراء المشرق ، لا مبتدعون .

وقريب من هذا الرأي قول الأستاذ أحمد ضيف . في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » وذلك إذ يقول : « وكثيرا ما كان الشعراء – في الأندلس – يرجعون في أساليبهم وأفكارهم الى الأساليب والأفكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم عصبية وحنينا الى وطنهم وعيشتهم الأولى . إذ رغم ما كان في نفوسهم من الأثر الذي اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن لهم بها عهد في بلادهم ، كانوا لا يزالون يميلون الى أخيلتهم الأولى ،

ولم يكن لهم أن يهجروا عاداتهم . لأن العُجْب والخيلاء اللذين كان لهما السلطان على عقولهم . جعلاهم — حتى في تلك البلاد البعيدة ، وحتى بعد قرون من انتجاعهم إياها — يتغنَّوْن بذكر بلادهم ، ويتخذون الشعر القديم نموذجا لهم في الصناعة والخيال . والذي يقرأ الشعر الأندلسيّ يجدُهُ أخاً للشعر في بغداد ، بل وفي بلاد العرب نفسها . من حيث الصفات العامة ، والموضوعات التي كانت عند القدماء [1] » .

* * *

وبعد ... فقد آن لنا أن نعرض بالبحث للشعر الأندلسيّ من حيث فنونه وشعراؤه . ومنهاجنا في ذلك يقوم على تقسيم فنون الشعر التي نظموا فيها ثلاثة أقسام : الفنون التقليدية . والفنون التي توسّعوا بالقول فيها ، والفنون التي استحدثوها ولم يسبقهم أحد اليها .

(١) بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : ص ٣٥ .

الفصل الثاني

فنون الشعر الأندلسي التقليدية

من الظواهر التي تسترعي نظر الباحث في الشعر الاندلسيّ ، ظاهرةُ « شيوع الشعر » بين عرب الأندلس على اختلاف طبقاتهم .

فالشعر في الأندلس لم يكن وقفا على الشعراء وحدهم، وإنما شاركهم في نظمه ، وإلى حد الإجادة أحيانا ، كثيرون من أهل البلاد ، على اختلاف أهوائهم ومشاربهم ، وبُعدِ ما بينهم وبين الأدب ، من حيث أعمالهم وتخصصاتهم. وقلما خلت ترجمة أندلسيّ من شعر منسوب اليه ، سواء أكان المترجَم له أميرا ، أو وزيرا ، أو كاتبا ، أو فقيها ، أو نحويا ، أو فيلسوفا ، أو طبيبا ، أو غير ذلك .

ولعلهم كانوا مدفوعين الى ذلك بما فُطِروا عليه من محبة الشعر ، وبتكوينهم الثقافيّ المؤسَّس على علوم العربية وآدابها ، ثم بطبيعة الأندلس الجميلة ، وبكل ما يضطرب فيها مما يحرك العواطف ويستثير الخيال .

وقد نظم الاندلسيون في جميع الشعر العربي ، وزادوا عليها بعض فنون اقتضتها ظروف بيئتهم وأوضاع مجتمعهم .

ويمكن تقسيم الفنون التي قالوا الشعر فيها الى ثلاث مجموعات : الأولى مجموعة الفنون التقليدية التي جارَوْا فيها شعراء المشرق ، وإن اختلفت طريقة التعبير فيها عندهم في بعض أجزائها . وهذه الفنون هي : الغزل ،

والمدح ، والرثاء ، والحكمة، والزهد ، والاستعطاف ، والهجاء، والمجون .

والثانية ، مجموعة الفنون التي لا تخرج عن كونهـــا من الفنون التقليدية أيضا ، ولكنهم توسّعوا بالقول فيها ، لوجود مقتضبات هذا التوسع ودواعيه في مجتمعهم . وتتمثل هذه الفنون في : الحنين، وشعر الطبيعة ، ورثاء المدن والممالك ، والشعر العلمي .

والثالثة ، مجموعة الفنون الشعرية المحدثة التي لم يُسبَقوا اليها ، وهذه هي : الموشحات والأزجال ، وشعر الاستغاثة أو الاستنجاد .

وكل فنون الشعر الأندلسي تجمع بينها سمات عامة مشتركة ، ثم ينفرد كل فن بعد ذلك بسمات خاصة تميزه ، وفقا لطبيعته .

فمن سمات الشعر الاندلسي العامة غلبةُ الوصف الشعريّ والخيال عايه ، والميلُ في طرائق التعبير الى الاساليب البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، والى بعض الأساليب البديعية ، كالطباق ، والمقابلة ، وحسن التعليل ، والمبالغة ، وإن كانوا يخرجون بها إحيانا الى الغلو . وأغلب معانيهم تتسم بالجِدّة والطرافة، أما ألفاظهم فتتميز بالسهولة والوضوح والعذوبة ، وقلما يعثر الإنســـان في شعرهم على لفظة حوشية غريبة ، أو لفظة تنبو عن الذوق ، أو تعاف الأذن صوتها .

هذا عن أهم الصفات العامة أوالمشتركة في شعرهم ، أما الصفات التي ينفرد بها كل فن ، فسنشير اليها في معالجتنا لكل فن على حدة .

والآن ... وبعد هذه المقدمة ننتقل للكلام عن فنون الشعر الأندلسيّ ، بادئين بفنونه التقليدية .

فنون الشعر الأندلسي التقليدية

– ١ –

الغــزل :

كان كلُّ شيء في بيئة الأندلس الجميلة يُغري بالحب ويدعو الى الغزل ، ومن ثَمّ لم يكن أمام القلوب الشاعرة الاّ أن تنقاد لعواطفها ، فأحبت وتغزلت، ثم خلّفت وراءها فيضا من شعر الغزل الرائع الجميل .

وأوضح سمات هذا الغزل تتجلى في « رقته » الناشئة من التفنن البيانيّ في وصف محاسن مَن يقع الشعراء في حبهن من نساء الأندلس الجميلات ، وفي تصوير مشاعرهم المتضاربة تجاههنّ ، من وصل وهجر ، وقرب وبعد ، وإقبال وإعراض ، وما أشبه ذلك من التجارب التي يدور حولها موضوع الغزل .

وكان المتوقع أن ينفعل الشاعر الأندلسيّ بمؤثرات الحياة الجديدة من طبيعية واجتماعية ، فيبدّل من نظرته الى المرأة ، ومن مفهومه لقيم الجمال فيها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظل الغزل الأندلسيّ كأخيه المشرقيّ غزلا حسيّــاً بعيدا عن تصوير خلجات النفوس ، وما يضطرب فيها من شتى المشاعر .

فإلى جانب تصوير المواقف التي تنشأ عادة بين المحبين من قسوة ولين ، ووصل وهجران ، وشكوى وعتاب ، ودموع وبكاء ، وما أشبه ذلك ، وقف الغزل عند حدود الوصف المادي لما يتعشّقه الشاعر من أعضاء جسم حبيبه ! فالقامة قضيب بان ، والوجه قمر ، والشعر ليل أو ذهب ، والمحاجر نرجس . والأنامل سوسن ، والخدود تفاح ، والرضاب خمر ، والخالَ على الخد هو كما يقول الشاعر :

ما أرى الخال فوق خديك ليلاً على فلَق (1)
إنما كان كوكبا قابل الشمس فاحـــترق !

وهكذا ... وهذا إن دل على شيء ، فعلى ذوق الشاعر فيما يستهويه من مفاتن حبيبته الظاهرة . وكل ما هنالك من فروق بين الشعراء في ذلك ، إنما هي في طرق التناول ، و التعبير ليس غير .

ومن مواقف شعراء الأندلس بالنسبة للتجربة الغزلية ، نرى اتجاهين : اتجاهَ مَن اتخذوا الغزل طريقا الى اللهو والمتعة ، واتجاه من تغزلوا تَعَبُّداً بالجمال ، واتخذوا من العفاف حائلا يحول بينهم وبين الغواية .

* فمن الغزل الذي يمثل الاتجاه الأول هنا قول علي بن عطية البلنسيّ بن الزقاق .

ومُرْتجَّةِ الأعطافِ أمَّا قَوامُها
فلَدْنٌ ، وأمّا رِدفها فرَداحُ

ألمَّتْ فصار الليل مِن قِصَرٍ به
يطير ، وما غيرُ السرور جَناح

وبِتُّ وقد زارتْ بأنعَم ليلةٍ
يعانقني حتى الصباحِ صباحُ

على عاتقي من ساعدَيها حمائلٌ
وفي خصرِها من ساعدَيّ وِشاحُ (2) ! !

* ومنه أيضا قول أبي بكر يحيي بن بقيّ الأندلسيّ القرطبيّ :

---

(1) الفلق : الصبح . (2) وفيات الأعيان لابن خلكان : ج ٢ ص ٦١٩ .

بأبي غزالاً غازَلْتُه مُقلتي
بين العُذَيْب وبين شَطّيْ بارقِ

وسألت منه زيارةً تشفي الجوَى
فأجابني منها بوعدٍ صادقِ

بِتْنا ونحن من الدجَى في لُجَّةٍ
ومن النجوم الزُّهر تحت سُرادقً

عاطيتُه والليل يسحب ذيلَه
صَهباءَ كالمسك الفتيق لناشق

وضممتُه ضمَّ الكميِّ لسيفه
وذؤابتاه حمائلٌ في عاتقي

حتى إذا مالَتْ به سِنَةُ الكرَى
زَحزَحتُهُ شيئاً وكان مُعانِقي

أبعدتُه عن أضلعٍ تشتاقه
كي لا ينامَ على وسادٍ خافق

لما رأيت الليل آخرَ عمره
قد شاب في لِمَمٍ له ومَفارقِ

ودّعتُ مَن أهوى وقلتُ تأسفاً :
أعْزِزْ عليّ بأن أراك مفارقي [1]

(١) وفيات الأعيان : ج٢ ص ٣٥٢، ويبدو أن ابن بقي يعارض بهذه القصيدة قصيدة المتنبي التي مطلعها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

* ومنه كذلك قول الأعمى التُّطَيْلي الإشبيليّ :

بحياةِ عصياني عليكِ عواذلي | إن كانت القُرُباتُ عندك تنفعُ
هل تذكرين لياليًا بِتْنا بها ... | لا أنتِ باخلةٌ ولا أنا أقنعُ ؟ [1]

* ومن الغزل الذي يمثل الاتجاه الثاني اتجاه العفاف قول ابن فرج الجَيَّانيّ :

وطائعةِ الوصال صددتُ عنها | وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ
بدتْ في الليل سافرةً فباتَتْ | دياجي الليل سافرةَ القناعِ
فملَّكْتُ الهوى جمَحاتِ قلبي | لأجريَ في العفاف على طباعي

وبتُّ بها مَبيتَ الطفل يظما | فيمنعه الفطام عن الرضاع
كذلك الروضُ ما فيه لمثلي | سوى نظرٍ وشمٍّ من متاع

ولست من السوائم مُهمَلاتٍ | فأتخذَ الرياضَ من المراعي [2]

وقوله من قصيدة أخرى :

بأيِّهما أنا في الحب بادي | بشكر الطيف أم شكر الرقاد ؟
سرَى فازداد بي أملي ولكنْ | عففتُ فلم أنل منه مرادي
وما في النوم من حَرَجٍ ولكن | جرَيتُ من العفاف على اعتيادي [3]

● ومن اتجاهات الغزل الأندلسيّ أيضا والمتأثرة بالبيئة، التغزلُ بالنصرانيات، وذكرُ الصلبان والرهبان والنسّاك والكنائس ، وذلك كغزل ابن الحداد في صبية نصرانية تدعَى « نويرة » ، والوارد في المنتخبات . ومنه أيضا قوله :

---

(١) نكت الهميان في نكت العميان للصفدي : ص ١١٠ . (٢) نفح الطيب : ج ٤ ص ١٨٥
(٣) المرجع السابق : ص ٤٠٢ .

وبين المسيحيات لي سامريَّةٌ
بعيدٌ على الصبِّ الحنيفيِّ أن تدنو

مُثلَّثةٌ قد وحّدَ اللهُ حسنَها
فثُنِّيَ في قلبي بها الوجدُ والحزنُ

وفي مَعقِدِ الزُّنّار عَقدُ صبابتي
فمن تحته دِعْصٌ ومن فوقه غُصنُ

وفي ذلك الوادي رشاً أضلعي له
كِناسٌ ، وقُمريٌّ فؤادي له وَكنُ[1]

* كذلك شاع بين شعراء الأندلس « الغزل بالمذكر » وكانوا فيه مقلدين لبعض شعراء العباسيين من أمثال حماد عَجْرد ، وحسين بن الضحاك ، وأبي نواس . ولكنهم لم يُسِفّوا فيه ويُفحشوا كما فعل هؤلاء الشعراء ، ولم يكثروا منه كثرة أبي نواس مثلا . ففي ديوانه بابٌ خاص بوصف الغلمان يسمونه « غزل المذكر » فيه نحو ألف بيت !

ومن أكثر شعراء الأندلس غزلا بالمذكر ابن سهل الاسرائيليّ الذي أوردنا نموذجا من غزله في المنتخبات . ومن شعره أيضا في فتاهُ اليهوديّ موسى قوله :

ولمّا عزمنا ولم يبق من مُصانعة الشوق غيرُ اليسيرِ
بكيتُ على النهر أُخفي الدموعَ فعرَّضَها لونُها للظهور

ولو علم الركبُ خطبي إذن لما صحبونيَ عند المسيرِ
إذا ما سرَى نفَسي في الشراع أعادَهمُ نحو حِمص زفيري

(٢) الذخيرة : ٢/١ : ص ٢١٦ ، والرشا : هو الرشأ ، أي الظبي ، والكناس : منزله ، والقمري : نوع من الحمام ، والوكن : عش الطائر .

وممَنَّ الفراقُ بتوديعه فشبّهتُ ناعي النّوَى بالبشيرِ
وقبّلتُ وجنتَه بالدموع كما التقطتْ وردةٌ من غدير

وقبّلتُ في التُّرْب منه خُطاً أُميّزها بشميم العبير
أموسى تملَّ لذيذ الكرَى فليلي بعدك ليلُ الضريرِ[1]

ومنه كذلك قول شاعر في غلام وسيم :

مرآكَ مرآكَ لا شمسٌ ولاقمرُ
وورد خديكَ لا وردٌ ولازهَرُ

في ذمة الله قلبٌ أنت ساكنهُ
إنْ بِنْتَ بانَ ، فلا عينٌ ولا أثرُ!

ومع ما يبدو على الغزل الأندلسيّ من سيماء الأناقة والدماثة ، فإن نبض العاطفة الصادقة في أغلبه نبضٌ ضعيف ، اللهم إلاّ عند أبي الوليد بن زيدون ، شاعر الغزل الأندلسيّ الأوحد ، فإن عاطفة الحب في غزله عاطفة قوية صادقة .

وقد أوردنا في المنتخبات نموذجا من شعره ، وفيما يلي نموذج آخر من غزله بـ صاحبته وَلاّدة بنتِ المستكفي الأمويّ ، وشاعرة الأندلس . قال :

أأُسلَبُ من وصالكِ ما كُسيتُ وأُعزَلُ عن رضاك وقدوَليتُ؟
وكيف ؟ وفي سبيل هواكِ طوعاً لَقيتُ من المكارهِ ما لَقيتُ ؟

فديتُكِ ! ! ليس لي قلبٌ فأسلو ولا نَفْسٌ فآنفُ إنْ جُفيتُ
فإن يكن الهوى داءً مُميتاً لمَن يهوَى ، فإني مستميتُ

---

(١) ديوان ابن سهل الاسرائيلي : ص ٢٠ .

أُسِرُّ عليكِ عَتْباً ليس يبقى وأُضمِرُ فيكِ غَيْظاً لا يَبيتُ
وما رَدِّي على الواشين ، إلاَّ : «رَضِيتُ بِجَوْرِ مالكتي رضيتُ» ![1]

ومن غزله فيها أيضا قوله :

أغائبةً عنيِّ وحاضرةً معي
أناديكِ — لمّا عِيل صبريَ — فاسمعي

أفي الحق أن أَشقَى بحبكِ أو أُرَى
حريقاً بأنفاسي ، غريقاً بأدمعي ؟

ألاَ عطفةً تحيا بها نفسُ عاشقٍ
جعلتِ الرَّدَى منه بمَرْأىً ومَسْمَعِ ؟

صِليني بعضَ الوصل ، حتى تَبيّني
حقيقةَ حالي ، ثم ما شئتِ فاصنعي[2]

* * *

وقد تجد من شعراء الغزل في الأندلس مَن آستملَى من عمر بن أبي ربيعة طريقتَه في الحوار الغزليّ ، وذلك كأبي العباس أحمد بن عبد الله الإشبيليّ ، المعروف بالأعمى التُّطَيْليّ ، والمتوفي سنة ٥٢٥ هـ .

ففي إحدى قصائده يتغزل في أسلوب حواريّ بفتاة تسمى « لذيذة » ويجعل الحوار بينه وبين امرأة تُدعَى « أمّ المجد » . وفيما يلي قصيدةُ التُّطَيْليّ هذه، كنموذج لهذا اللون من الغزل :

---

(١) ديوان ابن زيدون : ص ١٧٨ . (٢) المرجع السابق : ص ١٦٧ .

لمّا التقينا وقد قيل : المساءُ دنَا ... وغابت الشمس أولاذتْ ولم تغبِ
وأضلعي بين منُقضٍ ومنُقصفٍ ... وأدمعي بين منْهلٍ ومنُسكبِ

وأمّلتْني « أمُّ المجد » قائلةً : ... بمَن أراكَ أسيرَ الوجدوالطربِ ؟
فقلت : قلبيَ مَسْبيٌّ . وإنك لو ... كتمتِ سِرِّيَ . لم أكتُمكِ كيف سُبي

وأعرضتْ ثم قالت : قدأسأتَ بنا ... ظنّا ! أيجمُل هذا من ذوي الأدب ؟
فقلت : إني امرؤ لمّا لقيتكمُ ... والمرء وقفٌ على الأرزاء والنُّوَب

سَبتْ فؤاديَ ذاتُ الخال قادرةً ... ولا نصيبَ لهمنها سوى النَّصَب
ألهو بها ، وهي تلهوفي بُلَهْنيةٍ ... شتّان واللهِ بين الجد واللعب [1]

أصابت القلبَ لمّا أن رَمتْه ، ولو ... رمته أخرى إذن لاشك لم تُصبِ
فقالت : أشكُ اليها ما لقيتَ ولا ... ترهبْ ، فلم تُبلَغ الآمالُ بالرَّهَب

عسى هواكَ سيُعديها فيُنصبها ... وقد يكون الهوى أعدَى من الجرَب
فقلتُ : أعظمُها ، بل ما أكلمها ... إلاّ أشار اليّ الموتُ من كثَبِ

قالت : أناأتولّى ذاكفي لَطَفٍ [2] ... فقد أُؤَلّف بين الماء واللهب
فقلتُ : مثلك مَن يُرجَى لمعضلةٍ ... لا زلتِ في غبطةٍ ممتدةِ الطُّنُبِ [3]

صِليه أو فاقتليه فالحِمامُ له ... خيرٌ من الهجر في جهد وفي تعب
فلو تراني قد استسلمتُ مُرتقبا ... منهاحنانَ الرضا أوجفوةَ الغضب

---

(١) البلهنية : رخاء وسعة في العيش . (٢) اللطف والملاطفة : الرفق في الوصول إلى الغاية .
(٣) الطنب : حبل طويل يشد به البيت والخباء والسرادق . والاستعمال هنا كنائي ، قصد به الدعاء لها بالغبطة الدائمة .

حتى إذا ما ألانت تلك جانبَها والقلب مهما أرُمْ تسكينه يجب
طفِقتُ ألثُم كفيْها وقد جنَحت إليّ تضحك بين العُجْب والعَجَب[1]

لله مثليَ ما أدنَى سَجيّتَه من المعالي وأنآها عن الرِّيَبَ !
كم مأثم مُستلَذّ قد هممتُ به فلم يَدَّعْني له ديني ولا حَسَبي[2]

* * *

وبعد ... فهذا عرْض لفن الغزل في الشعر الأندلسي . ألممنا فيه بطبيعة غزل الأندلسيين وسماته واتجاهته ، وقد شفعناه بمنتخبات أخرى من شعرهم ، لتلقيَ مزيدا من الضوء على هذا الغزل ...

منتخبات من الغزل الأندلسي

* قال أبو الحسن الطُّبني :

يا سالياً عاشقيه وعاشقاً كل تيه
ومَن مُدامي ونُقلي بوجنتيه وفيه
هلاّ جزَيت فؤادي ببعض مالكَ فيه ؟[3]

* وقال الطليق القرشيّ :

خمَشَتْ ألحاظُ عيني خدّه مثلما باللحظ قلبي خمَشا
نقشَتْ عيني عليه أسطراً أعربتْ عما بقلبي نُقشا
أنت كالبدر يُرى الليلُ به مؤنساً طوراً وطوراً موحشا ![4]

(١) العجب من جانبها : الزهو بنجاحها في مهمتها والعجب من جانبها أيضاً : يعني دهشتها من شدة فرحته التي عبر عنها بلثم كفيها .
(٢) بلاغة العرب لأحمد ضيف : ص ١٦٦ .
(٣) الذخيرة : ١/٢ ص : ٦٥ .
(٤) المرجع السابق : ص ٨٣

• وقال ابن الحداد متغزلا في صبية نصرانية :

عساكِ بحق عيساكِ ، مريحةَ قلبيَ الشاكي
فإن الحسن قد ولاّكِ إحيائي وإهلاكي

وأولعني بصلبانٍ ، ورهبانٍ ونسّاكِ
ولم آتِ الكنائس عن هوىً فيهنّ لولاكِ

وها أنا منك في بلوى ، ولا فرجٌ لبلواك
ولا أسطيع سلوانا ، فقد أوثقتِ أشراكي

فكم أبكي عليك دماً ولا ترثين للباكي
نويرةُ إن قليتِ فأنني أهواك أهواكِ [1]

• وقال ابن بُرد الأصغر :

بأبي أنتَ وأمي ، لِمْ تطبّعتَ بظلمي ؟
أبداً تأتي بعتبٍ دون أن آتي بجُرمِ
بيننا في الحب قُربى : سُقْم عينيك وجسمي [2]

• وقال أبو بكر الطُّرطوشيّ :

أقلّب طرفي في السماء تردُّداً
لعلي أرى النجم الذي أنت تنظرُ

---

(١) الذخيرة : ١/٢ ص ٢١٥ . (٢) المرجع السابق : ص ٣٩ .

وأستعرض الرُّكبان من كل وجهة
لعلي بمن قد شمَّ عَرفَكَ أظفَر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها
لعل نسيم الريح عنك تخبِّر

وأمشي وما لي في الطريق مآربٌ
عسى نغْمةٌ باسم الحبيب ستُذكرِ

وألمح مَن ألقاه من غير حاجة
عسى لمحةٌ من نور وجهك تُسفِر [1]

* وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز :

غبتَ عنا فغاب كل جمالٍ — ونأى إذ نأيتَ كلُّ سرورِ
ثم لما قدمت عاودنا الأنس — وقرَّتْ قلوبنا في الصدور
فلو آنَّا نَجزي البشير بنُعمَى — لوَهبنا حياتنا للبشير [2]

* وقال ابن خفاجة الأندلسي :

ربما استضحكَ الحُبابَ حبيبٌ — نفضتْ لونَها عليه المدامُ
كلما مرَّ قاصراً من خُطاه — يتهادَى كما تهادَى الغمام
سلَّم الغصنُ والكثيب علينا — فعلى الغصن والكثيب السلام [3]

* وقال ابن هانيء الأندلسي ، وهو مما يتغنى به :

فتكاتُ لحظكِ أم سيوفُ أبيكَ
وكؤوسُ خمرٍ أم مراشف فيك

---

(1) نفح الطيب : ج ٢ ص ٢٩٠ . (2) المرجع السابق : ج ٥ ص ٣٠
(3) نفح الطيب : ج ٥ ص ٣٥ . والحباب بضم الحاء : الحبيب والحب بكسر الحاء .

أجلادُ مُرهَفَةٍ وفَتْكُ مُحاجِرٍ
مـا أنتِ راحمَـةٌ ولا أهلـوكِ

يا بنتَ ذي السيف الطويل نِجادُه
أكذا يجوز الحُكم في ناديكْ ؟

عيناك أم مغناك موعدُنـا وفي
وادي الكرَى نلقاك أم واديكِ ؟

منعوكِ من سِنة الكَرى وسرَوْا فلَو
عثَروا بطيفٍ طـارقٍ ظنُّوك

ودعَوْكِ نَشوَى ما سقَوْكِ مدامةً
فإذا تثنَّى عِطفُكُ اتهمـوك

حسِبوا التَكحُّل في جفونك حِليةً
تالله مـا بأكُفِّهم كحلوك ! [1]

* وقال ابن زيدون في صاحبته ولاَّدة بنت المستكفي :

ودَّعَ الصبرَ محبٌّ ودَّعَكْ
ذائعٌ مِن سِرِّهِ ما استودعك

يقرعُ السِّنَّ على أن لم يكنْ
زادَ في تلك الخُطا إذ شيَّعك

يـا أخـا البدرِ سنـاءً وسنىً
حفِظ اللهُ زمـاناً أطلعك

---

(١) ديوان ابن هانيء : ص ٥٣١ .

إنْ يَطلْ بعدك ليلى فلكم
بِتُّ أشكو قِصرَ الليل معك[1] !

* ومن الغزل بالمذكور قول ابن سهل الإسرائيليّ في فتى يهوديّ اسمه موسى :

شادنٌ لو جرى مع الشمس في حَلبةٍ سبقْ
عانَقَ الغصنَ فاحتذَى لِينَ عِطفَيْهِ واسترَقْ

نَشِقَ الزهرَ فاستفاد بأنفاسه عبَقْ[2]
وجرى باسمُ النسيمِ على خدِّه فرَقْ[3]

قل لموسى : زعزعتَ قلبي الكليمَ فانفلقْ[4]
يا جحيماً على القلوب ويا جنَّةَ الحَدقْ

ما أرى الخال فوق خديك ليلاً على فلَقْ[5]
إنما كان كوكباً قابلَ الشمس فاحترق ![6]

* ومن الغزل بالمذكر أيضاً قول أبي بكر بن عمَّار في فتى روميّ :

وهَوِيتُه يَسقي المدامَ كأنه
قمرٌ يدور بكوكب في مجلسِ

متأرِّجُ الحركات تندَى ريحُه
كالغصن هزَّته الصَّبا بتنفُسِ

---

(١) ديوان ابن زيدون : ص ١٦٧ . (٢) أي شم الزهر فتملق به طيب أنفاسه .
(٣) رق : صار رقيقاً . (٤) الكليم : الجريح . (٥) الفلق الصبح .
(٦) ديوان ابن سهل الإسرائيلي : ص ٣١ .

يسعَى بكأسٍ في أناملِ سَوْسَنٍ
ويُدير أخرى من محاجر نرجسٍ

عَنّا بكأسكَ ، قد كفتنا مُقلةٌ
حَوْراءُ قائمةٌ بسُكْرِ المجلس [1]

. ومنه لأبي عامر بن شُهَيد . هذه اللوحةُ الفنية . المفعمةُ بالحركة . الزاخرةُ بعديد الصور الشعرية التي تأخذ بمجامع الألباب . قال أبو عامر :

أصباحٌ شِيمَ أم برقٌ بَدَا ... أم سَنَا المحبوب أورَى أزْنُدا ؟
هبَّ من مَرقده مُنكسِراً ... مُسْبلاً للكُمِّ مُرْخٍ للردّا

يمسحُ النَّعْسةَ من عينيْ رشاً ... صائدٍ في كل يومٍ أسدا
فهْو مِن دَلٍّ عَراهُ زُبدةٌ ... من صريحٍ لم يخالط زَبَدا

قلت : هبْ لي يا حبيبي قُبلةً ... تَشفِ من عمِّك تبْريحَ الصَّدا
فانثنى يهتزُّ من مَنكبِه ... مائلاً لُطفاً وأعطاني اليدا

كلما كلّمني قبّلتُه ... فهْوَ إمّا قال قولاً رُدِّدا
كاد أن يَرجع من لَثْمي له ... وارتشافي الثغر منه أزْرَدا [2]

شربت أعطافُه ماءَ الصِّبا ... وسقاه الحسن حتى عَرْبَدا
وإذا استنجزتُ يوماً وَعدَه ... قال لي يَمطُل : ذكّرني غدا [3]

---

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ١٧٥ — ١٧٦ . (٢) ازرد : مخنوق
(٣) ظهر الإسلام : ج ٣ ص ١٤٥ ، وبلاغة العرب في الأندلس : ص ٥٣ .

المـــدح :

لم يكن المدح من فنون الشعر الأولى عند العرب ، وأكبر الظن أنه تأخر في الوجود عن فنون الشعر التي يتغنى فيها الشاعر بعاطفته الشخصية كالغزل مثلاً .

وكان مديح العرب في عصورهم الأولى فخراً كله . لأن أساس الطبيعة البدوية فضيلةُ الاعتماد على النفس ، وهي التي تحدث الكبرياء الصحيحة . فلا تكاد تجد في شعر المهلهل أو امرىء القيس وطبقتهما مديحاً مبنيا على الملَق وتصنُّعِ الأخلاق .

العرب إذن في عصورها الأولى لم تكن تعرف التكسب بالشعر . وظل الأمر كذلك حتى ضعفت أعصاب البداوة في بعض الشعراء . فرأينا زهير بن أبي سُلمى يتكسب يسيراً مع هَرِم بن سنان . ولكنْ بقيَ مدحه طبيعياً ، لم يحاول فيه تلوينَ الحقيقة بذلك اللون الذي يعطيها في الوهم منظر الاستعباد . ولذلك فضله عمر بن الخطاب بأنه كان لا يمدح الرجل الا بما هو فيه .

ثم ظهر النابغة فكان يتكسب بشعرهِ من المناذرة والغساسنة وهم ملوك . على أساس أن مديحهم لا بد أن يكون طبقة في الشعر تساوي طبقتهم في الناس وجاء الأعشى بعد زهير والنابغة . فجعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان . ويقال : إنه أول من سأل بشعره . ومن بعده ظهر الحطيئة فأكثر من السؤال بالشعر والإلحاف في الطلب ، فانحطت همته على جلالة شعره وشرف بيته [١] .

ومن الشعراء مَن عرف لنفسه قدرها فعزف عن المدح . يُروَى أن جميل ابن معمر لم يمدح أحداً قط الاّ ذويه وقراباته ، كما يُروَى أن عمر بن أبي

(١) العمدة لابن رشيق : ج ٢ ص ٦٨ .

ربيعة ترفّع عن المدح والهجاء . وأن العباس بن الأحنف أنِف عن المدح تظرفا (۱)

وفي العصر الأموي أكثر الشعراء من المدح وأطالوا فيه ، ويقال : إن كُثيِّر عزة أولُ مَن فعل ذلك. كما أن جريرا أولُ مَن استنّ إطالة الهجاء . وتقصيرَ الممادحة . على أساس أن أولها يُنسَى وآخرَها لا يُحفَظ .

وقد حمل الخوارج على شعر الاستجداء والمدح الكاذب ، يُروَى أن عِمران بن حِطّان الخارجيّ مرّ على الفرزدق وهو يُنشد من مدحه ، والناس من حوله ، فوقف عليه ثم قال :

أيها المادح العباد ليُعطى	إن لله ما بأيدي العبادِ
فاسأل اللهَ ما طلبتَ اليهم	وآرجُ فضلَ المنزِّل العوّادَ
لا تقل في الجبان ما ليس فيه	وتسمّي البخيلَ باسم الجواد

أما المحدَثون من الشعراء فقلّ من لم يحترف المديح ويجعله عمودَ شعره وموضع إجادته . وقد جرّأهم على ذلك جودُ الخلفاء والأمراء . ورغبتُهم في اصطناعهم .

ومن الشعراء مَن كان يرى الأخذ من دون الملوك عارا . وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

ولقد حُبيتُ بألف ألفٍ لم تكن	إلاّ بكفّ خليفةٍ ووزيرِ
ما زلتُ آنَفُ أن أؤَلِّف مِدحةً	إلاّ لصاحب منبرٍ وسريرِ!

وقد هاجم بعض النقاد شعر المدح . بعد اتخاذه أداةً للتكسُّب والارتزاق . لما فيه من الكذب بخلع صفاتٍ على الممدوح ليست فيه ، وبذلك يكون الشعر

---

(۱) العمدة لابن رشيق : ج۲ ص ٦٨

تصويراً بعيداً عن الصدق ، وكذباً أحياناً على التاريخ . ولكن هذا النقد لم يؤثر في إنتاج شعر المدح ، فمضى أكثر الشعراء في كل عصر ، وكل موطن من مواطن العروبة يمدحون ، ولا يبالون بالكذب في سبيل المال والجاه .

ومن شروط المدح الجيد عند النقاد أن يكون أسلوبه جزْلاً ، وأن تكون ألفاظه متخيّرة ، وأن تكون القصيدة متوسطة الطول إذا كانت في عظيم ، وذلك خشيةً من سأمه إن كانت طويلة . وبعض الشعراء يرى الإطالة في المدح ضرباً من الهجاء ، كابن الرومي الذي يقول :

وإذا امرؤٌ مدح امْـــرأً لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءَهُ
لو لم يُقَدِّرْ فيه بُعْدَ المُستقَى ... عند الورود لما أطال رِشاءَهُ (١)

* * *

هذا عن نشأة فن المدح في الشعر العربيّ ، وتطوره تاريخياً ، ورأي بعض النقاد فيه .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى شعراء الأندلس لاستطلاع أحوال هذا الفن عندهم ، رأينا أنهم كإخوانهم المشارقة قد نظموا المدائح وأكثروا منها ، حتى لنرى بعض كبار شعرائهم من أمثال ابن هانيء الأندلسيّ ، وابن درّاج القسطليّ ، وابن حمديس الصقليّ ، قد خرج معظم شعرهم في المديح .

والدارس للمدائح الأندلسية يرى أن معظمها موجّه إلى أمراء الأندلس وخلفائه وملوكه ، وأنها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان : جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم ، وهذه لا تخرج عادة عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربيّ أن يوصف بها ، كصفات المروءة والوفاء والكرم والشجاعة ، وما أشبه . أما الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تُعد نصراً للإسلام والمسلمين ، ويدخل في ذلك أحياناً وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية .

---

(١) العمدة : ج ١ ص ١٦٤

والملاحظ على مدائحهم أن الشعراء يحتشدون لها ، ويتأنقون في صياغتها الفنية غاية التأنق . وينوّعون في أساليبها بين الجزالة والفخامة ، والرقة والسهولة طبقاً لما تقترحه عليهم طبيعة المعاني

أما عن طرائقهم في بناء قصائد المدح . فإنها تختلف من شاعر إلى آخر : فمنهم من يبني قصيدته على موضوع المدح وحده فيدخل فيه من غير مقدمات . ومنهم من يبنيها على موضوعين ، فيستهلّها مثلاً بالغزل ، أووصف الطبيعة . أو الخمر ، أو الشكوى ، أو العتاب . ثم يخرج إلى المدح ، ومنهم مَن يبنيها على ثلاثة موضوعات ، فيستهلّها باثنين من الموضوعات السابقة ، حتّى إذا بلغ غايته منهما انتقل إلى المدح .

وقد تختلف طريقة بناء قصائد المدح لدى الشاعر الواحد من قصيدة إلى أخرى ، من حيث عدد الموضوعات التي يُقدّم بها للمدح . موضوعه الأول .

والشاعر الأندلسي ليس مبتدعاً في طريقة بناء قصيدة المدح على هذا النحو . وإنما هو يجري في ذلك على سَنَن الأقدمين ، فقد كان من تقاليد قصيدة المدح عندهم أن تُبنى من مقدمة طَلَليّةٍ ، فنسيبٍ، فوصفٍ للرحلة، فتخلصٍ للمدح .

ولعل ابن قتيبة هو أول من لفت النظر إلى الأسس النفسية التي قامت عليها تقاليد قصيدة المدح القديمة .

فهو يروي سماعا عن بعض أهل الأدب أن مُقَصِّد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمَن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها انتجاعاً للكلأ وتَتَبُّعاً للماء ومساقط الغيث حيث كان .

ثم وصل ذلك بالنسيب . فشكا شدةَ الوجد وألمَ الفراق ، وفرطَ الصبابة والشوق ، ليُميلَ نحوَه القلوب . ويصرفَ اليه الوجوه ، ويستدعيَ به إصغاء

الأسماع اليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائطٌ بالقلوب ، لمَا قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلْفِ النساء ، فليس يكاد يكون أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً به بسبب ، وضارباً فيه بسَهمٍ ، حلالٍ أو حرام .

فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء اليه والاستماع له . عقّب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصَب والسهر ، وسُرَى الليل وحَرَّ الهجير . وإنضاء الراحلة والبعير .

فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه المقصودِ حقَّ الرجاء والتأميل ، وقرَّر عنده ما ناله من المكاره في المسير . بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزَّه للسّماح ، وفضَّله على الأشباه [1] .

فشعراء الأندلس في بناء قصيدة المدح يلتقون مع القدماء في تعدد موضوعاتها ، ويخالفونهم في نوعيتها إلى حدٍّ ما ، لأن لكل زمان موضوعاته ، التي بها يستطيع الشاعر أن يحوز الإعجاب ، ويستميل ممدوحه للعطاء أو نيل الحظوة عنده .

وإتماماً للبحث هنا نورد فيما يلي نماذج مختارة من مدائح شعراء الأندلس . نتبين على ضوئها طرائقهم المختلفة في بناء قصائد المدح . ومدى ما في هذا الفن الشعريّ عندهم من القيم الفنية والجمالية .

* ومن المدائح التي بنيت على المدح فقط قول ابن حمديس في مدح الأمير أبي الحسن عليّ بن يحيى :

تُفشي يداك سرائـــر الأغمـادِ	لقطاف هامٍ واختلاءِ هوادي [2]
إلاَّ على غزوٍ يُبيد به العِـــدى	لله من غزوٍ لــــه وجهـادِ

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ . (٢) الاختلاء : قطع . الهوادي : الأعناق .

ما صونُ دين محمد من ضَيمه ... إلاّ بسيفك يومَ كلّ جِلاد
وطلوعِ راياتٍ وقَوْدِ جحافلٍ ... وقِراعِ أبطالٍ ، وكَرِّ جيادِ

ولديك هذا كلُّه عن رائحٍ ... من نصر ربِّكَ في الحروب وغادِ
هذا ابنُ يحيى ذو السماح جنابُه ... مستهدَفٌ بعزائم القصَّاد

ملكٌ مفاخرُه تُعَدّ مفاخراً ... لمآثر الآباء والأجداد
وطريدُه، من حيث راح أو اغتدى ... في قبضةٍ منه بغير طراد [1]

* وفيما يلي نماذج من ثلاث قصائد قُدِّم للمدح في كل منها بالغزل ، ومنها يستطيع الدارس أن يتبين طرائق أصحابها من حيث الصياغة الفنية ؛ كما يتبين السمات الخاصة التي تتميز بها طريقة من أخرى .

ـ قال ابن هانيء الأندلسي يمدح إبراهيم بن جعفر بن عليّ :

قد مررنا على مغانيك تلكِ ... فرأينا فيها مشابهَ منكِ
مُسْعِدي عُجْ فقد رأيتَ مَعاجي ... يومَ أبكي على الديار وتبكي

بحنينٍ مُرجَّعٍ كحنيني ... وتَشَكٍّ مُرَدَّدٍ كتشكّي
فاتئدْ تسكبِ الدموعَ كسكبي ... ثم لا تسفكِ الدماءَ كسفكي

لا أرى كابن جعفر بن عليٍّ ... ملكاً لابساً جلالةَ مُلْكِ
مثلُ ماءِ الغمام يَندَى شباباً ... وهْو في حُلّتَيْ تَوَقٍ ونُسكِ

يطأ الأرض فالثرَى لؤلؤ رَطْـ ... ـبٌ . وماءُ الثرَى مُجاجةُ مِسكِ [2]

وقال ابن زيدون في تهنئة أبي الوليد بن جهور بولايته الحكم :

---

(١) ديوان ابن حمديس : ص ١٤٥ (٢) ديوان ابن هانيء الأندلسي : ص ٥٢٦ .

ما للمُدام تُديرها عيناكِ   فيميلَ في سُكْر الصِّبا عطفاكِ
هلاَّ مزجتِ لعاشقيكِ سُلافَها   ببَرود ظَلْمكِ أو بعذب لَمَاكِ ؟ [1]

وَاهاً لِعطفكِ ! والزمانُ كأنّما   صُبِغَتْ غَضَارتُه ببُردِ صِباكِ [2]
والليلُ مهما طال قصّر طولَه   هاتي - وقد غفل الرقيبُ - وهاكِ

أمَّا مُنَى نفسي فأنتِ جميعُها   يا ليتني أصبحتُ بعضَ مُنَاكِ
يَدنُو بوصلك حين شطَّ مَزارُهُ   وَهْمٌ أكادُ به أقبِّل فاكِ

ولئن تجنّبتِ الرشادَ بغَدْرة   لم يَهوِ بي في الغيِّ غيرُ هواكِ
للجَهْوَرِيِّ أبي الوليد خلائقٌ   كالروض أضحكه الغمام الباكي

بُشراكِ يا دنيا وبُشرانا معاً   هذا الوزيرُ أبو الوليد فتاكِ
نادَى مساعيَه الزمانُ مُنافِسا :   أحرزتِ كلَّ فضيلةٍ فكفاكِ

ما الوردُ في مَجناهُ سامرَهُ الندى   مُتحلّياً إلاَّ ببعض حُلاكِ [3]

- وقال ابن دَرَّاج القسطليّ في مدح مبارك ومظفر صاحبيْ بلنسية :

أنوركِ أم أوقدت بالليل نارَكِ   لِباغٍ قِراكِ أو لباغٍ جِوارَكِ ؟
ومَبْسِمُكِ الوضّاحُ أم ضوءُ بارقٍ   حَداهُ دعائي أن يجودَ ديارَكِ ؟

وطيفُكِ أسْرى فاستثار تَشوّقي   إلى العهد أم شوقي إليك استثارَكِ ؟
وطُرّةُ صُبحٍ أم جبينُكِ سافراً   أعرتِ الصباحَ نورَه أم أعاركِ ؟

وكيف رضيتِ الليلَ مَلبَسَ طارقٍ   وما ذرَّ قَرْنُ الشمسِ إلاَّ استنارَكِ ؟

---

(١) البرود : العذب البارد ، والظلم : ماء الأسنان ، واللمى : سمرة الشفة .
(٢) الغضارة : النعمة ، والبرد : الثوب المخطط .   (٣) ديوان ابن زيدون : ٢٤٣ .

وكم دون رحلي من قصور مشيدة ... تُحرِّم من قرب المزار مزارَكِ

وأرضي سيولٌ من خيولِ «مظفَّرٍ» ... وليلي نجومٌ من سماء «مباركِ»
بحيث وجدتُ الأمن يهتف للمُنى ... هلُمّي إلى عينين جادا سرارَكِ [1]

هلمّي إلى بحرين قد مرَجَ النَّدى ... عُبابيهما لا يسأمان انتظارَكِ
هلُمّي إلى سيفين والحدُّ واحدٌ ... يُجيران من صرْفِ الحوادث جارَكِ

شريكان في صدق المُنى وكلاهما ... إذا بارزَ الأقرانَ غيرُ مشاركِ
ويهنيكِ يا دار الخلافة منهما ... هلالان لا َحا يرفعان منارَكِ [2]

* ومن المدح الذي قُدِّم له بوصف الخمر فالغزل قول ابن حمديس في مدح الأمير يحيى بن تميم بن المعز . قال :

إشهابٌ في دُجَى الليل ثقبْ ... أم سِراج نارُه ماءُ العِنبْ ؟
قهوةٌ لو سُقيتْها صخرةٌ ... أورقتْ باللهو منها والطربْ

ما درَى خمّارُها عاصِرَها ... فحديثُ الصدق فيها كالكذبْ
دفنوا اللذةَ فيها حيّةً ... وأتى الدهر عليها وذهبْ

قلتُ إذ أبرزها في قَعْبِه : ... أهْيَ بنتُ الكرم أم أمُّ الحقب؟
ومليحِ الدلِّ إنْ علّ بها ... قلتَ : نجمٌ في فم البدر غربْ

شعشعَ القهوة في صَوب الحَيا ... وسقاني فضلةً مما شرب

---

(١) سرار الأرض : هو أوسطها وأكرمها
(٢) ديوان ابن دراج القسطلي : ص ١٠١

فتلاقيَ في فمي من كأسـه   ماءُ كَرْمٍ وغمامٌ وشنب [1]

وشدا من مدح يحيى نغمـاً   هزَّ منه الملكُ عِطفيْه طربْ
مَن معُز الدين في الفخر لـه   خيرُ جَدٍّ ، وتميمٌ خيرُ أبْ

ملكٌ عن ثُغرة الدين اتقـى   ورمَى الأعداء بالجيش اللجَب
طاهرُ الأخلاق مألوفُ العلى   طيِّبُ الأعراق مصقول الحسب

عادلٌ تعكف بالحمد على   ذكرهِ أفواهُ عُجم وعرب [2]

ومن المدح الذي قُدِّم له بوصف الخمر فوصف الطبيعة قول الوزير ابن عمار في مدح المعتضد بن عبّاد والد المعتمد :

أدرِ المدامةَ فالنسيمُ قـد انبرَى
والنجمُ قد صرَف العِنان عن السُّرَى
والصبحُ قد أهدَى لنا كافورَهُ
لما استردَّ الليلُ منه العنبـرا

والروضُ كالحسْنَا كساهُ زهرُهُ
وَشْياً وقلّدهُ نداهُ جَوْهَـرا
أو كالغلامِ زَهَا بورْدِ خدودهِ
خجلاً وتاهَ بآسِهنَّ مُعـذَّرا

روضٌ كأن النهر فيـه معصمٌ
صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخضـرا

---

(١) الشنب : ماء ورقة يجري على الثغر . وقيل : رقة وبرد وعذوبة في الأسنان .
(٢) ديوان ابن حمديس : ص ٤٥ .

وتَهزّهُ ريحُ الصَّبا فتخالُه
سيفَ ابنِ عبّادٍ يُبدِّدُ عسكراً
مَلِكٌ إذا ازدحمَ الملوكُ بمَوْرِدٍ
ونَحاهُ لا يردون حتى يَصْدُرا (1)
أندَى على الأكباد من قطْرِ النَدى
وألذُّ في الأكفان من سِنة الكَرَى

يختار إذ يَهَبَ الخريدةَ كاعباً
والطِّرفَ أجردَ والحسامَ مُجوهَرا (2)
أيقنتُ أني من ذُراهُ بجنّةٍ
لمَّا سقاني من نَداهُ الكَوْثَرا (3)

وعلمت حقّاً أن رَبعي مُخصِبٌ
لمّا سألتُ به الغمامَ المطرا
مَلِكٌ يَروقُكَ خَلْقُه أو خُلقُهُ
كالروض يَحسُنُ منظراً أو مَخبَرا

وجَهِلتُ معنَى الجود حتى زُرتُهُ
فقرأتُه في راحتَيْه مُفسَّرا
هصَرتْ يدي غُصنَ الغنَى من كفِّه
وجَنَتْ به روضَ السرور مُنوَّرا (4)

---

(1) نحاه : قصده .
(2) الخريدة من النساء : البكر التي لم تمس قط ، والكاعب من النساء : هي التي نهد ثديها ، والطرف من الخيل : الكريم العتيق ، والطرف الأجرد : أحسن الخيل وأحبها عند العرب .
(3) الكوثر : لفظ مشترك ، ومن معانيه الكثير من كل شيء ، وهو المراد هنا .
(4) هصرت يدي غصن الغني من كفه . أي أخذت يدي برأس غصن الغني فأمالته إلي من كفه .

فلئنْ وجدتَ نسيمَ مدحيَ عاطــراً
فلقد وجدتُ نسيمَ بِرِّكَ أعطَرا [1]

في هذا النموذج لابن عمار الأندلسيّ ، نرى أنفسنا أمام شاعر مصوِّر ملهَم ، يستعير من الطبيعة أرق وأجمل عناصرها ثم يمزجها بعناصر المدح ، ويؤلف من هذه وتلك لوحةً فنية حية ، يقطُر منها الندى والشذى ، وتتناغم فيها الظلال والألوان ، لوحةً ينقل فيها الطبيعة إلينا ، أو ينقلنا اليها في سياحة خيالية ، تعُبُّ فيها حواسُّنا كلَّ ما يروقها ويشوقها ، وكل ما يُبهجها ويطربها !

ومع جمال هذه القصيدة ، فإن الإنسان لا يستطيع أن يغالب الشعور بأن ابن عمار يبدو وكأنه شعوريا أو لا شعوريا يعارض بها قصيدة البحتريّ التي يقولِ في مستهلها :

لله عهدُ سَويقةٍ ما أنضــــرا
إذ جاورَ البادونَ فيه الحُضَّــرَا

لم أنسَه وقُصارُ من علَقِ الهوى
أن يستعيد الوجدَ أو يتذكــــرا

كان الكرَى حظَّ العيون ولم أخَــلْ
أن القلوبَ لهنَّ حظٌّ في الكَـــــرَى

أهوى الظلامَ وأن أُمَلاَّهُ وقــد
حَدَرَ الصباحُ نِقابَه أو أسفــرا [2]

---

(١) نفح الطيب : ج : ٢ ص ١٧٧ .
(٢) ديوان البحتري : ص ٤٧٦ .

– ٣ –

الرثـــاء :

ويقال له التأبين أيضا . وإذا كان المدح هو الثناء على الشخص في حياته ، فإن الرثاء أو التأبين هو الثناء على الشخص بعد موته ، وتعديدُ مآثره ، والتعبير عن الفجيعة فيه شعرا .

وشعر الرثاء إنما يقال على الوفاء ، فيقضي الشاعر بقوله حقوقا سلفت ، أو على السَّجِية إذا كان الشاعر قد فُجِع ببعض وَلَده أو أهله أو مَن هم في منزلتهم من الأحباب والأصفياء .

أما أن يقال الرثاء على الرغبة فلا ؛ لأن العرب التزموا في ذلك مذهبا واحدا ، وهو ذكر ما يدل على أن الميت قد مات . فيجمعون بين التفجع والحسرة والأسف والاستعظام ، ثم يذكرون صفات المدح مبلَّلة بالدموع (١) .

وفي ذلك يقول قدامة بن جعفر : « إنه ليس بين المرثية والمدحة فصلٌ إلاّ أن يُذكَر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل : كان ، وتولّى ، وقضى نَحْبَه ، وما أشبه ذلك . وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه ، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يُمدَح به في حياته (٢) » .

ثم يستطرد قدامة لاستكمال رأيه في الرثاء والتأبين فيقول : « وقد يُفعَل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح ، بغير ما كان ، وما جرى مجراها ، وهو أن يكون الحيُّ مثلا يُوصَف بالجود ، فلا يقال : كان جوادا ،

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي : ج ٣ ص ١٠٤ . (٢) نقد الشعر لقدامة : ص ٧١ .

« ولكن يقال : ذهب الجود ، أو فمَن للجود بعده ؟ أو ليس الجود مستعمَلا مذ تولَّى وما أشبه هذه الأشياء ، كما قالت ليلى الأخيليّة ترثي توبة بنَ الحُميِّر بالنجدة على هذا السبيل :

فليس رجالُ الحيِّ يأتون بعدهـــ
بعارٍ ولا غــادٍ بركبٍ مسافرِ .

ومن الشعراء مَن يرثي بذكر بكاء الأشياء التي كان الميت يزاولها في حياته أو يُعرَف بها. ولكن ليس من إصابة المعنى عند قدامة أن يقال في كل شيء تركه الميت بأنه يبكي عليه ؛ لأن من ذلك ما إنْ قيل إنه بكى عليه لكـــان سيئة وعيبـــا لاَحِقَيْن له .

فمن ذلك مثلا إنْ قال قائل في ميت : « بكتك الخيلُ إذ لم تجد لها فارساً مثلك » كان مخطئاً ، لأن من شأن ما كان يُوصَف في حياته بكَدِّه إياه ، أن يُذكَر اغتباطُه بموته ، وما كان يوصف بالإحسان اليه أن يُذكَر اغتمامه بوفاتـــه [1] » .

* * *

وكان من أخلاق العرب ألاّ يَرْثُوا قتلى الحروب ، لأنهم ما خرجوا إلاّ ليُقتَلُوا ، فإذا بكَوْهم كان ذلك هجاء أو في حُكْمه ، ولكن الرثاء لمن يموت حتفَ أنفه ، أو يُقتَل في غير حرب من حروب التاريخ ، كالغارة ونحوها ، فعندئذ يُعدِّدون المآثر ويبالغون في الفجيعة ، كأن هذا الموت غيرُ طبيعيّ فيمن يستحق أن يموت .

ومما حدث بعد الإسلام في طريق الرثاء الجمعُ بين التعزية والتهنئة ، وقد اختص هذا اللونُ بالخلفاء في تعزية مَن يلي عهدَ أبيه منهم. وكان أولُ ذلك

(١) نقد الشعر : ص ٧١ ، وتوبة هو حبيب ليلى الأخيلية ولها فيه مراث ، وهي من شواعر العصر الأموي .

حين مات معاوية بن أبي سفيان ، فلم يُقدِم أحد على تعزية ولده يزيد حتى دخل عبدالله بن هَمّام السَّلولي فأنشده :

اصبرْ يزيد فقدُ فارقتَ ذا مِقَةٍ
واشكرْ حِباءَ الذي بالملك حاباكا

لا رُزْءَ أصبح في الأقوام – قدعلموا –
كما رُزِئت ، ولا عُقبى كَعقْباكا

أصبحتَ راعيَ أهل الدين كلِّهمُ
فأنت ترعاهمُ واللهُ يرعاكا

وفي معاويةَ الباقي لنا خَلَفٌ
إذا نُعيت ولا نسمعْ بمَنْعاكا [1]

وبذلك فتح السَّلوليُّ للناس بعده باب هذا القول . وقد حدث مثلُ ذلك عند تولّي الوليد بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة أبيه ، وكذلك عند تولي المهديّ العباسيّ الخلافة بعد أبيه المنصور ، فقد دخل معزيا ومهنئا على الأول الشاعر غيلانُ بن مسلمة الثقفيّ ، وعلى الثاني الشاعر ابنُ عتبة .

والذي ابتدأ بالإجادة في هذه الطريقة من الشعراء أبو نواس في قصيدته النونية التي يُعزّي بها الفضلَ بن الربيع عن الرشيد ويهنئه بالأمين ، والتي يقول منها :

وَفَى الحيُّ بالمَيْت الذي غَيَّب الثرَى
فلا أنت مغبونٌ ولا الموت غابنُ

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ج٢ ص ٦٣٤ ، ومعاوية الباقي : هو معاوية بن يزيد .

ثم تبعه أبو تمام في قصيدته التي يهنىء فيها الواثق بالخلافة ويعزيه بالمعتصم أبيه ، والتي مطلعها :

ما للدمـــوع تروم كـــلَّ مرامِ
والجفنُ ثاكلُ هَجعةٍ ومَنـــامِ ؟

وليس في متأخري المشارقة مَن نَحَا هذا النحو وبالغ فيه غيرُ جمال الدين ابن نُباتة أحدِ شعراء القرن السابع وأشعرِ شعراء مصر زمن المماليك . فقد هنأ الملك الأفضل صاحبَ حماة وعزّاه بأبيه الملك المؤيد بقصيدة تُعد من عجائب الصناعة ، لأنه استطرد فيها بالجمع بين التهنئة والتعزية الى آخرها . ويمكن أن نلحظ ذلك من مطلع هذه القصيدة الذي يقول فيه :

هناءٌ مَحَا ذاك العزاءَ المقدَّمـــا
فمـــا عَبَس المحزونُ حتى تبسَّما

وأبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاء خاصة حتى قيل فيه : إنه نَوَّاحةٌ نَدَّابة ! ومن المجيدين فيه كذلك عبد السلام بن رُغبان المعروفُ بديك الجن الحمصيّ ، وقد اشتهر في الرثاء بطريقة لا ترجع الى الأسلوب أو الصناعة ، ولكن الى معنى الفجيعة . ومما يشير الى هذا الاتجاه قوله في رثاء جاريـــة وغلام له :

لو كان يدري الميْتُ ماذا بعدَه بالحيِّ منه بكَى له في قبرهِ

* * *

تلك نبذة عن أحوال الرثاء ومفهومه واتجاهاته عند القدماء وآرائهم فيما يحسن وما لا يحسن فيه . ولعل الرثاء هو أبرز فنون الشعر الأندلسيّ اقتفاءً لآثار طريقة العرب القدماء . ومراثي المتقدمين والمحدثين من شعراء الأندلس

على السواء تبدو فيها ظاهرة الاقتفاء والتقليد هذه ، وإن كانت بدرجة أقل لدى الشعراء المحدثين .

وعن هذه الظاهرة يحدثنا ابن بسام في معرض تعليقه على مرثية للوزير الكاتب أبي محمد عبد المجيد بن عبدون أحدِ الزعماء في صناعة الشعر والنثر ، فيقول : « وهذه القصيدة – قصيدةُ ابن عبدون – طويلة سلك فيها أبو محمد طريقته في الرثاء ، إلى الإشارة والإيماء ، بمن أباده الحدّثان من ملوك الزمان . وقد نسَق ذِكرَهم على توالي أزمانهم في قصيدة اندرج له كثير من البديع فيها ، هي ثابتة في أخباره من هذا المجموع . واقتفى أبو محمد أثَر فحول القدماء ، مِن ضَرْبِهم الأمثال في التأبين والرثاء ، بالملوك الأعزة ، وبالوُعُول الممتنعة في قُلَل الجبال . والأسود الخادرة [1] في الغياض [2] ، وبالنسور والعِقبان والحيَّات في طول الأعمار ، وغير ذلك مما هو في أشعارهم موجود . فأما المحدثون فهُم الى غير ذلك أميل ، وربما جَرْوا أيضاً على السَّنَنِ الأول [3] » .

فإذا عدنا إلى مراثي الأندلسيين بالدراسة والفحص ، وجدنا أن اتجاهات الشعراء ومذاهبَهم فيها تختلف تبعاً لنزعةِ كل شاعر منهم في هذا الفن ، وعلاقتِه بالشخصيات التي يعرض لها بالرثاء .

* فهناك الاتجاه الذي ينبع من العقل أكثر مما ينبع من القلب وهو الاتجاه الذي يمثله الوزير الكاتب الشاعر عبد المجيد بن عَبدون . وأبو العبـــاس التُّطَيْلي الإشبيليّ الضرير ، ومن جاراهما من شعراء الأندلس . فالمرثية عند أصحاب هذا الاتجاه تبدو من منظور عقليّ وكأنها صِيغت وسِيقت لتخفيف

---

(١) الأسد الخادر : المقيم في عرينة ، والوعول : تيوس الجبال ، جمع وعل ، بفتح الواو وسكون العين أو كسرها .

(٢) جمع غيضة : وهي الأجمة ، وغيض الأسد بتشديد الياء : ألف الغيضة .

(٣) الذخيرة لابن بسّام : ٢/١ ص ٣١٥ .

المصاب على قلوب المصابين بالعظة والعبرة ،، وذلك بضرب الأمثال بمن أبادهم الدهر وأفناهم في الغابر من الأمم والممالك والملوك ، والحيوانات المعمرة .

فإذا كانت هذه قضية الكائنات الحية على الأرض ، وأنها فانية وليست بخالدة ، فعلى الإنسان إذن أن يتخذ من الموت عظة لمراجعة سلوكه الدنيوي ، وأن يُسلِّم بالقضاء والقدر ، وأن يتأسى ويتجمل بالصبر أمام مداهمةالموت لأحبائه وأعزائه .

وفيما يلي نموذجان من مراثي أصحاب هذا الاتجاه . قال ابن عبدون في رثاء الوزيرالفقيه أبي مروان بن سراج :

ما منك يا موت لا واقٍ ولا فادي
الحكم حكمك في القاري وفي البادي

يا نائمَ الفكر في ليل الشباب أفِقْ
فصبحُ شيْبك في أفق النُّهى بادي

سَلْني عن الدهر تسألْ غيرَ إمَّعَةٍ
فألقِ سمعَك واستجمع لإيرادي

نعَمْ هو الدهر ، ما أبقتْ غوائلُه
على جديس ولا طَسْمٍ ولا عادِ

وأسلمت للمَنايا آلَ مسْلمةٍ
وعبَّدتْ للرزايا آل عبَّادً

الخ . . . الخ

وقال الشاعر التُّطَيْلي الإشبيلي من مرثيته لابن البناقي :

خُذا حَدِّثاني عن فُلٍ وفلانِ لعلي أرى باقٍ على الحَدَثانِ

وعن هَرَمَيْ مصرَ الغَداةَ أمُتِّعا بشرْخ شبابٍ أم هما هَرِمان ؟

وعن نَخْلَتَيْ حُلوانَ كيف تناءَتا أمَا علما أنْ سوف يفترقان ؟
وأعلن صَرْفُ الدهر لابني نُوَيْرةٍ بيوم تناءٍ غالَ كلَّ تدانِ

ومال على عبسٍ وذبيان مَيْلةً فأودَى بمَجْنيٍّ عليه وجانِ[1]

فأصحاب هذا الاتجاه يقتفون فيه آثار بعض فطاحل الشعراء القدماء من أمثال المتنبي في رثائه لأبي شجاع فاتك :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومُه ، ما يومُه ، ما المصرعُ ؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع !

* وهناك اتجاه العلماء الشعراء ، ويبدو من مراثي هؤلاء أنها تأريخ لمن يَرثونهم أو ترجمة حياة لهم ، فهم يعدِّدون أعمالهم ومآثرهم في كلام لا يجمعه بالشعر الا النظم ، وتراهم في ذلك ينزعون عن الأساليب التقريرية إلى بعض الأساليب البيانية أو البديعية من استعارة أو كناية أو مبالغة ليُضفوا على مراثيهم مِسحةً من جمال .

هذا عالم شاعر يرثي الفقيه أبَا مروان بن سراج . فبدل أن يقرر في مرثيته مثلا أنه إمامٌ في علوم الدين والحديث والقرآن والنحو ، نراه يقول :

أودَى سراجُ المجد وابنُ سراجه
فلنور شمس المكرمات أفولُ

لو كان عِلْمُ الدين يبكي ميتا
لبكى الحديث عليه والتنزيل

(١) نكت الهميان في نكت العميان للصفدي : ص ١١٠ .

كم من حديث للنبيّ أبـــانـه
فبدتْ له غُـرَر تُـرى وحُجـولُ

كم مصعب في النحو راض جماحَه
حتى غدا والصعبُ منه ذَلول[1]

* وهناك اتجاه الشعراء الرسميين ممن ينهضون لرثاء الملوك وبعض أفراد أسرهم ، من أمثال الشاعر ابن زيدون ، فله مراث جيدة في أبي الحزم بن جهور وزوجته ، وفي المعتضد بن عباد وأمه وبنته .

ومثل هذه المراثي قوية في صياغتها ضعيفة في عاطفتها ، ومهما افتنّ الشاعر في أسلوبها فإن طابع التكلف باد عليها ، لأنه كما يبدو ، يندفع للرثاء أداءً لحق أو واجب ، لا بباعث من حزن وفجيعة .

ومن نماذج هذا الاتجاه ما قاله ابن زيدون في رثاء الأمير أبي الحزم بن جهور ، وتهنئة ابنه أبي الوليد الحاكم الجديد :

« أبا الحزم » قد ذابت عليك من الأسى
قلوبٌ مُناها الصبرُ لو ساعد الصبرُ

دع الدهر يفجع بالذخائر أهلَـه
فما لنفيس مذ طواكَ الردَى قَدْرُ

فلا تَبْعَدَنْ ! إنّ المنيـة غايـةٌ
إليها التناهي ، طال أو قصُر العمرُ

ولا يتَهَنَّ الكـاشحون ! فما دَجَا
لنا الليل الاّ ريثما طلع البـدرُ

---

(١) الذخيرة : ١/٢ ص ٣١٤ .

وإن يلكُ وَلّي « جهورٌ » فمحمدٌ
خليفتُه العدلُ الرضَى وابنهُ البرُّ [1]

* وهناك اتجاه أخير في مراثي الأندلسيين ، وهو رثاء الآباء والأمهات والأبناء والأصفياء . وهذا الاتجاه هو الذي تتجلى فيه العاطفة الصادقة . ويضيق المقام هنا عن إيراد نماذج من رثاء كل هؤلاء ، ولكننا نكتفي ببعض النماذج للدلالة بها على طبيعة هذه المراثي المنبعثة من قلوب شاعرة جريحة .

فمن مراثي المعتمد ابن عباد لولدين له قُتِلا غيلة على أيدي رجال يوسف ابن تاشفين قوله وهو سجين في أغمات :

يقولون : صبراً ! لا سبيل الى الصبر
سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

هوَى الكوكبان : الفتحُ ثم شقيقهُ
يزيدُ ، فهل بعد الكواكب من صبر ؟

أفتحٌ : لقد فتّحت لي بابَ رحمة
كما بيزيدَ اللهُ قد زادَ في أجري

هوَى بكما المقدارُ عنّي ولم أمُتْ
وأُدعَى وفيّاً ! قد نكصتُ إلى الغدر

توليتما والسّنُّ بعدُ صغيرةٌ
ولم تلبثِ الأيامُ أن صغرّتْ قدري

فلو عُدْتُما لاخترتُما العَوْدَ في الثرَى
إذا أنتما أبصرتمانيَ في الأسرِ

---

(١) ديوان ابن زيدون : ص ٥٢٣ .

يُعيد على سمعي الحديدُ نشيجَـه
ثقيلاً ، فتبكى العينُ بالحس ّ والنقْر

معي الأخواتُ الهالكـاتُ عليكما
وأمُّكما الثكلَى المضَـرَّمـةُ الصدرِ

أبا خالدِ : أورثتني البَثَّ خـالـداً
أبا النصرِ : مذ وَدَّعتَ ودَّعَني نصري

وقبلَكما ما أودعَ القلبَ حَسْرةً
تَجدَّدُ طولَ الدهر ، ثُكلُ أبي عمرو [1]

ولعل ابن حمديس الصقليّ من أكثر شعر الأندلس قولاً في الرثاء . فإلى جانب ما نرى في ديوانه من المراثي الرسمية لبعض من كان له بهم اتصال من الأمراء والأشراف وقواد الجيوش . نرى له قصائد أخرى رثى بها أباه وزوجته وبنته وعمته وابن أخته وجاريةً له تدعى « جوهرة » . وتتميز هذه المراثي بجودة الصياغة وصدق العاطفة وقوتها وحرارتها .

فمن رثائه لوالده قوله :

يدُ الدهرِ جارحـةٌ آسيـة	ودنيـاك مُغْنيـةٌ فانيـةْ
رأيتُ الحِمام يُبيد الأنـامَ	ولدغتُه مالهـا راقيـة
وأرواحُنـا ثمـراتٌ لـه	يمُدُّ إليها يـداً جـانية
سقى اللهُ قبرَ أبي رحمـةً	فسُقيـاهُ رائحـةٌ غادية
ولو أنَّ أخلاقَـه للزمـان	لكانت مَوارِدُهُ صافيـة
أتـاني بـدار النوى نَعْيُـهُ	فيا روعةَ السمع بالداهية !

(١) ظهر الاسلام : ج ٣ ص ١٧٥ ، وأبو عمرو ابن ثالث للمعتمد .

فحمَّر ما ابيضَّ مـن عَبْرتي وبيَّضَ لِمَّتيَ الداجيـة
بدار اغترابٍ كـأن الحياةَ لذكر الغريب بهـا ناسيـة

فمثّلتُ في خلَدي شخْصَه وقرَّبْتُ تُربتَه القَاصيةَ
ونُحْتُ كَثكلَى على ماجدٍ ولا مُسعدٌ لي سوى القافية

بكيتُ أبي حِقبـةً والأسى عليَّ شواهـدُه بـاديـة
وما خمدتْ لوعـةٌ تلتظي ولا جمَدتْ عَبرةٌ جارية (1)

ومن أشجى مراثيه حقاً مرثيته لزوجته التي جعلها — ولا ندري لماذا — على لسان ولده عمرو . استهل ابن حمديس مرثيته هذه بقوله :

أيُّ خطب عن قوسه الموتُ يَرْمي
وسهامٌ تصيبُ منـه فتُصْمـي

يُسرع الحيُّ في الحيـاة ببُرْءٍ
ثم يُفضي الى الممـاتِ بسُقْـمِ

ثم يسترسل في الكلام عن فلسفة والحياة والموت كما يراها هو ، حتى إذا أوفى على الغاية من ذلك ، انتقل الى رثاء زوجته على لسان ابنه فيقول :

لو بكى ناظري بصَوْبِ دمـاءٍ
مـا وَفَى في الأسى بحسرةِ أُمّي

مَن توَسّدْتُ في حَشايا حَشاهـا
وآرتدى اللحمَ فيه والجلدَ عظمي

(1) ديوان ابن حمديس : ص ٥٢٢ .

وضعتني كَرْهاً كما حملتني
وجرَى ثَدْيُها بشربي وطُعمي

بحنانٍ كأنها في رضاعي
أمُّ سَقْبٍ درّتْ عليه بشَم (١)

ولو آني كففتُ دمعي عليها
عقّني بِرُّها فأصبحَ خَصمي

كم خيال يَبيت يمسح عِطفي
لكِ يا أمَّنَا ويهتفُ باسمي

بأبي منك رأفةٌ أسندوها
في ضريح إلى جنادلَ صُمِّ

وصيامٌ بكل مطلع شمسٍ
وقيامٌ بكل مطلع نجم

ولسانٌ دعاؤهُ مستجابٌ
ليَ أودعتُه الرغامَ بِرُغمي (٢)

ولابن حمديس مرثيتان في جاريته « جوهرةِ » تلك التي ماتت غريقة في المركب الذي عَطِبَ به في خروجه من الأندلس إلى إفريقية . فمن مرثيته الأولى فيها يقول :

أيَا رَشاقةَ غُصْنِ البان ما هَصَرَكْ
ويا تألّفَ نظمِ الشمل مَن نشَرَكْ ؟

---

(١) السقب : ولد الناقة .   (٢) ديوان ابن حمديس : ص ٤٧٧ ، برغمي : على كره مني .

لا صبرَ عنكِ ! وكيف الصبرُ عنكِ وقد
طواكِ عن عَيْنيَ الموجُ الذي نشرك ؟

أيَّ الثلاثةِ أبكي فَقْدَهُ بدَمٍ
عميمَ خُلْقِكِ أم مَعناكِ أم صِغَرَكِ ؟

من أين يَقبُح أنْ أفنَى عليكِ أسىً
والحسْنُ في كل فنٍّ يقتفي أثَرَكِ ؟

كنتِ الشبيبةَ إذ ولّتْ ، ولا عِوَضٌ
منها ، ولو ربحَ الدنيا الذي خَسِرَكِ !

ما كنتُ عنكِ مُطيلاً بالهوى سفَرِي
وقد أطلتِ لِحَيْنِي في البلَى سَفَرَكِ

أقول للبحرِ إذ أغشيتُهُ نظري :
ما كدَّر العيشَ إلاّ شُربُها كَدَرَكْ !

هلا نظرتَ الى تفتير مُقلتِها ؟
إني لأعجبُ منه كيف ما سحرَكَ !

يا وجهَ جوهرةَ المحجوبَ عن بَصري
مَن ذا يقبلك كسوفاً قد علاَ قمرك ؟

يا دُولة الوصلِ إنْ وَلّيْتِ عن بصري
فالقلب يقرأ في صحْف الأسَى سمرَكِ !

وما نجوتُ بنفسي عنكِ راغبةً
وإنما مَدَّ عُمْري قاصرٌ عُمُرَك ! (١)

ومن مرثيته الثانية في جاريته جوهرة يقول :

وَاوَحْشَتَا من فِراق مؤنسة
يُميتُني ذِكْرُها ويُحْيِيها

يا بحرُ أرخصتَ غيرَ مُكترث
مَن كنتُ لا للبِياع أُغليها

جوهرةٌ كان خاطري صَدَفاً
لها ، أقيها به وأحميها

أبتَّها في حشاكَ مُغرقةً
وبِتُّ في ساحليك أبكيها

ونفحةُ الطيب في ذوائبها
وصِبغةُ الكحل في مآقيها

عانقها الموج ثم فارقها
عن ضَمَّةٍ فاضَ روحُها فيها ! (٢)

(١) ديوان ابن حمديس : ص ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق : ص ٥١٧ .

— ٤ —

الحكمة :

الحكمة قول رائع يتضمن حُكما صحيحا مسلَّماً . وقلما يخلو أدب أيّ أمة من حكماء خلَّفوا وراءهم أقوالاً رائعة أودعوها خلاصة فلسفتهم وتجاربِهم في الحياة ونظرتِهم اليها وموقفِهم منها .

وشعر الحكمة أو شعر التأملات الفلسفية ، يقوم أكثر ما يقوم على المعاني والأفكار التي تستلهمها العقول الراجحة من ظروفِ وأحداث مجتمعاتها في شتى ميادين الحياة . ومن ثَمَّ فهذا الشعر الحِكَميُّ ليس في حقيقته شعراً خالصا ، وذلك لافتقاره الى عنصرين أساسيين من عناصر الشعر بمفهومه الخاص ، وأعني بهما : عنصر الخيال ، وعنصر العاطفة .

ومع هذا فالنفوس ترتاح إلى شعر الحكمة وتقبل عليه أينما وجدته ، ولعل السرّ في ذلك راجع الى قيمة هذا الشعر المزدوجة : فهو من ناحية يضيف الى تجاربنا الخاصة في الحياة تجارب مَن سبقونا ، فنفيد منها ، ومن ناحية أخرى يظهرنا على ما يُقرّه أو ينكره الحكماء من أخلاق وسياسة مجتمعاتهم .

والأدب العربيّ في كل عصر من عصوره وكل بيئة من بيئاته ، لم يخلُ من حكماء عبّروا عن آرائهم وتجاربهم الخاصة في أقوال من النثر أو الشعر .

وإذا عرضنا لحكمة العرب في أدبهم منطلقين في ذلك من العصر الجاهليّ ، فإننا نجد في أدبهم قدْراً لا بأس به من حِكَم أهل هذا العصرَ ما بين منثورة ومنظومة .

فمن حكمهم النثرية مثلا : خير الغنى القناعة . خير الموت تحت ظلال السيوف . العتاب قبل العقاب . رضا الناس غاية لا تُدرَك . مصارع الرجال تحت بُروق الطمع . قطيعة الرحم تُورث الهمَّ . بعض الشر أهون من بعض . إن أخاكَ مَن واساك . رُبَّ عجلةٍ تَهَب رَيْثاً [1] . رُبَّ أخٍ لم تلده أمُّك ، وهكذا . . .

ومن حكمهم الشعرية :

إذا المرء لم يدنَسْ من اللؤم عِرْضُه
فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

قد قيل ما قيل إنْ صدقا وإنْ كذبا
فما اعتذارك من قول إذا قيلا ؟

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمُّهُ
على شَعَثٍ ، أيُّ الرجال المهذبُ ؟

ومَن لم يَذدْ عن حوضه بسلاحه
يُهدَّمْ ، ومن لا يظلِم الناس يُظلَمِ

وقد مضى الصدر الأول من الإسلام والشعراءُ ماضون على سُنَّة العرب ، فتجد لبعضهم هنا أو هناك أبياتاً يَذكرُ فيها أمر الآخرة أو يعبِّر فيها عن معنى من معاني الحكمة الأخلاقية .

وكذلك كان الشعراء في العصر الأمويّ ، وإن كان معظمهم قد زجُّوا بأنفسهم في معترك السياسة ، وانقسموا طوائف ، تنتمي كل طائفة منها إلى حزب سياسيّ تدافع عنه وتدعو لعقيدته .

---

(١) الريث : البطء .

وفي الصدر الأول من العصر العباسيّ ظهر حكيم الشعراء صالح [1] بن عبد القدوس المتوفي سنة ١٦٧ ﻫ ، وقد قال جميع شعره في الحكمة والأمثال . ومن شعره الحكمي :

* لا يُعجبنَّك مَن يصون ثيابَهُ
حَذَرَ الغُبار وعِرضُه مبذولُ

ولربما آفتقر الفتى فرأيتَه
دَنِسَ الثياب وعِرضُه مغسول

* لا يبلغ الأعداءُ من جاهل
ما يبلغ الجاهل من نفسِهِ

والشيخ لا يترك أخلاقَه
حتى يُوارَى في ثَرَى رَمسِهِ

إذا آرْعَوَى عادَ الى جهله
كذِي الضَّنَى عاد إلى نُكْسِهِ

وإنَّ مَن أدَّبْتَه في الصِّبا
كالعود يُسقَى الماءَ في غرسِهِ

حتى تراهُ مُورِقاً ناضراً
بعد الذي أبصرتَ من يُبْسِهِ

* أنِستُ بوحدتي ولزِمتُ بيتي
فتمَّ العزُّ لي ونَما السرورُ

(١) فوات الوفيات : ج ١ ص ٣٩١ .

وأدَّبني الزمــــانُ فليت أنــي
هُجِرتُ فلا أُزارُ ولا أَزورُ

ولستُ بقائــل ما دمتُ حيّــاً :
أقام الجندُ أم نــزل الأميرُ

وقد عابه الجاحظ على جعل جميع شعرِه في الحِكَم، وقال إنه لو تفرقت حِكَمه في أشعار كثيرة لزانتها .

ومن شعراء هذا العصر من استعان بالحكمة اليونانية أو الفارسية في شعره ، كأبي العتاهية ، وأبانِ بن عبد الحميد اللاحقي ، وكالمتنبي والمعريّ ، وأبي علي ابن الشِّبل الحكيم البغدادي المتوفي في سنة ٤٧٣ هـ، وغيرهم . فهؤلاء قد طوّروا مفهوم الحكمة ، فلم يجعلوها عقلا خالصا وإنما وصلوها بالقلب ، وجعلوا لها من الشعر منفذا بينهما الى الروح ، ولذلك قال بعضهم : لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكانا تشرف منه على الكون ، لما اختارت غير بيت من الشعر (١) .

* * *

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الشعر الأندلسيّ لنتَبيّن حظ الحكمة منه ، فإننا نجد أن شعراء الأندلس قد اقتَفَوْا أثر المشارقة في هذا الفن وفاقوهم فيه .

والواقع أنه لم ينشأ من حكماء العرب وفلاسفتهم شعراءُ مجيدون قدرَ مَن نشَأ منهم بالأندلس وحدَها . ولم يكنِ للفلسفة تأثير على شعرهم إلاّ من جهة معانيه الشعرية ، فإنها صارت من سموِّ الخيال وقوةِ التصور وبراعةِ الابتكار بحيث تدل على عقل صاحبها دلالة المطابقة ، وبذلك زادوا في محاسن الشعر . وقل أن نجد في غير الأندلسيين من استطاع أن يُطوِّع الفلسفة للشعر والشعر للفلسفة ، وكان بذلك شاعرا فيلسوفا .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية للرافعي : ج ٣ ص ١٣٢ .

وفيما يلي نماذج مما قاله شعراء الأندلس في هذا الفن ، نرى على ضوئها طبيعةَ حكمتهم ، وصُوَراً من الخواطر والتأملات الفلسفية التي انفعلوا بها ، وعبروا عنها بأساليب شتى :

* قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز :

– رمتني صروفُ الدهر بين مَعاشرٍ
أصحُّهمُ وُدّاً عدوٌّ مقاتلُ

وما غُربةُ الإنسان في غير داره
ولكنها في قرب مَن لا يشاكلُ

– تُفكر في نقصان مالك دائما
وتَغفُل عن نقصان جسمِك والعُمْرِ

ويَثْنيك خوفُ الفقر عن كل بُغْية
وخيفةُ حالِ الفقر شرٌّ من الفقرِ ! (١)

* وقال أبو جعفر عمر ابن صاحب الصلاة :

وما زالت الدنيا طريقاً لهالك
تُباينُ في أحوالها وتخالفُ

ففي جانبٍ منها تقوم مآتمٌ
وفي جانبٍ منها تقوم معازفُ

فمن كان فيها قاطناً فهو ظاعنٌ
ومَن كان فيها آمناً فهو خائف (٢)

---

(١) نفح الطيب : ج ٥ ص٢٩ – ٣١ .
(٢) المرجع السابق : ص ١٩ .

* وقال الشاعر التُّطَيْلي الإشبيليّ الضرير :

لَكَ اللهُ خوَّفْتَ العِدا وأمِنتَهم
فذُقتَ الردَى من خيفةٍ وأمانِ

إذا أنتَ خوَّفتَ الرجالَ فخَفْهمُ
فإنك لا تُجزَى هوىً بهَوان [1]

* وقال الوزير الكاتب أبو حفص عمرُ بنُ الشَّهيد :

في صُحْبة الناس في ذا الدهر مُعتبَرُ
لا عينَ يُؤثَر منها لا ولا أثَرُ

ليستْ تَشيخ ولا يُزري بها هَرَمٌ
لكنها في شباب السِّنِّ تُختَضَرُ [2]

إذا حَبَتْ بينهم أطفالُ وُدِّهمُ
لم يترُكِ البغْيُ حابيهنّ يَثَّغِرُ [3]

كأنها شَرَرٌ سامٍ على لَهَبٍ
يغدو الخمودُ عليه حين ينتشرُ

كأن ميثاقَهمْ ميثاقُ غانية
يُعطيك منها الرِّضا مايَسلُب الضجرُ

---

(١) نكت الهميان في نكت العميان للصفدي : ص ١١٢ .

(٢) ليست تشيخ : الضمير المستتر هنا يعود إلى « صحبة الناس » في البيت السابق ، وتختضر : تموت وهي فتية غضة . (٣) يثغر : تنبت أسنانه .

فلا يَغرَّنْكَ من قولٍ طلاوتُـــه
فإنمـــا هيَ نُوَّارٌ ولا ثَمَـــرُ

لو يُنفِق الناسُ ممـــا في قلوبهمُ
في سوق دَعْوَاهمُ للصدق ما تَجَرُوا [1]

لكنَّ فيهـــا نُقودَ القولِ جاريةٌ
على مقاديرَ ما يُقضَى بهـــا وَطَرُ

يَقضِي المُحنَّكُ أو يُقضَى لِحُنْكَتِه
وبين ذاك وهذا ينفَدُ العُمُـــرُ

تسابق الناسُ إعجابـــاً بأنفُسِهـــم
الى مَدًى دُونَه الغايـــاتُ تَنحصِرُ

فلِلتَّسامي ضبـــابٌ في صُدورهِمُ
ولِلتكبُّرِ في آنافهـــمْ نُعَرُ [2]

وما عذلتُهمُ لكن عذَرْتُهـــمُ
فالجهلُ ليس له سمعٌ ولا بَصَرُ [3]

* وقال يحيى بن الحكم الغزَال حكيمُ الأندلس وشاعرها :

أرَى أهلَ اليسار إذا تُوُفُّـــوا
بَنَوْا تلك المقابـــرَ بـــالصخورِ

---

(١) ما تجروا : أي ما باعوا ولا شروا لخلو قلوبهم من الصدق .

(٢) النعر : جمع نعرة ، وهي في الأصل ذباب أزرق يدخل في أنوف الحمير والخيل ، وقد استعيرت هنا للدلالة على التعاظم والأنفه .

(٣) الذخيرة : ٢/١ ص ١٩٩ .

أبَـــوْا إلاَّ مُباهـــاةً وفخـــراً
على الفقراءِ حتّى في القبورِ !

فإن يكن التفاضلُ في ذُرَاهـــا
فإن العدلَ فيهـــا في القعورِ

ألمَّـــا يُبصروا ما خرَّبَتْـــه الدُّ
هورُ مـــن المدائن والقصورِ ؟

لعَمْرُ أبيهمُ لـــو أبصروهـــمْ
لما عُرِف الغـــنيُّ مـــن الفقيرِ

ولا عرَفوا العبيدَ مـــن الموالي
ولا عرَفوا الإنـــاثَ من الذكورِ

ولا مَن كان يلبَس ثوبَ صوفٍ
من البَدَنِ المبـــاشرِ للحريـــرِ!

إذا أكلَ الثرَى هذا وهـــذا
فما فضلُ الكبير على الحقيرِ ؟ (١)

ومن بديع مقطوعات ابن مرج الكحل في الحكمة قوله :

مثَـــلُ الرزقِ الذي تَطلبُـــهُ
مثَلُ الظـــلِّ الذي يمشي معَكْ

أنت لا تُدرِكُـــه مُتّبِعـــاً
فـــإذا ولَّيْتَ عنـــهُ تَبِعَـــكْ (٢)

---

(١) نفح الطيب : ج ٣ ص ٢٣ .
(٢) المرجع السابق : ج ٦ ص ٣٥٨ .

– ٥ –

الـــزهـــد :

كان العرب في جاهليتهم يحيَون حياة وثنية مادية ، يُطلقون فيها العنان لشهواتهم وغرائزهم ومُتَعِهم الحسية . وظل حالهم كذلك حتى ظهر الإسلام بينهم مبشرا بقيم إنسانية جديدة : من توحيد ، وعبادة ، ورجوع الى الله ، ومجاهدة للنفس عن عرَض الدنيا وزُخرفها ، ونزوع الى الفضائل التي ترتفع بكرامة الإنسان .

وكان من شأن هذه القيم الإسلامية وأمثالها من الخلوص لله والانقياد اليه والتوجه الى العمل الصالح ، أن أخذ كثير من المسلمين في صدر الإسلام أنفسَهم بالزهد في الدنيا ، عاملين بحديث الرسول الذي يقول : « ازهَدْ في الدنيا يُحبَّكَ الله ، وآزهَدْ فيما في أيدي الناس يُحبَّكَ الناس » .

وهكذا نرى في صدر الإسلام كثيرا من الصحابة ينصرفون عن متاع الحياة الدنيا ، ويَتحيَوْن للنُّسْك والزهد ، والابتهال الى الله والتوكل عليه ، والتطلع الى ما وعدَ به عباده الصالحين .

ومن الصحابة الذين عاصروا الرسول ، وتأثروا به في زهده ونُسْكِه وتَقشُّفِه في معيشته ، الشيخان : أبو بكر وعمر ، وعليّ بن طالب ، وعبدالله ابن عمر ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وأبو ذَرّ الغِفاريّ ، وكثيرون غيرهم من الصحابة والتابعين .

فنزعة الزهد لدى المسلمين ، هي في أصلها قيمةٌ من قِيَم الإسلام الخالصة ، ولكن الفتوح الإسلامية التي أدَّتْ إلى اختلاط العرب بغيرهم من أبناء البلاد

المفتوحة ، قد ساعدت على أن يتسرَّبَ الى الزهد الإسلاميّ شيءٌ من زهد الأديان الأخرى ، ولا سيما زهد المسيحية التي كانت منتشرة في العراق والشام ومصر . ومما يدل على ذلك أن نرى في عهد عثمان مَن يُلقَّب بالراهب والقَسّ ومَن يُحرِّم على نفسه الزواج واللحم ، كزاهد العراق وناسكها عامر بن عبد قيس .

وقد أخذت مُجاهَداتُ الزهاد المسلمين لأنفسِهم ورياضتُهم لها ضروباً مختلفة : فمنهم مَن يحج الى مكة مشياً على الأقدام، ومَن يكثر الصلاة ، حتّى ليصليَ في اليوم الواحد ألفَ ركعة، ومن يسجد فيطيل السجود ، ومَن يَهيم على وجهه خوفا من ربه ، ومَن يربط نفسه على أحد أعمدة مسجد المدينة ، ويظل كذلك حينا من الدهر ، حتّى يظن أن الله قد غفر له ! وهكذا أخذ الزهد يتحول في كثير من الصور إلى ضروب مختلفة من المشقة وإعنات النفس ، طمعاً في ثواب الله ، وخوفا من عقابه .

وإذا كانت نزعة الزهد قد وجدت سبيلها في العصر الأمويّ إلى جميع الأقطار الإسلامية ، فإن أهم إقليم انتشرت بين أبنائه وبالغوا فيها هو إقليم العراق . ولعل السبب في ذلك راجع من ناحية الى ما مُنِيَ به العراق من فِتَنٍ وحروب داخلية استمرت طَوال العصر الأمويّ ، ثم إلى قسوة وُلاة الأمويينَ وظلمهم للعراقيين من ناحية أخرى .

فالذين هُزِموا من أهل العراق في حروبهم مع الأمويين ، لم يجدوا عزاءهم إلاّ في الزهد ، فركنوا اليه بباعث اليأس ، مؤملين في ثواب الآخرة بعد أن فقدوا نعيم الدنيا . أما مَن وقعوا منهم ضحية ظلم الولاة وعَسْفِهم ، فقد اندفعوا بعامل الخوف الى العزلة والزهد ، مؤثرين بذلك السلامة والنجاة على التعرض للأخطـــار .

ونتيجةً لذلك كانت موجة الزهد في العراق أشدَّ منها في أيّ قطر آخر ، حتّى ليخيل لمن يستقرىء زهّاد البصرة والكوفة ، أن زهّاد العصر الأمويّ

يكاد يكون كلهم في العراق . وكان لزهّاد هاتين المدينتين أقوالهم ومواعظهم الخاصة التي تنبيء عن طبيعة زهدهم ، وسلوكهم فيه ، ونظرتهم إلى الدنيا ، وضروب العبادات والمجاهدات التي كانوا يمارسونها . ولم تقف نزعة الزهد عند حد الرجال ، وإنما تجاوزتهم الى النساء كذلك .

ويعتبر الحسنُ البصريّ المتوفي سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م شيخَ مُتزَهِّدة العراق وواعظَهم في ذلك العصر . وكان في وعظه يأخذ على الإنسان نسيانَه لربه وما أعدّ له من ثواب وعقاب في آخرته ، هذا مع دعوته الى الزهد في متاع الدنيا ، والتقرب الى الله بالعبادة والنُّسْك والمحبة .

وهكذا بدأت تشيع في الأقطار الإسلامية أيامَ بني أمية روحٌ دينية مستمدةٌ من تعاليم الإسلام وأخلاقياته ، روحٌ قوامُها الورع والزهد . والنُّسْك والتقشُّف ، والإيمان بعالمٍ خارجٍ عن حِسِّ الانسان وشعوره .

* * *

في هده البيئة الجديدة التي بدأت نزعة الزهد في الحياة تشيع في جوانبها ، نشأ شعراء العصر الأمويّ . وما من شك في أن كثيرين منهم قد تأثروا في شعرهم بروحانية الإسلام ومعانيه وفضائله .

ولما كان الشعراء أكثر من غيرهم تأثرا بما يضطرب في مجتمعهم ، فممَّا لا شكّ فيه أن حياتهم الفنية قد نفذ اليها إشعاعات من الحياة الروحية الجديدة ، وهذه أثّرتْ بدورها في أشعارهم وطوّرتها ، بما ظهر فيها من عناصر إسلامية كثيرة .

وليس غريبا أن نرى أثر الانفعال بالوجدان الدينيّ في شعر مَن عُرِفوا منهم بالورع والتقى والعفة والتدين ، بل الغريب حقا أن نرى أثره كذلك في شعر من اشتهر منهم بالاستهتار ، وربما بالفسق كالفرزدق .

فعلى الرغم من استهتار هذا الشاعر وإقذاعه في الفُحش والهجاء ، يرى

الدارس لشعره صوراً تعبر عن إيمانه باليوم الآخر والخوف من نار الجحيم ، كما تعبر عن « هجاء إبليس المضل » والندم على إطاعته حينا من الدهر [1] .

* * *

هذا عن الزهد في العصر الأمويّ ، وفي العصر العباسيّ كان الشاعر أبو العتاهية أول من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد في الدنيا ، والنهي عن الاغترار بها . وكان ذلك من جانبه كرد فعل لما أخذ يَشيع بين أدباء وشعراء عصره من التهتك والمجون ، والشكوك في الدين ، والزندقة .

وكان أبو العتاهية في أول عهده يجري مع شعراء عصره ، ويأخذ في كل ما يأخذون فيه ، ولكنه انتهى في أخريات أيامه الى الزهد ، ووقف شعره عليه ، وله فيه أشعار كثيرة ، منها :

خانكَ الطرفُ الطموحُ ، أيُّهـا القلب الجموحُ
لدواعي الخير والشر دُنـوٌّ ونـزوحُ

أحسنَ اللهُ بنـا أن الخطايـا لا تفوحُ !
موتُ بعض الناس في الأرض على قومٍ فُتـوحُ

كُلُّنا في غفلـةٍ والموتُ يغـدو ويـروحُ
نُحْ على نفسكَ يا مسكينُ إنْ كنت تنوحُ
لتموتَنَّ وإنْ عُمِّرْتَ ما عُمِّرَ نـوحُ !

ومنه أيضا :

إذا المرءُ لم يُعتِقْ من المـال نفسَه
تَملّكه المال الذي هـو مالكهْ

---

(١) انظر هجاء الفرزدق لإبليس في الجزء الثاني من ديوانه : ص٢١٢ .

ألاَ إنمــا مالي الذي أنــا مُنفِقٌ
وليس ليَ المالُ الذي أنا تاركــهْ!

* * *

وقد امتدت نزعة الزهد إلى شعراء الأندلس ، فقالوا فيه وأطنبوا ، ويبدو أن كثيرين منهم كانت نفوسهم مهيئةً لهذا اللون من الشعر ، بحكم ثقافتهم الدينية . ولسنا نعدو الحق إذا قلنا : إنهم فاقوا المشارقة في شعر الزهد ، من حيث غزارتُه وتوليدُ معانيه ، ورسمُ صورهِ القوية المؤثرة . ولعل في النماذج التي نوردها هنا لشعراء الأندلس في الزهد ما يوضح كل ذلك :

* قال أبو وهْب العباسيُّ القرطبيّ :

أنــا في حالتي التي قــــد تراني
إنْ تأمّلتَ أحسنُ الناس حـــالاَ

منزلي حيث شئتُ من مستقــرٍّ
الأرض ، أُسقَى من الميــاه زُلالا

ليس لي كُسوةٌ أخــاف عليهــا
من مُغيرٍ ، ولن ترَى ليَ مــالا

أجعل الساعدَ اليمينَ وِســـادي
ثم أثْني — إذا انقلبتُ — الشِّمالا

ليس لي والــدٌ ولا مولــــودٌ
لا ولا حزتُ مُذْ عقَلْتُ عِيالا

قد تلذَّذْتُ حِقبــــةً بـأمـورٍ
فتأمَّلْتُها ، فكــانت خيالاً [1]

* وقال أبو بكر الطُّرطوشيّ :

إنَّ لله عبــــاداً فُطَنَـــــا طلَّقُوا الدنيا وخافوا الفِتَنَا
فكَّروا فيهـــا فلمَّـــا علِموا أنّهـــا ليستْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جعلوهـــا لُجّـــةً واتخـــذوا صالحَ الأعمال فيها سُفُنَا[2]

* وقال القاضي أبو الوليد الباجي :

إذا كنتُ أعلمُ علـــمَ اليقينِ بأنَّ جميعَ حياتي كساعـــةْ
فلِمْ لا أكونُ ضَنِينـــاً بها وأجعلُها في صلاحٍ وطاعةْ ؟ [3]

* وقال ابن الفَرَضي القرطبيّ :

أسيرُ الخطايا عند بابكَ واقفُ
على وَجَلٍ مما به أنتَ عــارفُ

يخافُ ذنوباً لم يغبْ عنك غَيْبُها
ويرجوك فيها ، فهْو راجٍ وخائفُ

ومَن ذا الذي يُرجَى سواكَ ويُتّقَى
وما لكَ في فصل القضاء مخالفُ ؟

فيا سيّدي لا تخزِني في صحيفتي
إذا نُشِرتْ يومَ الحساب الصحائفُ

---

(١) نفح الطيب : ج ٤ ص ١٩٥ . (٢) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٩١ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٧٩ .

وكنْ مؤنسي في ظلمة القبر عندما
يَصُدُّ ذوو القربَى ويجفو المؤالفُ

لئن ضاق عني عفوُك الواسعُ الذي
أُرَجِّي لإسرافي ، فإني لتالفُ [1]

* وقال أبو محمد عبدالله الشنتريني الأندلسي :

يا مَن يُصيخ إلى داعي السَّقاة وقد
نادَى به الناعيانِ : الشيبُ والكِبَرُ

إنْ كنتَ لا تسمع الذكرَى ، ففيم ثوَى
في رأسك الواعيانِ : السمعُ والبصَرُ ؟

ليس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجلٍ
لم يَهدِهِ الهاديانِ : العينُ والأثَرُ

لا الدهرُ يَبقَى ، ولا الدنيا ، ولاالفلكُ
الأعلَى ، ولا النَيِّرانِ : الشمسُ والقمرُ

لَيرحلَنَّ عن الدنيا وإن كَرِهَا
فراقَها ، الثاويانِ : البَدْوُ والحضَرُ [2]

* وقال الفيلسوف الشاعر أبو بكر محمد بن طُفَيْل :

يا باكياً فُرْقةَ الأحباب عن شَحَطٍ [3]
هلاَّ بكيتَ فراقَ الروح للبدَنِ ؟

---

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣٢٩ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان : ج ١ ص ٣٧٤ .
(٣) االشحط : البعد .

نُورٌ تردَّدَ في طينٍ إلى أجَلٍ
فانحازَ عُلْواً وخلَّى الطينَ للكفنِ

يا شَدَّ ما افترقا من بعد ما اعتلقا [1]
أظنُّها هُدْنَةً كانت على دَخَنِ [2]

إنْ لم يكن في رِضَى الله اجتماعُهما
فيا لها صَفْقَةً تمَّتْ على غبَنِ [3]

* وقال الحكيم الطبيب أبو الفضل محمد الجلياني :

خبَرتُ بني عصري على البَسْطِ والقَبْض
وكاشفتُهم كشفَ الطبائع بالنبضِ

فأنتجَ لي فيهم قياسي تخلِّيا
عن الكلِّ ، إذْهُمْ آفةُ الوقتِ والعِرضِ

ألازمُ كِسْرَ البيت خلْواً، وإن يكن
خروجٌ ، ففرداً مُلصِقَ الطَّرْفِ بالأرضِ

أرى الشخص من بُعدٍ ، فأغضي تغافُلاً
كمشدوهِ بالٍ في مهمّته يمْضي

ويحسبني في غفلةٍ ، وفِراستي
على الفَوْر من لمحي بما قد نوَى ـ تقضي

---

(١) اعتلقا : تلازما وأحب كلاهما الآخر . (٢) هدنة كانت على دخن، اقتباس من حديث الفتنة ، وهو هنا كناية عن صلاح الظاهر وفساد الباطن ، انظر لسان العرب : ج ١٢ ص ١٥٠ (٣) المعجب للمراكشي : ص ٢٤١ ، والغبن : النسيان والخطأ.

أجانِبهُمْ سِلْماً ، ليسلمَ جانبي
وليس لحقدٍ في النفوس ولا بُغْضِ

تخلّيْتُ عن قومي ، ولو كان ممكناً
تخلّيْتُ عن بعضي ليسلمَ لي بعضي [1]

* ولعل من أحسن شعر الأندلسيين في الزهد من حيث الشكل والمضمون ، قصيدة ابن حمديس الصقليّ التالية :

يا ذنوبي ثقّلْتِ والله ظهري
بانَ عُذري ، فكيف يُقبَل عذري ؟

كلما تُبْتُ ساعةً عُدْتُ أخرى
لضروبٍ من سوء فعلي وهُجري

ثَقُلتْ خُطوتي وفَوْدي تفرّى
غَيْهَبُ الليل فيه عن نُور فجرِ [2]

دَبَّ موتُ السكون في حركاتي
وخبَا في رمادِهِ حُمْرُ جمري

وأنا حيثُ سِرتُ آكلُ رزقي
غيرَ أنَّ الزمانَ يأكل عمري !

كلما مَرَّ منه وقتٌ بربْحٍ
من حياتي ، وجدتُ في الربح خُسْري

(١) نفح الطيب : ج ٣ ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

(٢) الفود : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن ، وتفرى : انشق ، وغيهب الليل : شدة ظلامه وسواده .

يـــا رفيقـــاً بعبدهِ ومُحيطـــاً
عِلمُهُ باختلاف سِرِّي وجَهري

مِلْ بقلبي الى صلاحٍ فســـادي
منه ، واجبُرْ برأفةٍ منك كَسْري

وأجِرْني ممـــا جَنـــاهُ لساني
وتناجتْ به وساوسُ فكري [1]

* * *

شعـــر التصـــوف :

والحديث عن الزهد في الشعر الأندلسي يَستدعي الحديثَ عن التصوف في هذا الشعر أيضا ، ذلك لأنهما متلازمان في غالب الأحوال ، والفرق ما بين الزهد والتصوف هو الفرق ما بين الاعتدال والمبالغة .

وإذا كان الزهد دعوةً الى الانصراف عن ترف الحياة ومباهجها ، والاكتفاء بما يُقيم الأوَد ويستر الجسم ، فإن التصوف شظَف وخشونة، وجوع وحرمان ، وإعراضٌ عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهدُ فيما يُقبِل عليه عامة الناس من لذة ومال وجاه ، والانفرادُ عن الخلق في الخلوة الى العبادة والعكوف عليها .

وللتصوف ركنان هما : الزهد ، والحب الإلهيّ . وعلى هذا فالتصوف أعم من الزهد ، فكلُّ تصوف زهد ، وليس كلُّ زهد تصوفا .

وللصوفية أدب غزير ، تخالف خصائصه خصائص الأدب الآخر . ومن

---

(١) ديوان ابن حمديس : ص ٢٦٥ .

خصائصه : السموُّ الروحي ، والمعاني النفسية العميقة ، والخضوع التام لإرادة الله القوية ، وبُعد الخيال ، وغموض المعاني الرمزية .

والشعر الصوفيّ نوعٌ من الشعر يكون إلهيّاً محضا ، تُستخدَم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق ، وهو شعر مؤوَّل ، لا يُقصَد ظاهره ، وإنما له محاملُ يُحمَل عليها وتليق به .

يُروَى أن الإمام العارف محيى الدين بن عربي قال :

يا مَن يراني ولا أراهُ   كم ذا أراهُ ولا يراني

فلما سمع بعض إخوانه هذا البيت سأله ، كيف تقول : إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟ فقال ابن عربي مرتجلا :

يا من يراني مجرماً   ولا أراه آخذا
كم ذا أراهُ مُنعِماً   ولا يراني لائذا [1]

فمن هذا الخبر يتضح أن الشعر الصوفيّ أو الإلهيّ لا يُفهَم إلاّ على سبيل التأويل .

وفيما يلي نماذج من هذا الشعر الإلهيّ تعطي فكرة عن طبيعته ، وعن الآفاق التي يحلق فيها شعراؤه .

* قال الشيخ محيى الدين بن عربي :

حقيقتي هِمْتُ بها ، وما رآها بصَري
ولو رآها لغَدَا قتيلَ ذاك الحَوَرِ

فعندما أبصرتُها ، صرتُ بحكْم النظرِ
فبِتُّ مسحوراً بها ، أَهيم حتى السَّحَرِ

---

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣٦٧ .

يا حَذرِي من حذَرِي لو كان يُغني حذَري
واللهِ ما هيَّمني جمالُ ذاك الخَفَرِ

في حسنها من ظَبية ترعَى بذات الخَمَرِ [1]
إذا رَنَتْ أو عطفتْ تَسْبي عقولَ البشرِ

كأنما أنفاسُها أعرافُ مِسْكٍ عطِرِ
كأنها شمس الضحَى في النور أو كالقمرِ

إن أسْفَرَتْ أَبْرَزَها نورُ صباحٍ مُسْفِرِ
أو سَدَلَتْ غيَّبَهَا سوادُ ذاك الشَّعَرِ

يا قمراً تحت دُجىً خُذي فؤادي ، ودَرِي
عيني لكي أبصركم ، إذْ كان حظي نظري [2]

* وقال الفقيه العارف ابن سبعين الأندلسيّ :

كم ذا تُمَوِّهُ بالشِّعبيْن والعلَمِ
والأمرُ أوضحُ من نارٍ على علَمِ

وكم تعبِّر عن سَلْعٍ وكاظمةٍ
وعن زرود وجيرانٍ بذى سلَمِ

ظَلِلْتَ تسأل عن نجد وأنت بها
وعن تِهامةَ ، هذا فعلُ مُتَّهِمِ

في الحَيِّ حَيٌّ سوى ليلَى فتسألَه
عنها ؟ سؤالك وَهْمٌ جَرَّ للعدَمِ [3]

---

(١) الخمر : كل ما واراك وحجبك من شجر ونحوه . (٢) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣٦٦ .
(٣) المرجع السابق : ض ٤٠٢ .

* وقال أبو الحسن الشُّشْتُرِيُّ الصوفيّ الشهير :

لقد تِهتُ عُجْباً بالتجرُّدِ والفقرِ
فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهرِ

وجاءت لقلبي نفحةٌ قُدُسيَّةٌ
فغبتُ بها عن عالَمِ الخلق والأمرِ

طويتُ بساطَ الكون، والطيُّ نشرُهُ
وما القصدُ إلاّ التركُ للطي والنّشرِ

وغمَّضت عينَ القلب غيرَ مُطلَّقٍ
فألفيتُني ذاك الملقَّبَ بالغيرِ

وصَلت لمن لم تنفصل عنه لحظة
ونزَّهتُ مَن أعني عن الوصلِ والهجرِ

وما الوصفُ الاّ دُونَه ، غيرَ أنني
أريد به التشبيبَ عن بعض ما أدري

وذلك مثلُ الصوت أيقظ نائماً
فأبصر أمراً جلَّ عن ضابط الحَصْرِ

فقلتُ : له الأسماء تبغي بيانَه
فكانت له الألفاظ سِتْراً على سِتْرِ [1]

* * *

فهذا الشعر الصوفيّ أو الإلهيّ الجامح بخياله والغامض بمعانيه ، يتخذ من الرمز أداة للتعبير عن مضمونه وحقائقه ، وقلَّ أن يفهمه إلاّ أصحابُه ، أو

---

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣٨٥ .

مَن يؤوِّلونه ، وحتى هؤلاء قد تتضارب تأويلاتهم ، نتيجةً لاختلاف أذواقهم واجتهاداتهم وتخريجاتهم .

وكما نظم متصوفة الأندلس شعرهم في أوزان الشعر التقليدية ، نظموه كذلك في الموشحات ، وممن فعل ذلك منهم الشيخ محيي الدين بن عربي [1] .
ومن نماذج الشعر الصوفيّ أيضاً قول أبي العباس بن العريف :

سَلُوا عن الشوق من أهوَى فإنهمُ
أدنى إلى النفْس من وَهْمِي ومن نَفَسي

فمَن رسولي إلى قلبي ليسألهم
عن مُشْكلٍ من سؤال الصَبِّ مُلتبِسِ ؟

حَلُّوا فؤادي فما يَندَى ، ولو وَطِئوا
صخراً لجَادَ بماءٍ منه مُنبَجِسِ

وفي الحَشَا نزلوا والوَهْمُ يجرحهم
فكيف قَرُّوا على أذكَى من القَبَسِ ؟

لأنهضَنَّ إلى حشري بحبِّهُمُ
لا بارك اللهُ فيمن خانَهم ونَسِي

(١) انظر بعض موشحات ابن عربي في كتاب « نفح الطيب » . ج ٢ ص ٣٨٠ .

— ٦ —

الاستعطـــاف :

فَنٌّ قديم من فنون الشعر العربيّ ، ويقال له أحيانا « الاعتذار » . والمتتبع لتاريخ هذا الفن يرى أنه لم يخلُ عصر من عصور الأدب العربيّ من شاعر أو أكثر نظموا الشعر ، استعطافا أو اعتذاراً عما تورَّطوا فيه من إساءة كالهجاء مثلا ، أو عما نُسِب اليهم زورا وبهتانا بحق ملك أو ذي سلطان ، بباعث الوشاية أو الغَيرة أو الحسد ، أو ما أشبه ذلك .

وقصيدةُ الاستعطاف تدور أكثر معانيها عادةً ، على ترفُّق الشاعر في الاحتجـــاج على براءته مما نُسِب اليه ، واستمـــالةِ قلب المستعطَف أو المعتذَر إليه ، والتذكيرِ بسالف ولائه أو خدماته ، ووصفِ ما يعانيه في سجنه من ضروب الإعنات والحرمان . إن كان سجينا

وفي التعبير عن هذهِ المعاني وأمثالها تتفاوت أساليب الشعراء من حيث قوةُ التأثير ؛ فمنهم من تُسعفه قوة بيانه ونصاعة حُجَّتِه على الإقناع ببراءته ،فتُغفَرُ زلَّتُه إن كان طليقا ، أو يُعفَى عنه ويُطلَق سراحه إن كان سجينا ، ومنهم مَن يقصُر بيانه عن الإقناع ببراءته ، فيظل مُبعَداً مغضوبا عليه ، أو قابعا في سجنه ، حتى يقضي الله في أمره .

والنابغة الذبيانيّ أول من فتح باب الاستعطاف والاعتذار في الشعر العربيّ ، وذلك باعتذاريَّاته التي توَجَّهَ بها الى النعمان أبي قابوس ، بعد أن فرَّ من وجهه خوفا على حياته ، بسبب ما ألقاه المنخَّل اليشكريّ في رَوْعِ النعمان من أن شعر النابغة في وصف المتجردة زوجتِه لا يستطيع أن يقوله إلاَّ مَن جرَّبَه !

ومنه في العصر الجاهليّ أيضا اعتذار أعشى قيس الى أوس بن لام عن هجائه إياه ، والذي منه :

وإني على ما كان مني لنــادمٌ
وإني الى أوس بن لاَمٍ لتــائبُ

فهبْ لي حياتي ، فالحياة لقــائم
بشكرك فيها ، خيرُ ما أنت واهب

سأمحو بمدحٍ فيك إذ أنــا صادق
كتابَ هجاءٍ سارَ إذ أنا كاذب

وفي صدر الإسلام نلتقي باستعطاف الحطيئة لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، عندما حبسا بسبب هجائه للزبرقان بن بدر . صاحب رسول الله ، وعامل عمر على الصدقات .

وممن قالوا في الاستعطاف والاعتذار في العصر الأموي . الكميت بن زيد شاعرُ الشيعة ، كان يذم بني أمية ويمدح بني هاشم . فأمر هشام بن عبد الملك بحبسه . ثم كان شعره في الاعتذار سببا في العفو عنه .

وفي العصر العباسيّ نجد أكثر من شاعر قد أُودِع السجن ، بسبب وشايات خصومه ، فنظمَ شعر الاستعطاف في محبسه ، ومن هؤلاء الشاعر عليّ ابن الجَهم ، كان مقربا لدى الخليفة المتوكل ، ولكن خصومه ما زالوا يوغرون صدر المتوكل عليه حتى حبسه .

ومنهم أبو الطيب المتنبي . وشَى به قومٌ الى لؤلؤ أمير حمص ، زاعمين أنه آدَّعَى النبوة في بادية بني كلب بالشــام ، وتبعه خلق كثير ، ويُخشَى على مُلك الشــام منه ، فخرج لؤلؤ الى بني كلب وحــاربهم ، وقبض

على أبي الطيّب وسجنه طويلا ، ثم استعطفه الشاعر فأطلق سراحه [1] .

ومنهم أبو فراس الحمداني فله في الاستعطاف شعر كثير ، بعث به وهو أسير في بلاد الروم ، الى ابن عمه الأمير سيف الدولة الحمداني ، يتوسل اليه فيه أن يعمل على مفاداته وإنقاذه من الأسر .

* * *

هذا عن نشأة فنّ الاستعطاف في الشعر العربي ، وأشهرِ مَن قالوا فيه من شعراء المشرق ، وقد اقتفى الأندلسيون أثر المشارقة في شعر الاستعطاف أيضا .

ومن بين جميع شعراء الأندلس نرى أربعة شعراء كبارا نظموا شعر الاستعطاف وأجادوا فيه . وهؤلاء هم أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي ، وابن عمار ، وابن زيدون ، وأبو عبدالله الغسّاني البجالي .

* أما أبو الحسن جعفر المصحفي الذي قبض عليه المنصور بن أبي عامر ، واستصفَى أمواله ، ووضعه في المُطبَق ، فلم يزل به حتى مات جوعاً وهُزالا ، فقد سبق أن أوردنا نماذج من شعر الاستعطاف الذي توجه به إلى المنصور التماساً لعفوه . فليُرجَع اليها في موضعها من هذا الكتاب [2] .

وإتماما لما سبق بالنسبة للمصحفيّ ، نورد فيما يلي نموذجين مما قاله وهو في محبسه تعبيرا عن ذله وهوانه ويأسه ، بعد أن عجزت أشعاره الى المنصور في استدرار عطفه عليه والإفراج عنه . قال :

– لا تأمنَنّ إلى الزمـــان تقلُّبـــاً
إنّ الزمـــان بأهلـــه يتقلّبُ

---

(١) انظر قصيدة المتنبي في ديوانه : ج ٢ ص ٧٤ .
(٢) ارجع إلى ص : ٩٠ – ٩١ من هذا الكتاب .

ولقد أراني والليوثُ تهابني
وأخافَني من بعد ذاك الثعلبُ !

حسْبُ الكريم مهانةً ومذلةً
ألاّ يزالَ الى لئيم يطلُب (1)

– صبرتُ على الأيام لمّا تولَّتِ
وألزمتُ نفسي صبرَها فاستمرَّتِ

فيا عجباً للقلب ! كيف آصطبارُهُ ؟
وللنفس بعد العزِّ كيف آستُذِلَّتِ ؟

وما النفس إلاّ حيث يجعلها الفتَى
فإنْ طَمِعتْ تاقتْ ، وإلاّ تسلَّتِ

وكانت على الأيام نفسي عزيزةً
فلما رأتْ صبري على الذلِّ ذَلَّتِ

وقلت لها : يا نفسُ موتي كريمةً
فقد كانت الدنيا لنا ... ثم وَلَّتِ ! (2)

* * *

* وأما الوزير أبو بكر محمد بن عمار فنشأ عصاميا مفطورا على الشعر ، يقوله في سائر الأغراض حتى علا ذكره بين الشعراء ، وحدث أن مدح المعتضد بن عبّاد بقصيدة أعجب بها ، فجعله في جملة شعرائه ، ومنذ ذلك الوقت اندمج في حاشية الأمراء ، وخلع عن نفسه رداء البؤس والفاقة ، ثم اتصل

---

(1) البيان المغرب : ٢ ص ٤٠٦ .	(2) المرجع السابق : ص ٤٠٢ .

بالمعتمد بالله بن المعتضد ، وكان شاباً أديباً يحب الشعر ويميل اليه، فأحبه المعتمد لاتفـــاقه معه في الميول والأهواء وفنون الأدب والشعر والملاهي وأنواع السرور .

ولما تولى المعتمد ولاية « شِلب » جعل ابن عمار وزيرا له هناك ، وترك له الحُكْم والأمر والنهي ، وهناك عاش مع المعتمد عيشة الأصدقاء ، وعيشة اللهو والطرب والمجون . وساء المعتضدَ أن يرى ابنه المعتمد خاضعا لابن عمار ؛ ولهذا فرق بينهما ، ونفَى ابن عمار في أقاصي بلاد الأندلس .

واستمر في منفاه حتّى مات المعتضد ، وتولى الأمرَ بعده ابنُه المعتمد ، فدعا ابن عمار اليه ، واستوزره ، وسلَّم له كل شيء في السياسة وأمرِ الدولة ، ولما رأى عُلوَّ أمره ، خطر له أن يستبد بالملك وأن يكون ملكا . وحدث أن خرج في غزوةٍ فتحَ فيهـــا بلنسية ، فحدثته نفسه أن يملكها ويخلع طاعة المعتمد، ناسيا كل ما كان بينهما . ولمـــا بلغ المعتمدَ أمرُه هرب ابن عمار خوفا على حياته ، ولكن المعتمدَ قبض عليه أخيرا وسجنه في غرفة في قصره . ومنذ ذلك الحين كتب قصائدهُ الشهيرة في الاستعطاف حتّى لانَ منها المعتمد ، لكنه رجع عن عفوه عنه وقتله بيده في السجن سنة ٤٧٩ هـ .

وفيما يلي إحدى قصائده التي استعطف بها المعتمدَ بن عبّاد (١) :

سجاياكَ إن عافيتَ أندى وأسمحُ
وعذرُك إن عاقبتَ أجلي وأوضحُ

وإن كان بين الخُطتين مَزيَّـــــةٌ
فأنت إلى الأدنى من الله أجنــح

حنانيْك في أخذي برأيك لا تُطعْ
عُداتي ، وإن أثنَوْا عليّ وأفصحوا

(١) انظر هذه القصيدة في المعجب للمراكشي : ص ١٢٥ .

وماذا عسى الأعداءُ أن يتزيَّدُوا
سوى أنَّ ذنبي واضح متَصحِّح

نعم ليَ ذنبٌ ، غيرَ أنَّ لحِلمكم
صَفَاةً يزِلُّ الذنبُ عنها فيسفَح

وأنَّ رجائي أنَّ عندك غيرَ ما
يخوض عدُوِّي اليومَ فيه ويمرَح

ولِمْ لا ، وقد أسلفتُ وُدًّا وخِدمةً
يكُرَّانِ في ليل الخطايا فيُصبِح ؟

وهبني وقد أعقبتُ أعمالَ مُفْسدٍ
أمَا تَفسُدُ الأعمالُ ثُمَّتَ تَصلُح ؟

أَقِلْني بما بيني وبينك من رضاً
له نحوَ رُوح الله بابٌ مُفتَّح

وَعَفٍّ على آثار جُرمٍ جنيتُه
بنفْحَة رُحْمَى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفتْ رأيَ الوشاة وقولَهم
فكل إناءٍ بالذي فيه ينضَح

وما ذاك إلاَّ ما علمتَ .. فإنني
إذا ثُبتُ لا أنفك آسو وأجرح

كأني بهم لا درَّ لله درُّهم
أشاروا تُجاهي بالشَّمات وصَرَّحُوا [1]

وقالوا : سيَجزيه فلانٌ بفعله
فقلتُ : وقد يعفو فلانٌ ويصفحُ

ألاَ إن بطشاً للمؤيَّد يُتقَى
ولكن حِلماً للمؤيد أرجحُ

وبين ضلوعي من هَواهُ تميمةٌ
ستنفع لو أن الحِمامَ مُجَلَّحُ

عليه سلامٌ كيف دارَ به الهوى
إليَّ فيدنو أو عليّ فينزح

ويَهنيه إن مُتُّ السلوُّ فإنني
أموت ولي شوق اليه مُبَرِّح [2]

* * *

* أما الوزير أبو الوليد بن زيدون فله قصائد كثيرة في الاستعطاف أرسلها للأمير أبي الحزم بن جَهْوَر الذي ألقى به في السجن بسبب ما أدخله خصومُ الشاعر في روع الأمير من أنه يتآمر على حُكمه ، ويطلق لسانه في هجائه .

ويلاحظ على قصائد ابن زيدون في الاستعطاف ، أن الشاعر يمزج الاستعطاف فيها بمدح الأمير أو معاتبته على نسيان سابق ولائه له ، أو بالفخر بنفسه أحيانا . وفيما يلي نماذج من شعر ابن زيدون في الاستعطاف .

---

(١) الشمات والشماتة : الفرح بمصائب الأعداء .
(٢) المعجب للمراكشي : ص ٨٨

ـ إنْ طال في السجن إيداعي فلا عجبٌ
قد يُودَعُ الجفنَ حدُّ الصارم الذكَرِ

وإنْ يُثبطْ أبا الحزم الرضّي قَدَرٌ
عن كشف ضُرِّي، فلا عتْبٌ على القدَرِ

ما للذنوب التي جاني كبائرها
غيري، يُحمِّلني أوزارَها وَزَري [1]

من لم أزل من تأتِّيه على ثقة
ولم أَبِتْ من تجنيِّه على حذَرِ [2]

حُرِمتُ منه، وحظَّ الناسُ كلُّهمُ!
لَهذهِ العِبْرةُ الكبرى من العِبَرِ!

لا تَلْهُ عني. فلم أسألْك مُعتسِفاً
رَدَّ الصِّبَا بعد إيفاءٍ على الكِبَرِ [3]

ـ أبا الحزم إني في عتابك مائلٌ
على جانبٍ تأوي اليه العُلا سهلِ

أُعِدُّكَ للجُلّى، وآملُ أن أُرَى
بنُعماكَ مَوسوماً، وماأنا بالغُفلِ [4]

---

(١) الأوزار: الأعباء الثقيلة، والوزر بفتح الواو والزاي: المعين والظهير.
(٢) التأتي: الرفق. (٣) ديوان ابن زيدون: ص ٢٥٠.
(٤) الجلى: الأمر العظيم. وموسوما: مميزا. والغفل: الذي لا ميزة فيه.

ولو أنني واقعتُ عمداً خطيئـــةً
لما كان بِدْعاً من سجاياكَ أن تُملي [1]

فلم أستثر حربَ «الفِجَار» ولم أُطـــع
«مُسيْلمةً» إذ قال : إني من الرُسْلِ [2]

ومثليَ قد تهفو بـــه نشوةُ الصِّبـــا
ومثلك مَن يعفو ، ومالك مِن مِثـــل

وإني لتنهـــاني نُهايَ عـــــن التي
أشاد بها الواشي ، ويَعقِلني عقلي [3]

— ومن قصيدة كتبها الشاعر في أُخريات أيام سجنه :

أيهذا الوزيرُ ها أنـــــا أشكو
والعصا بَدْءُ قَرْعِها للحليمِ [4]

(١) أن تملى : أن تمهل .

(٢) حرب الفجار : حرب فجر فيها عرب الجاهلية لأنهم قاتلوا فيها في الأشهر الحرم. ومسيلمة : هو مسيلمة الكذاب ، زعيم بني حنيفة الذي ادعى النبوة في حياة النبي ، وزعم أنه شريك له في الولاية على الأمة ، وقد استفحل أمره في بدء خلافه أبى بكر حتى قضي عليه في معركة قادها خالد بن الوليد .

(٣) ديوان ابن زيدون : ص ٢٦١ ، والنهي : العقل ، ويعقلني : يمسكني ويمنعني .

(٤) في البيت إشارة إلى المثل « إن العصا قرعت لذي حلم » ، وهو يضرب لمن يتنبه إذا نبه . والمعنى : أيها الوزير لقد ضرعت اليك بالشكوى لأنبهك إلى ما وقع علي من ظلم ، وآمل أن تتنبه اليه فتزيله .

ما عَسِيٌّ أن يألف السابقُ المَرْ
بَطَ في العِتْق منه والتطهيمِ (1)

وبقاءُ الحُسام في الجفن يثْنِي
منه بعد المضاءِ والتصميمِ

أفصبرٌ مِئينَ خمْساً من الأيـ
ام ؟ ناهيكَ من عذابٍ أليم ؟

ومُعَنّىً من الضَّنَى بهَنات
نَكأَتْ بالكُلُوم قَرْحَ الكُلُومِ ! (2)

بأبي أنت ! إنْ تشأ تَكُ بَرداً
وسلاماً كنارِ إبراهيم

وزعيمٌ بأن يُذلّلَ لي الصَّعْبَ
مَثابي الى الهمامِ الزعيمِ (3)

* واتُّهِم الشاعر أبو عبدالله الغسَّاني البِجاليّ في دينه ، فسجنه المنصور ابن أبي عامر في المُطبَق ، فكتب الشاعر اليه من السجن ، يستعطفه بقوله :

دعَوْتُ لمّا عِيل صبري فهل
يَسمع دعوايَ المليكُ الحليمْ ؟

(1) عسي : جدير ، والسابق : الجواد ، والعتق : الحسن ، والتطهيم : الجمال البارع . والمعنى : إن الجواد السابق المطهم غير جدير بالحبس والتقييد في مربطه .
(2) معنى : متعب ، الضنى : المرض ، وهنات : دواهي ، ونكأت : أدمت ، والكلوم : الجروح .
(3) ديوان ابن زيدون : ص ٢٧٨ .

مولايَ مولايَ : ألاَ عَطفــــةٌ
تَذهَبُ عني بالعذاب الألـــيم ؟

إن كنتُ أضمرتُ الذي زَخرفـوا
عَنّي ، فدَعْني للقدير الرحــيم

فعِندهُ نَــزّاعـــة للشّــوَى
وعندهُ الفردوسُ ذاتُ النعيــم [1]

---

(۱) نفح الطيب : ج ٤ ص ٣٥٩ ، وقوله : نزاعة للشوى ، اقتباس من قوله تعالى : « كلا إنها لظى ، نزاعة للشوى » . ونزاعة : شديدة نزع الشيء المتصل بالآخر والشوى : جمع شواء بفتح الشين ، وهي جلدة الرأس .

- ٧ -

الهجـــاء :

الهجاء ضد المديح . ولما كان المدح الجيد المصيب إنما يكون بالفضائل النفسية ، فكذلك الهجاء الجيد إنما يكون بسلب هذه الفضائل .

والعرب أمة أخلاق لم تُضعفْها الحضارة ولم يَذهب بخشونتها التّرفُ والنعيم ، لذلك يرى العربيُّ نفسَه خُلُقاً محضاً . ولما قضى نظام الحياة على العرب بالمغالبة ، كان جانبُ التنافس بالأخلاق أغلب فيهم على جانب المنازعة بالعمل ؛ لأن العمل مظهر الأخلاق .

وقلما يأتون شيئاً من أعمالهم الا ابتغاء أن يُظهروا تلك الأخلاق ، أو يكتسبوا ما يساعدهم على المبالغة في إظهارها ، وذلك بَيِّنٌ في حروبهم ومنافراتهم وكثيرٍ من عوائدهم . فكان من الطبيعيّ أن يدعو ذلك إلى ظهور الهجاء . ولهذا لم يكن الهجاء عند العرب في الإفحاش ، وإنما هو في سلب الخُلُق أو سلب النفس .

ويقسّم ابنُ بسّام صاحبُ الذخيرة الهجاء قسمين : قسم يسميه العربُ هجوَ الأشراف ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مُقذِعا ولا هُجْراً مُستَبْشَعاً وإنما هو توبيخ وتعيير ، كقول النجاشيّ في هجاء بني العَجلان :

قبيلتُه لا يَغْـدِرون بذمـةٍ
ولا يظلمون الناس حَبّةَ خَـرْدلِ

ولا يَردون المَـاء إلاّ عَشيـةً
إذا صدرَ الوُرّادُ عن كل مَنْهَـلِ

ومـا سُمِّيَ العجـلانَ إلاّ لقولهم:
خُذِ القَعْبَ واحْلُبْ أيها العبدُ واعجَلِ [1]

وكقول الحطيئة في هجاء الزِّبرِقانِ بن بدر :

دَعِ المكـارم لا ترحل لبُغْيَتِهـا
واقعدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقد أوجعه ألاّ تبلغ مروءتُه عند الشّاعر أكثر من أن يأكل ويلبَس !
وأُثِر عن عبد الملك بن مروان أنه قال يوماً : « احفظوا أنسابكم يا بني أمية ، فما أوَدُّ أن يكون لي ما طلعت الشمسُ عليه ، وأنّ الأعشى قال فيَّ :

تَبيتون في المَشْتَى مِلاءً بُطونُكمْ
وجَاراتُكمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خمَائِصا [2]

وقيل : لما سمعَ عَلقمةُ بن عُلاثة هذا البيت ، بكى وقال : أنحن نفعل هذا بجاراتنا ؟ ودعا على الشاعر . فما ظنك بشيء يُبكي علقمة بن عُلاثة ، وقد كان عندهم لو ضُرِب بالسيف ما قال : حَسِّ [3] ؟ .

وقد كان الراعي يقول : هجوتُ جماعة من الشعراء وما قلتُ فيهم ما

(١) القعب : قدح من خشب مقعر . (٢) غرثي : جوعي .
(٣) وحس ، بفتح الحاء وكسر السين وترك التنوين : كلمة تقال عند الألم .

تستحي العذراء من إنشاده في خِدْرِها . ولما قال جرير :

فغُضَّ الطّرْف إنك من نُمَيْرٍ
فلا كَعباً بلغتَ ولا كِلابا

أطفأ مصباحه ونام ، لأنه رأى أنْه قد بلغ حاجته وشفَى غيظه من بني نُمير بهذا البيت وحدَه . قال الراعي : خرجنا من البصيرة فما وَردْنا ماءً من مياه العرب إلاَّ وسمعنا البيت قد سبقنا اليه ، حتى أتينا حاضرَ بني نُمَيْر فخرج الينا النساء والصِّبيان يقولون : قبّحكم اللهُ وقبّح ما جئتمونا به !!

ويقول ابن بَسّام عن القسم الثاني من الهجاء : هو السِّبابُ الذي أحدثه جرير وطبقتُه ، وكان يقول : « إذا هجوتم فأضحكوا » . وهذا النوع من الهجاء لم يهدِم قطُّ بيتاً ، ولا عُيِّرتْ به قبيلة .

وقد صان ابن بَسّام ذخيرته من إيراد نماذج من هجاء الاندلسيين الذي يدخل في باب السباب ، ولكنه أورد بعض نماذج من مليح تعريضهم الذي يتضمن هجاءً غيرَ صريح .

من ذلك ما قاله شاعر أندلسيّ في غلام كان يصحب رجلاً يعرف بالبعوضة :

أقول لشادنكم قَوْلة ولكنها رَمْزَةٌ غامضةْ :
لُزومُ البعوضِ له دائماً يدُلُّ على أنها حامضة !

ومنه قول آخر :

بيني وبينك سِرٌّ لا أبوح به الكلُّ يعلمه والله غافِرُهُ !

وحكى أبو عامر بن شُهَيْد عن نفسه قال : عاتبتُ بعض الإخوان عتاباً شديداً عن أمر أوجع قلبي فيه ، وكان آخرَ الشعر الذي خاطبته به هذا البيتُ :

وإني على ما هاجَ صدري وغـاظني
ليأمَنُني مَن كان عندي لـه سِـرُّ

فكان هذا البيتُ أشدَّ عليه من عَضِّ الحديد ، ولم يزل يَقْلَق به ، حتى بكى إليَّ منه بالدموع ! [1] .

وقريبٌ من رأى ابن بَسّام في الهجاء رأيُ القاضي الجرجانيّ صاحبِ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وذلك إذ يقول : فأمّا الهجوُ فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قَرُبَتْ معانيه ، وسَهُل حفظُه ، وأسرعَ عُلوقه بالقلب ، ولُصوقه بالنفس . فأما القذف والإفحاش فسِبابٌ محض ، وليس فيه للشاعر إلاَّ إقامةُ الوزن وتصحيحُ النظم [2] » .

وقلما خلا عصر من عصور الأدب العربيّ من شعر الهجاء ، وكلُّ ما هنالك أن دواعيَه قد تفترُ في عصر وتكثر في عصر آخر ، فيقل الهجاء أو يكثر تبعاً لذلك .

ويحدثنا أبو عبيدة عن مشاهير الهجائين في الإسلام والجاهلية فيقول : « الذين هَجوْا فوضعوا مِن قَدْرِ مَن هَجوْه ، ومدحوا فرفعوا مِن قَدْرِ مَن مدحوا ، وهجاهم قوم فرَدُّوا عليهم فأفحموهم ، وسكت عنهم بعضُ مَن هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض مَن هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون : جرير والفرزدق والأخطل . وفي الجاهلية : زهيرٌ ، وطرَفة ، والأعشى ، والنابغة [3] » .

وأشهر المحدَثين بالهجاء بشار بن برد ، وكان إذا غضب وأراد أن يقول هجاءً صفّق بيديه ، وتَفَلَ عن يمينه ويسلره ، ودِعبلُ بن عليّ الخزاعيّ ،

---

(١) الذخيرة لابن بسام : ٢/١ ص : ٦١ — ٦٤ .
(٢) الوساطة : ج ١ ص ٢٧ .
(٣) البيان والتبيين : ج ٤ ص ٨٣ .

وكان هجّاءَ الملوكِ جَسَوراً على الخليفة متحاملاً لا يُبالي ما صنع ، حتى عُرِف بذلك ، وطار اسمه فيه . وكان لذلك يقول عن نفسه : إنه يحمل خشبةً منذ كذا سنةً لا يجد مَن يَصلُبه عليها !

ومنهم ابن الروميّ ، وكان لسانُه أطولَ من عقله . حتى قتله الهجاء . وأكثرُ إجادته فيه لأنه سلك طريق جرير من الإطالة والإفحاش ؛ فإن جريراً كان أولَ مَن أطال الهجاء ، وكان — كما سبقت الإشارة — يقول : « إذا هجوتَ فأضحك » .

* * *

ولم يخل الشعر الأندلسيُّ من الهجاء ، فقد إقتفى الأندلسيون أثر المشارقة في هذا الفن أيضاً ، مع اختلافٍ فيما بينهم من حيث طولُ الهجاء وقِصَرُه ؛ فالهجاء عند المشارقة تكثر فيه القصائد الطوال وتقلّ فيه المقطّعات . وهذا على عكس ما يلحظه الدارس في هجاء الأندلسيين : حيث تكثر فيه المقطّعات وتكاد تنعدم الطِّوال .

ومن خلال الهجاء الأندلسيّ تطالعنا عِدَّةُ اتجاهات لهذا الفن عندهم . وفيما يلي ذِكْرٌ لأهم هذه الاتجاهات ، وبعضُ نماذجَ مما قيل فيه .

* فمن هذه الاتجاهات هجاء الفقهاء المرائين ، والمتكسبين بالعلم والزهد ، وهذا النوع من الهجاء أقرب إلى النقد الاجتماعيّ . وممن قال فيه أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالأبيض الإشبيلي ، وابن خفاجة الأندلسيّ :

— فابن الابيض في هجائه للفقهاء المرائين يقول :

أهلَ الرياء لبِستمُ ناموسكـــــم
كالذئب يُدلج في الظلام العاتمِ [1]

---

(١) من معاني الناموس : المكر والخداع والاحتيال ، ومنها : وعاء العلم . وهو المراد هنا ، أي لبستم الرداء أو الزي الخاص بالعلماء ، يدلج : يسير في الليل .

فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ
وقسمتمُ الأموالَ باسم القاسمِ

وركبتمُ شُهْبَ البغال بأشهبٍ
وبأصْبغٍ صُبِغَتْ لكم في العالَمِ

– وقال أيضاً :

قُلْ للإمام سَنَا الأئمة مالكٍ
نورِ العيونِ ونُزهةِ الأَسماعِ :

لله دَرُّكَ من إمامٍ ماجدٍ
قد كنتَ راعِيَنا فنعمَ الراعي

فمضيتَ محمودَ النقيبة طاهراً
وتركتَنا قَنَصاً لَشرِّ سباعِ [1]

أكلوا بكَ الدنيا وأنتَ بمعزلٍ
طاوي الحَشَا مُتكَفِّتُ الأضلاعِ [2]

تشكوك دُنيَا لم تزل بك بَرَّةً
ماذا رفعتَ بها من الأوضاعِ ! [3]

– وقال ابن خفاجة الأندلسيّ في هجاء المتكسبين بالعلم والزهد :

دَرسُوا العلوم ليملكوا بجدالهم
فيها صدورَ مراتبٍ ومجالسِ

---

(١) القنص : الصيد .
(٢) متكفت الأضلاع : متقبضها . (٣) نفح الطيب : ج ٤ ص ٤١١ .

وتزهّدوا حتى أصابوا فرصةً
في أخذ مالِ مساجدٍ وكنائسِ ! [1]

* واتجاه آخر يتمثل في هجاء المرابطين ، وممن هجاهم اليكّي والأبيض الإشبيلي السابق الذكر .

— أمّا اليكّي ، كما قال المقّريّ ، فقد مدحهم بمعنى بلغ به النهاية من المدح ، ثم نقله إلى الهجاء فبلغ به النهاية من الذم . ففي مدح المرابطين أو الملثمين قال اليكي :

قومٌ لهم شرفُ العلا في حِمْيَرٍ
وإذا انْتَمَوْا لمتونةً فهمُ هُمُ

لما حَوَوْا أحرازَ كلِّ فضيلة
غلب الحياءُ عليهمُ فتلثّموا

— ومن هجائه لهم قوله :

إن المرابط باخلٌ بنَوالِه
لكنه بعياله يتكرَّمُ !

الوجهُ منه مُخَلَّقٌ لقبيح ما
يأتيه ، فهْوَ من آجله يتلثّمُ [2]

— ومن هجائه لهم أيضاً :

في كل مَن ربط اللثامَ دَناءةٌ
ولوَ انّه يَعلو على كِيوانِ

(١) نفح الطيب : ج ٤ ص ٢١٨ . (٢) المرجع السابق : ص ١٩٣ .

لا تطلبَنَّ مُرابطـاً ذا عِفّـة
واطلب شعاعَ النار في الغدرانِ (١)

— أما الأبيض الإشبيليّ فكان شاعراً وشاحاً ، وأكثر أهاجيه في الزبير أحدِ أمراء المرابطين بقرطبة . ومما قاله في هجائه وكان سبباً في إطاحة دمه :

عكف الزبيرُ على الضلالة جاهـداً
ووزيرُه المشهورُ كلبُ النـارِ

ما زال يأخذ سجدةً في سجـدة
بين الكؤوس ونغمـة الأوتـار !

فإذا اعتراهُ السَّهْوُ سبّح خلفَه
صوتُ القيانِ ورَنّـةُ المِزمار !

ولما بلغ الزبيرَ عنه ذلك وغيرُه أمر بإحضاره فقرّعه وقال : ماذا دعاك إلى هذا ؟ فقال : إني لم أرَ أحقَّ بالهجو منك ، ولو علمتَ ما أنت عليه من المخازي لهَجوتَ نفسَك إنصافاً ، ولم تَكِلْها إلى أحد ! فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته ، وأمر بقتله (٢) .

— ومما يدخل في هذا الاتجاه هجاء السُّمَيْسِر للبربر عامة . جاء في « نفح الطيب » أن المعتصم بن صمادح لما بلغه أن خلف بن فرج السُّمَيْسِر هجاه ، احتال في طلبه حتى حصل في قبضته . ثم قال له : أنشدني ما قلتَ فيّ ، فقال له : وحقِّ مَن حصَّلني في يدك ما قلت شراً فيك ، وإنما قلت :

رأيتُ آدمَ في نومي فقلتُ لـه :
أبا البريّةِ إن الناس قد حكموا

(١) تاريخ الأدب الأندلسي للدكتور إحسان عباس : ص ١٤٤ .
(٢) نفح الطيب : ج ٥ ص ٣٦ — ٣٧ .

أنَّ البرابرَ نَسْلٌ منك ، قال : إذنْ
حَوَّاءُ طالقةٌ إن كان ما زعمــوا

فأباح ابن تلقين صاحبُ غَرناطة دمي . فخرجت إلى بلادك هارباً ، فوضع عليَّ من أشاع ما بلغك عني لتمتلني أنت فيُدركَ ثأرَه بك ، ويكونَ الإثمُ عليك ، فقال : وما قلتَ فيه خاصةً مُضافاً إلى ما قلتَه في عامة قومه ؟ فقال : لما رأيتُه مشغوفاً بتشييد قلعته التي يتَحصَّن فيها بغَرناطة قلتُ :

يَبْنِي عــلى نفسه سَفاهــاً   كأنــه دودةُ الحريــــر

فقال له المعتصم : لقد أحسنت في الإساءة إليه . ثم أجاره وأكرمه حتى خُلِع عن ملكه وسلطانه [1] .

* واتجاه ثالث يتمثل في هجاء الملوك والحكام . وإن كان أقرب إلى النقد الاجتماعيّ منه إلى الهجاء . وزعيمُ هذا الاتجاه هو أبو القاسم خلف بن فرج السميسر السابق الذكر . وفيما يلي بعض نماذج من هجائه أو نقده الاجتماعيّ تصور هذا الاتجاه :

– نادِ الملــوك وقــلْ لهـــم
مـــاذا الـــذي أحدثتُـــمُ ؟

أسلمتــم الإســـلام فـــي
أيــدي العِـــدَا وقعدتــمُ !

وجــب القيــامُ عليكـــمُ
إذْ بالنصـــارى قمتـــمُ !

لا تَنكروا شـــقَّ العصـــا
فعصـــا النبـــيِّ شققتـــمُ [2]

---

(١) نفح الطيب : ج ٤ ص ٣٨٠   (٢) الذخيرة : ١/٢ ص : ٣٧٤ .

- رجوْناكمْ فما أنصفتمونا
وأمّلْناكُمُ فخذلتمونا

سنصبر والزمان له انقلابٌ
وأنتم بالإشارة تفهمونا [1]

- خنتمْ فهُنتُمْ وكم أهِنتمْ
زمانَ كنتم بلا عيونِ

فأنتمُ تحتَ كلٍّ تحتِ
وأنتمُ دونَ كلٍّ دونِ

سكنتُمُ يا رياحَ عادِ
وكلُّ ريحٍ إلى سكونِ [2]

- يا مُشفقاً من خمولِ قومٍ
ليس لهم عندنا خَلاقُ

ذَلُّوا ويا طالما أذلُّوا
دَعْهمُ يذوقوا الذي أذاقوا [3]

- وَلِيتُمْ فما أحسنتمُ مُذْ وَليتُمُ
ولا صُنتمُ عمَّن يصونكمُ عِرْضَا

وكنتمْ سماءً لا يُنال مَنالُها
فصرتمْ لدى مَن لا يسائلكمْ أرضَا

---

(١) الذخيرة : ١/٢ ص ٣٧٤ .
(٢) نفح الطيب : ج ٥ ص ٢٤٦ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٤٧ .

ستسترجع الأيامُ ما أقرضتكـــمُ
ألاَ إنها تسترجع الدَّيْنَ والقَرضا[1]

ومنه هجاء ابن بَقيّ [2] لإهمالهم أقدار العلماء وعدم رعايتهم :

– أقمتُ فيكم على الإقتار والعـدَمِ
لو كنتُ حُرًّا أبيَّ النفْس لم أقِـمِ

فلا حديقتُكـم يُجنَى لها ثمـرٌ
ولا سماؤكمُ تنهـلُّ بالديَـمِ

أنا امرؤٌ إنْ نَبَتْ بي أرضُ أندلسٍ
جئت العراقَ فقامت بي على قدَمِ

ما العيشُ بالعلم إلاَّ حيلةٌ ضعُفتْ
وحِرفةٌ وُكِلتْ بالقُعْدُدِ البَرِمِ [3]

* وهناك اتجاه رابع يُذكِّر بشعراء العباسيين من حيث طولُ القصيد وطبيعةُ الهجاء . وقد تفرّد بهذا الاتجاه ابن هانىء الأندلسي ، فله قصيدة من اثنين وأربعين بيتاً يهجو فيها الوهرانيَّ كاتبَ الأميرِ جعفر بن عليّ الأندلسيّ. ومن هذه القصيدة قوله :

إنَّ أيامَ دَهْرِنَا سَخِفـاتٌ فهْيَ أعوانُ كلِّ وَغْدٍ سخيفِ
إنّ دهراً سمَوْتَ فيه عُلُـوّاً لَوضيعُ الخطوبِ وَغْدُ الصروفِ

---

(١) نفح الطيب : ج ٥ ص ٢٤٨ .
(٢) هو أبو بكر يحيى بن محمد بن بقي الأندلسي . له ما ينيف على ثلاثة آلاف موشحة ، ومثلها قصائد ومقطعات منقحة . انظر في ذلك (المطرب من أشعار أهل المغرب ، لابن دحية : ص ١٩٨) .
(٣) نفح الطيب : ج ٤ ص ٤١٠ ، والقعدد هنا : الخامل .

إن لفظاً تَلوكُــه لَشبيــهٌ بك في مَنظر الجفاء الجَليفِ (١)
كاذبُ الزعـمِ مستحيل المعـاني فاسدُ النظم فاسدُ التأليــف

أنت لا تغتــدي لتدبيــر مُلكٍ إنما تغتــدي لرَغمِ الأنــوفِ
نِلتَ ما نِلتَ لا بعقلٍ رَصينٍ في المساعي ولا برأيٍ حصيـفِ

أنت في دولــة الحبيب علينــا فترفَّقْ بالمــاجد الغـطريف (٢)
فإذا ما نَعبتَ شــرَّ نعيــبٍ فعلى غيــر ربْعــهِ المألوفِ

إنْ تستّرتَ عن عِياني فما حيلةُ عينيك في الخيــال المُطيــفِ ؟ (٣)

* ومن اتجاهاتهم هجاء شخصيات عامة .

– من ذلك هجاء الشاعر محمد بن مسعود المعروف بالبَجّانيّ ، لجليس معه في المُطبق الذي سجنه فيه المنصور بن أبي عامر لِوَهَنٍ في دينه :

ولي جليسٌ قُربُــه مِنّــي
بُعْــدُ الأماني كُلُّهــا عَنّي

قد قَذِيتْ من لحظِه مُقلتــي
وقُرِّحَتْ من لفظِــه أُذْنــي

نادمَني في السجن مَــن قُربُــه
أشدُّ في السجن من السجــنِ !

لو أنَّ خلْقاً كان ضداً لــــه
زادَ عــلى يوسفَ في الحُسْنِ !

---

(١) الجليف : الجلف الجافي في خلقه وخلقه .
(٢) الغطريف : السيد . (٣) ديوان ابن هانيء : ص ٤٢٢ .

إذا أشتهى قطعيَ في حجـــة
سلّطَ إبْطيهِ عــلى ذهني [1]

ـ ومن ذلك هجاء أبي الصلت أمية بن عبد العزيز لثقيل :

لي جليس عجبتُ كيف استطاعتْ
هذه الأرضُ والجبـــال تُقِلّهْ !

أنا أرعاهُ مكرَهــاً وبقلبـــي
منه مــا يُقلق الجبالَ أقلُّــهْ

فهْو مثلُ المشيب أكــرَهُ مــرآ
هُ ، ولكنْ أصونه وأُجِلُّــهْ [2]

ـ ومنه هجاء أبي بكر محمد بن سهل اليكّي لشخصٍ ما :

أعِد الوضوءَ إذا نطقتَ بــه
مُستعجلاً مــن قبل أن تنسَى

واحفظ ثيابكَ إن مررتَ بــــه
فالظلُّ منه يُنَجِّسُ الشمْسَا [3]

ـ ومن اتجاهاتهم أخيراً الهجاء الفاحش المليء بالقذف والسباب ، مما يؤذي المشاعر ، ويبعث الاشمئزاز في النفوس .

وممن تورط في هذا اللون من الشعر البذيء أبو بكر المخزومي هجّاءُ الأندلس ، والذي قال فيه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة : « كان أعمى شديدَ القِحَةِ والشر ، معروفاً بالهجاء ، مُسلَّطاً على الأعراض ، سريعَ

---

(١) ذخيرة : ٢/١ ص ٨١ .
(٢) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣٠٩ .
(٣) نفح الطيب : ج ٤ ص ٣١٩ .

الجواب ، ذكيَّ الذهن ، فطِنا للمعاريض ، سابقاً في الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره » .

والعجيب أننا نرى بعض شواعر الأندلس قد تورطن أيضاً في هذا الهجاء الداعر القبيح ، ومن هؤلاء نزهون بِنت القِلاَعي ، ووَلاّدَةُ بنت المستكفي الأموية !

والمهاجاة التي قامت بين أبي بكر المخزوميّ ونَزهون بنتِ القِلاعي ، دليل على مستوى هذا الهجاء [1] . وأخف مـا ورد في هذه المهاجاة قول أبي بكر المخزومي في هجاء نزهون :

– على وجه نزهونٍ من الحُسْنِ مَسْحَـةٌ
وإن كان قد أمسَى من الضوء عاريَـا

قواصـدُ نزهونٍ تَوارِكُ غيـرِها
ومَن قصدَ البحرَ اسْتقـلَّ السواقيا [2]

ومن هجاء المخزوميّ الذي لم يصرح فيه بالإقذاع وبلغ ما لم يبلغه المقذع ، قوله :

يَودُّ عيسـى نـزولِ عيسَى — عساهُ من دائه يُريحُ !
وموضعُ الداءِ منـه عُضْوٌ — لا يرتضي مَسَّـهُ المسيحُ [3]

ومن أخف ما قالته وَلاّدةُ في هجاء ابن زيدون الذي قال فيها أروع أشعاره قولها :

إنَّ ابن زيدونَ على فضلـه — يغتابني ظلماً ولا ذنبَ لي
يلحظني شَزْراً إذا جئتُـه — كأنني جئتُ لأخصي علِي [4]

---

(1) نفخ الطيب : ج ١ ص ١٧٧ – ١٨٠ .
(2) الإحاطة : ص ٤٣٢ – ٤٣٤ .
(3) نفح الطيب : ج ٤ ص ١٩٣ .
(4) المرجع السابق : ج ٥ ص ٣٣٧ .

— ٨ —

المجـــون :

المجون لغة : خلطُ الجِدّ بالهزل ، وصلابةُ الوجه ، وقِلّةُ الاستحياء ، وعدمُ مبالاة الإنسان بما يصنع أو يقول . والماجن عند العرب ، هو الذي يرتكب المقابح المُردِية ، والفضائح المخزية ، ولا يُمضّه عَذْلُ عاذِلِه ، ولا تقريع من يُقرّعه .

والمجون كفنٍّ من فنون الأدب يشيع عندما يستبحر العمران ، وتَرِقُّ الحضارة ، وتَقِلُّ ضوابط الجِدّ في المجتمع ، ويستنيم الناس ملوكاً وسُوقةً إلى الدَّعَةِ والتّرف والاستمتاع بمباهج الحياة . عندئذ يستكثرون من مجالس الغناء واللهو والشراب ، مع ميل إلى سماع الأدب والشعر ، ومن هنا يلج شعراءُ المجون إلى مثل هذه المجالس ، ويتكاثرون ، ويفتنّون في صُوَر شعرهم المجونيّ وأساليبه .

ومن شعر المجون ما يكون جِدّاً مشوباً بالهزل ، وما يكون هزلاً صِرْفاً لا جِدّ فيه ، وما يكون سُخْرِيّةً تثير الضحك ، وما يكون تهكّماً يَفجأ بغير المتوقّع من الأخلاق ، أخلاقِ مَن يجعلهم هذا الشعرُ موضوعاً له . وكل هذه الصور من شعر المجون تُبنَى أكثر ما تُبنَى على ما في حياة المجتمعات والأفراد من متناقضات وضعف ، وعلى السُّخْرِيّة بمألوف العادات والتقاليد ،

وعلى تصوير شعراء المجون لأنفسهم في مواقف تثير الضحك أو الرثاء أو العطف ، أو الاشمئزازا أحياناً .

ووسائل المُجّان إلى هذا اللون من الشعر ، هي الحيلة الطريفة ، والنادرة المعجبة ، والكلمة المتهالكة ، والصورة الضاحكة . وهذا كله محتاج إلى ظَرف اللسان ، وخفة الروح ، وشدة العارضة والبديهة ، ونبوغٍ متميزٍ في القريحة ، وقدرةٍ على رؤية الجانب الساخر من كل شيء .

ويمكن لدارس شعر المجون والهزل في الأدب العربيّ مثلاً أن يجد له أكثر من باعث : فالشاعر الماجن قد ينبعث إلى الهزل في شعره بدافع التّشفّي من المجتمع الذي ظلمه وغمَطه حقه ، أو بدافع لَفْتِ النظر اليه ، واستمالة قلوب ذوي العطاء اليه ، أو بدافع اتخاذه رُخصةً يَلِج بها مجالس الملوك والعظماء ليحتلّ فيها منزلة النديم أو السمير .

وقد يكون من بواعثه أن يجد الشاعرُ نفسَه لا يقع مع فحول الشعراء المعاصرين له في شيء ، فيسلك هذا المسلك ليتميز به بينهم ، كما فعل ابن حجاج البغداديّ في العراق ، وأبو حامد الأنطاكي المشهور بأبي الرّقعمق ، والذي قال عنه الثعالبيّ : هو في الشام كابن حجاج في العراق ، وكما فعلُ ابن سُكّرة الهاشميّ معاصرُ ابن حجاج ، وكان يقال فيهما : « إن زمانا جاد بابن سُكّرةَ وابن حجاج لَسخِيٌّ جداً » . وغيرُ هؤلاء كثيرون ممن تفرغوا لشعر المجون وميّزوا أنفسهم فيه .

* * *

وقد كثر شعر المجون والخلاعة والتهتك في العصر العباسيّ ، ومَرجع ذلك إلى ما كان لدى الخلفاء والأمراء والوزراء من رغبة في الأدب والعلم .

وتحقيقاً لهذه الرغبة كانوا يعقدون مجالس للغناء والشراب ، يحضرها الشعراء والمغنون ، ومن ثَمّ كثر في شعرائهم أهلُ الخلاعة والمجون والتهتك ،

ولم يكن من هؤلاء في العصر الأمويّ إلاّ القليل ، وأقل منهم في العصر الجاهليّ .

ولكثرة تردُّدِ الشعراء على مجالس الطرب والشراب . بما فيها من الجواري المغنيات والغلمان السُّقاة ، أصبحت تلك العادةُ أكثر شيوعاً فيهم مما بسائر الطبقات ، وكان إمامَ طبقة الشعراء المُجّان في العصر العباسيّ أبو نواس ، ومنهم أبو العتاهية ، ومُسلم بن الوليد ، وحسين الخليع . وقد ذكر أبو نواس غيرَ هؤلاء في شعره ، وذلك إذ يقول :

جالستُ يوماً أبَانَا ، لا دَرَّ دَرُّ أبَانِ
يريد أن يتسَوَّى بالعُصْبةِ المُجّــانِ

بعَجَرْدٍ وعُبادٍ والوَالبيِّ الهِجانِ[1]
وقاسمٍ ومُطيعٍ رَيْحانــةِ النَّدْمانِ[2]

وقد سجّل كلٌّ من أبي الفرج الأصفهاني في كتابه « الأغاني » وأبي منصور الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » الشيء الكثير من أدب هؤلاء الشعراء المُجّان وأمثالهم ، فلْيرجع اليه مَن شاء .

* * *

وإذا تتبعنا هذا الفن في الشعر الأندلسيّ ، وجدنا أن شعر المجون والفكاهة أو الشعرَ الهزليّ لم يكن له أثر يذكر في عصر دولة الأمويين بالأندلس ، لأنه من ناحية كان عصر فتوحٍ وغزوات ، وبناءٍ وتشييد ، ومن ناحية أخرى كان الحماسُ الدينيّ أو الوازع الدينيّ قوياً في النفوس ، له قداسته واحترامه ، والناس يرهبون سلطانه ، ويخشوْن القائمين عليه من الفقهاء والقضاة ، بل إن

---

(١) الهجان : الأبيض الكريم
(٢) الندمان : قد يكون للواحد ، وقد يكون جمع نديم ، وهو المجالس على الشراب .

العامة أنفسَهم كانوا إذا رأوْا تهاوناً من أصحاب السلطان في أمور الدين ، لم يتورعوا عن الدخول عليهم في قصورهم وإخراجهم منها وطردهم من بلدهم ! .

ولكن منذ عصر ملوك الطوائف ، بدأت الحياة الاجتماعية في الأندلس تَنزِع إلى الترف والرفاهية ، وتنعتِق شيئاً فشيئاً من صرامة الحكام والفقهاء ، كما أخذ كل ملك في حاضرته يتشبَّه بخلفاء الأمويين ، ويشجع الأدباء والشعراء وأرباب الغناء والطرب ، وبذلك أخذ اللهو يسري إلى حياة الخاصة والعامة ، ويفتر الوازع الدينيّ في النفوس ، ويتجرأ بعضُ الشعراء ، فيقولون الشعر في الهزل والمجون ، ويتخذون منه مادةَ سمرهم في مجالس الشراب والأدب والغناء . وقد شاع هذا اللون من الشعر وكثر في عصر ملوك الطوائف ، ثم فيما تلاه من عصور المرابطين والموحّدين وبني الأحمر .

وقد تأثر الأندلسيون في شعر المجون بما وصل اليهم من هزليات ابن حجاج البغداديّ ، وأبي الرَّقعمق ، وابن سُكّرة ، وغيرهم ممن عُرِفوا بهذا الشعر من المشارقة ، كما تأثر الكتاب الأندلسيون في رسائلهم بأسلوب الجاحظ السّاخر ، ولا سيما في رسالته الموسومة برسالة « التربيع والتدوير » .

وقد اتخذ المجون في الشعر الأندلسيّ صوراً مختلفة ، منها أن يجعل الشاعرُ نفسَه موضوع السخريّة التي يبنى عليها قصيدته ، وذلك بأن يعرضٍ نفسه على مَن يخاطبه من أهل الكرم والعطاء في صورٍ ساخرة ضاحكة يَستدرّ بها عطفه وعطاءه .

* من هؤلاء الشعراء المُجّان أبو عبدالله محمد بن مسعود ، فقد كان ، كما يقول ابن بسّام ، ظريفاً في أمره ، كثير الهزل في نظمه ونثره ، ينهج في مجونه منهج سَمِيِّه محمد بن حجاج بالعراق .

— ولابن مسعود أرجوزة طويلة مزدوجة ، خاطب بها الوزيرَ ابن بقَنّة على لسان جارية كان أهداها اليه ، وضاعتْ حالُها بين يديه . منها :

إنّـــيَ بـــالله وبالوزيـــــرِ أدفعُ ما حَلَّ من المحذورِ
وهبتني لأوْحَـــدٍ منقطـــعِ في القبح والفقر خَفيٍّ الموضعِ

جعلتني أسيــرةً مملوكَـــــةْ لطلعة حائلة صُعلوكَـــــةْ
يُعزَى على الفال إلى مسعــودِ وهْوَ شقيٌّ ليس بالمحمــودِ

ألاَ وهبتني لشخصٍ تاجــرِ ولم أكنْ عند فقير فاجرِ ؟
أوليتني كنتُ لبعض الجُنـدِ فرُبّما حازَ نفيسَ المجــدِ

يضرب بالسّيف ولا يُقاسِي خُطّةَ خَسْفٍ بسؤال الناس
قد كَسَدتْ آدابُـــه والشّعـرُ فما له عند البَرايَا قَــدْرُ

ولو تراهُ سائراً لِلسُّـــــوقِ إذا بَدَا في كُسْوَةِ الغُرْنُوقِ (١)
مُشَمِّراً في الطين عن ساقَيْــهِ مُدَاوِلاً عصاهُ في كفّيْــهِ

يأخذُ في التَعْبيرِ والإزْهَــادِ مُنْكَمِشاً في طلْعةِ الصيَّادِ
فمرّةً يُعطَى وألْفاً يُمْنَــعُ ومرّةً يَمشِي وعَشْراً يَقَعُ

ولو تَرى يا ذا النّدَى مَثْـواهُ لَقلتَ : سبحانَ الذي بَلاَهُ
قِطعةُ لِبْدٍ دَارِسِ الآثـــارِ قد طُرِحتْ حولَ مكانِ النارِ

وطوبةٌ بموضــع الرقـــادِ كأننا من أعْبَدِ العُبّـــادِ
فلا تَدَعْني غرَضاً للفقـــرِ فقد كفاني عَدَمي للبُـــرِّ

لا سيّما ، زيادةٌ في التّحْفَةْ أنيَ حُبْلَى مُقْرِبٌ بنُطْفَةْ
ورُبّما جئتْ له باثنَيْـــنِ لكي يَحوزَ قُرَّةَ العينَيْنِ ! (٢)

وله غير هذه أشعار أخرى في المجون ، أوردَها ابن بسّام في الذخيرة . منها :

---

(١) الغرنوق هنا : طائر من طيور الماء طويل العنق والساقين . (٢) الذخيرة : ٢/١ ص ٦٩ .

ما زارني طيفُك يا هذه | إلاَّ تمنيتُ بألاَّ يزورْ
فُتورُ ألحاظِك ذاك الذي | أعار أعضائيَ هذا الفُتورْ

وقَدُّكِ المائسُ فوقَ النَّقَا | قد فؤادي الهائم المستطيرْ
كم قائلٍ: صِفْهَا لَنا واختصِرْ | ولا تُطوِّلْ، قلتُ: شمس القُدور

قيل وزِدْ، قلتُ لهم: إنّها | في سَعَةٍ مثلُ الدُّنَا والبحورْ
للكُحْلِ والغُمرة في وَجْهِها | والطيبِ والزِّينِ شَهادَاتُ زُورْ[1]

• ومن مجون الأندلسيين قصيدة طويلة لابي عبدالله الأزرق، تقتطف منها الأبيات التالية، للدلالة على طبيعة مجونه، وعلى طريقته في تصوير فاقته وبؤسه وجوعه وبعض أصدقائه. قال:

عِمْ بانتصال الزمنِ، ولا تُبالي بمَنِ
وهْو يواسي بالرضا، من سمجٍ أو حسَنِ

لا أُمَّ لي لا أُمَّ لي إن لم أُبرِّدْ شجَني
وأخلعَنَّ في المجون والتّصَابي رَسَنِي

يا عاذِلي في مذهبي أرْداكَ شُربُ اللبنِ
فلا تكنْ لي لاحِياً وفي الأمور استفتِني

فلم أزلْ أعربُ عن نُصحي لمَن لم يَلحَني
وإنْ تُسفِّهُ نظَري ومذهبي وتَلْحَنِي

(١) الذخيرة: ٢/١ ص ٧٤، والغمرة: تمر ولبن يطلى به وجه المرأة ويداها، حتى ترق بشرتها

فالصفْعُ تستوجبهُ ، نعمْ ونتْفُ الذّقنِ
وبعدَ هذا أشتفي منك ويبْرا شجني

وأضربُ الكفّ أمامَ ذلك الوجه الدّني
طقْطقْ طَقِ طقطقْ طقِ أصخْ بسمْعِ الأذُنِ

قحقحْ قحِ قحقحْ قحِ الضّحكُ يغلبني

* * *

أفدي صديقاً كان لي بنفسه يُسعدُني
فتارةً أنصحهُ ، وتارةً ينصحُني

وتارةً ألعنُهُ ، وتارةً يلعنُني
وربّما أصفعُهُ ، وربّما يصفعُني

يا ليتني لم أرهُ ، وليته لم يرني
دنّستُ فيه جانبي وملبَسي بالدّرَنِ

وبعتُ فيه عيشتي ، لكن ببخسِ الثمنِ !
كأنني ولستُ أدري الآن ما كأنني

والله ما التشبيهُ عند شاعرٍ بهيّنٍ
لكنّهُ أنطقني بالقول ضيقُ العطَنِ[1]

* * *

واحسرتي واأسفي زلّتْ وضاعتْ فطنتي
لو أنصفَ الدهرُ لما أخرجني من وطني

(١) ضيق العطن هنا : كناية عن قلة المال .

وليس لي من جُنَّةٍ وليس لي من مَسْكَنِ [1]
أَسَرِّحُ الطَّرْفَ/ ومالي دِمْنَةٌ في الدِّمَنِ

وليس لي من فرسٍ وليس لي من سَكَنِ [2]
يا ليت شعري وعسى يا ليت أن تنفعَنـي
هل أمتطي يوماً إلى الشرقِ ظهور السُّفُنِ ؟

* * *

مَن مُنقِذي أفديه من ذا الجوعِ والتَّمَسْكُسِ
وعِلَّةٍ قد استوى فيها الفقيرُ والغني ؟

هل للثريد عودةٌ إليَّ ؟ قد شَوَّقَـني
تَغوصُ فيه أَنْمُلِي غوصَ الأكولِ المحسِنِ

وللأرُزِّ الفضلُ إذ تطبخُهُ باللبـن
وللِشِّواءِ والرِّقاق من هُيامٍ أَنثنِي

ثم يستطرد إلى وصف كثير من الأطعمة التي يشتهيها ولا يجدها ، حتى إذا بلغ الغاية من ذلك ، عاد يقول :

تُبعِدُني عن وصْلِها ، عن وصلها تُبعدني
تُؤنِسُني عن اللنا ، عن اللقا تُؤنِسُني

فأضلُعي إنْ ذُكِرتْ تَهفو كمثل الغُصُنِ
كم رُمْتُ تقريبـاً لَها ، لكنه لم يَهُنِ

---

(١) الجنة : السترة ، وكل ما يستتر به ، والمسكن : المنزل والبيت .
(٢) والسكن : المرأة ، وأهل الدار .

وصدَّني عن ذاك قِلّةُ الوفَا بالثمـــنِ !

* * *

إيهِ خليلي هذهِ مطاعمٌ ... لكنــــــي
أَعجَب من ريقك إذ يسيل فوق الذّقَنِ

هل نِلْت منها شِبَعاً ؟ فذِكْرُها أشبعني !
وإن تكنْ جوْعان يا صاحِ .. فكُلْ بالأذُنِ !

فليس عنـــد شاعرٍ غيرُ كلامِ الألْسُنِ
يُصورُ الأشياء وهْي أبداً لم تكُــــنِ !

فقولُه يُريك ما ليس يُرى بالممكـــــن
فاسمحْ وسامِحْ واقتنعْ واطْوِ حَشَاك واسْكُن
ولْنَنصَرِفْ...فقصْدُنَا إطرافُ هذا الموطنِ [1]

* ومن مجون الأندلسيين ما يتجه إلى التهكُّم الذي يدنو من الهجو وليس منه ، وذلك كقول ابن الأبيض في أبي بكر محمد بن زُهْر :

قُلْ لِلْوبَا : أنت وابنُ زهرٍ تجاوزتُما الحَدَّ في النِّكَايَة !
تَرفّقَــا بالــورى قليـــلاً فواحـــدٌ منكما كِفايةْ [2]

وقال ابن الأبيض أيضاً يتهكم برجل زعم أنه ينال الخلافة :

أميرَ المؤمنين نـــداءُ شيـــخ أفادك من نصائحه اللطيفـةْ
تحفَّظْ أن يكون الجِذع يومـــاً سريراً من أسِرَّتك المنيفـــة
أفكّـر فيك مصلوباً فأبكـــي وتُضحكني أمانيك السخيفة [3]

---

(١) نفح الطيب : ج ٤ ص ٢٧٧ .
(٢) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ١٤ ، والوبا : مقصور الوباء .
(٣) المرجع السابق : ج ٥ ص ١٢ .

— ومنه قول ابن هانىء الأندلسيّ في وصف رجل أكول ، وقد بنَى تهكُّمه وسخريّته في هذا الوصف على عنصر الإغراق في المبالغة :

يا ليت شعريَ ، إذْ أَوْمَى إلى فمه ، أحَالِقُهُ لَهَواتٌ أم ميادينُ ؟

كأنها — وخبيثُ الزادِ يُضرِمُها — جَهنّمٌ قُذِفَتْ فيها الشياطينُ

تبارك اللهُ ما أمضى أسِنّتَهُ ! كأنما كل فَكٍّ منه طاحونُ (١)

كأنما الحَمَلُ المَشْوِيُّ في يَدِه ذُو النُّونِ في الماءِ لمّا عَضَّه النُّونُ (٢)

لفَّ الجِداء بأيديها وأرْجُلِها كأنما افترَسَتْهُنَّ السّراحينُ (٣)

وغادر البَطّ من مَثْنَى وواحدة كأنما اختطفَتْهُنَّ الشّواهينُ (٤)

يُخفّضُ الوَزَّ من قَرْنٍ إلى قَدَم وللبلاعيم تَطريبٌ وتلحِينُ (٥)

---

(١) الفلك : اللحي ، والفكان : ملتقى الشدقين من الجانبين ، والطاحون : الرحى .

(٢) النون : الحوت ، وذو النون : هو نبي الله يونس .

(٣) الجداء : جمع جدي ، وهو الذكر من أولاد المعز ، والسراحين : جمع سرحان ، وهو الذئب .

(٤) الشواهين : جمع شاهين ، من سباع الطير .

(٥) البلاعيم : جمع بلعوم ، وهو المريء ، أو مجرى الطعام في الحلق .

كأنمـا كلُّ رُكنٍ مـن طبائعـه
نارٌ ، وفي كلّ عُضْوٍ منه كانونُ (١)

قوموا بنا فلقد رِيعَتْ خواطرُنَـا
وجاذبتْنَـا الأعِنّـاتِ البراذيـنُ

نصحتُكمْ فَخُذوا من شِدْقِه وَزَراً
أولاَ فأنتم سَوِيقٌ فيـه مطحـونُ (٢)

فليس تُرْوِيهِ أمواهُ الفرات ، ولاَ
يَقُوتُه فُلْكُ نوحٍ وهْوَ مَشحونُ (٣)

• وقد أفرط بعض شعراء الأندلس في المجون إلى حَدّ المجاهرة بالزندقة والاستهتار بالدين ، وكان هذا الاتجاه أظهر في عصر الموحدين وما تلاه ، عندما ضعف سلطان الحكم ، وقلّ نفوذ الفقهاء .

ولعل أشهر مَن يمثّل هذا الاتجاه الوزيرُ الكاتب أحمد بن طلحة . كان ممن عُرِفوا بالمجون والخلاعة بالأندلس ، مع البلاغة والبراعة ، وكان شديد التهور ، كثير الطيش ، ذاهباً بنفسه وشعره كل مذهب ، حتى لقد أُثِرَ عنه قوله : « تقيمون القيامة لحبيبٍ والبحتريّ والمتنبي ، وفي عصركم مَن يهتدي إلى ما لم يهتدوا اليه » ! ومن شعره الذي جاهر فيه بالزندقة والمجون والاستهتار بالدين ، وكان سبباً في قتله قوله :

يقول أخو الفضول وقـد رآنَـا
عـلى الإيمـان يغلبنـا المجـونُ :

---

(١) الكانون : الموقد والمصطلى .   (٢) السويق : الناعم من دقيق الحنطة والشعير .
(٣) ديوان ابن هانىء الاندلسي : ص ٧٥٨ .

أتنتهكون شهرَ الصوم ؟ هَــــلاَّ
حَماهُ منكمُ عقـــــلٌ وديـــنُ ؟

فقلتُ : اصحبْ سِوانا ، نحن قومٌ
زَنَادِقـــةٌ مذاهبنـــــا فنــــونُ

نَدينُ بكلِّ دينٍ غيرِ دينِ الــرِّ
عَاعِ ، فما بـــه أبداً نَديـــنُ !

بِحَيَّ على الصَّبُوحِ الدهــرَ ندعو
وإبليسٌ يقـــول لنـــا : أميـــنُ

فيا شهرَ الصيـــامِ إليكَ عَنّـــــا
إليكَ ... ففيك أكفَرُ ما نكونُ (١)

* وهناك اتجاه أخير لا مَعْدَى عن الإشارة إليه ، وهو اتجاه يمثّل مدى ما وصل إليه بعض شعراء الأندلس من استمراء المجون ، والتردّي فيه إلى حد التجرؤ على تصوير العُهْرِ والفسق ، بغير وازعٍ من خلق أو دين .

وليس من عيب على الشاعر إذا صوَّر الشرَّ بقصد تقبيحه والتنفير منه ، ولكن العيبَ كلَّ العيب أنْ يُبرِز الشرَّ في صورةٍ تُغري به وتشجّع عليه .

وما أُثِر عن مُجّان الأندلس من شعر في هذا الاتجاه غير الخاقيّ ، لا يُسمّى في الواقع شعراً بمقدار ما يُسمّى فُحْشاً صريحاً منظوماً .

ومن شاء الاطلاع على نماذج من هذا الفُحْشِ الصريح المنظوم ، ليتبين على ضوئها مقدار ما أصاب أصحابَها من انحلال خلُقيّ ، فلْيرجعْ مثلاً

(١) نفح الطيب : ج ٤ ص ٢٨٧ .

إلى شعر كلٍّ من أبي جعفر بن الأبّار الإشبيلي [1] ، وأبي الحسن علي بن سعيد العنسيّ [2] ، وابن زَرقون [3] .

ولعل أخف نموذجين نُبيح لأنفسنا أن نعرضهما هنا ، لعدول صاحبيهما عن التصريح إلى أسلوب الرمز والإيحاء ، هما قول أبي الحجاج البياسيّ :

قد سَلَوْنا عن الذي تدريـــــهِ ... وجفَوْناهُ إذْ جَفَا بالتِّيهِ
وتركناهُ صاغِـــراً لأنـــاسٍ ... خدعوهُ بالزور والتمويـــهِ
لِمُصَلٍّ يَقــودهُ لِمُصَــلٍّ ... وسفيهٍ يَقودهُ لسفيــهِ [4]

وقول أبي عامرٍ أحمدَ بنِ شُهَيْد :

ولمّا تَمــَلأَ من سُكْرِهِ ... ونام ونامت عيونُ الحَرسْ
دَنَــوتُ اليه عــلى رِقْبةٍ ... دُنُوَّ رفيقٍ دَرَى ما التمسْ
أَدِبُّ اليــه دَبيبَ الكرَى ... وأسمو اليه سُموَّ النفَسْ
أُقَبِّل منه بيــاضَ الطِّلَى ... وأَرشُف منه سوادَ اللّعَسْ [5]
فَبِتُّ بــه لَيْلَتِي نَاعمــاً ... الى أن تبسَّمَ ثَغْرُ الغَلَسْ [6]

---

(١) نفح الطيب : ج ٥ ص ٢٥ .
(٢) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٩ - ٣٢ .
(٣) المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية : ص ٢١٩ - ٢٢١ .
(٤) نفح الطيب : ج ٤ ص ٢٩٣ .
(٥) الطلى : جمع طلية بضم الطاء : صفحة العنق ، والطلى والطلاء بكسر الطاء فيهما : الخمر .
(٦) نفح الطيب : ج ٤ ص ١٨٦ .



الفصل الثالث

فنون الشعر الأندلسي الموسعة

– ١ –

الحنين :

الحنين إلى الأوطان والأهل والأحباب من رقة القلب وعلامات الرشد ، لما فيه من الدلائل على كرم الأصل ، وتمام العقل .

وقد بيّن الله تعالى فضل الوطن وكَلَفَ النفوس به في قوله تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ، ما فعلوهُ إلاّ قليلٌ منهم » . فجعل خروجَهم من ديارهم كفُؤَ قتلِهم لأنفسهم .

وللقدماء كلماتٌ كثيرة مأثورة في الحنين ، تدل على نُبْل هذه العاطفة وعُمْقِها في النفس الإنسانية .

• قال أعرابي : لا تَشْكُ بلداً فيه قبائلُكَ ، ولا تَجفُ أرضاً فيها قَوابِلُكَ [1] .

• وقال آخر : ليس للإنسان أقنعَ بشيء منه بوطنه ، لأنه يتبرَّمُ بكل

(١) القوابل : جمع قابلة ، وهي التي تتلقى الولد عند الولادة .

شيء رديء ، ويتذمّم من كل شيء كريه ، إلاّ من وطنه ؛ وإن كان رديءَ التُّرْبة كريهَ الغِذاء ، ولولا حُبُّ الناسِ للأوطان ، لَخَرُبَ أخابثُ الأرض والبُلْدان [1] .

* وقال امرؤ القيس :

وقد طَوَّفْتُ في الآفـاق حتى رَضِيتُ مِن السلامة بالإيابِ

* وقال البحتريّ :

وكان رجائي أنْ أَؤُوبَ مُملَّكا فصارَ رجائي أن أَؤُوبَ سليمَا

* وقال شاعر آخر :

لَقُرْبُ الدار في الإقتارِ خيـرٌ من العيش المُوسَّع في اغترابِ

* وقال أبو هلال العسكريّ :

إذا أنا لا أشتاق أرضَ عشيرتـي
فليس مكاني في النُّهَى بمكيـن

مِنَ العقل أن أشتاقَ أوّلَ منـزلٍ
غَنِيتُ بخَفْضٍ في ذُراهُ وليـنِ

ورَوْضٍ رَعاهُ بالأصائل ناظـري
وغُصْنٍ ثَناهُ بالغـداةِ يمينـي

* وسمع أبو دُلَفٍ العِجليّ أبا سَرْحٍ الشاعر يقول :

لا يَمنعنّكَ خفضَ العيش في دعةٍ
نُزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطـانِ

---

(١) الأخابث : جمع الأخبث

تلقى بكلٍّ بلادٍ أنت ساكنُها
أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانِ

فقال أبو دُلف : « هذا ألأمُ بيتٍ قالته العرب » . وإنما جعل أبو دُلَف هذا البيت ألأمَ بيتٍ ، لأنه يدل على قلةٍ رعاية ، وشدة قساوة ، وحنينُ الرجلِ إلى أوطانه مَنقبة من المناقب .

* وذكَر ابن الروميّ العلةَ التي يُحَبُّ الوطنُ لأجلها ، فقال :

ولي وطنٌ آليتُ إلاّ أبيعَهُ
وإلاّ أرَى غيري له الدهرَ مالكَا

فقد ألِفَتهُ النفسُ حتى كأنه
لها جَسَدٌ ، لولاهُ غُودرتُ هالكا

وحَبّبَ أوطانَ الرجالِ اليهمُ
مآربُ قضّاهَا الشبابُ هُنالكا

إذا ذكروا أوطانَهم ذكّرتْهمُ
عُهودَ الصِّبَا فيها ، فحَنُّوا لذلكا

وللعرب أشعار كثيرة في الحنين إلى الأوطان والأهل والأحباب ، نكتفي منها هنا بقول الصِّمّةِ القُشَيْرِيّ في الحنين إلى صاحبته « رَيّا » ووطنه . للدلالة به على طريقة تناولهم لموضوع الحنين في الشعر :

حَننتَ إلى « رَيَّا » ونفسُك باعدَتْ
مَزارَكَ من « ريَّا » وَشعبا كُما مَعَا

فما حسَنٌ أنْ تأتيَ الأمرَ طائعاً
وتجزعَ إنْ داعي الصَّبابةِ أسمعا

كأنَكَ بِدْعٌ لم تَرَ البينَ قبلَهـــا
ولم تكُ بالأُلاّفِ قبــلُ مُفجعَــا

قِفَا وَدّعَا نجداً ومَن حَلّ بالحِمَى
وقلّ لنَجدٍ عندنــا أنْ يُودّعَــا

بنفسيَ تلك الأرضُ ما أطيبَ الرُّبَــا
وما أحسنَ المُصطافَ والمُترَبّعَــا !

وليستْ عَشيّاتُ الحِمَى برواجـعٍ
إليكَ ولكنْ خلّ عينيْك تَدْمَعــا

ولمّا رأيتُ البِشرَ أعرضَ دُونَنــا
وحالتْ بناتُ الشوقِ يَحْنِنّ نُزّعَا [1]

بكتْ عينيَ اليُسرَى ، فلمّا زَجرتُهـا
عن الجهل بعد الحلم أسْبَلَتَا مَعــا

تلفتُّ نحوَ الحَيِّ حتى وَجدتُـــني
وَجِعتُ من الإصغاءِ لِيتاً وأَخْدَعــا [2]

وأذكر أيامَ الحِمَى ثــم أنثنـــي
على كَبدي من خشيةٍ أنْ تَصدّعــا

---

(١) البشر : جبل . وحالت بنات الشوق : تحركت أسبابه .

(٢) الليت : صفحة العنق . والأخدعان : عرقان في جانب العنق ، وسبب التلفت نحو الحي ، أنه كان من معتقدات العرب أن الشخص إذا خرج من بلد فالتفت وراءه ، رجع إلى ذلك البلد .

كأنـــا خُلقنـــا للنوَى ، وكأنمـــا
حرامٌ على الأيام أن نتجمَّعَـــا ! [1]

* * *

وإذا كان المشارقة لهم فضلُ السَّبق إلى شعر الحنين ، فإن الأندلسيين قد لحِقوا بهم ، وتقدموا عليهم في هذا الفن ، وفاقوهم فيه كَمّاً وكَيْفاً .

أجل ، لقد توسّع شعراء الأندلس في شعر الحنين أكثر مما توسّع فيه المشارقة ، ومرجع ذلك في الواقع إلى أمرين : أولهما التقليد الذي جرى عليه الأندلسيون من الرحلة المطردة إلى المشرق لطلب العلم ، وثانيهما أن معظم مَن رحلوا من الأندلس — وما أكثرهم ! — كانوا من ذوي القلوب والأقلام الشاعرة ، كما نرى من الأشعار التي تضمنتها تراجمهم . فإذا تذكرنا هذين الأمرين ، أدركنا السبب في الفيض الغزير من شعر الحنين الذي جاء منسوباً اليهم ، ويدل في الوقت ذاته على توسعهم في هذا الفن الشعريّ .

وليس كالاغتراب شيء يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلقه به . وهذا ما حدث لهؤلاء الأندلسيين ، سواء أكان اغترابهم بالانتقال من الغرب إلى الشرق ، أم بالانتقال لسبب أو لآخر من مدينة إلى مدينة بالأندلس .

فكانوا كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم ، فزِع الشعراء منهم إلى الشعر يبثونه تَوْقَهم وحنينهم المشبوبَ إلى أوطانهم وأهلهم وأحبابهم .

وأهم المعاني التي تدور عليها قصائد الحنين عندهم هي : الشوق إلى الأوطان ، تجاربهم الذاتية في ديار الغربة ، تصوير ملاعب الصبا ، ذكر أيامهم

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٣٣ .

وعهودهم السعيدة في ديارهم ، مدح الاغتراب عند بعضهم وذمه عند البعض الآخر ، المزج بين الحنين والطبيعة في صورهم الشعرية ، تفضيل البقاء في الوطن مع الشظف والفاقة على الاغتراب مع الغنى والسعة . تصوير ما لَقِيَه بعضُهم في ديار الغربة من عدم الترحيب والتقدير ، وبالتالي الندمُ على مجازفته بالاغتراب .

هذا والجيد من شعر الأندلسيين في الحنين كثير ، ولكنا نكتفي منه بالنماذج التالية ، للاستدلال بها على قيمة هذا الشعر عندهم من الناحية الفنية ، والناحية الجمالية :

* قال أبو الحسن علي بن سعيد العنسيّ : لما قدمتُ مصر والقاهرة أدركتني فيهما وحشة أثارت لي تذكرَ ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التي قطعت بها العيش غضا خصيباً ، وصحبتُ بها الزمان غلاما ، ولبست الشباب بُردا قشيبا ، فقلت :

هذه مصرٌ فأيــن المغربُ ؟ ... مُذْ نأى عني فعيني تسكب
فارقته النفسُ جهلاً ، إنمـــا ... يُعرَف الشيء إذا مـا يذهبُ

أين حِمصٌ ؟ أين أيامي بهـا ؟ ... بعدَها لم ألق شيئاً يُعجِب
كم تقضَّي لي بهـا مــن لــذةٍ ... حيثُ للنهر خريرٌ مُطــرب

وحَمامُ الأيك تَشْدو حولنـا ... والمثاني في ذَراها تَصْخَب
أيُّ عيش قد قطعناهُ بهـــا ... ذِكْرُهُ من كل نُعمَى أطيب ؟

أين حُسْنُ النيل من نهرٍ بهـا ... كلُّ نغْمات لديــه تُطرب ؟
كم به من زورقٍ قد حلّـــه ... قمرٌ ساقٍ وعُــودٌ يُضرَب !

لـذةُ الناظــر والسمع عــلى ... شَمّ زهرٍ وكؤوس تُشرَب
ملعبٌ للّهْو مُذْ فارقتُـــه ... مـا ثناني نحوَ لهوٍ ملعب

ثم يمضي في وصف ذكرياته السعيدة في وطنه حتى إذا شفى وأشفى، انتقل إلى تصوير حالته في غربته تصويراً حزيناً، مختتماً قصيدته بقوله:

سوف أثني راجعاً لاغرَّني بعدما جرَّبتُ برْقٌ خُلَّبُ [1]

* وله أيضا عندما وردَ مصر:

أصبحتُ أعترض الوجوهَ ولا أرى
ما بينها وجْهاً لمن أدريهِ

عوْدي على بَدْئي ضلالاً بينهم
حتى كأني من بقايا التِّيه

ويْحَ الغريب توحّشتْ ألحاظُه
في عالَمٍ ليسوا له بشبيه

إنْ عاد لي وطني اعترفتُ بحقه
إن التغرب ضاع عمري فيه [2]

* وقال الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم الحجاريّ، بعد أن ارتحل إلى المشرق وقاسى ألم الفراق، وانتهى المطافُ به إلى حلب، فأقام بها مُقام مغترب:

أين أقصَى الغرب من أرض حلبْ ؟
أملٌ في الغرب موصولُ التعبْ

حنَّ من شوق إلى أوطانه
مَن جفاه صبرُه لما اغترب

---

(1) نفح الطيب: ج ٣ ص ٤٨. (2) المرجع السابق: ص ٢٩.

جال في الأرض لَجاجاً حائـــراً
بين شوقٍ وعَنـاءٍ ونصَـــبْ

كلُّ مَن يلقـــاهُ لا يعرفـــه
مُسْتَغيثاً بـين عُجْم وعَـــرب

يا أحبّايَ اسمعوا بعضَ الـــذي
يتلقّـاهُ الطريـــدُ المغتـــرب

وليكنْ زجراً لكم عـن غربـــة
يرجع الرأس لديهـا كالذنَـــب

واحملوا طعنـــاً وضربـــاً دائمـــاً
فهو عندي بين قومي كالضّـــربْ (١)

• وقال ابن حمدون المالَقِيّ في الحنين إلى وطنه :

تناءتْ ديارٌ قد ألفتُ وجيـــرةٌ
فهل لي إلى عهد الوصـــال إيابُ ؟

وفارقت أوطاني ولم أبلغ المُنـــى
ودون مُـــرادي أبحُـــرٌ وهِضابُ

وفارقت من غَرب البلادِ مواطنـاً
فَيسقِي رُبَا غربِ البلاد سحـــابُ

فبالقلب من نار التشوق حُرقـــةٌ
وبالعين من فيض الدموع عُبـــابُ

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٢٩٨ . والضرب بفتح الراء : الشهد ، او العسل الأبيض الغليظ.

يَحِنّ إلى أوطانه كل مسلمٍ
فقُدِّس منها منزل وجنابُ

فأسعدُ أيامي إذا قيل : هذه
منازلُ من وادي الحِمَى وقِبابُ [1]

* وقال أبو بكر محمد بن زُهْر يتشوّق ولداً له صغيراً في إشبيلية ، وهو بمراكش :

ولي واحدٌ مثلُ فَرْخِ القَطاةِ صغيرٌ تخلّفتُ قلبي لديْه
وأُفْرِدتُ عنه فيا وحشتي لذاك الشُّخَيْصِ وذاك الوُجَيْه

تشوّقَني وتشوّقتُه فيبكي عليَّ وأبكي عليه
وقد تعِب الشوقُ ما بيننا فمنهُ إليَّ ومِني اليه [2]

* وقال نور الدين بن سعيد يتشوق إلى إشبيلية وهي حمص الأندلس :

لولا تَشوقُ أرضِ « حمصٍ » ما جرى
دمعي ، ولا شمِتتْ بيَ الأعداءُ

بلدٌ متَى يَخطُرْ له ذِكْرٌ همَا ..
قلبي ، وخانَ تصبُّرٌ وعزاءُ

---

(١) نفح الطيب : ج ٣ ص ٣٦٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٧ – ١٨ ، يروى أن ابن زهر لما قال هذه الأبيات وسمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والأندلس أواخر المائة السادسة ، أرسل المهندسين الى إشبيلية، وأمرهم أن يحتاطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ، ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة ، وفرشها بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع ، فرآه أشبه شيء ببيته وحارته ، فاحتار لذلك وظن أنه نائم ، وأن ذلك أحلام ، فقيل له : ادخل البيت الذي يشبه بيتك ، فدخله ، فاذا ولده الذي تشوق اليه يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ، ولا يعبر عنه ! !

مِن بَعدهِ ما الصبح يُشرق نـورُهُ
عندي ، ولا تتبدَّلُ الظلمـاءُ

إن الفراق هو المنيّـة ... إنمـا
أهلُ الهوى مـاتوا وهـم أحيـاءُ

يا نهرَ « حمصٍ » لا عَدتْك مَسَرَّةٌ
ماءٌ يسيل لديكَ أم صهبـاءُ ؟

كلٌّ النفوس تَهَشّ فيك ، كأنمـا
جَمَعتْ عليك شتاتَهـا الأهـواءُ

ما كنتُ أطمعُ في الحيـاة لو انني
أيقنتُ إلاَّ يُستَـرَدَّ لقـاءُ [1]

* ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمَّار الأندلسيّ الشِّلْبِيّ، فله قصيدة طويلة فائقة يقول في مطلعها :

عليَّ وإلاَّ ما بكاءُ الغمائـمِ ؟
وفيَّ وإلاَّ فيـمَ نَوْحُ الحمائمِ ؟

ومنها في وصف وطنه مدينة شِلْب وحنينِه اليها قوله :

كساهَا الحَيَا بُردَ الشباب فإنهـا
بلادٌ بها حَلَّ الشبابُ تمائمـي

ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأنمـا
قَدَحْتُ بنار الشوق بين الحيازمِ [2]

---

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٢١٠ .
(٢) الحيازم : جمع حيزوم ، وهو الصدر .

لياليَ لا أَلْوِي على رُشْدِ لائـــمٍ
عِناني ، ولا أثنيه عن غَيٍّ هائـــمِ

أنال سُهادي من عيونٍ نَواعسٍ
وأجني عذابي من غصونٍ نَواعـــمِ

وليلٍ لنا بالسّدِّ بـين معاطـفٍ
من النهر يَنسابُ انسيابَ الأراقـمَ

تَمُرُ علينا ثم عَنّـا ... كأنهـــا
حواسدُ تَمشي بيننا بالنمائـــم

بحيثِ اتخذنا الروضَ صار يزورنا
هداياهُ في أيدي الرياح النواســـم

وبِتْنَا ولا وَاشٍ يُحَس كأنمـا
حلَلْنا مكانَ السِّرِّ من صدرِ كاتم [1]

* ولعل خير ما نختتم به هنا مقتطفات من قصيدة أبي القاسم عامر بن هشام القرطبيّ ، والتي يسميها الأندلسيون « كنز الأدب » . وقد نظمها الشاعر لما رَقّتْ حاله بقرطبة ، وزَيّن له بعض أصحابه الرحلة إلى ملكَ الموحِّدين بمراكش . وفيها وصفٌ للمتنزهات القرطبية ، ورَدٌّ على مَن زيَّنوا له الرحلة من صحابه :

يا هبَّةً باكرتْ من نحو دارينِ [2]
وافتْ إليَّ على بُعدٍ تحيِّينـــي

---

(١) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ٧ — ٨ .
(٢) دارين : بلدة مشهورة بالمسك .

سَرَتْ على صَفَحاتِ النهرِ ناشرةً
جَناحَها بين خَيْريٍّ ونِسْرينِ [1]

رَدَّتْ إلى جسَدي رُوحَ الحياة وما
خِلتُ النسيمَ إذا ما مِت يُحييني

مَرَّتْ على عُقُداتِ الرملِ حاملةً
مِن سِرِّكُم خبراً بالوَحْي يَشفيني

عَرفت من عَرْفِه ما كنت أجهلُه [2]
لمّا تبسَّمَ في تلك الميادينِ

نَزَوْتُ من طرَبٍ لمّا هَفَا سَحَراً
وظلَّ يَنشرني طَوْراً ويَطويني

خلتُ الشَّمالَ شَمولاً إذْ سَكِرتُ بها
سُكْراً بما لَستُ أرجوهُ يُمَنّيني

أهدتْ إليَّ أريجاً من شمائلكم [3]
فقلتُ : قرَّبَني مَن كان يُقصيني

وخِلتُ من طمعٍ أنَّ اللقاءَ على
إثْرِ النسيمِ، وأضحى الشوقُ يَحدُوني

.. ..
.. ..

---

(١) الخيري والنسرين : ضربان من الرياحين .
(٢) العرف : الرائحة الطيبة . (٣) الأريج : كالعرف .

يا مَن يُزَيِّن لي التَّرحالَ عن بَلدي
كم ذَا تحاولُ نَسْلاً عند عِنِّين !

وأين يَعدِل عن أرجاءِ قرطبـــةٍ
مَن شاء يظفَر بالدنيا وبالدِّيـــنِ ؟

قُطرٌ فسيحٌ ونهرٌ ما بـــه كـــدَرٌ
حَفّتْ بشطّيْه ألفـــافُ البساتيــنِ

يا ليت لي عمرَ نوحٍ في إقامتهـــا
وأنَّ ما ليَ فيها كنـــزُ قـــارونِ

كلاهما كنت أُفنيه عـــلى نَشَوَا
تِ الرَّاحِ نَهْباً ووَصْلِ الحُورِ والعِينِ

وإنما أسَفي أنـــي أهيـــمُ بهـــا
وأنَّ حَظِّيَ منهـــا حَظُّ مَغبونِ !

أرَى بعينيَ مـــا لا تستطيلُ يـــدي
لَهُ ، وقد حازَهُ مَن قَدْرُهُ دُوني !

وأنكدُ الناسِ عَيشاً مَن تكون له
نفْسُ الملوكِ وحالاتُ المساكينِ !

.. ..
.. ..

قالوا : الكَفافُ مُقيمٌ ، قلت : ذاك لِمَن
لا يستخفُّ إلى بيت الزَّراجيـــنِ [1]

ولا يُبلْبله هَبُّ الصَّبَا سَحَراً
ولا يُلطِّفهُ عَرْفُ الرياحيـــن

ولا يَهيم بتُفّاح الخدودِ ورُمّا
نِ الصدور وترجيعِ التلاحيـــن

لا تُجتَنَى راحـةٌ إلاّ على تَعَبٍ
ولا تُنالُ العُلا إلاّ من الهُـونِ

وصاحبُ العقلِ في الدنيا أخو كَـدرٍ
وإنما الصفْوُ فيهـا للمجانيـــن !

يا آمري أنْ أحُثَّ العيشَ عن وَطنٍ
لمّا رأى الرزقَ فيه ليس يُرضيني

نَصحتَ ، لكنَّ لي قلباً يُنازعُنـي
فلو تَرحّلْتُ عنـه حَلّهُ دُونـي

لألزَمَنْ وطني : طَوْراً تُطاوِعُني
قُودُ الأماني ، وطَوْراً فيه تَعصيني [2]

مُذَلَّلاً بين عِرفاني ، وأضربُ عن
سَيْرٍ لأرضٍ بها مَن ليس يَدريـني

---

(١) الزراجين : جمع الزرجون بفتح الراء ، وهو الخمر .
(٢) القود : جمع أقود وهو السلس المنقاد من الخيل ، وقد استعير هنا للأماني

هذا يقول : غريبٌ ساقَــهُ طمَــعٌ
وذاكَ حين أُريهِ البِــرَّ يَجفوني

إليكِ عنيَ آمالي ... فبُعْدُك يَهْـ
ـدِيني ، وقُربُكِ يُطغيني ويُغويني

يا لَحظَ كلِّ غزالٍ ــلستُ أملكُه ــ
يَدنو ، وما ليَ حالٌ منــه تُدنينــي

ويا مُدامةَ دَيْــرٍ لا أُلِــمُّ بِــهِ
لولاكُمَا كانَ ما أُعْطِيتُ يَكفيني

لأصْبِرَنَّ على ما كان من كَــدَرٍ
لِمَن عَطاياهُ بين الكاف والنونِ [1]

(١) نفح الطيب : ج ٢ ص ٨٠ .

— ٢ —

شعـــــر الطبيعـــة

شعر الطبيعة هو الشعر الذي يتخذ من عناصر الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة مادتَه وموضوعاته .

وقلما خلاَ أدبُ أيِّ أمة من شعراء أحبُّوا طبيعة بلادهم ، وتغنَّوْا بها في أشعارهم تعبيراً عن انفعالهم بمشاهدها ، أو تمجيداً لها ، أو إظهاراً لمدَى قدرتهم على التصوير .

والأدبُ العربيّ كأيّ أدب آخر ، لم يخلُ من شعراء تطرَّقُوا في شعرهم إلى وصف كلِّ ما وقع عليه حِسُّهم من مشاهد الطبيعة في بيئاتهم وعصورهم المختلفة ، ومنهم مَن غلبت عليه الإجادة في وصف أشياء معينة . أكسبتهم خصوصية فيها واشتهاراً بها .

وباب الوصف عند العرب أكبرُ فنون الشعر ، ذلك لأنه يأتي في أكثر أغراض الشعر ممتزجاً بها ، وقلَّ أن نجد قصيدة بُنِيتْ على موضوع الوصف وحدَه ، اللهم إلاَّ في القِطَع القصار .

وقد جرى أكثر العرب قديماً في الوصف على شرح حال الشيء وهيئته على ما هو عليه في الواقع ، لإحضاره في ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به . وقد يبالغون أحياناً في الوصف لتهويل أمره أو تمليحه أو تقبيحه ، أو نحوا

ذلك . ولا سبيل إلى حصر ضروب الوصف عند العرب ، لأنهم وصفوا كل ما رأوْه أو عانَوْه ، أو خالط نفوسَهم . وأحسنُ الوصف ما صدَر عن علم ، وافتَنَّ الخيالُ في عرضه ، فالعلم يعطي مادة الحقيقة ، والخيال يُكسِبها صورة المبالغة الشعرية المحبَّبَة .

والمتتبع لنشأة الوصف في الشعر العربيّ يرى أنه اللون الغالب على الشعر القديم . فمن الطبيعة الحية وصف الجاهليون الإبل والخيل ، وكواسرَ السباع ، وأوابدَ الوحوش ، وجوارحَ الطيور وصوادحَها . ومن الطبيعة الصامتة ، وصفوا من النبات ضروبه وألوانه ، ومن السماء نجومَها وكواكبَها ، وسحبَها وبروقَها وأمطارَها ، ومن الأرض سَهْلَها وجبَلَها ، ومرابعَها ومصايفَها ، وخاصةً الديارَ والأطلال ، وتَعْفِيَة الرياح والأمطار لآثارها .

ولم يخلُ الشعر الجاهليّ من وصف الرياض والأزْهار والخمر ، ولا سيما في أقوال الشعراء الذين خالطوا الحضارة ورأوا بساتين الحيرة أو غوطة الشام أو غيرَهما من مدن العراق والشام ، كأعشى بكر القائل في وصف روضة :

ما روضةٌ من رياض الحَزن مُعْشِبَةٌ
خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ [1]

يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ
مُؤَزَّرٌ بعَميم النبْتِ مُكتَهِلُ [2]

يوماً بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ
ولا بأحسنَ منها إنْ دَنا الأُصُلُ [3]

---

(١) الحزن : المرتفع من الأرض . ورياض الحزن أطيب رائحة وهواء من رياض المنخفضات ، ومسبل : أي مطر مسبل نازل .

(٢) كوكب الماء : بريقه ، وشرق : زاه ، ومؤزر : لابس إزارا ، وكأن النبات حلة تكسوه ، ومكتهل : قد أدرك وتم .

(٣) النشر : طيب الرائحة وانتشارها ، والأُصل : جمع أصيل ، وهو وقت الغروب .

وفي صدر الإسلام حيث الفتوح الإسلامية نشيطة مطردة ، نرى الشعراء ممن شاركوا في هذه الفتوح ، يصفون الحروب والقتال وأدواته ، وحصار المدن والفتوح .

وفي الشعر الأمويّ نرى وصفاً للديار والأطلال ، ووصفاً لبعض الحيوان ، كوصف ثور وحشيّ في ليلة باردة للأخطل [1] ، ووصف الإبل للراعي النميريّ ، ووصف الحُمُر الوحشية للشمّاخ . ذكروا أن الوليد بن عبد الملك أُنشد شيئاً من شعر الشماخ في وصف هذه الحُمُر ، فقال : ما أوصفَه لها ! إني لأحسَبُ أن أحدَ والديه كان حماراً .. !

وقد تطرَّقَ إلى وصف الخمر كثيرون من شعراء العصر الأمويّ ، منهم عبد الرحمن بن الحكم ، وعبد الرحمن بن أرطاة ، وابن حُزابة التميميّ ، ومالك بن أسماء ، والأخطل ، والأقَيْشر الأسديّ الذي يقول في وصفها :

ومُقعَدِ قومٍ قد مشَى من شرابنا
وأعمى سقيناه ثلاثاً فأبصرا

شراباً كريح العنبر الوَرد ريحُهُ
ومَسْحوقِ هنديٍّ من المسك أذفرا [2]

لها من زُجاج الشام عُنْقٌ غريبة
تأنّقَ فيها صانعٌ وتخيّرا

ذخائرُ فرعونَ الذي جُبيَتْ له
وكلٌّ يُسَمّى بالعقيق مُشهَّرا

---

(1) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ : ج ١ ص ٥٦٢ .
(2) العنبر الورد : الزعفران .

إذا ما رآها – بعدَ إنقاءِ غَسْلها –
تدور علينا صائمُ القوم أفطرا [1]

وقد نجد لهم وصفاً للرياض ، ولكنه قليل لا يعدو بيتاً في قصيدة هنا أو قصيدة هناك .

وفي العصر العباسيّ ، عصرِ الحضارة و « الأناقة » المتمثلة في كل شيء حتى في الفن والأدب ، والذي فيه أخذت ظاهرة « الاستمتاع بالحياة » تغلب على الخاصة والعامة ، في هذا العصر نرى الشعراء يكثرون من وصف الخمر والغلمان ، ويتوسعون في وصف الرياض المنتشرة في مجتمعهم ، كقول أبي نواس في وصف روضة :

يومٌ تقاصر واستبثَّ نعيمُه
في ظلِّ مُلتَفِّ الحدائق أخضرا

وإذا الرياح تنسّمتْ في روضه
نثرت به مِسْكاً عليك وعنبرا

ثم تقدم شعراء العباسيين خطوة أخرى في وصف الزّهريات والتغزل بها ، كقول ابن المعتز يصف قضيباً من الريحان :

قضيبٌ من الريحان شابَهَ لونُهُ
إذا ما بدا للعين لونَ الزمُرُّدِ

وشبهتُه لما تأملتُ حُسْنَه
عِذاراً تَدَلّى في عوارضِ أمردِ

وقولِ البحتري :

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٣٠ .

وُرْقٌ تغنّي على خُضْرٍ مُهدّلَــةٍ
تسمو بها وتَمسُّ الأرضَ أحيانــاً

تخال طائرَها نشــوانَ من طربٍ
والغُصنَ من هزّهِ عطفيْه نشوانا

ولشعراء العباسيين وصف كثير لمظاهر الطبيعة الحية والصامتة ، أو ما يدخل في حكم الطبيعة الصامتة كوصف القصور والبرَك وغيرها من مظاهر العمران الحضاريّ .

وأغلب وصفهم يتجه إلى وصف الليل والنهار والنجوم والسحاب والرياح والمطر والربيع والأزهار والخمر وبعض الحيوانات والطيور .

وممن أجاد الوصف من شعراء العباسيين ، أبو نواس ، وأبو تمام ، وابن الروميّ ، والبحتريّ ، وابن المعتز ، وابن طباطبا العلويّ ، والصنوبريّ الحلبيّ ، وكشاجم ، ومهيار الديلميّ ، والشريف الرضيّ الذي أجاد في وصف الطيف .

وكل هؤلاء يأتي معظم وصفهم ممتزجا بأغراض أخرى في ثنايا قصائدهم ، ما عدا أبا تمام فإن للوصف بَاباً خاصّاً في ديوانه ، يدور أكثره على وصف المطر والسحاب والغيم والرياح والربيع والشراب ، ثم على موضوعٍ لعله الوحيدُ الذي التفت اليه ، وهو وصف بعض المعاني من مثل المودة ، والزمان ، وتقتير الرزق ، وشدة البرد .

وقبل الانتقال إلى شعر الطبيعة في الأدب الأندلسيّ ، موضوع بحثنا هنا ، نورد أربعة نماذج من شعر العباسيين في الوصف ، تُظهرنا على موقف أصحابها من الطبيعة ومدى انفعالهم بها وطرائقِهم في تصويرها . وفيما يلي هذه النماذج :

قال أبو تمام في وصف الربيع :

إنَّ الربيعَ أثَرُ الزمانُ ... لو كان ذَا رُوحٍ وذَا جُثمانِ
مُصَوَّرا في صورة الإنسان ... لكان بَسَّاماً من الفتيان

بُورِكتَ من وقتٍ ومن أوانِ ... فالأرضُ نَشْوى من ثَرىً نشوان[1]
تختال في مُفَوَّفِ الألوانِ ... في زَهَرٍ كالحَدَق الرّواني[2]

مِن فاقعٍ وناصعٍ وقانِ ... عجبتُ من ذي فكرةٍ يقظانِ[3]
رأى جفونَ زاهرِ الألوانِ ... فشكَّ أنَّ كلَّ شيءٍ فانِ[4]

• وقال البحتريّ في وصف الربيع أيضا :

أتاك الربيعُ الطلْقُ يختال ضاحكاً ... من الحسْنِ حتى كاد أن يتكلّمَا
وقد نَبّهَ النّيْروزُ في غَلَسِ الدُّجَى ... أوائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمس نُوَّمَا[5]

يُفتّقُها بَرْدُ النّدَى فكأنه ... يَنثُّ حديثاً كان قبلُ مُكتَماً[6]
ومن شجرٍ رَدَّ الربيعُ لِبَاسَهُ ... عليه ، كما نَشَرْتَ وَشْياً مُنَمْنَما

أحلَّ فأبدَى للعيون بَشاشةً ... وكان قَذىً للعين إذْ كان مُحْرِما
ورَق نسيمُ الريح حتى حَسِبتُهُ ... يَجِيءُ بأنفاسِ الأحِبّةِ نُعّمَا[7]

• وقال ابن المعتز يصف طبيعة الكون عند انسلاخ النهار عن الليل :

---

(١) نشوى : سكرى ، والثرى الأرض ، والنشوان : السكران .
(٢) تختال : تتبختر ، والمفوف : المخطط ، والحدق الرواني : العيون النواظر .
(٣) الفاقع : الشديد الصفرة ، والناصع : الشديد البياض ، والقاني : الشديد الحمرة .
(٤) ديوان أبي تمام : ص ٤٢٦ .
(٥) النيروز : كلمة فارسية معربة ، معناها يوم جديد ، وقد يراد بها يوم حظ وتنزه .
(٦) ينث : ينشر ويفشي .
(٧) ديوان البحتري : ص ١٢٨ .

قد تولّتْ زُهُرُ النجومِ وقد بشّـ ـرَ بالصبحِ طـائرُ الأسحـارِ

ما ترى نعمةَ السماء على الأر ضِ ، وشكرَ الرياض للأزهارِ؟

وغنـاءَ الطيور كـلَّ صباحٍ وانفتاق الأشجار بالأنـوار ؟

وكـأن السحابَ يجلو عَروساً وكأنا من قَطرِه في نِثار [1]

* وقال الصَّنَوْبَرِيّ الحلبيّ يصف ديكا :

مُغَرِّدُ الليلِ لا يألوكَ تغريـداً
مَلَّ الكرى فهْو يدعو الصبحَ مجهودا [2]

لمّا تطرَّبَ هـزَّ العطفَ من طرَبٍ
ومَدَّ للصوت ـ لمّا مَدَّهُ ـ الجيدا [3]

كلابسٍ مُطْرَفاً مُرْخىً ذوائبُـهُ
تُضاحكُ البيضُ من أطرافه السُّودا [4]

حالي المُقلَّدِ ، لو قيستْ قلادتُه
بالوردِ ، قصَّرَ عنها الوردُ تَوْريدا [5]

هذا عن نشأة شعر الطبيعة في أدب المشارقة ، وعن تطوره وتنوع موضوعاته وصوره ، وطرق تناول الشعراء له .

* * *

(١) ديوان ابن المعتز : ص ٢٣٢ ، والنثار : ما ينثر في العرس على الحاضرين .

(٢) لا يألوك تغريداً : أي لا يكف عنه ، أي أنه دائم الصياح .

(٣) تطرب : تغنى رافعاً صوته محاولا تحسينه ، والعطف : الجانب ، والجيد : العنق (يصف حركة جسم الديك وهو يصيح) .

(٤) كأن على هذا الديك مطرف (ثوب حرير فيه أعلام : صور) وله ذوائب (خيوط مجدولة ومتدلية) بيض وسود ، فالبيض منها تضحك (تلمع في ضوء الفجر فيبدو لمعانها على السود) .

(٥) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ : ج ٢ ص ٤٣٧ ، حالي : مزين ، والمقلد موضع القلادة ، أي العنق ، وقلادته هنا : الريش المختلف الألوان الذي في عنقه ، والتوريد التورد ، وهو الاحمرار .

والآن ... ماذا عن شعر الطبيعة في الأدب الأندلسيّ ؟

لئن كان شعراء المشرق قد سبقوا إلى شعر الطبيعة ، ولئن كان شعراء الأندلس قد اقتفَوْا أثرهم في هذا الفن الشعريّ ، فإنهم لم يتخلفوا عنهم فيه ، أو يقفوا عند حدود الموضوعات التي طرقها المشارقة .

والواقع الذي شاهدُهُ من نفسه أن الأندلسيين قد فاقوا المشارقة في شعر الطبيعة كمّاً وكيْفاً ، وتوسّعوا ونوّعوا في موضوعاته توسُّعاً وتنوُّعاً فاق كل اعتبار ، كما أنهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكارا وتجديداً ودقة تصوير .

ومرجع ذلك أولا إلى طبيعة الأندلس ، هذه الطبيعة الرائعة الخلابة التي عبّرت فيها الأرض عن نفسها أجمل تعبير ، بما أطلعته على سطحها ونثرته في شتى أرجائها ؛ من طِيب التُّربة ، وخِصْب الجناب ، ومن الأنهار الغِزار والعيون العِذاب ، ومن البر والبحر ، والسهل والوعر ، ومن الحقول والبساتين ، والحدائق والرياحين ، ومن الاعتدال الغالب فيها على الهواء والجو والنسيم ، وعلى الربيع والخريف ، والمشتى والمصيف ، ومن المدن الحصينة ، والقلاع المنيعة ، والمصانع الجليلة ، واستبحار التمدن والعمران، ثم من ابيضاض ألوان الإنسان ، ونُبل الأذهان ، وشهامة الطباع .

هذه البقعة الكريمة من الأرض ، والغنية بشتى المناظر ، والمشاهد التي تأسِر الطّرْف ، وتستهوي الأفئدة ، وتستثير المشاعر والعواطف ، وتستصبي الخيال ، كان لها الأثر القويّ في عقول أبنائها وأخلاقهم ، وأمزجتهم ورهافة حِسّهم ، وصفاء أخيلتهم .

ومن ثَمَّ فكلُّ هذه المحاسن التي حَبَتِ الطبيعةُ بها بلاد الأندلس ، هي في الواقع المرجعُ الأول أو المصدر الأول الذي استلهمه شعراء الأندلس ، واستمدوا منه الفيض الزاخر من أغاني الطبيعة التي نظموها تمجيدا لجمال طبيعة وطنهم .

وهذه المحاسن هي التي جعلت أبا إسحاق إبراهيم بن خفاجة شاعر الطبيعة الأكبر في الأندلس ، يهتف بجمالها قائلا :

يا أهلَ أندلس لله دَرُّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جَنةُ الخلدِ إلاّ في ديارِكمُ ولو تخيّرْتُ ... هذا كنتُ أختارُ !
لا تختشوا بعد ذا أنْ تَدخلوا سَقَراً فليس تُدخَل بعد الجنّة النارُ [1]

ومرجعٌ آخر زاد من ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس ، ألاَ وهو حياة اللهو والاستمتاع التي كان يمارسها الشعراء ، ممثلة في مجالسَ للأنس والطرب والشراب كانت الطبيعة مسرحها . فهذه المجالس أوحت اليهم بشعر غزير ، عبّروا فيه عن حبهم ولهوهم وأشواقهم ، ولم تكن الطبيعة غائبة عنه ، بل كانت عنصرا أساسيا فيه ، كما سنرى فيما بعد .

وكان في كل مدينة من مدائن الأندلس شعراؤها الذين أحبوا طبيعتها ، وتغنّوْا بجمالها في أشعارهم. ويخيل لمن يستقرىء شعر الوصف في أدبهم أن الطبيعة قد استحوذت عليهم ، واستصفتهم لنفسها ، فعاشوا معها في متحف كبير مساحته مساحة الأندلس !

نقول ذلك لأننا نرى أنهم لم يغادروا شيئا في الأندلس من طبيعتها الحية أو طبيعتها الصامتة ، صغيرا كان ذلك الشيء أو كبيرا ، الاّ انفعلوا به ، ورسموا له في شعرهم لوحات رائعة .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن بعد النظر في الحشد الحاشد الذي خلفوه وراءهم من شعر الطبيعة هو : أتراهم كانوا يدركون لا شعوريا أن الإنسان العربيّ مُقَدَّر عليه أن يغادر فردوس الأندلس في يوم من الأيام ، وأنهم لذلك أجهدوا أنفسهم في رسم هذه اللوحات الشعرية التي أودعوها عصارة أرواحهم

(١) ديوان ابن خفاجة : ص ٧٢ ، ولا تختشوا : لا تخافوا

وفنهم ، وعواطفهم وأخيلتهم ، لتبقى على الزمان تروي عنهم ، وتجدد ذكرهم ، وتشهد بأنهم حاضرون أبدا في تاريخ الأنـــدلس بآثارهم وإن غابوا عنه بذواتهم ؟ من يدري ؟

* * *

السمات العامة لشعر الطبيعة الأندلسي :

عرفنا مما سبق أن شعراء الأندلس قد لحقوا بشعراء المشرق في شعر الطبيعة ، ثم تقدموا عليهم وفاقوهم فيه بالتوسّع والتنوّع في موضوعاته ، والتجديد والابتكار في صوره وأشكاله .

والملاحظ على ما خلّفوه من شعر في هذا الفن ، أنهم لم يقفوا به عند اتجاه واحد ، وإنما نرى لهم فيه اتجاهات شتى . ولعل منشأ هذا التنوّع في الاتجاهات ، راجع إلى أن محبتهم لطبيعة الأندلس الجميلة كانت عميقة الجذور في نفوسهم . ومن ثـمّ فإنهم كانوا كلما التقَوْا بها أو واجهوها في مكان أو موقفٍ مـا ، هزّت مشاعرهم وشاعريتهم ، وألهمتهم من معانيها ما لا يملكون له دفعا إلاّ بالتعبير عنه ، تمجيدا لهذه الطبيعة وتغزُّلاً بها .

ومع تعدد الاتجاهات في شعر الطبيعة الأندلسيّ ، فإن هناك سماتٍ وخصائص عامّة تجمع بينها ، ثم ينفرد كل اتجاه بعد ذلك بسماتٍ خاصة تقتضيها طبيعته .

ولعل من المفيد قبل الشروع في عرض هذه الاتجاهات ، أن نشير إلى أهم سماتها العامة المشتركة ، وفيما يلي إجمال لذلك :

• غلبة التشبيه والاستعارة على أساليبهم ، فالتشبيهُ يرينا للمعاني الممثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة ، والاستعارةُ تُبرز المعانيَ أبداً في صورة حية مستجَدّة تزيد قدرَهـا نبلا . وكلا الأسلوبين :

أسلوب التشبيه وأسلوب الاستعارة ، يدل على خِصب الخيال وسموه ، وسعته وعمقه .

• تشخيصُ الأمور المعنوية وتجسيمُها ، وذلك بإبرازها في صورة شخوص وكائنات حية ، يَصدُر عنها كلٌّ ما يصدر عن الكائنات الحية من حركات وأعمال .

• بَثٌّ الحياة والنطق في الجماد ، لما لذلك من طرافة ووقعٍ حسَن في النفوس ، ومن أمثلته قول أبي إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي في وصف جبل :

وقورٌ على ظهر الفَلاة كأنه
طوالَ الليالي ناظرٌ في العواقبِ

أصَخْتُ إليه وهْو أخرسُ صامتٌ
فحدثني ليلَ السُّرَى بالعجائب (١)

وقال : ألا كم كنتُ ملجأ قاتلٍ
وموطنَ أوّاهٍ تبتَّلَ تائبِ (٢)

وكم مَرَّ بي من مُدْلجٍ ومؤَوِّبٍ
وقالَ بظلِّي من مَطِيٍّ وراكبِ (٣)

فالجبَلُ وهو جماد قد تحوَّل بالتوسع الذي هيَّأتْه الاستعارة إلى إنسان حيٍّ ناطق يَروي بعض ما مَرَّ به من تجارب .

• الاستعانة في رسم وتلوين الصور المستوحاة من الطبيعة ببعض فنون

---

(١) أصخت اليه : استمعت وأصغيت إلى صوته .

(٢) الأواه : المتأوه المتضرع وتبتل : انقطع عن الدنيا ، وأخلص إلى أمر الله وطاعته .

(٣) قال يقيل قيلولة . والقيلولة : نوم الظهيرة ، والمطي : جمع مطية ، وهي في الأصل الناقة يركب مطاها بفتح الميم ، أي ظهرها ، وقد تطلق على كل ما يركب من الدواب .

البديع المعنويّ واللفظيّ ، من مثل الطباق ، والمقابلة، والمبالغة ، وحُسْنِ التعليل ، والجناس . وهذه قليلة في صور متقدمي شعرائهم ، كثيرةٌ في صور متأخريهم .

• إطلاق العنان للخيال ليرتاد عالم الفكر ، ويختارَ منه المعاني التي تُوحي بالحضارة والطرافة .

• التصرف في أرقّ فنون القول ، واختيار الألفاظ التي هي مادة لتصوير الطبيعة ، وإبداعِها في جُمل وعبارات تخرج بطبيعتها ، وكأنها التوقيع الموسيقيّ .

• تصوير شعرهم لطبيعة الأندلس الحية ، وطبيعته الصامتة ، وطبيعته الصناعية ، الناشئة من استبحار الحضارة والعمران .

• قلما يأتي شعر الطبيعة عندهم كغرض قائم بذاته ، اللهم إلاّ في القطع القصار ، وعلى هذا فأكثره يأتي ممتزجا بأغراض أخرى ، كالغزل والمدح والخمر ، وقد أوردنا نماذج لذلك في كلامنا السابق عن المدح والغزل .

اتجاهات الاندلسيين في شعر الطبيعة

(١) التغنّي بجمال طبيعة بلادهم :

وأولُ اتجاهٍ يطالعنا في ذلك هو تغنّي شعراء الأندلس بجمال الطبيعة في مدنهم ، الأمرُ الذي يدل على شدة تعلّقهم واعتزازهم بها .

ومنهم مَن امتدّ حبُّه فشمل الأندلس كلّها ، فغنّاهَا ومجّدَهَا ، ومنهم مَن وقف حبّه وتمجيدَه على طبيعة مدينته ، التي شبّ ودرجَ على أرضها ، وعاش بين أكنافها .

• ومن أمثلة النوع الأول قول ابنِ سَفَرِ المَرينيّ ، الذي تغنّى فيه بجمال طبيعة الأندلس :

في أرض أنـدلسٍ تُلتَـذُّ نَعماءُ ... ولا يفارقُ فيها القلبَ سَرّاءُ
وليس في غيرها بـالعيش مُنتَفَعٌ ... ولا تقوم بحق الأنسِ صَهباءُ [1]

وأين يُعدَل عن أرضٍ تَحُضُّ بها ... على المدامة أمـواهٌ وأفياءُ ؟ [2]
وكيف لا تُبهِـجُ الأبصارَ رؤيتُها ... وكلُّ أرض بها في الوَشْي صنعاء؟ [3]

أنهارُها فضةٌ ، والمسكُ تربتُها ... والخزُّ رَوْضتُها، والدُّرُّ حَصْباءُ [4]
وللهـواء بها لُطْفٌ يَـرِقُّ به ... مَن لا يرقُّ ، وتبدو منه أهواءُ

ليس النسيمُ الذي يَهفُو بها سَحَراً ... ولا انتشارُ لآلي الطلِّ أنداءُ [5]
وإنمـا أرَجُ النّدِّ استثـارَ بهـا ... في مـاء وَرْدٍ فطابتْ منه أرجاءُ

وأين يبلغ منهـا مـا أُصنّفُهُ ... وكيف يحوي الذي حازتْهُ إحصاءُ ؟
قد مُيِّزتْ من جهات الأرض حين بَدَتْ ... فريدةً وتولّى مَيْزَها الماءُ [6]

دارتْ عليها نِطاقاً أبْحرٌ خفقتْ ... وَجْداً بها، إذْ تبدَّت وهْي حسناءُ
لذاك يَبْسِم فيها الزهرُ من طَرَبٍ ... والطيرُ يشدو ، وللأغصان إصغاءُ

فيها خلعتُ عِذاري، ما بها عِوَضٌ ، ... فهي الرياضُ وكلُّ الأرض صحراء [7]

---

(١) منتفع : مصدر بمعنى الانتفاع ، والصهباء : اسم من أسماء الخمر .
(٢) تحض : تدفع وتحرض، والأفياء : جمع فيء ، وهو الظل .
(٣) صنعاء : بلدة باليمن ، اشتهرت بصناعة الحرير .
(٤) الخز : نوع من الحرير ، أو الحرير مع الصوف ، والحصباء : الحصى .
(٥) يهفو : أراد يتحرك فتتحرك بحركته الأغصان .
(٦) ميزها : أي تمييزها عما عداها من البلدان .
(٧) نفح الطيب : ج ١ ص ١٩٤ ، ٢١٢ .

• ومن النوع الثاني الذي تغنّى فيه الشعراء بجمال مدنهم نجد فيضا غزيرا من الشعر ، منه على سبيل المثال قول ابن بُرد الأصغر في وصف رُصافة قرطبة التي بناها عبد الرحمن الداخل :

سقَى جوفَ الرُّصافة مُستهِلٌ — تُؤلِّف شَمْلَه أيدي الرياحِ
مَحلٌ ما مشَيْتُ اليه إلاّ — مشَى فيَّ ابتهاجي وانشراحي

كأن ترنُّمَ الأطيار فيه — أغانٍ فوقَ أوتارٍ فِصَاحِ
كأن تَثَنِّيَ الأشجار فيه — عَذارَى قد شَرِبْنَ سُلافَ رَاحِ

كأن الجدولَ المنسابَ نصلٌ — صَقيلُ المَتْنِ هُزَّإلى كِفاحِ
كأن رياضَهُ أبرادُ وَشْيٍ — تَعطَّفُ فوقَ أَعطافٍ مِلاَحِ [(١)]

• ومن هذا النوع أيضا قول الكاتب أبو عمر بن مالك بن سَبْدَمير في مدينة « شِلْب » :

أشَجاكَ النسيمُ حين يَهُبُّ — أم سَنَى البرقِ إذ يَخُبُّ ويخبُو؟
أم هتوفٌ على الأراكة تشدو — أم هتونٌ من الغمامةِ سَكْبُ ؟

كُلٌّ هذاك للصّبابةِ دَاعٍ — أيُّ صَبٍّ دموعُه لا تَصُبُّ ؟
أنا لولا النسيمُ والبرقُ والوُرْقُ — وصَوْبُ الغمامِ ما كنتُ أصْبُو

ذكّرتني شِلْباً ، وهيهاتَ مني — بعدمااستحكمالتباعدُ شِلبُ؟ [(٢)]

• ومنه كذلك قول أبي الحسن بن نزار في مدينة وادي آش ، أو وادي الأشات تلك التي أحدقت بها البساتين والأنهار ، وخص الله أهلَها بالأدب وحُب الشعر :

---

(١) الذخيرة لابن بسام : ١/٢ ص ٤٩ .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ١٧٢ .

وادي الأشاتِ يَهيجُ وجدي كلما | أذكرتُ ما أفضتْ بكَ النعماءُ
للهِ ظِلُّـكَ والهجيرُ مُسَلَّطٌ | قد بَرَّدَتْ لَفَحاتِه الأنْداءُ

والشمسُ تَرغبُ أن تفوزَ بلحظةٍ | منه فتَطرِفُ طَرْفَهـا الأفياءُ
والنهرُ يَبسِمُ بالحَباب كأنـه | سِلْخٌ نَضَتْهُ حَيّةٌ رَقشاءُ [1]

فلذاكَ تَحذرُهُ الغصونُ، فميْلُها | أبـداً على جَنَباتِه إيماءُ [2]

(٢) وصف مجالي طبيعة الأندلس :

وثاني اتجــاه في شعر الطبيعة الأندلسيّ يتمثّل في وصف مجالي الطبيعة في الأرض والسماء . ولهم في هذا الاتجاه شعر كثير يعتمد أكثرَ ما يعتمد في التصوير على التشبيه والاستعارة . ويخيل لمن يطّلع على شعرهم في هذا الاتجاه أنهم لم يغادروا شيئا مما وقع عليه بصرهم في أرضهم وسمائهم ، إلاّ وقفوا أمامه وصوروه في شعرهم تصويرا يريك ظاهره أكثر من باطنه .

• فمن مجالي الطبيعة التي شدتّهم اليها وتأنّقوا في تصويرها « الرياض » . ومن ذلك قول الوزير أبي جعفر بن سعدون في وصف روض :

وروضٍ كساهُ الطلُّ وَشْياً مُجدَّداً | فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقعِداً
إذا صافحته الريحُ خِلتَ غُصونه | رواقصَ في خُضْرٍ من القُضْبِ مُيَّداً

إذا ما انسكابَ الماء عَاينتَ خِلتَه | وقد كسرتْهُ راحةُ الريح مِبْرَدا
وإن سكنتْ عنه حَسِبتَ صَفاءَه | حُساماً صَقيلاً صافيَ المَتن جُرِّدا

وغنّتْ به وُرْقُ الحَمـائم بيننا | غِناءً يُنَسّيك الغَريضَ ومَعْبَدا [3]

---

(١) السلخ : جلد الحية التي ينسلخ عنها ، والرقشاء : المتلونة ، أو التي لونها فيه بياض وسواد .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ١٤٢ .
(٣) المرجع السابق : ج ٢ ص ١٨٩ .

• ومن وصف أراكة في روضة قول ابن خفاجة الأندلسيّ :

وأراكــة ضربتْ سماءً فوقنــا ... تندَى، وأفلاكُ الكؤوس تُدارُ [1]
حَفَّتْ بدَوْحتهــا مَجرّةُ جدولٍ ... نثرت عليه نجومَهــا الأزهارُ

فكأنهــا وكأنَّ جــدولَ مائهــا ... حسنــاءُ شُدَّ بخَصْرها زُنّارُ
زَفَّ الزجاجُ بها عروسَ مُدامةٍ ... تُجلَى ونُوَّارُ الغصون نِثارُ [2]

في روضة جَنَحَ الدُّجَى ظِلاًّ بها ... وتجسّمتْ نَــوْراً بهــا الأنوارُ
غنّاءَ ينشُرُ وَشْيَــهُ البزَّازُ لي ... فيها ، ويَفتُقُ مِسْكَهُ العطّارُ [3]

نام الغُبارُ بها ، وقد نَضحَ الندى ... وجهَ الثّرَى واستيقظ النوَّارُ [4]

• ومن قول ابن مرج الكحل في وصف روضة يتخللها نهر :

وعشيةٍ كــم كنت أرقب وقتَها ... سمحتْ بها الأيامُ بعد تعــذُّرِ
فالروضُ بين مُفَضّضٍ ومُذَهّبٍ ... والزهرُ بين مُدَرْهَمٍ ومُدَنّرِ

والوُرْقُ تشدو ، والأراكة تنثــني ... والشمسُ ترفُلُ في قميــصٍ أصفر
والنهرُ مرقــوم الأباطِح والرُّبَــا ... بمُصَنْدَلٍ من زهره ومُعَصْفَرِ [5]

---

(١) الأراكة : شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان خوارة العود ، تنبت بالغور ، وتتخذ منه المساويك .
(٢) النثار : ما ينثر في العرس على الحاضرين .
(٣) البزاز : بائع البز ، أي الثياب ، ووشي البزاز : ثيابه المزخرفة الألوان ، ويفتق : يشق، والعطار : بائع العطر .
(٤) ديوان ابن خفاجة : ص ٣٥١ .
(٥) الأباطح : جمع الأبطح ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، والمعنى : أن كلا من الربا وأباطح النهر موشاة بزهر ، منه ما له رائحة الصندل الطيبة ولونه الأحمر ، ومنه ما له لون العصفر .

وكأنه وكأن خضرةَ شطِّه سيفٌ يُسَلُّ على بساطٍ أخضرِ
نهرٌ يَهيم بحُسْنه مَن لم يَهِم ويُجيد فيه الشِّعرَ مَن لم يَشعُرِ
ما اصفرَّ وجهُ الشمس عند غروبها إلاّ لفُرْقةِ حُسْنِ ذاك المنظرِ [1]

• ومن قول يحيى بن هُذَيل أحدِ أعيان شعراء الأندلس في صورة يجمع فيها بين بعض مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء :

نامَ طِفلُ النّبتِ في حِجر النُّعامَى لاهتزازِ الطلِّ في مَهْدِ الخُزامَى [2]

وسقَى الوَسْمِيُّ أغصانَ النّقَا فهوَتْ تلثَم أفواهَ النّدامى [3]
كحلَ الفجرُ لهم جَفْنَ الدُّجَى وغدا في وَجْنَة الصبح لِثامَا

تَحسَبُ البدرَ مُحَيًّا ثَمِلٍ .. قد سقَتْهُ راحةُ الصبحَ مُدامَا
حولَهُ الزهرُ كؤوسٌ قد غَدَتْ مِسْكَةُ الليل عليهن خِتاما [4]

• وقال طاهر بن محمد يصف الليل والسماء وبعض النجوم :

وليلٍ بِتُّ أَكْلَؤُهُ بَهِيمٍ كأنَّ على مَفارقِه غُرابَا
كأنَّ سماءَهُ بحرٌ خِضَمٌ كساهُ الموجُ مُلتطِماً حَبابَا

كأن نجومَه الزُّهْرَ الهوادي وجوهٌ أخضلتْ تبغي الثوابَا
كأن كواكب الجوزاء شَرْبٌ تعاطيهم ولائدُهم شرابَا

---

(١) نفح الطيب : ج ٦ ص ٣٥٥ .
(٢) النعامى : من أسماء ريح الجنوب ، لأنها أبل الرياح وأرطبها ، والخزامى : نبت طيب الريح ، طويل العيدان ، صغير الورق ، أحمر الزهرة ، وله نور كنور البنفسج ، ولا يوجد من الزهر زهرة أطيب نفحة من نفحة الخزامى .
(٣) الوسمي : مطر أول الربيع .
(٤) نفح الطيب : ج ٤ ص ٣٣٠ .

كأن الفرقدين ذَوَا عتـــابٍ أجَالا طول ليلهمـا العتابَا
كأن بقيـة القمـر المُوَلّـي كئيبٌ مُدْنَفٌ يشكو اجتنابا[1]

وقد أكثر شعراء الأندلس من وصفهم للأزهار والورود ، ومعظم هذا الوصف يأتي في ثنايا وصفهم للرياض والبساتين والحدائق ، ولكن منهم مَن شُغف بزهرة معينة فخصّها بوصفٍ مستقل.وفيما يلي بعض أمثلةلذلك .

• قال ابن هانىء الأندلسيّ يصفُ جُلّنَارة ، وهي زهرة الرمان :

وبنتِ أيْـكٍ كالشباب النضْر كأنها بـين الغصون الخضْرِ [2]
جَنانُ بازٍ أوْ جَنـانُ صقْرِ قد خلّفتْه لَقْوَةٌ بِوكْرِ [3]

كأنمـا مَجّتْ دَمـاً من نَحْرِ أو نشأت في تُربة من جَمْرِ [4]
أو رَوِيَتْ بجدولٍ من خَمْـرِ لو كَفَّ عنها الدهرُ صَرْفَ الدهرِ

جاءتْ بمثل النّهْدِ فـوق الصدر تفترُّ عن مثل اللّثَات الحُمر [5]
في مثل طعم الوصل بعد الهجـر [6]

• وقال أبو إسحاق بن خفاجة في وصف خَيْرِيّة :

وخَيرِيّةٍ بـين النسـيم وبينهـا حديثٌ إذا جَنّ الظلام يطِيبُ [7]
لها نَفَسٌ يسري مع الليل عاطرٌ كأن لـه سِرًّا هناك يُرِيبُ

---

(١) كتاب التشبيهات لابن الكتاني : ص ٢٢ .
(٢) المراد بالأيك هنا : شجرة الرمان ، وجعل الجلنارة نبتا للأيك لأنها زهرته .
(٣) الجنان : القلب لاستتاره في الصدر ، واللقوة : العقاب (بضم العين) الخفيفة السريعة الاختطاف .
(٤) مجت : رمت
(٥) اللثات : جمع لثة بكسر اللام ، وهي ما حول الأسنان من اللحم وفيه مغارزها .
(٦) ديوان ابن هانىء : ص ٣٢٩ .
(٧) الخيرية : هي زهرة المنثور

يَدِبُّ مع الإمساء حتّى كأنما له خلف أستار الظلام حبيب
ويخفَى مع الإصباح حتى كأنما يظلُّ عليه للصباح رقيبُ (١)

* وقال ابن زُمْرُك يصف زهر القَرَنْفُل الصعب الاجتناء بجبل الفتح المعروف الآن بجبل طارق :

أَقَرَّ بعيني أن أرَى الزهرَ يانعاً وقد نازعَ المحبوبُ في الحُسْن وصفَهُ
وما أبصرتْ عيني كزهر قرَنْفُلٍ حكى خدَّ من يَسْبي الفؤادَ وعَرفَهُ

تمنّعَ في أعلى الهضاب لمُجتَنٍ تَمنُّعَه مني إذا رُمْتُ إلْفَهُ
وفي جبل الفتح اجتنَوْهُ تفاؤلاً بفتح لباب الوصل يمنح عَطْفَهُ

وما ضرَّ ذاكَ الغُصنَ وهو مُرَنّحٌ إذا ما ثنَى نحو المتيّم عِطْفَهُ ؟ (٢)

* وقال ابن الزَّقّاق في زهر الشقيق الأحمر :

ورياضٍ من الشقائق أضحى يتهادَى بها نسيمُ الرياحِ
زُرْتُها والغمامُ يَجْلِدُ منها زهَراتٍ تَروقُ لونَ الراحِ
قلت : ما ذنبها ؟ فقال مُجيباً : سرقتْ حُمرةَ الخدود المِلاحِ (٣)

* وقال ابن حمديس في وصف زهرة النّيْلُوفَر :

ونَيْلُوفَرٍ أوراقُه مستديرةٌ
تَفتّح فيما بينهنّ له زَهْرُ

كما اعترضتْ خُضْرُ التّراسِ وبينَها (٤)
عواملُ أرماحٍ أَسِنّتُها حُمْرُ

---

(١) ديوان ابن خفاجة : ص ٨٢ .

(٢) نفح الطيب : ج ١٠ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٣) نفح الطيب : ج ٤ ص ١٨٨ .

(٤) التراس : جمع ترس بضم التاء ، وهو من السلاح

هو ابنُ بلادي ، كاغترابي اغترابُـــه
كلانا عن الأوطان أزعجَه الدهرُ [1]

• وقال في النيلوفر أيضا :

كأنمـــا النيلوفَـــر المجتبَـــى وقد بَدا للعين فوقَ البنانْ
مَداهـــنُ الياقـــوتِ مُحمرةً وقد ضُمِّنتْ شَعراً من الزعفران [2]

• وقال المعتمد بن عبّاد في وصف الياسمين ، وهي من الأزهار المحبوبة لدى الأندلسيين :

ويـــاسمينٍ حسَنِ المنظـــرِ يفوقُ في المرأى وفي المَخبَرِ
كأنـــه مـــن فوق أغصانـــه دراهمٌ في مُطـــرَفٍ أخضرِ

• وقال فيه أيضا المعتضد بن عبّاد والد المعتمد :

كأنمـــا ياسمينُنا الغَـــــضُّ كواكبٌ في السماءِ تَبْيَضُّ
والطُرُقُ الحُمر في جوانبـــه كخدٍّ حسناءَ مَسَّهُ العَضُّ

• وقال الحاجب الوزير جعفر المصحفيّ في وصف سَوْسَنه :

يا رُبَّ سَوْسَنةٍ قد بِتُّ ألثَمُها وما لها غيرُ طعم المسكِ من ريقِ
مُصفرَّةُ الوَسْط ، مُبْيَضٌّ جوانبها كأنها عاشق في حِجر معشوق [3]

• وقال عبيد الله بن إدريس في صفة الورد :

أهدَى اليكَ تحيـــة مِن عنـــدِه زمنُ الربيع الطلْقِ بَاكِرَ وَرْدِهِ
يحكى الحبيبَ سرَى لوعدِ مُحبِّه في طيب نفحتهِ وحُمرةِ خدِّهِ [4]

• • • •

(1) ديوان ابن حمديس : ص ١٥١ . (2) المرجع السابق : ص ٤٩٠ .
(3) الحلة السيراء لابن الأبار : ج ١ ص ٢٦١ .
(4) كتاب التشبيهات لابن الكتاني : ص ٥١ .

ومن مجالي الطبيعة الأخرى التي شُغِف شعراء الأندلس بتصويرها الريح ، والبرق والرعد ، والسحاب والمطر ، والأنهار ، والنواعير والبرك . وفيما يلي بعض نماذج مما قالوه في هذه المجالي تبين مدى انفعالهم بها ، و طرائقِ تعبيرهم عنها .

• ففي وصف ريح الصَّبا يقول عليُّ بن أبي الحسين :

خليليَّ مالي كلما هبّت الصَّبَا أَحِــنُّ إلى الأفق الذي تتَيمّمُ ؟
أُكَلِّفهـــا حملَ السلام اليكمُ فإن خطرتْ يوماً عليكم فسلِّموا

كأن الصَّبَا عندي رسولٌ مُبلِّغٌ أبــوحُ بأسراري اليــه فيكتُمُ
إذا كِدتُ أن أسلو أجدَّ صَبابتي كتابُ حبيب أو خيالٌ مُسلِّم [1]

• وفي وصف البرق والرعد يقول مروان بن عبد الرحمن ، الملقب بالطليق :

فكأن الغَمامَ صَــبٌّ عَميدُ أنَّ بالرعد حُرقــةً واشتكاء
وكأن البروقَ نــارُ جَــوَاهُ والحَيَا دَمْعُه يَسيل بُكاءَ [2]

• ويَرسُم يوسف بن هارون للسحابة لَوحةً حيّة مليئة بالألوان والحركة ، والصور الشعرية ، التي تروق لأكثر من حاسة فيقول :

وساريةٍ كـــالليل لكنْ نجومُها على إثْرِ ما يَطْلُعْنَ فيها غوائرُ

فلما استدارتْ في الهــواء كأنهـــا عُقَابٌ ـ متى ما يخفُق البرقُ ـ كاسِرُ

وشَمّتْ دَوانيها الرُّبَا بأنُوفِها كما شمَّ أكفالَ العَذارَى الضفائر

---

(١) كتاب التشبيهات لابن الكتاني : ص ٢٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٢ .

هَوَتْ مثلما تَهــوِي العُقابُ كأنها
تخاف فَوات المَحْلِ ، فهْي تُبــادرُ

كأن انتثارَ القَطْرِ فيــه ضَوابــطٌ
تُدارُ عــلى الغُدْرانِ منه دوائــرُ [1]

* وقال أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة يصف نهرا :

لله نهــرٌ سال فــي بطحــاءِ أشهى وُروداً مــن لَمَــى الحسناءِ
مُتعطِّفٌ مثــلُ السِّوارِ ، كــأنه والزهــرُ يكنُفُــه مَجَرُّ سماءِ
قد رَقَّ حتّى ظُنَّ قَوســاً مُفرَغاً من فضــةٍ في بُردةٍ خضــراءِ
وغَدَتْ تَحُفُّ به الغصونُ كأنهــا هُدْبٌ تَحُفُّ بمُقْلــةٍ زرقــاءِ
ولطالما عاطيتُ فيــه مُدامــــةً صفراءَ تخضِب أيديَ النُّدمــاءِ
والريحُ تعبث بالغصون وقــد جرَى ذهبُ الأصيلِ على لجَيْنِ الماءِ [2]

* وقال محمد بن الحسين الطاري يصف ناعورة [3] :

لحنينها حَــنَّ الفــؤادُ التائــقُ وبكى الكئيــبُ المستهامُ الــوامقُ
أنّتْ أنــينَ مُغرَّبٍ عــن إلْفــهِ ودموعُها مثلُ الجُمان سوابــقُ
تبكي ويَضحك تحتَ سيل دموعِهــا زهَرٌ تبسّمَ نَوْرُهُ وشقائــقُ [4]

* * *

ولم يَفُت شعراءَ الأندلس وهم يجولون في بساتين بلادهم وحدائقها ، ويعقدون فيها أكثر مجالس أنسهم وطربهم فيها — لم يفتهم أن يصوروا ثمارها

---

(١) كتاب التشبيهات : ص ٣٨ (٢) نفح الطيب : ج ٤ ص ١٨٩ .
(٣) الناعورة : هي الساقية يديرها الماء ولها صوت .
(٤) كتاب التشبيهات لابن الكتاني : ص ٧٩

وفاكهتها الحلوة التي تُطل عليهم من فوق أشجارها بشتى ألوانها وأشكالها وروائحها الطيبة . وأيّ شاعر يرى ما تخلعه الأشجار المثمرة على الحدائق والبساتين من روعة منظر ، وما تبعثه في النفوس من طرب ونشوة ، ثم لا تتحرك شاعريته ؟

وفيما يلي نماذج من وصفهم الشعريّ لبعض الثمار الحلوة التي امتلأت نفوسهم بجمالها ، فصوّروها ، كلٌ على قدر ما أوحى إليه به خياله وشاعريته .

• قال أبو الحجاج يوسف المالقيّ في وصف تين مالَقة وكان يُضرب المثل بحسنه ، ويُجلَب حتى للهند والصين :

مالَقَـــةَ حُيِّيـــتَ ياتينَـها ... الفُلْكُ من أجلك يأتينَـهـا
نهَى طبيبي عنـــه في عِلّـــتي ... ما لطبيبي عن حياتي نَهى ؟ [1]

• وقال أحمد بن فرج وقد وصف « رُمّاناً » في أبيات كتب بها إلى بعض مَن أهداه له :

ولابسةٍ صدَفـــاً أحمَـــرا ... أتتْكَ وقد مُلئَتْ جوْهَرا
كأنّكَ فاتِحُ حُــقٍّ لطيـــفٍ ... تضمّنَ مرجـانَهُ الأحمرا
حُبوباً كَمثل لِثَـــاتِ الحبيبِ ... رُضاباً إذا شئتَ أو منظـــرا
وللسَّفْرِ تُعزَى ومـــا سافرتْ ... فتشكو النّوَى أو تقاسي السُّرَى
بلَى فَارَقَتْ أيكَهـــا ناعماً ... رَطيباً وأغصانَهـــا نُضَّرَا
وجاءتك مُعتاضةً . إذْ أتتك . ... بأكرمَ من عُودِ هـــا عُنصُرا
بعودٍ تَرى فيــه ماءَ النّــدَى ... ويُورقُ من قبل أن يُثمرَا
هديةٌ مَن لو غَدَتْ نفسُـــه ... هَديّتَه ظنّـــهُ قصّرَا [2]

• وقال ابن خفاجة يصف ثمرَ النارنج في أغصانه :

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ١٤٤ . (٢) نفح الطيب : ج ٢ ص ١٥ .

وَمحمولـةٍ فوقَ المناكبِ عِـزّةً | لها نسَبٌ في روضةِ الحَزْنِ مُعْرِقُ
رأيتُ بمرآهـا المُنَـى كيف تلتقي | وشَملَ رياحِ الطِّيبِ كيفَ تَفرَّقُ
يُضاحكها ثَغرٌ من الشمسِ واضـحٌ | ويلحظها طَرْفٌ من الماءِ أزرقُ
وتُجلَى بهـا للماءِ والنـارِ صورةٌ | تَروقُ، فطرْفي حيثُ يَغرَقُ يُحرَقُ(1)

• وقال ابن زيدون يصف نوعا من العنب اسمه « أطراف العذارَى » أهداه إلى جَدِّه :

أتاكَ مُحيِّياً عنِّي اعتبـارا | عَذارَى دُونَه ريقُ العَذارَى
تخـالُ الشَّهدَ منـه مُستَمَداً | ونفحَ المسكِ منه مستعـارا
يروقُ العينَ منه جِسْمُ مـاءٍ | غدا ثوبُ الهواءِ له شعارا
ولولا أنـني قد نِلْتُ منـه | ـ ولم أسكرْ ـ لخِلتُ به عُقارا(2)

• وقال الحاجب الوزير جعفر المصحفيّ في وصف سَفَرْجَلَة :

ومُصفرَّةٍ تختـالُ في ثوبِ نَرجِسٍ | وتعبَقُ عن مِسْكٍ ذكيِّ التنفُّسِ
لهـا ريحُ محبوبٍ وقَسْوةُ قلبِـه | ولونُ مُحِبٍّ حُلّةَ السُّقمِ مُكتسِي
فصُفرَتُها من صُفرَتي مُستَعـارةٌ | وأنفاسُها في الطِّيبِ أنفاسُ مُؤنسي
فلما استَتَمّتْ في القضيبِ شبابَها | وحاكتْ لها الأنواءُ أبرادَ سُنْدُسِ(3)
مَدَدْتُ يَدي باللُّطفِ أبغي اقتطافَها | لأجعلَها رَيحانتي وَسْطَ مَجْلِسي
وكان لها ثوبٌ من الزَّغْبِ أغْبَرٌ | يَرِفُّ على جسمٍ من التِّبْرِ أمْلَسِ(4)
فلمّا تَعرَّتْ في يَدي من لِباسِهـا | ولم تبقَ إلاّ في غِلالةِ نَرْجِسِ(5)
ذَكَرْتُ بها مَن لا أبوحُ بذكْـرِهِ | فأذْبَلَها في الكفِّ حَرُّ تَنفُّسِي(6)

---

(1) ديوان ابن خفاجة : ص ٨٧ – ٨٨ .
(2) ديوان ابن زيدون : ص ٢١٩ ، والعقار : الخمر .
(3) السندس : رقيق الديباج ورفيعه .
(4) الزغب بفتح الغين : هو صغار الشعر والريش ولينه ، وسكنت الغين لضرورة الشعر .
(5) الغلالة بكسر الغين : وهي الثوب الذي يلبس تحت الثياب .
(6) الحلة السيراء : ج ١ ص ٢٦١ .

(٣) وصف مجالس الأنس :

وثالث اتجـاه في شعر الطبيعة عند الأندلسيين يتجلّى في وصف شعرائهم لمجالس الأنس والطرب التي كانوا يعقدونها أو يُدْعَوْن إليها . وما أكثر ما قالوا وأبدعوا في وصف هذه المجالس!

ومن الناحية التاريخية بدأت مجالس الأنس كظاهرة اجتماعية في أخريات دولة الأمويين بالأندلس ، ثم أخذت هذه الظاهرة في الشيوع والانتشار في عصر ملوك الطوائف وما تلاه من عصور ، وشارك فيها الخاصة والعامة على السواء .

ومن هذه المجالس ما كان يُعقَد في المساء فيدوم طَوال الليل ، وما كان يُعقَد في الصباح فيدوم طوال النهار . وكلا النوعين من مجالس الأنس كان يشترك في وصف أمور بعينها ، ثم ينفرد كلاهما بعد ذلك بأمور . كانا يشتركان في وصف الخمر وسُقاتها وأدواتها ، من كئوس وأباريق ، ثم تنفرد مجالس الليل بوصف مجالي السماء من كواكب ونجوم ، بضيائها ولألائها. كما تنفرد مجالس النهار بوصف مجالي الأرض ، ممثلة في رياضها وأزهارها ، وأنهارها وجداولها ، وغير ذلك من مباهج الأرض التي تقع تحت أبصارهم ، وينفعلون بها .

ومن هذه المجالس مجالسُ الملوك والأمراء ، وكانت تُعقَد عادة في قصورهم ، أو في زوارق على الأنهار تحُف بها السفن . وهذه وتلك كان يُدعَى اليها أعيانُ الوزراء ونُبهاءُ الشعراء ، وأهل الموسيقى والغناء . وبذلك يتعاون الشعر والفن والشراب في إضفاء جَوٍّ من الأنس والطرب والبهجة على هذه المجالس .

أمّا مجالس الأنس العامة ، وهي بطبيعة الحال أكثر حُريةً وانطلاقا ، فكانت تُعقَد في الرياض ، وعلى مجاري المياه وشطآن الجداول والأنهار

المحفوفة بالأشجار والأزهار ، وكما قال أحدهم : كانوا يعقدونها أيضا في حدائق تُهدِي الأرَجَ والعَرْف ، ومَنازهَ تُبهج النفس وتُمتع الطّرْف .

سمات شعر مجالس الأنس :

وقد أُثِر عن شعراء الأندلس شعر كثير في وصف مجالس الشراب والأنس ، ولهذا الشعر سمات خاصة ، أهمها :

* غلبةُ الارتجال عليه ، لأنه كان يأتي للشعراء عفو الخاطر ووليد الساعة .
* قلة القصائد الطوال فيه ، وكثرة المقطوعات .
* غلبة عنصر الخيال عليه .
* استخدام الألفاظ التي تتضافر ، بمالها من خصائص معينة ، على بناء الصور الشعرية التي تروق لحاسة أو أكثر من الحواس .
* تنوع صوره الشعرية بتنوع العناصر التي تتركب منها .

ولعل في النماذج التالية ما يزيد هذه السمات وضوحا ،

* * *

* قال ابن السِّيد في وصف مجلس شراب دُعِيَ اليه بقصر عبد الرحمن الظافر بن ذي النون صاحب طليطلة :

لم تَــرَ عيني مثلَه ، ولا تَـــرى ... أنفَسَ في نَفْسي وأبهَى مَنظرَا
إذا تَردَّى وَشْيَــهُ المصـــوَّرا ... من حَوْكِ صَنعاءُ وحوكِ عَبْقَرا[1]

---

(١) تردى : ارتدى ولبس ، والحوك : النسج ، وصنعاء اليمن كانت مشهورة بجودة صناعة الحرير ، وعبقر : يزعم بعضهم أنه مسكن الجن ، وهم ينسبون اليه كل ما يتعاظمون أمره.

ونَسْجِ قُرقوبَ ونَسْج تَستُــرا   خِلتَ الربيعَ الطلقَ فيه نَوَّرا [1]
كأنمــا الإبريقُ حــين قَرْقَــرا   قد أمَّ لَثْمَ الكأس حين فَغرا
كــأنمــا مَــجَّ عَقيقــاً أحمــرا   أو فَتَّ من رَيّاهُ مِسْكاً أَذْفَرا [2]
أو عابدُ الرحمن يومــاً ذُكِــرا   فنَمَّ مِسْكاً ذِكْـرُهُ وعنبرا
الظافرُ المَلْكُ الذي مَن ظفِــرا   بقُربِه نالَ العَــلاءَ الأكــبرا
لو أنَّ كسرَى رَآهُ أو قيصــرا   هلّل إكبــاراً لــه وكَبَّــرا [3]

فالصورة هنا تمتزج فيها عناصر من الطبيعة والشراب وأدواته والمدح .

• ومن الصور التي تقف عن حد وصف الساقي والخمر وما يتعلق بهما قول ابن عمّار :

وهوِيتُــه يَسقي المُــدامَ كــأنه   قمرٌ يدورُ بكوكب في مَجلسِ
مُتأَرِّجُ الحركات تَنــدَى ريحهُ   كالغُصْنِ هزَّتْهُ الصَّبَــا بتَنفُّسِ
يسعَى بكأسٍ في أنامل سَوْسَــنٍ   ويُديِر أخرى من محاجر نَرجِسِ
عنّا بكأسكِ ، قد كفَتْنا مُقْلَــةٌ   حَوْرَاءُ قائمةٌ بِسُكْرِ المجلسِ [4]

• ومن هذا النوع أيضا قول مروان بن عبد الرحمن المعروف بالطليق :

رُبَّ كأسٍ قد كستْ جُنْحَ الدُّجَى   ثوبَ نورٍ من سَناهَا يَقَقَــا
ظَلتُ أسقيهــا رَشاً فــي لَحْظِــه   سِنَــةٌ تُورِث عيــني أَرَقَــا
خَفِيَتْ للعــين حتى خِلْتُهَــا   تَتَقِي من لَحْظه مــا يُتَقَى
أشرقتْ في ناصــعٍ من كَفِّــهِ   كشُعاعِ الشمسِ لاقَى الفَلَقَــا
فكــأنَّ الكــأسَ في أَنمُلِــه   صُفْرَةُ النرجس تعلــو الوَرَقَــا
أصبحتْ شمساً وفُــوهُ مَغْرِبــاً   ويَدُ الساقي المُحَيِّي مَشرِقــا

---

(١) قرقوب : مدينة بين واسط والأهواز ، وتستر : مدينة بخوزستان
(٢) أذفر : ذكي الرائحة ، والمسك الأذفر هو أجود: أنواع المسك . وأشدها طيب رائحة
(٣) نفح الطيب : ج ٢ ص ١٧٣ .   (٤) المرجع السابق : ص ١٧٦

فـإذا مـا غَربَتْ في فَمِـهِ تركتْ في الخَدّ منه شَفَقا [1]

• ومن شعر مجالس الأنس الذي يمتزج فيه وصف الخمر وساقيها بوصف بعض مجالي الطبيعة ، قول الشاعر عليّ بن أحمد :

قُـمْ فـاسقني والريـاضُ لابِسةٌ وَشْياً من النَّوْر حاكَهُ القَطْرُ
في مجلسٍ كـالسماء لاحَ بـهِ من وَجهِ مَن قد هَوِيتُه بَـدْرُ
والشمسُ قد عَصْفَرتْ غَلائلَها والأرضُ تَندَى ثيابُهـا الخُضْرُ
والنهرُ مثلُ المَجرّ حُـفَّ بـهِ من الندامَى كواكبٌ زُهْـرُ [2]

• ومن هذا النوع أيضا قول أبي الحسن علي بن سعيد العَنْسِي :

باكرَ اللهوَ ومَـن شاءَ عَتَـبْ لا يَلَذُّ العيشُ إلاّ بالطـرَبْ
ما تَوانَى مَن رأى الزهـرَ زَهَـا والصَّبَا تَمرَحُ في الروضِ خَبَبْ
يا نسيماً عطّرَ الأرجـاءَ ، هـل بَعثُوا ضِمنَكَ ما يَشفِي الكُرَبْ ؟
هم أعَلُّـوهُ وهـم يَشفُونَـهُ لا شفاهُ اللهُ من ذاك الوَصَبْ !
كلُّ هـذا قد دعـاني لِلّـتي مَلكتْ رِقّـي عـلى مَرّ الحِقَبْ
قهـوةٌ أبْسِمُ مـن عُجْبٍ لهـا عندما تبسِمُ عُجْباً عن حَبَـبْ
حاكتِ الخمرَ ، فلمّـا شعشَعـتْ قلتُ : ما للخمرِ بالماء التهبْ ؟ [3]
اسْقِنيها مِـن يَـدَيْ مُشبِهِهـا بالذي يَحويـه طَرْفٌ وشَنَبْ [4]
لا جعلتُ الدهرَ نُقلي غـيرَ مـا لَذَّ لي من ريق ثغرٍ كالضَّرَبْ [5]
لا جعلتُ الدهرَ ريْحـاني سـوى ما بخَدَّيْهِ من الوردِ انتُخِبْ [6]

---

(١) كتاب التشبيهات لابن الكتاني : ص ٩٣ ، ١٤٧ .   (٢) نفح الطيب : ج ٢ ص ١٨٠ .
(٣) شعشع الخمر : مزجها بالماء .
(٤) الشنب بفتح الشين والنون : صفاء ورقة مع برودة وعذوبة في الفم .
(٥) الضرب بفتح الراء : الشهد .   (٦) نفح الطيب : ج ٣ ص ٥٦ .

• ومنه كذلك قول المعتمد بن عبّاد :

ولقد شربتُ الراحَ يسْطعُ نورُها والليلُ قد مدَّ الظلامَ رِداءَ
حتى تبدّى البدرُ في جوْزَائه مَلِكاً تناهى بَهْجةً وبهاءَ
وتَناهضَتْ زُهْرُ النجوم يحفُّهُ لألاَؤها فاستكمل اللألاءَ
لمّا أرادَ تنزُّهاً في غَرْبِه جعلَ المظلّةَ فوقَهُ الجوْزاءَ
وترى الكواكب كالمواكب حولَهُ رفعتْ ثُريّاها عليه لِواءَ
وحكَيْتُهُ في الأرض بين مواكبٍ وكواعبٍ جمعتْ سَناً وسَناءَ
إنْ نَشّرَتْ تلك الدروعَ حنادِساً مَلأتْ لنا هذى الكؤوسَ ضياءَ (١)
وإذا تغنّتْ هذه في مِزْهَرٍ لم تألُ تلك على التّرِيكِ غِناءَ (٢)

ونرى في شعر مجالس الأنس نوعا يقتصر فيه الشاعر على وصف الخمر ووصف أثرها في نفوس شاربيها .

• ومن أبدع شعر الأندلسيين في تصوير ذلك المعنى قول أبي بكر محمد ابن عبد الملك بن زُهْر :

ومُوَسَّدِينَ على الأكفّ خُدُودَهم قد غالَهُمُ نَومُ الصباحِ وغالَنِي
ما زِلتُ أسقيهمْ وأشربُ فَضْلَهم حتى سَكِرْتُ ونالَهم ما نالَنِي
والخمرُ تعرِفُ كيف تأخذُ حقّهَا إني أمَلْتُ إناءَها فأمالَني (٣)

• ومن ذلك أيضا قول أبي إسحاق إبراهيمَ بن الصبّاغ :

رُبَّ ليلٍ طالَ لا صُبْحَ لَه ذي نجومٍ أقسمتْ أنْ لا تَغُورْ
قد هتكنا جُنحَهُ من فَلَقٍ من خمورٍ ووجوهٍ كالبدورْ
إنْ بَدَتْ تُشْبِهُها في كأسِها نارُ إبراهيمَ في بردٍ ونُورْ

(١) الدروع : جمع درع ، وهو هنا قميص المرأة ، والحنادس : جمع حندس ، وهو الظلام
(٢) نفح الطيب : ج ٦ ص ١٧ (٣) نفح الطيب : ج ٣ ص ١٧ .

صَرَعَتْنا أنْ علَوْنــــا ظهرهـــــا في ميادين التصـــابي والسُّرورْ
وكأنّـــا حـــين قُمْنَا مَعْشَـــرٌ نُشِروا بعدَ مَمـــاتٍ وقُبـــورْ[1]

* * *

(٤) وصف قصور الأندلس :

وكما تغنى الشعراء بطبيعة الأندلس الحية والصامتة ، نراهم قد تغنّوْا كذلك بوصف طبيعتها الصناعية ، ممثلةً في وصف قصور الأمراء والخلفاء والملوك ، تلك التي أسرفوا في تشييدها على غرار قصور الأمويين والعباسيين في المشرق . واتخذوها منتجعاتٍ للاستجمام والراحة ، وللاستغراق في حياة اللهو والترف والنعيم ، بعيدا عن مقر الحكم بالحاضرة . وقد كانت حياة هذه القصور موقوتة بحياة بُناتها ، تبقَى ما بقُوا ، وتذهب بالانتهاب والسَّلْب بذهابهم !

وهذه القصور الشامخة الباذخة التي أبدعت يد الفن في هندستها وزخرفتها من الخارج والداخل ، وتأنّقت في إنشاء حدائقها وكلٍّ ما يتعلق بها ، هي التي كان شعراء الأندلس يتنافسون في وصفها وتصويرها أيامَ عِزِّها ، وفي رثائها والتفجُّع عليها بعد خرابها . وقد سلك الشعراء في وصفها طرائق شتى نلخصها فيما يلي :

(١) الوقوفُ في الوصف عند حَدِّ القصر وَحْدَه ، أو مزجُ وصفه بمدح صاحبه .

• ومن النوع الأول ما قيل في وصف قصر الدِّمَشْق بقرطبة . وهو كما يقول المقَّريُّ في التعريف به : « هو قصر شيّده ُ بنو أمية بالصُّفّاح[2] والعَمَد، وجَرَوْا من إتقانه إلى غاية وأمد ، وأبدِع بناؤه ، ونُمِّقَتْ ساحتُه وفِناؤه ،

---

(١) نفح الطيب : ج ٥ ص ٣٣ . (٢) الصفاح : حجارة رقاق عراض ، والواحد منها كالواحد

واتخذوه ميدانَ مَراحِهم ، ومِضماراً لانشراحهم ، وحكَوْا به قصرَهم بالمَشرق ، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المُشرِق ». وممن وصف هذا القصر أبو بكر بن عمّار ، بعد ليلة أنس وشراب قضاها فيه مع جماعة من رفاقه . قال ابن عمّار :

كلُّ قصرٍ بعد الدمشق يُذَمُّ ... فيه طاب الجَنَى وفاحَ المشَمُّ
منظرٌ رائقٌ ، وماءٌ نَميرٌ ... وثرىً عاطرٌ ، وقصرٌ أشَمّ
بِتُّ فيه والليلُ والفجرُ عندي ... عنبرٌ أشهَبٌ ، ومِسْكٌ أحَمُّ (1)

* ومن النوع الثاني الذي يمتزج فيه وصف القصر بمدح صاحبه ، قول ابن حمديس الصقليّ يصف داراً بناها المعتمد بن عبّاد :

ويَا حبّذا دارٌ قضَى الله أنها ... يُجَدِّدُ فيها كلُّ عِزٍّ ولا يَبْلِيَ
مُقدَّسةٌ لو أنَّ موسى كَلِيمَهُ ... مشَى قَدَماً في أرضها خلعَ النّعْلاَ
إذا فتحتْ أبوابَها خِلت أنها ... تقول بترحيب لداخلها : أهْلاَ
وقد نَقلتْ صُنّاعُها من صفاته ... إليها أفانيناً فأحْسَنتِ النّقْلاَ
فمِن صَدْرهِ رَحْباً ، ومِن وجْههسَناً ... ومِن صِيتِه فرعاً ، ومِن حِلمه أصْلاَ
نسيتُ به إيوانَ كِسْرَى لأنني ... أراهُ له مَوْلىً من الحُسْنِ لامِثلاَ (2)

(2) ومن طرائقهم أيضا التوسُّعُ في وصف القصور ، وذلك بتصوير جوانبها الفنية تصويرا يذهب الخيالُ فيه مذاهب شتّى . هذا مع استمرار امتزاج هذا الوصف بالمدح .

* ومن أمثلة ذلك قول ابن حمديس أيضا في وصف دار بناها المنصور ابن أعلى الناس ببجاية ، وقد بالغ في الوصف :

---

(1) نفح الطيب : ج ٢ ص ١٩٠ ، والأحم : الأسود من كل شيء .
(2) ديوان ابن حمديس : ص ٣٧٨ .

قصرٌ لوَ انك قد كحلتَ بنوره ... أعمى لعادَ إلى المقام بصيرا
واشتُق من معنى الحياة نسيمُه ... فيكاد يُحدِث للعظام نُشورا
أعيَتْ مصانعُه على الفُرْس الأُلى ... رفعوا البناءَ وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهورُ وما بَنَوْا ... لملوكهم شَبَهاً له ونظيرا
أذكرْتنا الفردوسَ حين أريْتَنا ... غُرَفاً رفعتَ بناءَها وقصورا
أبصرتُه فرأيتُ أبدعَ منظرٍ ... ثم انثنيتُ بناظري محسورا
وظننْتُ أنيَ حالمٌ في جنّةٍ ... لما رأيتُ المُلْك فيه كبيرا

ثم يستطرد الشاعر إلى وصف بركةٍ في القصر عليها أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعُها المياه ، ثم يتفنن في تصوير أُسودٍ على حافتها قاذفةٍ بالمياه أيضا ، وفي كل ذلك يقول :

وضراغمٍ سكنتْ عرينَ رياسة ... تركتْ خريرَ الماء فيه زئيرا
فكأنما غَشَّى النُّضارُ جُسومَها ... وأذابَ في أفواهِها البلُّورا
أُسْدٌ كأن سُكونَها مُتحرِّكٌ ... في النفس ، لو وجدتْ هناك مُثيرا
وتذكّرتْ فتكاتِها فكأنما ... أقْعَتْ على أدْبارِها لتثُورا
وبديعةِ الثمرات تَعبُرُ نحوَها ... عيناي بَحْرَ عجائبٍ مَسْجُورا [(1)]
شجَريّةٍ ذهبيّةٍ نزَعتْ إلى ... سحرٍ يؤثّر في النُّهَى تأثيرا
قد صوْلَجَتْ أغصانَها فكأنما ... قنصَتْ لهنّ من الفضاء طيورا [(2)]
وكأنما تأبَى لِوُقّعِ طيرِها ... أن تستقلّ بنَهْضِها وتطيرا
من كلّ واقعةٍ ترَى منقارَها ... ماءً كسَلْسَال اللجَيْن نميرا
خُرْسٌ تُعَدُّ منَ الفِصاح فإنْ شَدَتْ ... جَعَلَتْ تُغرِّدُ بالمياه صفيرا
وتُريكَ في الصِّهْرِيج موقعَ قَطْرِها ... فوق الزَّبَرْجَد لؤلؤاً منثورا
ضحِكتْ محاسِنُه اليك كأنما ... جُعِلَتْ لها زُهْرُ النجوم ثغورا

---

(١) البحر المسجور : المتلىء .
(٢) صولجت أغصانها : اتخذت منها صوالجة ، أي أعوادا معوجة معقوفة .

ومصَنّمَحِ الأبوابِ تِبْراً نَظّرُوا   بالنّقْش فوق شُكُولِه تنظيرا
تَبدُو مسامِيرُ النُّضارِ كما علَتْ   فلَكُ النُّهودِ من الحسانِ صدورا [1]
خلَعتْ عليه غَلائلاً ورْسيّةً   شمسٌ تَرُدُّ الطرْفَ عنه حسيرا [2]
وإذا نظرتَ إلى غرائبِ سَقْفِه   أبصرتَ رَوْضاً في السماء نضيرا
وَضَعَتْ بِهِ صُنّاعُهُ أقلامَها   فأرتكَ كلُّ طريدةٍ تصويرا
وكأنما للشمسِ فيهِ لِيقةٌ   مَشَقُوا بها التزويقَ والتشجيرا [3]
يا مالكَ الأرضِ الذي أضحى لهُ   مَلِكُ السماء على العداة نصيرا
كم من قصورٍ للملوك تقدّمتْ   واستوجبَتْ لقصورك التأخيرا
فعمرْتَها وملكتَ كلَّ رئاسةٍ   منها ودَمّرْتَ العِدا تدميرا [4]

(٣) ومن طرائقهم كذلك في هذا الاتجاه التفجعُ على القصور والديار التي ماتت بموت أصحابها أو برحيلهم عنها . وللأندلسيين في ذلك شعر كثير يمتزج الأسى فيه بالعِبْرَة . ولعله كان المرحلة الأولى لما قالوه فيما بعد في رثاء المدن والممالك ، مما ستكون لنا معه وقفة .

• من ذلك قول أبي صخر القرطبيّ في ديار آل عبّاد :

ديارٌ عليها من بشاشةِ أهلها   بقايا تَسُرُّ النفْسَ أنْساً ومنظَرا
رُبوعٌ كساها المُزْنُ من خِلَعِ الحَيَا   بُروداً، وحَلاّها من النَّوْر جوْهَرَا
تَسُرُّكَ طوْراً ، ثم تُشجيكَ تارةً   فترتاحُ تأنيساً وتَشجَى تَذكُّرا [5]

• ومنه قول أبي إسحاق بن خفاجة الأندلسيّ :

ومُرْتَبَعٍ حَطَطْتُ الرحلَ منه   بحيثُ الظلُّ والماءُ القَراح
تخرَّمَ حسْنَ منظره مليكٌ   تخرَّمَ مُلْكَه القَدَرُ المُتَاح [6]

---

(١) فلك النهود : استدارات النهود .   (٢) ورسية : نسبة إلى الورس ، وهو صبغ أصفر .
(٣) الليقة : ليقة الدواة ، ومشق بفتح الشين من المشق بسكونها : وهو صبغ أحمر .
(٤) ديوان ابن حمديس : ص ٥٤٥ .
(٥) نفح الطيب : ج ٢ ص ٤٤ .   (٦) تخرم : استأصل

فجِرْيَـــةُ مـــاءِ جَدْوَلهِ بكـــاءٌ عليه ، وشَدْوُ طـــائرِهِ نُواحُ [1]

* وعلى أطلال زهراء أمير المؤمنين الناصر ، يقف الشاعر السُّمَيْسِر ذات يوم يناجيها باكيا معتبرا بقوله :

وقفتُ بالزهـــراء مُسْتَعْبِـــراً مُعْتَبِراً أنْـــدُبُ أشتاتَـــا
فقلتُ : يا زَهْرا ، ألاَ فارجعـــي قالت : وهل يرجع مَن مَاتَا ؟
فلم أزلْ أبكـــي وأبكـــي بهـــا هيهاتَ يُغني الدمـــعُ هيهاتـــا !
كأنمـــا آثـــارُ مَن قـــد مضَـــى نوادبٌ يَنْدُبْـــنَ أمواتـــا [2]

* ووقف الوزير أبو الحزم بن جَهْور على قصور الأمويين التي تَقَوَّضتْ أبنيتُها ، وعُوِّضَتْ من أنيسها بالوحش أفنيتُها ، فقال :

قلتُ يوماً لدار قـــومٍ تَفانَـــوْا : أين سُكّانُكِ العزازُ علينـــا ؟
فأجابتْ : هنا أقـــاموا قليـــــلاً ثم سَارُوا ... ولَسْتَ أعلم أينا ! [3]

* * *

وبعد ... فإذا كان المشارقة قد سبقوا إلى شعر الطبيعة ، فإن شعراء الأندلس قد لحقوا بهم في هذا الفنّ الشعريّ ، ثم فاقوهم فيه بالتوسُّع والتنوُّع في موضوعاته ، مع كثير من دقة التصوير ، والابتكار في معاني الوصف ، والتفنن في أساليب التعبير .

وقد حاولنا قدر المستطاع بجولتنا في شعر الطبيعة الأندلسيّ أن نُلِم بأهم سمات هذا الشعر واتجاهاته المختلفة ، مع نماذج شتّى توضحها وتبرزها .

ولسنا نزعم أننا قد أحطنا هنا بكل ما ينبغي أن يقال عن شعر الطبيعة في الأدب الأندلسيّ ، فهذا أمر يحتاج إلى بحث مستفيض مستقل ، ذلك لأن

---

(١) ديوان ابن خفاجة : ص ١٣٧ .
(٢) نفح الطيب : ج ٢ ص ٦٨ .
(٣) نفح الطيب . ج٢ : ص ٦٦ .

شعراء الأندلس قلما غادروا شيئا من مجالي طبيعة بلادهم الحية والصامتة والصناعية، إلاّ وقفوا أمامه ورسموا له لوحات تُمتِع العين بألوانها الناضرة المبهجة .

ولعل أهم ما يؤخذ عليهم في تصويرهم للطبيعة أنه تصوير لظاهرها دون باطنها ، أو بمعنى آخر أنهم وقفوا من الطبيعة موقف المصور الذي التقط لها صورا من بُعد ، دون أن يدخل في صميمها ، ويُطلّ علينا من خلالها بروحه وقلبه وعواطفه ، اللهم إلاّ في القليل من النماذج التي مرت بنا كوصف ابن خفاجة للجبل ، أو كوصف أبي بكر محمد بن عبد الملك بن زُهْرْ لشيخوخته حين غلب عليه الشيب ، وذلك إذ يقول :

* * *

إني نظرت إلى المرآة قد جُليَتْ فأنكرتْ مُقلتايَ كلَّ ما رَأَتَا
رأيتُ فيها شُوَيْخاً لستُ أعرفه وكنت أعهدُهُ من قبلِ ذاك فتى
فقلتُ : أين الذي بالأمس كان هنا ؟ متى ترحّلَ عن هذا المكان ؟ متى ؟
فاستضحكتْ ثم قالت وهيَ مُعْجَبَةٌ : إن الذي أنكرَتْهُ مقلتاك أتى
كانت سُلَيْمَى تنادي يا أُخَيَّ وقد صارت سُلَيْمَى تنادي اليومَ يا أبَتَا ![1]

(١) نفح الطيب : ج ٣ ص ١٨ .

– ٣ –

رثاء المدن والممالك :

من فنون الشعر التقليدية التي احتذى فيها الأندلسيون المشارقة « فن الرثاء » . وقد أوردنا في الفصل السابق نماذج من مراثيهم توضح اتجاهاتهم ومذاهبهم المختلفة في الرثاء بصفة عامة .

ولكن شعراء الأندلس لم يقفوا بهذا الفن عند حد رثاء موتاهم من الملوك والرؤساء والأقارب والأحباب ، وإنما نراهم ، ولأسباب خاصة بهم ، يتوسعون فيه ، ويطورون مفهومه ، وذلك برثاء مدنهم ، تلك التي غلبهم عليها أعداؤهم النصارى ، وأخرجوهم منها مشردين في أنحاء الأندلس !

كانوا يرون هزل ملوكهم وجد أعدائهم ، ويرون ديارهم تنتزع منهم مدينة تلو مدينة ، ويرون ملكهم الذي أقامه الآباء والأجداد حصناً للإسلام ، ومجدا للعروبة ، تتداعى أركانه أمام أعينهم ، فيستولي عليهم الذهول ، ثم لا يملكون إلا أن يرثوه ويتفجعوا عليه بشعر يقطر أسى ممضاً ودموعاً حارة !

وقد قال شعراء الأندلس وأكثروا القول في رثاء مدنهم ودولتهم ، حتى صار « رثاء المدن والممالك » بسبب ذلك فناً شعريا قائما بذاته في أدبهم .

ربما نجد في أدب المشارقة شيئا من هذا القبيل ، كقصيدة ابن الرومي التي رثى بها مدينة البصرة ، عندما أغار عليها الزنج سنة ٢٥٥ ﻫ ، واستباحوا

فيها الأموال والحُرُمات والأعراض ، والتي يقول فيها :

ذادَ عن مُقلتي لذيذَ المنام ِ   شُغْلُها عنهُ بالدموع السِّجام ِ
أيُّ نوم ٍ من بعد ما حلَّ بالبصـ   ـرة ِ ما حلَّ مِن هَنات عِظام ِ ؟
أيُّ نوم ٍ من بعدما انتهك الزّنْـ   ـجُ جِهاراً محارِمَ الإسلام ِ ؟
إنَّ هذا من الأمور لأمرٌ   كاد ألاَّ يقومَ في الأوهام ِ
كم أغَصُّوا من شارب ٍ بشراب   كم أغَصُّوا من طاعم ٍ بطعام ِ
كم أخ ٍ قد رأى أخاهُ صَريعاً   تَرِبَ الخدِّ بين صَرْعَى كِرام ِ (1)
كم أب ٍ قد رأى عزيزَ بنيه   وهوَ يُعْلَى بصارم ٍ صَمْصام ِ (2)
كم رضيع ٍ هناك قد فطموهُ   بِشَبَا السيف قبلَ حينِ الفطام ِ
كم فتاة ٍ مصونة ٍ قد سَبَوْهَا   بارزاً وَجْهُها بغير لِثام ِ

ولكن المشارقة لم يتوسّعوا في «رثاء المدن والممالك» توسُّعَ الأندلسيين ،ولذلك لم يظهر هذا اللونُ من الشعر في أدبهم ، كما ظهر في الأدب الأندلسيِّ فنّاً قائما بذاته .

ولعل من المناسب هنا أن نورد نماذج من مراثي شعراء الأندلس لمدنهم ، ثم نعقّب عليها ببيان طبيعتها وخصائصها وطُرُق تَنَاوُلِهم لها .

* * * *

ذكر صاحب « نفح الطيب » أن مِن أول ما استرده الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينةَ طليطلة ، فقد استولى عليها النصارى بقيادة الأذفونش في منتصف محرم سنة ٤٧٨ ﻫ ، من صاحبها القادر بالله بن ذي النون بعد حصار دام سبع سنين . وكان سقوطها في أيدي النصارى بالنسبة للأندلسيين مصابا جلَلاً هزَّ نفوسهم هزا عنيفا !

---

(1) ترب الخد : ملوث خده بالتراب .   (2) صارم صمصام : سيف قاطع لا ينثني

• وقد رثاها بعض شعرائهم بقصيدة طويلة من ٧٢ بيتا ، قال في مطلعها :

لِثُكْلِكِ كيف تبتسم الثغورُ ... سرورا بعد ما بَئِسَتْ ثغورُ ؟
أما وأبي مُصابٌ هُدَّ منه ... ثَبيرُ الدِّين فاتصل الثبورُ

. . . .

طُلَيْطِلَةٌ أباحَ الكفرُ منها ... حِماهَا ... إنَّ ذَا نَبَأ كبير
فليس مثالَها إيوانُ كِسْرَى ... ولا منها الخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ
ألم تكُ مَعقلاً للدِّين صَعباً ... فَذَلَّلَهُ كما شاءَ القديرُ ؟
وأخرجَ أهلَها منها جميعاً ... فصاروا حيث شاءَ بهم مَصيرُ
وكانت دارَ إيمانٍ وعلمٍ ... مَعَالِمُها التي طُمِسَتْ تُنيرُ
فعادتْ دارَ كُفرٍ مُصْطفاةٍ ... قد اضطربت بأهليها الأمورُ
مساجدها كنائسُ ! أيُّ قلبٍ ... على هذا يَقَرُّ ولا يطيرُ ؟
فيا أسَفاهُ يا أسَفاهُ حُزْناً ... يُكَرَّرُ ما تكَرَّرَتِ الدهورُ
لئن غِبنَا عن الإخوان إنا ... بأحزانٍ وأشجانٍ حُضورُ
أنأمَنُ أن يَحُلَّ بنا انتقامٌ ... وفينا الفسقُ أجمعُ والفجورُ ؟
يزول الستر عن قومٍ إذا ما ... على العصيان أُرْخِيَت الستُورُ
خُذُوا ثأرَ الديانة وانصروها ... فقد حَامَتْ على القتلى النسور
ومُوتوا كلُّكم فالموت أوْلَى ... بكم من أن تُجارُوا أو تَجُوروا
أصبراً بعدَ سَبْيٍ وامتحانٍ ... يُلامُ عليهما القلب الصبورُ ؟
أتتْنا الكُتْبُ فيها كلُّ شرٍّ ... وبَشَّرَنَا بأنْحُسِنَا البشيرُ !
وقيل : تجمَّعوا لفراق شملٍ ... طليطلةٌ تملَّكَها الكَفُورُ !
فقلْ في خُطَّةٍ فيها صَغارٌ ... يَشيبُ لكَرْبها الطفل الصغير
لقد صُمَّ السميعُ فلم يُعَوِّل ... على نبإٍ ، كما عَمِيَ البصيرُ !
كفَى حُزْناً بأنَّ الناسَ قالوا : ... إلى أين التحوُّل والمسير ؟

أنترك دُورنَـا ونَفِـرُّ عنها   وليس لنا وراءَ البحر دُورُ ؟

ولا ثَمَّ الضِّيَاعُ تروق حُسْناً   نُباكِرُهَا فيُعجبنا البُكورُ

وظِلٌّ وَارِفٌ وخَرِيرُ ماء   فلا قُرٌّ هناك ولا حَرُورُ

ويُؤكلُ من فواكهها طَرِيٌّ   ويُشرَبُ من جداولها نَميرُ !

لقد ذهبَ اليَقينُ فلا يَقينٌ   وغَرَّ القومَ باللهِ الغَرُورُ

رَضُوا بالرِّقِّ ! يا اللهُ ماذا   رآهُ وما أشارَ به مُشيرُ ؟

مضَى الإسلامُ فابْكِ دَماً عليه   فما يَنفِي الجَوَى الدمعُ الغزيرُ

ونُحْ وانْدُبْ رِفاقاً في فَلاةٍ   حَيَارَى لا تَحُطُّ ولا تسيرُ

ولا تجنحْ إلى سِلمٍ وحارِبْ   عسَى أن يُجبَرَ العظمُ الكسيرُ

أنَعْمَى عن مَراشدِنا جميعاً   وما إنْ منهمُ إلاَّ بَصير ؟

ولو أنَّا ثبتْنا كان خَيراً   ولكن ما لنا كَرَمٌ وخِيرُ

إذا ما لم يكن صبرٌ جميلٌ   فليس بنافعٍ عددٌ كثيرُ

ألاَ رجلٌ له رَأيٌ أصيلٌ   به مما نُحاذِرُ نستَجيرُ ؟

يَكُرُّ إذا السيوفُ تَناوَلَتْهُ   وأين بنا إذا وَلَّتْ كُرُورُ ؟

ويَطعنُ بالقَنَا الخَطَّار حتَى   يقول الرمحُ : مَن هذا الخطير ؟

يُبادر خَرْقَهَا قبلَ اتِّسَاعٍ   لخطبٍ منه تنخسِفُ البدورُ

يُوسِّعُ للذي يلقاهُ صَدراً   فقد ضاقَت بما تلقَى الصدورُ !

تنغَّصَتِ الحياةُ فلا حياةٌ   ووَدَّعَ جِيرةٌ إذْ لا مُجيرُ !

فليلٌ فيه هَمٌّ مُسْتَكِنٌّ   ويومٌ فيه شرٌّ مُسْتَطيرُ

ونرجو أن يُتيحَ اللهُ نصراً   عليهم ، إنه نِعْمُ النصيرُ [١]

---

(١) نفح الطيب : ج ٦ ص ٢٢٨ – ٢٣٢ .

• وقال ابن خفاجة الأندلسيّ في رثاء مدينة بَلَنْسِيةَ التي سقطت في أيدي الأعداء سنة ٤٨٨ هـ ، بعد حصار دام عشرين شهرا :

عَاثَتْ بسَاحَتِكِ العِدَى يا دارُ ومَحَا مَحَاسِنَكِ البِلَى والنارُ
فإذا تَرَدَّدَ في جَنَابِكِ ناظِرٌ طَالَ اعتبارٌ فيكِ واستعبارُ
أرضٌ تَقَاذَفَتِ الخطوبُ بأهلها وتَمَخَّضَتْ بخَرابِها الأقدارُ
كتبتْ يَدُ الحَدَثَانِ في عَرَصَاتِها "لا أنتِ أنتِ ولا الدِّيارُ دِيَارُ"[1]

وقد استردها المسلمون في عهد المرابطين ، ثم استولى عليها النصارى مرة ثانية سنة ٦٣٦ هـ في زمن الموحدين ، فقال أبو المطرف بن عميرة المخزوميّ من مرثية له فيها :

أمِن بعد رُزْءٍ في بَلَنْسِيَةٍ ثَوَى بأحْنَائنا كالنار مُضرَمَةَ الوَقْدِ
يُرَجِّي أُنَاسٌ جُنَّةً مِن مَصائبٍ تَطاعَنُ فيهم بالمُثَقَّفَةِ المُلْدِ ؟
ألاَ ليتَ شعري هل لها من مَطالعٍ تُعادُ إلى ما كان فيها من السَّعْدِ ؟
وهل أذْنبَ الأبناءُ ذَنْبَ أبيهِمُ فصارُوا إلى الإخراج من جَنَّةِ الخُلدِ ؟

• ومن ذلك رَائِيَّةُ الوزير الكاتب أبي محمد عبد المجيد بن عبدون في رثاء قَتْلَى بن الأفطس أصحاب بطليوس ، والتي يقول في مطلعها :

الدهرُ يفجعُ بعد العينِ بالأثرِ
فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ ؟

أنهاكَ أنهاكَ لا آلوكَ مَوْعِظَةً
عن نَوْمَةٍ بين نَابِ الليثِ والظُّفُرِ

(١) نفح الطيب : ج ٦ ص ١٩٩ .

فــلا يَغُرَّنْكَ من دنيــاكَ نَوْمَتُها
فما صناعةُ عَيْنَيْهــا سوى السّهَر

تَسُرُّ بالشيء لكنْ كــي تَغُرَّ بِهِ
كالأيْمِ ثارَ إلى الجـاني من الزّهَرِ [١]

والدهرُ حَرْبٌ وإن أبــدَى مُسالمــةً
والسُّودُ والبِيضُ مثلُ البِيضِ والسُّمُرِ [٢]

وهي قصيدة مشهورة من ٧٥ بيتا ، رثى بها ابن عبدون المتوكل بن الأفطس وولديه الفضل والعباس ، الذين قُتِلوا صبراً على أيدي المرابطين من أصحاب يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٥ هـ .

وقد حشد فيها ابن عبدون الكثير من أحداث تاريخ العجم والعربِ منذ القدم ، وما مَرَّ بالدول والملوك من تقلُّبات الدهر ، وذلك للعظة والتأسِّي ، ثم انتقل إلى تعداد مناقب قتلي بني الأفطس ، من مثل الإباء والوفاء ، والشجاعة والفروسية ، والأدب والتديّن .

والقصيدة على طولها جزلة العبارة ، محكمة البناء ، مشرقة الديباجة ، والجزء الخاص منها برثاء بني الأفطس يفيض بالعاطفة ، عاطفة الوفاء ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان ابن عبدون كاتبا للمتوكل .

وممن أشاد بهذه المرثية الأندلسية عبد الواحد المراكشي ، فقد أوردها في كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ثم مهّد لها بقوله : « وفيهم – بني الأفطس – يقول الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون من أهل « يابرة » قصيدته الغراء ، لا بل عقيلته العذراء ،

(١) الأيم : الحية مطلقا ، أو النوع الأبيض منها خاصة .
(٢) فوات الوفيات : ج ٢ ص ١٩ .

التي أزرتْ على الشعر ، وزادتْ على السحر ، وفعلتْ بالألباب فعلَ الخمر ، فجلّتْ عن أن تُسامَى ، وأَنِفَتْ من أن تُضاهَى ، فقلَّ لها النظير ، وكثُر اليها المشير ، وتساوَى في تفضيلها باقِلٌ وجَرير ، فلله هيَ من عقيلة خِدْر قَرُبتْ بسهولتها حتى أطمعت ، وبَعُدتْ حتى عزَّتْ فامتنعتْ [1] » .

• وللوزير أبي بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبّانة قصيدة طويلة جدا يرثي بها بني عبّاد ومملكتَهم ، ومنها قوله :

تبكي السماء بدمع رائحٍ غادِ — على البهاليل من أبناء عبّادِ
على الجبال التي هُدّتْ قواعدُها — وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتادِ
يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرمات فخُذْ — في ضمّ رَحْلكَ واجمع فَضلة الزاد
ويا مؤمِّلَ وادِيهم ليَسْكُنَهُ — خَفَّ القطينُ وجَفَّ الزرعُ بالوادي
نسيتُ إلاّ غداةَ النهر كَوْنَهمُ — في المُنشآت كأموات بألحاد
حُطَّ القِناعُ فلم تُستَر مُخَدَّرةٌ — ومُزِّقتْ أَوْجُهٌ تمزيقَ أبرادِ
تفرَّقوا جيرةً من بعد ما نشئوا — أهلاً بأهلٍ وأولاداً بأولادِ
حانَ الوداعُ فضجّتْ كلُّ صارخة — وصارخٍ من مُفَدّاةٍ ومن فادى
سارتْ سفائنُهم والنَّوْحُ يتبعُها — كأنها إبلٌ يَحدُو بها الحادي
كم سَالَ في الماءمن دمعٍ وكم حَمَلت — تلك القطائعُ من قِطْعاتِ أكبادِ
مَن لي بكم يا بني ماءِ السماء إذا — ماءُ السماءأبَى سَقْياًحشَى الصادي؟[2]

• ولعل نُونيةَ أبي البقاء صالح بن شريف الرُّنْديِّ ، هي أروعُ وأشجى ما جادتْ به قريحةُ شاعر أندلسيّ ، لا في رثاء مدينة بعينها كالنماذج السابقة ، بل في رثاء الأندلس كل الأندلس ، وتصوير نكبته التي تعلو على كل فجائع الدهر ، وتتحدى السلوان والنسيان !

وكأني بأبي البقاء في مرثيته الخالدة هذه ، يتحدث بلسان كلّ الأندلسيين ،

---

(١) المعجب للمراكشي : ص ٥٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٣ — ١٠٤

ويشعر بمشاعرهم ، ويترجم عن ثورهم الدفينة المكبوحة ، فكل بيت فيها يطالعنا موّاراً بالعاطفة ، مشحوناً بالأسى ، مبللاً بالدموع ، تفجعا على ما آل اليه حال الإسلام والمسلمين بالأندلس ! !

وفيما يلي مقتطفاتٌ من هذه المرثية الشاكية الباكية ، وهي بذاتها تُغني عن كل شرح وتعليق . قال أبو البقاء الرُّنْديّ :

لكلِّ شيءٍ اذا ما تمَّ نُقصانُ ... فلا يُغَرَّ بطيبِ العيش إنسانُ
هيَ الأمورُ – كما شاهدْتَها – دُوَلٌ ... مَن سَرَّهُ زمنٌ ساءتْهُ أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يَدومُ على حالٍ لها شانُ
وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكَى عن خيال الطَّيف وَسْنَانُ
فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنَوَّعَةٌ ... وللزمان مَسَرَّاتٌ وأحزانُ
وللحوادث سُلوانٌ يُسَهِّلُها ... وما لمَا حلَّ بالإسلام سُلْوانُ
دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ لَهُ ... هوَى له أُحُدٌ وانهدَّ ثَهلانُ (١)
أصابَها العينُ في الإسلام فارْتَزَأَتْ ... حتى خلَتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسألْ بَلَنْسِيَةً : ما شأنُ مُرْسِيَةٍ ؟ ... وأين شاطبةٌ أم أينَ جَيَّانُ ؟
وأين قرطبةٌ دارُ العلوم ، فكَم ... مِن عالمٍ قد سَما فيها له شانُ ؟
وأين حِمصٌ وما تَحويهِ من نُزَهٍ ... ونهرُها العَذبُ فيَاضٌ وملآن(٢) ؟
قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلاد فما ... عسَى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ ؟
تبكي الحنيفيّةُ البيضاءُ من أسَفٍ ... كما بكى لفراق الإلْفِ هَيْمَانُ
على ديارٍ من الإسلام خَاليَةً ... قد أقفرتْ ولها بالكفر عُمرانُ
حيث المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهنَّ إلاّ نواقيسٌ وصُلْبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهْيَ جامدةٌ ... حتى المنابرُ تَرْثِي وهْيَ عيدانُ
يا غافلاً ولَه في الدهر موعظةٌ ... إنْ كنتَ في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ
وماشياً مَرِحاً يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ ... أبعدَ حِمصٍ تَغُرُّ المرءَ أوْطانُ ؟

---

(١) أحد وثهلان : جبلان (٢) حمص الأندلس : هي إشبيلية . وقد سمى بنو أمية عندما ملكوا الأندلس عدة مدن بها بأسماء مدن الشام .

تلك المصيبةُ أنسَتْ ما تقدَّمَها ... وما لها معَ طولِ الدهرِ نِسْيَان
يا راكبين عِتاقَ الخيلِ ضامرَةً ... كأنها في مجالِ السَّبْقِ عِقبانُ
وحاملين سيوفَ الهندِ مُرهفَةً ... كأنها في ظلامِ النَّقْعِ نيرانُ
وراتعينَ وراءَ البحرِ في دَعَةٍ ... لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأٌ من أهلِ أندلسٍ ... فقد سَرَى بحديثِ القومِ رُكْبانُ ؟
كم يستغيث بنا المستضعفونَ وهم ... قتلَى وأسرَى فما يَهتزُّ إنسانُ ؟
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكُم ... وأنتمُ يا عبادَ اللهِ إخْوانُ ؟
ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هِمَمٌ ... أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ ؟
يا مَن لذِلَّةِ قومٍ بعد عِزِّهِمُ ... أحالَ حالَهمُ كفرٌ وطغيانُ ؟
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلهِمْ ... واليومَ همْ في بلادِ الكفرِ عُبدانُ !
فلو تراهم حيارَى لا دَليلَ لهم ... عليهمُ من ثيابِ الذلِّ ألوانُ !
ولو رأيت بُكاهمْ عند بَيْعِهِمُ ... لَهالكَ الأمرُ واستَهوَتْكَ أحزانُ !
يا رُبَّ أُمٍّ وطِفلٍ حِيلَ بينهما ... كما تَفرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ
وطَفلة مثلِ حُسْنِ الشمسِ إذْ طلعتْ ... كأنما هيَ ياقوتٌ ومَرْجانُ [1]
يَقودُهَا العِلجُ للمكروهِ مُكرَهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حَيْرانُ !
لمثل هذا يذوب القلبُ من كَمَدٍ ... إنْ كانَ في القلب إسلامٌ وإيمانٌ ! [2]

والطابع الغالب على هذا اللون من الرثاء هو الأسَى العميق ، والتماسُ العظة والتأسي في قيام الدول ثم زوالها منذ القدم ، وإرجاعُ نكبتهم إلى فعل الدهر حينا وإلى أنفسهم حينا آخر ، وتصويرُ ما أصاب الإسلام والمسلمين في الأندلس من ذُلٍّ وهَوان ، وتعلُّقُهم بديارهم الجميلة التي أُجْلُوا عنها ، والتفجعُ على الأهل والرفاق المشردين ، والمقابلةُ القاسيةُ بين هَزْلِهم في حقهم ، وجِدٍّ عدوهم في باطله ، واستنهاضُ همم المسلمين في شتى الأقطار لمدِّ يَدِ المعونة إلى إخوانهم في الأندلس ، والدعوةُ للذود عن الإسلام

(١) امرأة أو جارية طفلة بفتح الطاء : أي رخصة ناعمة رقيقة .
(٢) نفح الطيب : ج ٦ ص ٢٣٢ .

والحُرُمات ، والتطلّعُ إلى المنقذ الذي ينضوون تحت علَمه في معركة المصير ، هذا المنقذ الذي يقول عنه أحد شعرائهم :

ألاَ رجلٌ له رأيٌ أصيلٌ به ممّا نحاذرُ نستجيرُ ؟
ويطعن بالقَنَا الخطّارِ حتّى يَقولَ الرمحُ : مَن هذا الخطيرُ ؟

هذا عن الطابع الغالب على رثائهم لمدنهم وللأندلس بصفة عامة ، أما عن طرائق تناولهم للموضوع ، فتكاد تكون متشابهة ، على الرغم مما فيها من تنوع ، ومن تفاوت في درجة جودة التعبير .

ومن الناحية الفنية تميزت مراثيهم لمدنهم بغلبة عنصر العاطفة عليها ، كما تميزت بالاعتماد أكثر على التشبيه والاستعارة في إبراز المعاني وتجسيمها ، وبث الحركة والحياة فيها ، ثم باللجوء إلى أسلوب الاستفهام البياني ، وخاصة ما يخرج منه عن معناه الحقيقي إلى التعجب والإنكار والتمني . ولا غرابة في ذلك ، فكم من المعاني التي فجّرتْها نكبة الأندلس في نفوسهم ، كان يدعو إلى العَجب أو الإنكار أو التمني !

— ٤ —

الشعر التعليميّ :

ويقال له أيضا : الشعر العلميّ . وهذا اللون من الشعر أبعدُ ما يكون عن الشعر بمعناه الخاص ، أي الشعر الفنيّ الذي يغلب عليه عنصرا الخيال والعاطفة ، ويهدف إلى الإمتاع والتأثير في النفوس .

والشعر التعليمي لا يلتقي مع الشعر الفنيّ إلاّ في صفة النظم فقط ، وأغلبه يأتي من الرجز المُزدوَج أو المزاوج ، وهو ما يستقل فيه شطرا كلّ بيت بقافية واحدة ، والقليل منه يأتي في غير الرجز من بحور الشعر ، ويلتزم قافية واحدة من مطلع القصيدة إلى ختامها .

والشعر التعليميُّ يُراد به الأراجيز والقصائد التاريخية أو العلمية ، التي جاءت في حُكْم الكتب ، وكذلك الكتبُ التي نظموها فجاءت في حكم الأراجيز والقصائد ، وهو ما يُعبَّر عنه المتأخرون بالمتون المنظومة ، كألفية الإمام محمد بن مالك في نحو العربية وغيرها مما يجمع قضايا العلوم والفنون وضَوابِطَها .

ومن أقدم ما وصل الينا في ذلك قصيدتان لبشر بن المعتمر [1] ، أوردهما الجاحظ في كتابه « الحيوان » في مَعرض كلامه عن الحشرات

(١) هو أبو سهل الهلالي ، من متكلمي المعتزلة ، وهو مؤسس فرع الاعتزال في بغداد . توفي سنة ٢١٠ هـ .

وأصناف الحيوان والوَحْش ، وقَدّم لهما بقوله :

« إن له — بشرِ بن المعتمر — في هذا الباب قصيدتين ، قد جمع فيهما كثيرا من هذه الغرائب والفرائد ، ونبّه على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة ، والموعظة البليغة . وقد كان يمكننا أن نذكر من شأن هذه السباع والحشرات بقدر ما تتسع له الرواية ، من غير أن نكتبهما — القصيدتين — في هذا الكتاب ، ولكنهما تجمعان أمورا كثيرة .

أما أول ذاك فإن حفظ الشعر أهونُ على النفس ، وإذا حُفِظ كان أعلقَ وأثبت ، وكان شاهدا ، وإذا احتيجَ لضرب المثل كان مثلا ، وإذا قسّمنا ما عندنا في هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين ، وقع ذكرُها مصنّفا ، فيصيرُ حينئذ آنقَ في الأسماع ، وأشدَّ في الحفظ [1] » .

والقصيدتان من بحر السريع ، وتلتزم كلتاهما قافية واحدة ، وتبلغ الأولى ستين بيتا ، والثانية سبعين بيتا . وفي مطلع الأولى يقول بشر بن المعتمر :

النــاسُ دَأْبــاً في طِلابِ الغِنـى ... وكلُّهم من شأنه الخَتْرُ [2]
كــأذْؤُبٍ تَنهَشُهــا أذْؤُبٌ ... لها عُواءٌ ولهـا زَفْـرُ [3]
تَراهمُ فَوْضَى وأيـدي سَبَـا ... كلٌّ له في نَفْثِهِ سِحْـرُ [4]
تبــارَكَ اللهُ وسبحانَــهُ ... بين يديـه النفْـعُ والضـرُّ

وفي مطلع القصيدة الثانية يقول بشر :

أَما تَرَى العالَـمَ ذا حُشْـوَةٍ ... يَقصُر عنها عَددُ القَطْرِ ؟ [5]

---

(١) انظر هذه المقدمة والقصيدتين وشرحهما في كتاب الحيوان للجاحظ : ج٦ ص ٢٨٣ وما بعدها.
(٢) الختر : الغدر .
(٣) الزفر والزفير : إخراج النفس بعد مده . والزفير : أول نهيق الحمار وشبهه ، والشهيق : آخره .
(٤) أيدي سبا : أي متفرقين في كل وجه ، والنفث : النفخ .
(٥) حشوة الناس : رذالتهم أو أراذلهم .

أوابدُ الوحشِ وأحنَاشُها   وكلُّ سَبْعٍ وَافرِ الظُّفْرِ [1]
وبعضُه ذو هَمَجٍ هَامِجٍ   فيه اعتبارٌ لذوي الفِكرِ [2]

وقد اشتهر هذا النمط من الشعر بعد بشر بن المعتمر ، ونظَم فيه الشاعر عبد الله بن المعتز في أواخر القرن الثالث الهجريّ قصيدة تاريخية ، تُعَد من كبريات القصائد في الشعر العربيّ ، إذ تبلغ ٤١٤ بيتا ، وقد نظمها على الرجز المزدَوج .

وفي هذه الأرجوزة الطويلة يسردُ ابن المعتز تاريخ مَن كانوا في عصره يتلاعبون بالخلافة الإسلامية العربية . ويصف فظائعهم . والشاعر ينظر إلى هذه القصيدة على أنها كتاب مستقل في « سِيَر الإمام أبي العباس » وإلى ذلك يشير بقوله :

هذا كتابُ سِيَر الإمامِ   مُهذَّباً من جَوْهَرِ الكلامِ
أعني أبا العباس خيرَ الخلقِ   للمُلْكِ ، قولُ عالمٍ بالحقِّ
قام بأمر المُلك لمّا ضَاعَا   وكان نَهباً في الورى مُشاعَا [3]

ومن ذلك الشعرُ الذي يحمل معانيَ التاريخ على جهة الفخر ، كالقصيدة الحمدانية التي نظمها أبو فراس الحمدانيّ في الفخر ، ذاكراً فيها أسلافه وآباءه وأعمامه وأهلَه والأقربين في الإسلام دون الجاهلية ، وهي قصيدة من البحر الطويل ، على قافية واحدة تبلغ ٢٢٥ بيتا ، ومطلعها :

لعل خيالَ العامرية زائرُ   فيُسعَدَ مهجورٌ ويُسعَد هاجرُ [4]

وقد ينظمون ذلك الشعر على جهة الفخر بالنظم نفسه، كما فعل أبوالعباس

(١) الأحناش : جمع حنش ، وهو كل شيء يصاد من الطير والهوام .
(٢) وهمج هامج : كل شيء ترك بعضه يموج في بعض .
(٣) ديوان ابن المعتز : ص ٤٨١ .
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني : ج ٢ ص ١٠٣ .

عبد الله بن محمد الناشىء الأكبر . المعروف بابن شرشير والمتوفي سنة ٢٩٣ هـ . فقد عدَّه ابن خلكان في طبقة ابن الروميّ والبحتريّ ونظرائهما وقال : « وله قصيدة في فنون من العلم على رَوِيٍّ واحد تبلغ أربعة آلاف بيت[١] .

ومن الشعر التعليميّ كذلك كتبُ الحكمة والأمثال التي نظمها المولَّدون لتسهيل حفظها ودراستها . وأهمُّ هذه الكتب كتابُ كليلة ودمنة الذي نقله عن الفارسية إلى العربية عبد الله بن المقفع ، فقد نظمه شعرًا أبانُ بن عبدالحميد اللاحقي شاعرُ البرامكة .

ومن هذا القبيل كتاب « الصادح والباغم » الذي نظمه ابن الهبّاريّة البغداديّ المتوفي سنة ٤٩٠ هـ ، على أسلوب كليلة ودمنة . وهو من الرجز المزدوج الذي يستقل فيه شطرا كلّ بيت بقافية واحدة .

والكتاب في ألفَيْ بيت نظمها ابن الهبّاريّة في عشر سنين ، وهو مليء بالقصص والحكم والأمثال والأقوال الأدبية التي ترمي إلى تقويم الأخلاق وتهذيبها . وفيما يلي بعض نماذج منه :

لا تقبلِ الدَّنيّةْ   لا تَخَفِ المَنيّةْ
لا تظلمِ الإخوانا   لا تأمنِ الزمانا

* * * *

مَن لَزِمَ القناعةْ   كانت له بضاعةْ
مَن صَحِبَ السلطانا   لم يأمن الطُّغيانا

* * * *

ليس على الخير نَدَمْ   ليس مع الذِّكْر عَدَمْ
ليس مع العقل لَعِبْ   ليس من الدِّينِ الكذب

* * * *

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان : ج ١ ص ٣٧٢ .

ما كلُّ قولٍ يُسْمَعُ　　ما كلُّ نُصْحٍ يَنْجَعُ
ما كلُّ عُذْرٍ يُقْبَلُ　　ما كل ذُلٍّ يُحْمَلُ
ما كلُّ ظَنٍّ يَصْدُقُ　　ما كلُّ غَرْسٍ يُورِقُ[1]

* * * *

هذا عن نشأة الشعر التعليميّ في المشرق واتجاهاته . وقد شارك شعراء الأندلس في الشعر التعليمي ، وتوسّعوا أكثر من المشارقة في الأراجيز والقصائد التاريخية .

وقد ابتدع متأخروهم لونا جديدا من الشعر التعليميّ يتمثل في نظم مُتونٍ في العلوم المختلفة ، تيسيرا للدارسين على استيعابها وتذكُّرها عند الاقتضاء لسهولة حفظ الشعر .

ومن أمثلة ذلك في علم النحو ألفية ابن معطى ، يحيى بن معطى الزواويّ المغربيّ المتوفي سنة ٦٢٨ هـ ، وألفية ابن مالك ، الإمام محمد بن عبد الله بن مالك الجيّاني المتوفي سنة ٦٧٢ هـ . ومنها ألفية لسان الدين بن الخطيب في الفقه ، وأرجوزته المسماة « المعلومة » في الطب ، وأرجوزته في السياسة المدنية ، وأرجوزته المسماة « المعتمدة » في الأغذية المفردة[2] .

ومنهم مَن نظم فنون البديع كمحمد بن جابر الأندلسيّ الضرير المتوفي سنة ٧٨٠ هـ ، فله بديعية من مائة وسبعة عشر بيتا ، ضمّنها نحو ستين فَنّاً بديعيّاً ، وسماها « الحلة السيرا في مدح خير الورى » ، ومطلعُها :

بطيبةَ انزلْ ويَمِّمْ سيِّدَ الأممِ
وانثُرْ له المدحَ وانشرْ أطيبَ الكَلِمِ

وكذلك فعل أبو الحسن الأنصاريّ الجيّانيّ المتوفي سنة ٥٩٣ هـ ، في نظم

---

(١) كتاب الصادح والباغم : ص ١١٥ — ١١٨ .

(٢) انظر ص هـ من مقدمة كتاب جيش التوشيح للسان الدين الخطيب ، تحقيق الأستاذ هلال ناجي .

كتابه « شذور الذهب في صناعة الكيمياء » . وقد قالوا فيه : « إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك صناعة الأدب [١] » .

لقد كان الأندلسيون رُوّادا في هذا اللون من الشعر التعليميّ ، ثم توسع العلماء فيه من مغاربة ومشارقة ، حتّى لنكاد نجد في كل علم وفَنٍّ أكثر من أرجوزة أو قصيدة تجمع مسائله .

وكان من إقبال العلماء على هذا الاتجاه وتفنُّنهم فيه أن نجد الآن بين أيدينا منظومات شتّى في علوم : التوحيد ، وأصول الفقه ، ومصطلح الحديث ، والفرائض « المواريث » ، والمنطق ، والنحو والصرف ، والعروض والقوافي ، وعلوم البلاغة ، والتجويد ، والرسم « الإملاء » ! بل لقد بالغ العلماء في هذا الاتجاه ، حتّى لنجد منظومات في علوم الفلك والحساب والهندسة ، والطب ، كألفية ابن سينا في الطب ، التي شرحها ابن المُهَنّا الطبيب ، تلميذ لسان الدين بن الخطيب [٢] . ومَن يرجع لكتاب مثل « مجموع المتون الكبرى » يجدْ أمثلة كثيرة لكل ذلك .

• • •

أما أراجيزُ الأندلسيين وقصائدُهم التاريخية ، فأول من التفت منهم إلى هذا الاتجاه يحيى بن حَكَم الغَزَال ، شاعرُ عبد الرحمن الأوسط بن الحكَم في القرن الثالث الهجريّ .

فللغَزَال هذا أرجوزةٌ تاريخية طويلة ، نظمها في فتح الأندلس ، وذكر فيها السبب في غزوها ، وفَصّل الوقائع بين المسلمين وأهلِها ، وعدّدَ الأمراء عليها وأسماءهم ، فأجاد وتقصّى ، وكان للأندلسيين بها شغف إلى آخر عصورهم [٣] .

• وتَلاَ الغزَال من شعراء الأندلس في نظم السِّيَر التاريخية ، الشاعر

---

(١) نفح الطيب : ج ٥ ص ١٤٠ (٢) نفح الطيب : ج ١٠ ص ١٤٢ .

(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي : ج ٣ ص ٢٧٢ .

أبو عمر أحمد بن عبدِ رَبِّه ، صاحبُ العِقد الفريد ، والمتوفى سنة ٣٢٧ هـ ، فله أرجوزة طويلة مزدوجة تبلغ ٤٤٣ بيتا .

وقد نظم ابن عبد ربه في أرجوزته هـذه كلَّ مغازي أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠١ إلى سنة ٣٢٢ هجرية ، وما فتح الله عليه فيها في كل غَزَاة غزاها . ومن هذه الأرجوزة قوله في مطلعها :

أقول في أيـام خـير النـاس ومَن تحلّى بالندى والبـاسِ
ومَن أبـادَ الكفر والنفاقـا وشرَّد الفتنـة والشقاقـا

ونحن في حنادسٍ كـالليـل وفتنة مثـلِ غُثـاءِ السيـلِ
حتى تولّـى عابـدُ الرحمن ذاك الأغرُّ من بني مروانِ

خليفةُ الله الذي اصطفـاهُ على جميع الخلق واجتبـاهُ
من مَعْدن الوَحْيِ وبيتِ الحكمةْ وخير مَنسوبٍ إلى الائمـةْ

ومنها قوله في أول غزاة غزاها الناصر :

ثم انتحَـى جَيّانَ في غَزاتِـهِ بعسكر يسْعَر مـن حُماتِـه
فاستنزلَ الوَحْشَ مـن الهضـابِ كأنمـا حُطّتْ من السَّحـابِ
فأذعنتْ مُرّاقُهـا سِراعَـا وأقبلتْ حصونُهـا تَداعَى
لولا الإلهُ زُلزِلـتْ زِلزالَهـا وأخرجت من رهبـة أثقالَهـا
وافتتح الحصونَ حِصْنـاً حِصْنَا وأوسعَ الناسَ جميعاً أمْنَـا
ولم يـزل حـتى انتحَـى جَيّانَا فلم يدعْ بأرضها شيطانـا [1]

• ومنهم أبو طالب عبد الجبّار من أهل جزيرة شُقْر ، والمعروف بالمتنبي ، فله أرجوزة مزدوجة في التاريخ تبلغ ٤٥٥ بيتا .

---

(١) العقد الفريد : ج : ٤ ص ٥٠٠ .

وقد استهلها بمقدمات في أصول الاعتقادات ، ومنها انتقل إلى التأريخ لبدء الخليقة وذَرْءِ الخَلْق بآدم وحواء ونسلهما الذي ملأ الأرض ، ثم عدّدَ الأنبياء المنصوص على قصصهم في القرآن ، حتّى إذا استوفى ذلك ، انتقل فأرّخ للخلفاء الراشدين ومن تلاهم من بني أمية ، والدولة العباسية حتّى خلافة المسترشد بالله «٥١٢ – ٥٢٩ هـ» وهو العصر الذي نظم فيه أرجوزته .

ثم نراه بعد ذلك يؤرخ لدولة بني أمية في الأندلس ومن تلاهم من ملوك الطوائف والمرابطين حتّى عصر عليّ بن يوسف بن تاشفين الذي ختم به أرجوزته ، أي إلى الثلث الأول من القرن السادس الهجري .

ولكي نُلِمّ بطريقة أبي طالب عبد الجبّار في نظم الأحداث التاريخية ، نورد فيما يلي نموذجا من أرجوزته يؤرخ فيه لنهاية ملوك الطوائف وقيام دولة المرابطين بالأندلس ، وذلك إذ يقول :

ثم تمادتْ هذه الطوائفُ ... تَخلُفُهمْ من آلِهمْ خَوالِفْ
دانتْ بدِينِ الجَوْرِ والعُدولِ ... إذْ سُلِبتْ عقائلَ العقولِ[1]
فأهملوا البلادَ والعِبادَا ... وعَطّلوا الثغورَ والجهادَا
واشتغلتْ أذهانُهمْ بالخمرِ ... وبالأغاني وسماعِ الزَّمْرِ
وزادهم في الجهلِ والخِذلانِ ... أنْ ظاهروا عصابةَ الصُّلْبانِ
لِما طوتْ صدورُهم من غِلِّ ... ولاختبار البعضِ حالَ الكُلِّ
فاستولتِ الرومُ على البلادِ ... واستعبدوا حرائرَ العِبادِ
وقتلوا الرجالَ كيفَ شاءُوا ... وضاعَ دَلْوُ الدِّين والرِّشاءُ
وإذْ أطال القومُ ، أسرَى القَدَرُ ... نَحْوَهُمُ خَسْفاً ومـا إنْ شَعروا

* * * *

فإذْ أرادَ اللهُ نصرَ الدِّينِ ... استصرخَ الناسُ ابنَ تاشفينِ
فجاءهم كالصبح في إثْرِ الغَسَقْ ... مُستدرِكاً لما تبقّى من رَمَقْ
وَافَى أبو يعقوبَ كالعُقَابِ ... فجرّدَ السيفَ عن القِرابِ

(١) العقائل : جمع عقيلة ، وعقيلة كل شيء : أكرمه

ووصلَ السَّيْرَ إلى الزَّلاَّقةْ ... وساقَهُ ليَوْمِها ما ساقَه
لله دَرٌّ مثلها من وقْعَةْ ... قامتْ بنصرِ الدِّين يومَ الجمعةْ
وثُلَّ للشِّرْكِ هناك عَرشُهْ ... لم يُغنِ عنه يومَه أذْفُنْشُهْ
فوجبَ الخَلْعُ لذي الخَلاعَةْ ... وصَرَّحُوا ليوسف بالطاعة
واتصل الأمرُ على نظامِ ... وامتد ظلُّ اللهِ للإسلامِ [1]

* ولشاعر المَرِيَّة أبي عبد الله محمد بن الهواري ، المعروف بابن جابر ، قصيدة طويلة من بحر الطويل على رَوِيٍّ واحد ، في فضائل الصحابة العشرة وأهل البيت . ومن هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان ، وعلي بن أبي طالب ، والحسن ، والحسين ، وحمزة ، والعباس .

ومن هذه القصيدة في فضائل أبي بكر الصديق يقول ابن جابر :

فمنهم أبو بكر خليفتُه الذي ... له الفضلُ والتقديم في كل مَشْهَدِ
وصِدِّيقُ هادي الخلق ، والمؤثرُ الذي ... لإنفاقه للمال في الله قد هُدِي
وصاحبُه في الغار إذ قال : لا تخفْ ... فثالثُنا ذُو العرشِ أوثقُ مُنْجِدِ
وقال رسول الله : إن أَمَنَّكُم ... عليَّ أبو بكر وأَوْفَى بمَوْعِدِ
فصدَّقَ إذْ كذبتمُ ، وأطاعَ إذْ ... عَصَيْتمْ ، ووافَاني مُوافاةَ مُسعِدِ
ولو أنني من أمّتي كنت آخذاً ... خليلاً تَولَّى خُلَّتِي وتَوَدُّدِي
لكان أبو بكر ، ولكنْ أُخوَّةٌ ... في الاسلام ، مهما تنقص الناس تَزْدَدِ

* ومنهم أخيرا الوزير لسان الدين بن الخطيب ، فكتابه « رَقْمُ الحُلَل في نظم الدول » يتضمن أرجوزة مزدوجة في تاريخ دول الإسلام . ويقول المَقَّرِيُّ عن كتاب « رقم الحلل » : هو في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة . وقد ابتدأه لسان الدين بقوله :

الحمدُ لله الذي لا يُنكِرُه ... مَن سَرَحَتْ في الكائناتِ فِكَرُه

(١) الذخيرة : ٢/١ ص ٤٠٤ — ٤٣١ .

(٢) نفح الطيب : ج ١٠ ص ٢١٧ .

ومنه قوله في الوليد بن يزيد :

ثم الوليدُ بنُ يزيدَ العائثُ ... قد نُقِلَتْ مِن فعله خَبائثُ

وفي آخر دولة بني أمية قوله :

وصارَ قَصْرُ المُلْكِ من أميّةْ ... أَقْفرَ رَبْعًا مِن ديارِ مَيَّة

وفي محمد الأمين بن الرشيد :

باعَ العُلاَ بشادنٍ وكَاسِ ... وصُحْبَةِ الشيخِ أبي نُواسِ

وفي المعتصم بن الرشيد :

وهْو الذي تألّفَ الأتْرَاكَا ... فَنَصَبُوا لقومه الأشرَاكَا

وفي الحكَم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل :

حتى إذا الدهرُ عليه احتكما ... قام بها ابنُه المُسَمّى حَكَمَا
واستشعرَ الثورةَ فيها وانْقَبَضْ ... مُسْتَوْحِشاً كالليث أقْعَى ورَبَضْ
وكان جبّاراً بعيدَ الهِمّة ... لم يَرْعَ من آلٍ بها أو ذِمّةْ

وفي أسباب فساد الحُكْم والسُّلطان:

ويَفسُدُ المُلْكُ بالاحتجابِ ... كذاك بالزَّهْوِ وبالإعجابِ [1]

---

(١) نفح الطيب : ج ٩ ص ٣٠٧ ، وانظر كذلك الإحاطة في أخبار غرناطة : ص ٤٩٠ .

الفصل الرابع

فنون الشعر الأندلسي المحدثة

الموشحات الأندلسية

في الفصول السابقة عرضنا بالحديث لفنون الشعر التي قلّد فيها الأندلسيون المشارقة، كما عرضنا أيضاً للفنون التي توسّعوا بالقول فيها أكثر من المشارقة ، لظروف ومقتضيات نابعة من بيئتهم وحياة مجتمعهم اقتضت هذا التوسع .

وفي هذا الفصل نعرض لفنون الشعر التي استحدثوها ، ثم قلّدهم فيها المشارقة والمغاربة على السواء ، ولا سيما في العصور المتأخرة .

وأول هذه الفنون التي يرجع الفضل في استحداثها وابتداعها إلى الأندلسيين « فَن الموشّحات » . وقد أجمع مؤرخو الشعر العربيّ على أن « الموشحات » فَنٌ أندلسيٌّ خالص .

فابن بسّام صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » يقرر أن أهل الأندلس هم الذين وضعوا حقيقة صنعة التوشيح ونهجوا طريقتها [1] .

---

(١) الذخيرة : ١ / ٢ ص ١

وصلاح الدين بن أيبك الصفدي في كتابه « توشيع التوشيح » يقول : « الموشح فنٌ تفرّدَ به أهلُ المغرب ، وامتازوا به على أهل المشرق ، وتوسّعوا في فنونه ، وأكثروا من أنواعه وضروبه [1] » .

وابن خلدون في « مقدمته » يؤكد هذه الحقيقة بقوله : « وأما أهل الأندلس فلما كثُر الشعرُ في قُطرهم ، وتهذّبتْ مَناحِيه وفنونُه ، وبلغ التنميقُ فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنّاً منه سمّوه بالموشح [2] » .

ثم يستطرد ابن خلدون بعد ذلك إلى التعريف بطريقة الأندلسيين في نظم « الموشح » وذِكْرِ المصطلحات التي وضعوها لأجزائه ، وأهمّ الأغراض التي قالوه فيها ، وموقفِ الناس منه .

في ذلك كله يقرر ابن خلدون أنهم « ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا ، يُكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة . ويسمّون المتعددَ منها بيتاً واحدا ، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثرُ ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان عددُها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون ، كما يُفعَل في القصائد . وتجارَوْا في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناسُ جُملةً ، الخاصّةُ والكافّةُ ، لسهولة تناوله ، وقرب طريقه [3] » .

وقد عرّف به كذلك القاضي هبة الله بن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » بقوله : « الموشح كلام منظوم ، على وَزْن مخصوص ، بقوافٍ مختلفة . وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له : التام ، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ، ويقال له : الأقرع . فالتام ما ابتُدِئ فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتُدِئ فيه بالأبيات [4] » .

* * *

(١) توشيع التوشيح : ص ٢٠ .
(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٣٧ .
(٣) المرجع السابق
(٤) دار الطراز : ص ٤٣ .

سبب التسمية :

لا أحد ممن أرخوا لنشأة فن الموشحات قديما أو حديثا أشار إلى سبب تسميته بهذا الاسم .

ولهذا تُرِك الأمرُ في ذلك إلى اجتهادات الدارسين لهذا الفن ، وكلُّها مستمدَّةٌ من معنى الوِشاح . فالوشاح في أصل الوضع اللغوي ، من حَلْيِ النساء ، وهو : كِرْسَانِ ، أي نظمان من لؤلؤ وجوهر منظومان ، مُخالَفٌ بينهما ، معطوفٌ أحدهما على الآخر ، تتوشّح به المرأة . والوشاح — كما يقول الجوهريُّ في الصِّحاح — شيء يُنسَج من أديمٍ عريضا ويُرصَّع بالجواهر ، وتشدُّه المرأة بين عاتِقَيْها وكَشْحَيْها .

فكل اجتهادات الدارسين في تعليل هذا الاسم ترجع في الواقع إلى هذا الأصل اللغوي . فمن قائل : « وأصل الموشح من الوشاح ، وهو عقد من لؤلؤ وجوهر منظومَيْن مُخالَفٌ بينهما معطوفٌ أحدهما على الآخر ، تتوشّح المرأة به ، والشَّبَهُ بين الموشحات والوشاح ظاهرٌ في اختلافِ الوزنِ والقافيةِ في الأبيات وجَمْعِها في كلام واحد [1] » .

ومن قائل : « وقد سُمِّي هذا الوزن بالموشّح لما فيه من ترصيع وتزيين وتناظر وصنعة ، فكأنهم شبّهوه بوِشاح المرأة المرصّع باللؤلؤ والجواهر [2] » .

ومن قائل : « والذي نراه في أصل هذه اللفظة — الموشح — أنها منقولة عن قولهم : ثوبٌ موشَّح ، وذلك لِوَشْيٍ يكون فيه ، فكأن هذه الأسماط والأغصانَ التي يُزيِّنُونه بها ، هي من الكلام في سبيل الوَشْي من الثوب ، ثم صارت اللفظة بعد ذلك عَلَما [3] » .

---

(١) بلاغة العرب في الأندلس لأحمد ضيف : ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢) في الأدب الأندلسي للدكتور الركابي : ص ٢٩٣ .

(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي : ج ٣ ص ١٦٠ .

فكل هذه الآراء — كما ترى — قريب من قريب . وإذا كان المؤرخونَ قد اختلفوا في سبب تسمية الموشحات ، فقد اتفقوا على أنها فَنٌ أندلسي خالص .

نشأة الموشحات :

اتفق المؤرخون — كما سبق أن ذكرت — على أن الموشحات فَنٌ أندلسيٌ خالص ، ولكنهم اختلفوا في مخترعها .

فمثلا أبو الحسن عليّ بن بسّام المتوفي سنة ٥٤٢ هـ يقول عن ذلك في كتابه الذخيرة : « وأولُ مَن صنع أوزانَ هذه الموشحات بأفُقنا واخترع طريقتها — فيما بلغني — محمد بن محمود القَبْريّ الضرير . وقيل : إن ابنَ عبدِ رَبِّه صاحب كتاب « العِقد » أولُ من سبق إلى هذا النوع من الموشحاتَ عندنا (١) » .

وابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ هـ يقول عن ذلك أيضا في مقدمته : « وكان المخترع لها — الموشحات — بجزيرة الأندلس مُقدَّمُ بنُ مُعَافَى القَبْرِيّ ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانيّ ، وأخذ عنه أبو عمر أحمدُ بنُ عبدِ رَبِّه صاحبُ كتاب العِقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسَدَتْ موشحاتُهما ، فكان أولَ مَن بَرَعَ في هذا الشأن بعدهما عُبادةُ القزاز (٢) ، شاعرُ المعتصم بن صُمادح صاحب المَريّة ... وزعموا

(١) الذخيرة : ١ / ٢ ص ١ .

(٢) وهم ابن خلدون في هذا الاسم ، وصوابه عبادة بن ماء السماء المتوفي سنة ٤٢٢ هـ ، أما عبادة القزاز فهو أبو عبدالله محمد بن عبادة ، المعروف بالقزاز ، وهو — كما يقول ابن بسام — شاعر متأخر عن عبادة بن ماء السماء ، وهو من شعراء القرن الخامس المبرزين في الموشحات ، ولكنه ليس بأول من برع فيها ، كما ذكر ابن خلدون . انظر في ذلك الذخيرة : ١ / ٢ ص ٢٩٩ .

أنه لم يسبق عبادةَ وشاحٌ من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف [1] » .

والاختلاف في حقيقة مخترعه لا ينفي حقيقة نشأته ووجوده ، وهذا ما يهمنا في المحل الأول ، إذ ليس لزاماً في فنّ متعدد العناصر متشعب الفروع كالموشحات أن يكون له مخترع واحد . فمن الجائز أن تكون الفكرة قد سنحت لخاطر شاعر فأبرزها في صورة مّا ، ثم التقطها منه بعض معاصريه ، وأسهموا معه في نشأتها ، أو في المرحلة الأولى من نشأتها ، كما هو الشأن في نشأة كثير من الفنون والعلوم .

وعلى هذا فكل ما يمكن قوله في هذا الصدد ، هو أن الموشحات ، كما يقول ابن خلدون ، قد ظهرت بجزيرة الأندلس في زمن الأمير عبد الله ابن محمد المرواني « ٢٧٥ – ٣٠٠ هـ » أي في أواخر القرن الثالث الهجري ، وأنه كان لهذين الشاعرين ، وربما لابن عبد ربه وغيرهم ، في مرحلتها الأولى محاولاتٌ فيها غيرُ ناضجة ، أصابها الكساد ، فلم يبلغنا خبرُها . ثم ظلت الموشحات بفضل مَن نظموا فيها بعد ذلك ترقي وتتطور ، حتى صارت فنا قائما بذاته على يد أبي بكر عُبادة بن ماء السماء ، المتوفي سنة **٤٢٢** هـ ، والذي يقول فيه ابن بسام : « وكان أبو بكر – عبادةُ بن ماء السماء – في ذلك العصر شيخَ الصناعة ، وإمامَ الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه: مَرحَباً وأهلا . وكانت صنعةُ التوشيح التي نهجَ أهلُ الأندلس طريقتَها ، ووضعوا حقيقتها ، غيرَ مرقومة البُرود ، ولا منظومةَ العقود ، فأقام عُبادة هذا مُنْآدَها [2] ، وقوَّمَ مَيْلَها وسِنادها ، فكأنها لم تُسمع بالأندلس إلاّ منه ، ولا أُخِذت إلاّ عنه ، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاتِه ، وذهب بكثير من حسناتِه [3] » .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٢٨ .
(٢) أقام منآدها : أي معوجها .
(٣) الذخيرة : ١ / ٢ ص ١ .

وإذا كانت الموشحات قد ظهرت في أواخر القرن الثالث ، فإن القرن الرابع قد شهد التفاتَ شعراء الأندلس اليها وإقبالَهم عليها .

ويبدأ تاريخ النبوغ في التوشيح بعصر الطوائف في القرن الخامس ، وكان ذلك على يد عبادة بن ماء السماء ، الذي يقال بأنه لم يسبقه وشاح من معاصريه ؛ ثم جاء مُصَلِّياً خلفَه ابنُ رافع رأسُ شعراء المأمون بن ذي النون ، صاحب طليطلة . قالوا : وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول :
العودُ قد ترنمْ * بأبدع تلحينْ * وسَقَتِ المذانبْ [1] * رياضَ البساتينْ
وفي انتهائها حيث يقول :

تخطَّرْ ولا تُسلِّمْ * عساك المأمونْ * مُرَوِّعُ الكتائبْ * يحيى بنُ ذي النونْ

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين أو المرابطين إلى القرن السادس ، فظهرت لهم البدائع . وسابقُ فرسان حلبتهم الأعمى التُّطيْلي ، ثم يحيى بن بقيّ المتوفي سنة ٥٤٠ هـ . وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، والحكيمُ أبو بكر بن باجة صاحبُ التلاحين المعروفة .

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف ، وأبو إسحاق الرُّدَيْنِيّ ، وابن هرَوْدِس . وسابق هذه الحلبة ، وحسنة هذه المائة السادسة ، الفيلسوف أبو بكر بن زُهْر المتوفي سنة ٥٩٥ هـ ، وقد شرَّقتْ موشحاته وغرَّبتْ . وفيه يقول عبد الواحد المراكشي : « هو الإمام المقدَّم في الموشحات خاصة ، وطريقتُه هي الغاية القصوى التي يجرى كلٌّ مَن بعدَه اليها ، وهو آخر المجيدين في صناعتها [2] » .

واشتهر بعده ابن حَيُّون . والحسن بن سهل بن مالك ، وعبد الرحيم بن الفَرَس الغرناطيّ ، ثم نبغ ابنُ حَزْمون بمُرْسية ، وأبو بكر الصابوني . واشتهر ببرِّ العُدوة ابن خلف الجزايريُّ ، وابن خُرز البجائيّ ، ولكن الذي

---

(١) الجداول .

(٢) المعجب للمراكشي : ص ٦٣ .

انفرد بشهرة هذه المائة السابعة إبراهيم بن سهل الإسرائيلي ، شاعرُ إشبيلية وسَبتة من بعدها ، والذي مات غريقا سنة ٦٤٩ هـ .

وكان نابغة المائة الثامنة في الأندلس الوزير أبو عبد الله لسانُ الدين ابن الخطيب ، شاعر الأندلس والمغرب لعصره . والذي نسج على منوال ابن سهل الإسرائيلي في الموشحات ، وانتهت اليه رياسة هذا الفن . وكان من أبرع تلاميذه في ذلك ابنُ زُمْرُك ، وزير الغنيّ بالله محمد الخامس بن الأحمر ، ثم اشتهر بعده العربيُّ العقيليُّ الوشاح ، ثم ظهر في النصف الأول من المائة التاسعة أبو يحيى بن عاصم الذي يقول عنه الأندلسيون إنه ابن الخطيب الثاني .

هذا عن ألمع رجال الموشحات بالأندلس في عصورها المختلفة ، أما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانَوْهُ من الموشحات . ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك التي اشتهرت شرقا وغربا ، ومطلعها :

يا حبيبي ارفعْ حجابَ النُّور عن العذارْ
ننظرِ المسك عـلى الكافـورْ في جُلَّنَارْ

كَلّلِي * يا سحبُ تيجان الرُّبَى * بالحُلِي . واجعلي * سِوارها مُنعطَفَ الجدولِ [1] .

* * *

بناء الموشح :

والموشح في بنائه يتركب من أجزاء معيّنةٍ تواضعَ عليها الوشّاحون ، والتزموها في صنع موشحاتهم ، وأعطَوْها مصطلحات عُرِفَتْ بها .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٣٨ - ١١٥٣ ، وانظر كذلك تاريخ آداب العرب للرافعي : ج ٣ ص ١٦٨ .

وهذه الأجزاء هي : المطلع أو المذهب ، والقُفل ، والخَرْجَة ، والغصن ، والدَّوْر ، والسِّمط ، والبيت .

وقد يكون من المناسب أن نورد هنا إحدى الموشحات ، للاستعانة بها على توضيح مدلولات هذه المصطلحات التي أطلقها الوشاحون على الأجزاء التي تتركب منها الموشحة عادة . وهذه الموشحة هي لأبي بكر محمد بن زُهْر الإشبيليّ المتوفي سنة ٥٩٥ هـ ، وهي من مجزوء الخفيف . قال أبو بكر :

سَلِّمِ الأمرَ للقضَا فهْوَ للنفس أنفعُ

* * * *

واغتنمْ حينَ أقبلاَ
وَجْهَ بَدْرٍ تَهلّلاَ
لا تقلْ بالهموم لاَ
كلُّ مافَاتَ وآنقضَى ليس بالحزن يَرجِع

* * *

واصطبحْ بابنة الكرومْ
مِن يدَيْ شَادِنٍ رخيمْ
حين يَفترُّ عن نَظِيمْ
فيه برقٌ قدَ آوْمَضَا ورحيقٌ مُشَعْشَعُ

* * *

أنا أفديهِ من رَشَا
أهيفِ القَدِّ وَالحَشَا
سُقِيَ الحُسْنَ فانتشى

مُنْذ تَولّى وأعرَضَا ففؤادي يُقطَّع

* * *

مَن لِصَبٍّ غَدَا مَشُوقْ
ظلَّ في دمعِه غَريقْ
حينَ أَمُّوا حِمَى العَقِيقْ
وَاستقلُّوا بذي الغَضَا أَسَفِي يومَ وَدَّعُوا

* * *

ما تَرَى حينَ أظْعَنَا
وسرَى الرَّكْبُ مَوْهِنَا [1]
واكتسَى الليلُ بالسَّنَا
نورُهم ذا الذي أضَا أمْ معَ الركبِ يُوشَعُ ؟ [2]

* * *

وفيما يلي الأجزاء التي يُبنَى منها الموشح أو الموشحة عادة ، مع التعريف بكلٍ منها على ضوء موشحة أبي بكر بن زُهْر :

(١) المطلع :

المطلع اصطلاح يُطلَق على القُفل الأول من الموشحة، وهو يتألف عادة من

(١) الموهن : نصف الليل ، أو بعد ساعة منه .

(٢) نفح الطيب : ج ٣ ص ١٩ ، وفي ذكر يوشع إشارة الى قصة يوشع بن ذي النون فتى موسى واستيقافه الشمس . فقد روي أن يوشع قاتل الجبارين في يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب ، خاف أن تغيب قبل فراغه منهم ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

شطرين أو أربعة أشطر . وهو هنا في موشحة ابن زهر يتألف من شطرين ، أو غصنين هما :

سَلِّمِ الأمرَ للقَضا فهْو للنفس أنفعُ

وقد تختلف قافية الشطرين أو الغصنين ، كما هو الشأن في هذا المثال ، وقد تتفق القافية : كما هو الشأن في المطلع التالي لإحدى موشحات ابن اللبّانة :

سامِرُوا مَن أَرِقَا وارْحموا مَن عَشِقا[1]

ويُسمّى الموشح « تاما » إذا بدأ بالمطلع أو القفل الأول ، فإذا خلا من المطلع أو القفل الأول سُمِّيَ « بالموشح الأقرع » .

(٢) القُفل :

وهو الجزء المتكرر في الموشحة والمتفق مع المطلع أو القفل الأول في وزنه وقافيته وعدد أجزائه . فالقفل الثاني في موشحة ابن زهر ، والذي يجيء بعد المطلع أو القفل الأول هو :

كلُّ ما فاتَ وانقضى ليس بالحزن يرجعُ

والقفل الثالث فيها هو :

فيه برقٌ قدَ اومْضا ورحيقٌ مُشَعْشَعُ

والقُفل ، كما تقدم ، يتردد في الموشح التام ست مرات ، وفي الموشح الأقرع خمس مرات .

* * *

(١) جيش التوشيح للسان الدين ابن الخطيب : ص ٦٩ .

(٣) الخــرجــة :

والخَرْجة عبارة عن القفل الأخير من الموشحة . وهي في موشحة ابن زُهْر تتمثّل في قوله :

نُورُهمْ ذا الذي أَضَا أَم مع الركب يُوشَعُ ؟

والفرق بين المطلع والأقفال والخرجة ، أن المطلع غيرُ مُلتزَم في الموشح كعنصر أو جزء أساسيٍ داخلٍ في بنائه ، فإذا ورد فيه ، فهو الموشح التام ، وإذا ورَد بدونه فهو الموشح الأقرع . أما الأقفال والخرجة فيُشكّلان جزءين أساسيين في بناء الموشح ، وبدونهما لا يُسمّى الموشح موشحا .

والخرجة ثلاثة أنواع : خرجة مُعرَبة الألفاظ فصيحة ، وخرجة ملحونة الألفاظ عامية ، وخرجة أعجمية الألفاظ . والخرجتان الأخيرتان تكثران في الموشحات التي يُتغنّى بها ، وكأن القصد منهما هو الإشعار عند وصول المغني اليهما بأن هذا هو ختام الموشح . أما الخرجة العربية الفصيحة فتتميز بها الموشحات الشعرية التي تقال في الغزل أو المدح أو ما أشبه ذلك .

ويفضّل الوشاحون أن تكون الخرجة عامية مستمدةً من ألفاظ العامة ولغات الدّاصَة ، أي اللصوص والسِّفْلَة ، وذلك على سبيل التظرف والمجون والغرابة .

وعن ذلك يقول ابن سناء الملك : « والشرط فيها ـ الخرجة ـ أن تكون حَجّاجيّةً [1] من قبَل السُّخْف ، قُزمانية [2] من قبَل اللحن ، حارّة محرقة ، حادّةً مُنضِجة ، من ألفاظ العامة ، ولغات الدّاصَة . فإن كانت مُعرَبةَ الألفاظ منسوجةً على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقفال ،

---

(١) نسبة الى ابن حجاج البغدادي الشاعر المشهور بالخلاعة والمجون ، والمتوفي سنة ٣٩١ هـ .

(٢) نسبة الى أبي بكر بن قزمان القرطبي إمام الزجالين ، والمتوفي سنة ٥٥٤ هـ .

خرج الموشح من أن يكون موشحا ، اللهم إلاَّ إن كان موشحَ مدح ، وذُكِر الممدوح في الخرجة ، فإنه يحسن في هذه الحالة أن تكون الخرجة مُعرَبَه ، كقول ابن بَقِيّ :

إنمــا يحيى سليــلُ الكرامْ   واحدُ الدنيا ومَعْنَى الأنامْ

وقد تكون الخرجة مُعرَبَة ، وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ، ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غَزِلةً جدا ، هزَّازةً سحّارةً خلاَّبة . بينها وبين الصّبابة قرابة ، وهذا مُعجِز مُعْوِز ، وما يوجد منه في الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة ، كقول ابن بقيّ :

ليــلٌ طويــلٌ ومــا مُعينْ   يا قلبَ بعضِ الناس أماتَلينْ ؟

فمن قدر أن يقول هكذا فلْيُعْرِبْ ، وإلاّ فلْيُغْرِبْ [1] » .

نماذج الخرجة :

• ومن الخرجة المُعْربة الفصيحة في الغزل ، خرجةٌ اجتزأناها هي والدورَ الذي قبلها من موشح لأبي بكر بن زُهْر :

كَبِدي حَرَّى ودمعي يَكِفُ
يعرِف الذنبَ ولا يعــترِفُ
أيُّهــا المُعرِضُ عمّــا أَصِفُ

قد نَمَا حبُّك عندي وزَكَــا   لا تقلْ في الحبِّ إني مُدَّعِي [2]

• ومن الخرجة المُعرَبَة الفصيحة أيضا ، خرجة اجتزأناها هي والدورَ

---

(١) دار الطراز لابن سناء الملك : ص ٣٠ – ٣١ .

(٢) جيش التوشيح : ص ٢٠٤ .

الذي قبلها من موشح لابن زُمْرُك يمدح فيه السلطان الغنيّ بالله ابن الأحمر ويهنئه بالشفاء . قال :

فهنيئاً بالشِّفا يا أميرَ المؤمنينْ
ولنا حقَّ الهَنا وجميعِ العالمينْ
إنْ جهَرْنا بالدُّعا ينطقِ الدهرُ أمينْ
دُمتَ محروسُ المكارمْ بظُبَا البيضِ الصوَارِمْ[1]

• ومن الخرجة العامية ، نورد هنا خرجةً مع الدور الذي قبلها ، من موشح لأبي العباس أحمد بن عبد الله ، المعروف بالتُّطَيْلي الضرير :

ألقاكَ عن عفْرِ فلا أُناجيكا إلاّ اشتياقْ
والله ما أدري قد التَوَى فيكا أمري وضاق
أشدُو وما عُذْري ألاّ أُقاضيكا إلى العِنَاقْ

يا ربّ ما اصبَرْني نرى حبيب قلبي ونعشقو
لو كان يكون سُنّةْ فيمَن لقي خِلُّو يعَنّقُو[2]

• ومن الخرَجات الأعجمية خرجةُ موشّح للوزير ابن المعلم أحدِ شعراء الطوائف ، وهي :

بنْ يا سحّارة
ألب قشت كن بلفغور
كند بني بدي أمور

وترجمة هذه الخرجة :

تعالَيْ ، يا سَحّارة !

---

(١) نفح الطيب : ج ١٠ ص ١٢٣ .
(٢) جيش التوشيح : ص ٤٥ .

الفجرُ الذي هو جميل كعادته
حين يجيء، يتطلّب حبيباً

* * *

(٤) الغُصْن :

الغصن هو اسم اصطلاحيٌّ لكل شطر من أشطر المطلع أو الأقفال أو الخرجة في الموشح . وتتساوى الأقفال والخرجة مع المطلع من حيث عددُ الأغصان وترتيبُها وقوافيها .

وأقل عدد للأغصان في مطلع أي موشح ، وكذلك في أقفاله وخرجته اثنان . وهذان الغصنان قد يكونان من قافية واحدة ، كقول أبي بكر يحيى ابن بقِيّ في مطلع موشح له :

حَيَّتْكَ أربعٌ وهُنَّ العُمُـــرْ   ظِلٌّ وماءٌ والمدامُ والوتَرْ [1]

وقد يكونان من قافيتين مختلفتين ، كقول أبي بكر بن زُهر في مطلع موشح له :

أيُّها السّاقي إليك المشتكَـــى   قد دَعَوْناكَ وإنْ لم تَسمعِ

* وقد تكون الأغصان من ثلاث قوافٍ متماثلة ، كقول الوزير أبي بكر ابن رحيم :

مَن صَبَا كما أصبُو * فهْو للصَّبَا نَهْبُ * واعلمَ أيُّها القلبُ [2]

* وقد تكون من ثلاث قواف مختلفة ، كقول أبي بكر السرقسطي :
سَقْياً لدهرٍ * قد نلتُ فيه اقتراحي * من رَشَا وَسْنانْ

---

(١) جيش التوشيح : ص ٢ .   (٢) المرجع السابق : ص ١٧٠ .

• وأكثر الموشحات تتكون أقفالها من أربعة أغصان على أي ترتيب من القوافي يراه الشاعر ، وذلك كموشح إبراهيم بن سهل الإشبيليّ المتوفى سنة ٦٤٩ هـ :

هل دَرَى ظبيُ الحِمَى أنْ قد حَمَى
قلبَ صَبٍّ حَلّهُ عن مَكْنَس

فهْو في حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما
لعبتْ ريحُ الصَّبَا بالقَبَسِ (١)

• وأقل ما يتركب منه القُفل جزءان ، ومن الأقفال ما يتركب من ثلاثة أجزاء فأكثر حتى تبلغ أحد عشر جزءا ، ولكن المبالغة إلى هذا الحد ضرب من التكلف ، عمد اليه بعض وَشّاحي المترق ، كابن نُباتة المصريّ وابن سناء الملك ، فلكل منهما موشح يتركب قُفله من عشرة أجزاء ، ولابن سناء الملك موشح يتركب قُفله من أحد عشر جزءا (٢) .

* * *

(٥) الدَّوْر :

والدور هو ما يأتي بعد المطلع في الموشح التام ، وإن كان الموشح أقرعَ ، فإن الدور يأتي في مستهلّ الموشح .

وعلى سبيل المثال ففي موشح أبي بكر محمد بن زهر الذي أوردناه كوسيلة إيضاح عند الكلام على بناء الموشح ، نجد أول دور فيه هو قوله :

---

(١) نفح الطيب : ج ٩ ص ٢٧١ .
(٢) انظر في ذلك ديوان ابن نباتة : ص ٥٩٤ ، وكذلك دار الطراز لابن سناء الملك : ص ٩٧

واغتنمْ حــينَ أقبــلاَ
وجــهَ بــدرٍ تَهلّلاَ
لا تقــلْ بالهموم لاَ

فهذا الدور – كما نرى – يتكون من ثلاثة أشطر أو أسماط ذات قافية واحدة ، ثم يعقبه قـُفل يليه الدور الثاني وهو قوله :

واصطبحْ بابنة الكرومْ
من يَدَيْ شادنٍ رخيمْ
حين يَفــترُّ عن نظيمْ

ثم يأتي قفل يليه الدور الثالث ، وهكذا حتى ختام الموشح . ويشترط في الدور أن يكون وزنه من وزن المطلع أو القفل الأول ، ولكن قافيته الموحدة في أشطره أو أسماطه تختلف عن قافية المطلع . وليس للموشح عدد معين من الأدوار يلتزم به الوشاح ، وإن كان ابن سناء الملك قد لاحظ أنها في أغلب الموشحات لم تتجاوز خمسة أدوار .

والموشحات التي لم تتجاوز خمسة أدوار هي في الغالب « الموشحات الغنائية » أي التي كانت تـُنظـَم أصلا ليُتغنّى بها ، أما « الموشحات الشعرية » فلم يتقيد الوشاحون فيها بعدد معين من الأدوار ، كما هو الشأن في موشحات المتأخرين من أمثال لسان الدين بن الخطيب وتلميذه ابن زُمـْرُك ومَن عارضوهما في بعض الموشحات . فمن هؤلاء مَن بلغ عدد الأدوار في بعض موشحاته عشرة أدوار ، كموشحة لسان الدين بن الخطيب التي مطلعها :

جــادك الغيثُ إذا الغيثُ هـَمَــى   يــا زمانَ الوصل بــالأنــدلسِ

لم يكن وَصْلُــكَ إلاَّ حُلُمَـــا   في الكَرَى أو خِلْسَةَ المختَلِسِ (١)

* * *

(٦) السِّمط :

والسمط هو اسم اصطلاحيٌّ لكل شطر من أشطر الدور . ولا يقل عدد الأسماط في الدور الواحد من الموشح عن ثلاثة ، وقد تزيد عن ذلك العدد إلى أيِّ عدد يرتئيه الوشّاح . ويشترط في قوافي أسماط كل دور أن تكون على رَوِيٍّ واحد .

وعدد أسماط الدور الأول من الموشحة هو الذي يحدد عددها في سائر أدوار الموشحة . فاذا كان عدد أسماط الدور الأول ثلاثة أو أربعة مثلا ، التزم الوشاح بهذا العدد في الأدوار الأخرى من الموشحة . وإذا عدنا إلى موشحة ابن زهر السابقة ، رأينا أن الدور الأول فيها يتألف من ثلاثة أسماط أو أشطر ، وأن الشاعر قد التزم بهذا العدد في بقية أدوار موشحته .

وقد يكون السِّمط مفردا ، أي مكونا من فقرة واحدة ، كما هو الحال في موشحة ابن زُهْر ، وقد يكون مركبا من فقرتين كقول أبي الوليد يونس الخباز في الدور الأول من موشحة له :

جعلتُ حَظِّـــيَ منهُ   بـــين الرَّجَـــا والتمنّي
لم أُظهرِ اليـــأسَ عنـــهُ   لمـــا أطـــال التّجنّي
بل قلت : يا قلب صُنْهُ   لديك عـــن سوء ظَـــنٍّ (٢)

فهذا الدور ، كما نرى ، ثلاثة أسماط أو أشطر ، يتألف كل واحد منها من فقرتين .

---

(١) نفح الطيب : ج ٩ ص ٢٢٥ .

(٢) جيش التوشيح : ص ١٤٥ .

وقد يكون السمط مركبا من أكثر من فقرتين ، كقول ابن بقيّ في الدور الأول من موشحة له :

بَدْرُ تَمّ * شمسُ ضُحَى * غُصْنُ نَقَا * مِسْكُ شَمّ
ما أتمّ * ما أوْضَحَا * ما أوْرَقَا * ما أنَمّ
لا جَرْمْ * مَن لَمَحَا * قد عَشِقَا * قد حُرِمْ [1]

فالدور هنا مؤلف من ثلاثة أسماط ، يتركب كل سمط منها من أربع فقرات ، وقد يزيد الوشّاح في عددها إذا أراد . وعدد فقرات السمط الأول من الدور الأول من الموشحة ، هو الذي يحدد عدد الفقرات في جميع أسماط الموشحة . فالسمط الأول من موشحة ابن بقي هنا مركب من أربع فقرات ، ولذلك التزم الشاعر هذا العدد في بقية أسماطها .

وعلى الوشّاح أن يلتزم في الأسماط التي تزيد على فقرتين ترتيب القوافي الداخلية لكل سمط ، وإلاّ عُدّ ذلك عيبا في الموشحة .

(٧) البيت :

ومفهوم البيت في الموشحة غيرُ مفهومه في القصيدة التقليدية . فالبيت في الموشحة يتكوّن عادة من الدور ومن القفل الذي يليه مجتمعَيْن. وعلى سبيل المثال فالبيت الأول من موشحة ابن زُهْر السابقة هو :

* * *

واغتنِمْ حين أقبلاَ
وجهَ بدرٍ تهلّلا
لا تقلْ بالهموم لاَ

---

(١) جيش التوشيح : ص ١٤٥ .

كل ما فاتَ وانقضى ليس بالحزن يرجع

والبيت الثاني منها هو :

واصطبحْ بابنة الكرومْ
مِن يَدَيْ شادنٍ رخيمْ
حينَ يفترُّ عن نظيمْ

فيه بَرْقٌ قدَ اوْمَضَا ورحيقٌ مُشَعْشَعُ . وهكذا ...

والبيت في الموشحة نوعان : بسيط ومركب . **فالبيت البسيط** ما كان أعدادُ أسماط دوره ثلاثةً أو أربعة أو خمسة . والنوع الشائع في الموشحات من البيت البسيط هو ما كان عدد أسماط دوره ثلاثة . ومن أمثلة ذلك البيتان السابقان من موشحة ابن زُهر .

أما البيت البسيط الذي يتألف دوره من أربعة أو خمسة أسماط فوجوده في الموشحات قليل . ومن أمثلة ما يتألف دوره من أربعة أسماط البيتُ التالي ، وهو من موشحة للوزير أبي بكر الداني ، المعروف بابن اللبّانة :

ليت شعري هل دَرَى
مَن نفَى عني الكرَى
أنه لو أمَرا
لتَوَخيْتُ السُّرَى

وَادَّرَعْتُ الغَسَقَا مثلَ نجمٍ طرَقَا ؟[1]

أما البيت المركب في الموشحة فهو ما تألف كل سِمط من دَوره من فقرتين أو ثلاث أو أربع أو خمسٍ فقرات .

---

(١) جيش التوشيح : ص ٦٩ .

• ومن أمثلة البيت المركب الذي يتألف دوره من ثلاثة أسماط ، وكل منها مؤلف من فقرتين قول أبي عيسى بن لَبُّون :

سَلاَّبُ النفوسْ أميرٌ قديرٌ مُسَلَّطْ
الدرُّ النّفيسْ مِن فيه إذا فَاهَ يُلْقَطْ
قمرٌ للجليسْ ووَرْدٌ بمسك مُنقَّطْ
فما يَمثُلْ إلا وترَى السِّحرَ يَسْجُدُ(١)

• ومن الأبيات المركبة ما تتألف أسماط دوره من ثلاث فقرات ، وذلك كقول أبي العباس التُّطَيْلِيّ الضرير في إحدى موشحاته :

اللهَ مَا أقربْ • على مُحِبِّيهِ • وأبعدَا !
حُلوُ اللّمَى أشْنب • آسَى الضّنَى فيهِ • وأسعدا
أَحبِبْ به أَحبِبْ • ويا تَجَنِّيهِ • طالَ المدَى

أما ترَى حُزْني • ناراً على قلبي تحرِقْ ؟
حُبِّي له جَنّةْ • يا ماءُ يا ظلُّ • يا رَوْنَقْ ! (٢)

وتجدر الاشارة هنا إلى أن الموشحات التي تتألف أسماط أدوارها من ثلاث فقرات فأكثر ، تكون أقفالها في الغالب مزدوجة ، ومؤلفةً هي الأخرى من أكثر من فقرتين . وكأن طبيعة الموشحات ذاتِ الأبيات المركبة تقتضي التنويع أيضا في فقرات أقفالها المزدوجة .

كذلكَ تجدر الإشارة إلى أن القُفل في الموشحة قد يُسمّى لازمة ، إذا كان القُفلُ مؤلفا من بيتين صدراهما من قافية واحدة وعَجُزَاهُما كذلك ، ثم يأتي بعد ذلك دَوْرٌ من ثلاثة أسماط ، كلٌّ سمط منها فقرتان ، متفقةٌ صدورُها في القافية وكذلكَ أعجازها ، ثم يلي ذلك قُفلٌ آخر ، وهكذا حتى ختامِ الموشح ، ومن أمثلة ذلك قول ابن زُمرُك من موشحة له :

* * *

---

(١) جيش التوشيح : ص ١٦٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٣ .

قد طلعتْ رَايــةُ الصبــاحِ وآذنَ الليــلُ بالرحيــلْ
فباكرِ الروضَ باصطبــاحِ واشربْ على زهرهِ البليــلْ

* * *

فالوُرْقُ هَبّتْ من السُّبــاتِ لمِنبرِ الــدّوْحِ تخطــبْ
تسجعُ مُنْتَنَّــةَ اللغــاتِ كلٌّ عن الشوق يُعْــرِبْ
والغصنُ بعد الذّهاب يَــاتي لأكــؤسِ الطّلِّ يشربْ

* * *

وأدمعُ السُّحْب في انسيــاحِ في كلِّ روضٍ لها سبيــلْ
والجوُّ مُسْتَبْشِرُ النّواحِي يلعب بالصارم الصقيــلْ (١)

* * *

أوزان الموشحات :

يختلف علم العروض أو علم أوزان الشعر العربيّ عن سائر العلوم من حيث النشأة . فإذا كان كل علم ينشأ أو يُستحدث إنما ينمو باشتغال علمائه به جيلاً بعد جيل وعصرا بعد عصر حتى يبلغ ذروة نضجه واكتماله ، فإن العروض قد أخرجه الخليل بن أحمد عِلما يكاد يكون متكاملا . ولعل ذلك هو السرُّ في أن مَن أتى بعد الخيل من العروضيين أو الشعراء ، لم يستطيعوا أن يزيدوا على عروضه أي زيادة تُذكَر أو تمَس الجوهر .

فمنذ أن فرغ الخليل من حَصْر الشعر العربيّ في خمسة عشر بحرا تامــًّا مع بعض مجزوءاتها ، لم يحدث تطور أو تجديد في هذه الأوزان ، اللهم إلاّ زيادة بحر المتدارك الذي استحدثه الأخفش .

---

(١) نفح الطيب : ج ١٠ ص ١١٣ .

ولم يستطع المتأخرون الخروج على أوزان الخليل التي استنبطها من أوزان الشعر الجاهليّ ،وقد حاول أبو العتاهية أن يُجدِّد في الأوزان، بتطعيمها ببعض الأوزان الأعجمية ، ولكنه لم ينجح في محاولته ، ولم يقلده أحد فيها لبعدِها عن الذوق العربيّ العام وعن الألحان المألوفة .

ولما كانت أوزان الشعر هي موسيقاه ، فإن هناك إذن صلةً تجمع بين موسيقى الشعر والموسيقى بصفة عامة . وكما تطورت الموسيقى العربية خلال العصور ، وكانت موسيقى العصر العباسيّ غيرَ موسيقى العصر الأمويّ ، وهما غيرُ موسيقى الجاهلية ، كان المأمول أن يُحدث الشعراء تطورا مماثلا في موسيقى الشعر ، ولا يقِفوا عند الحد الذي رسمه الجاهليون ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

* * *

وظل الشعر مقيدا بأوزان الشعر الجاهليّ وقوافيه ، حتى اختُرِعت الموشحات الأندلسية، فكانت أولَ محاولة جريئة للتجديد في أوزان الشعر العربيّ وقوافيه ، والخروج بها على ما ألفه الشعراء السابقون .

ولعل خير مَن عرض لأوزان الموشحات بالدرس والاستقصاء هو هبة اللهِ بن سناء الملك في كتابه « دار الطراز في عمل الموشحات » . ففي كتابه هذا نراه يقسم الموشحات من حيث أوزانُها قسمين : الأول منها ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني ما لا وزنَ له فيها ، ولا إلمامَ له بها .

* **أما القسم الأول** الذي جاء على أوزان الشعر المعروفة، فقد قسمه بدوره قسمين :

ـــ أحدهما ما لا يتخلل أقفالَه وأبياته كلمةٌ تَخرجُ بالفقرة التي جاءت فيها عن الوزن الشعريّ . وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو عنده المرذول المخذول ، وهو بالمخمّسات أشبهُ منه بالموشحات ، ولا يفعله إلاّ

الضعفاء من الشعراء ، ومَن أراد أن يتشبه بما لا يعرف ، ويتشيّع بما لا يملك ، اللهم إلاّ إن كانت قوافي قُفله مختلفة ، فإنه يخرج باختلاف قوافي الأقفال عن المخمسات ، كقول بعضهم :

يا شقيق الروح من جسَدي أهوىً بي منك أم لَمَمُ ؟

فهذا من المديد ، وكقول ابن زُهْر الحفيد في موشحته السابقة التي هي من بحر الرمل :

أيها الساقي اليك المشتكى قد دَعَوْنَاكَ وإنْ لم تسمعِ

— والقسم الآخر مما جاء على أوزان الشعر المعروفة ، هو ما تخلّلت أقفالَه وأبياتَه كلمةٌ أو حركةٌ مُلتزَمة — كسرةً كانت أو ضمةً أو فتحةً — تُخرجه عن أن يكون شعرا صِرفا ، وقريضا محضا . فمثال الكلمة قول ابن بقيّ :

صبرتُ والصبرُ شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني مُعَذِّبي كفاني

فهذا البيت من بحر المنسرح ، وأخرجه منه قوله : « مُعَذِّبي كفاني » .

ومثال الحركة هو أن تُجعَلَ على قافيةٍ في وزن ، ويتكلف شاعرُها أن يُعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها كقول ابن بقيّ أيضا :

يا ويحَ صَبٍّ إلى البَرْقِ له نَظرُ وفي البكاء على الوُرْقِ له وَطَرُ

فهذا البيت من بحر البسيط ، والتزامُ إعادة القافية في وسط الوزن على الحركة المخفوضة في « البَرْقِ » و « الوُرْقِ » أخرجه عن وزنه .

• **وأما القسم الثاني من الموشحات** : فهو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب . وهذا القسم من الموشحات هو الكثيرُ والجمُّ الغفير ، والعدد الذي لا ينحصر ، والشارد الذي لا يَنضبط .

وعن ذلك القسم يقول ابن سناء الملك : « وكنت أردت أن أقيم لها – لموشحات هذا النوع – عروضا يكون دفترا لحسابها ، وميزانا لأوتادها وأسبابها ، فعزَّ ذلك وأعوز ؛ لخروجها عن الحصر ، وانفلاتها من الكف ، وما لهـا عروضٌ إلا التلحين ، ولا ضربٌ إلاَّ الضرب ، ولا أوتادٌ إلاَّ الملاوي ، ولا أسبابٌ إلاَّ الأوتار . فبهذا العروض يُعرَف الموزون من المكسور ، والسالم من المزحوف ، وأكثرها مبنيٌّ على الأرغُن ، والغناء بها على غير الأرغن مستعار ، وعلى سواها مجاز ».

* ويقسم ابن سناء الملك الموشحات من جهة أخرى قسمين : قسم يستقل التلحين به ، ولا يفتقر إلى ما يُعينه عليه ، وهو أكثرها ، وقسم لا يحتمله ، ولا يمشي به إلاَّ بأن يتوكأ على لفظة لا معنى لها ، لتكون دعامةً للتلحين ، وعكازا للمعنى ، كقول ابن بَقيّ :

مَن طالبٌ ثار قتلي   ظبياتُ الخُدوج   فتّاناتُ الحَجيج

فإن التلحين لا يستقيم إلاَّ بأن يقول : « لا لا » بين الجزئين الجيميَّيْن من هذا الوزن [1] .

ومن التقسيمات السابقة لابن سناء الملك يمكن القول بأن الموشحات تنقسم من حيث أوزانُها خمسة أقسام على النحو التالي :

الأول : ما جاء منها على أوزان الشعر المعروفة ، وهذه في نظره مرذولة ، لأنها تكون أشبه بالمخمّسات منها بالموشحات ، ولا يلجأ إليها إلاّ الضعفاء من الشعراء .

والثاني : ما جاء منها على أوزان الشعر المعروفة ، مع اختلافِ قوافي أقفالها ، وهذه مقبولة عنده ، لأنها تخرج باختلاف قوافي الأقفال عن المخمّسات.

---

(١) يرجع في أقسام أوزان الموشحات هذه الى كتاب دار الطراز : ص ٣٣ – ٣٨ .

والثالث : ما جاء منها أيضا على أوزان الشعر المعروفة ، وتخللت أقفالها وأبياتَها كلمةٌ أو حركة ملتزمة ، تُخرجها عن أن تكون شعرا صرفا .

والرابع : ما خرج منها على أوزان الشعر المعروفة ، ولا وزن له إلاّ التلحين ، ولا يفتقر إلى ما يُعينه عليه ، وهو أكثر الموشحات .

والخامس : يتمثل في الموشحات التي لا وزن لها إلاّ التلحينُ أيضا ، ولكنه يكون بحاجة إلى لفظة لا معنى لها ، تكون دعامة للتلحين ، وسَنداً للمعنى .

فنون الموشحات :

وَاكَبَ اختراعُ الموشحات ظهورَ فَنِّ الغناء بالأندلس ، وقد أفاد كلاهما من الآخر ، فتأثر به وأثّر فيه . وإذا كانت الموشحات قد نشأت أو أُنشئت لتكون في خدمة الغناء ، فإن ذلك يعني أن الغزل كان أولَ فنٍّ اتجهت اليه الموشحات ، لأنه بطبيعة معانيه أكثرُ فنون الشعر ملاءمة للغناء .

ولما كانت مجالس الغناء لا تخلو عادة من لهو وشراب ، وأكثرُها يُقام بين مجالي طبيعة الأندلس المتنوعة الجميلة ، فإن الوشّاحين لم يقفوا بموشحاتهم عند الغزل ؛ وإنما نراهم يتجاوزونه بها إلى وصف مجالس اللهو والشراب ومظاهر الطبيعة ، وقد يمزجون الغزل بهذه الأغراض أو ببعضها في موشحاتهم .

ثم شيئا فشيئا توسّع الوشاحون في موضوعات الموشحات ، فنظموها في معظم فنون الشعر المعروفة ، من مدح ، ورثاء ، وهجاء ، وتصوف ، وزهد ، وغيرها .

وقد أشار ابن سناء الملك إلى تنوع فنون الموشحات بقوله : « والموشحات

يُعمَل فيها ما يُعمَل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد ... [1] » .

ولكي نتبيّن طرقَ معالجة وشّاحي الأندلس لهذه الفنون الشعرية في موشحاتهم واتجاهاتهم فيها ، نورد فيما يلي نماذج منها في أهم أغراضها عندهم .

الغزل :

سبق أن ذكرنا أن الغزل هو أولُ فنٍّ شعريٍّ نظَم فيــه الأندلسيون موشحاتهم . ولما كان أبو بكر عبادةُ بن ماء السماء المتوفي سنة ٤٢٢ هـ ، هو أول شاعر نهض بصنعة التوشيح نهضة ملحوظة، حتى كأنها لم تُسمَع إلاَّ منه ، ولا أُخِذت إلاَّ عنه ، فإنا نورد فيما يلي نموذجا من موشحاته الغزلية .

* موشحة أبي بكر عبادة بن ماء السماء في الغزل . قال :

مَن وَلي * في أُمّةٍ أمراً ولم يَعدلِ * يُعزَلِ * إلاَّ لحاظَ الرّشَإ الأكحلِ

* * *

جُرْتَ في حُكْمكَ في قَتْلــيَ يَــا مُسْرِفُ
فَانْصِفِ فواجبٌ أن يُنصَــفَ المنصِــفُ
وَارأَفِ فإن هــذا الشوقَ لا يَــرْأَفُ

عَلِّلِ * قلبي بذاكَ البارد السَّلْسَلِ * يَنْجَلي * ما بفؤادي من جَوىً مُشْعَلِ

* * *

(١) دار الطراز : ص ٣٨ .

إنَّمــا تَبْرُزُ كي تُوقِدَ نــارَ الفِتَــنْ
صَنَمَا مُصَوَّراً في كــلّ شيءٍ حَسَنْ
إنْ رَمَى لم يُخْطِ من دون القلوبِ الجُنَنْ

كيف لي • تَخلُّصٌ من سَهْمِكَ المُرسَلِ • فَصِلِ • واسْتَبْقِني حيّاً ولا تَقْتُلِ

* * *

ياسَنَا الشمسِ ويا أبهى من الكوكبِ
يا مُنَى النفسِ ويا سُؤْلي ويـا مَطْلَبي
هَا أنَا حَلَّ بأعدائك مــا حَلَّ بي !

عُذّلِي • مِن ألمِ الهجرانِ في مَعْزِلِ • والخَلِي • في الحُبِّ لا يسأل عَمَّنْ بُلِي

* * *

أنتَ قدْ صَيَّرْتَ بالحُسْنِ من الرُّشْدِ غَيّ
لم أَجِدْ في طَرَفَيْ حُبِّكَ ذَنْباً عَــليّ
فَاتَئِدْ وإنْ تَشَأْ قَتْلِيَ شيئــاً فَشَيّ

أجْمِلِ • ووالِني منكَ يدَ المُفْضِلِ • فَهْيَ لي • من حَسَنَاتِ الزمَنِ المُقْبِلِ

* * *

مَا اغْتَذَى طَرْفِيَ إلاّ بِسَنَا نَــاظِرَيْــكْ
وكَــذَا في الحُبِّ ما بي ليس يَخْفَى عَلَيْكْ
وكَــذَا أَنْشِدُ والقلبُ رَهِــينٌ لَدَيْكْ

ياعَلِي * سَلَلْتَ جَفْنَيْكَ على مَقْتَلي * فابْقِ لي * قلبي وجُدْ بالفضْلِ يامَوْئِلي[1]

هذه الموشحة هي لإمام الوشاحين في القرن الخامس ، وهي تتميز بالأبيات المركبة ، وبتعدد الفقرات في أسماطها وأقفالها ، وبإحكام صنعتها من الناحية الفنية . ومع ما فيها من غنائية نُحسُّها عند قراءتها ، فإن معانيها لا تخرج عن معاني الغزل التقليدية ، التي أعاد الشاعر صياغتها .

وفي القرن السادس نلتقي بشاعرين عُقِد لهما زعامةُ فنِّ التوشيح في زمنهما ، وهما : أبو العباس أحمد بن عبد الله ، المعروفُ بالتُّطَيْلِيّ الضرير المتوفي سنة ٥٢٥ هـ ، وأبو بكر يحيى بن بَقِيّ المتوفي سنة ٥٤٠ هـ . وقد اشتهر كلاهما بموشحاته الغزلية وفيما يلي موشحة غزلية لكل منهما ، نرى على ضوئها مستوى الموشحات في القرن السادس بصفة عامة ، ومستوى الموشحات الغزلية بصفة خاصة .

* وفي موشحته يقول التُّطَيْلِيّ :

ضاحكٌ عن جُمانْ   سَافِرٌ عـن بَدْرِ
ضاقَ عنـه الزمانْ   وحَـوَاهُ صَدْرِي

* * *

آه مِمَّـا أَجِـدْ   شَفَّـنِي مـا أَجِدْ
قامَ بي وقعَـدْ   بَـاطِشٌ مُتَّئِـدْ
كلّما قلتُ : قَـدْ   قال لي : أين قَـدْ ؟

وانْثَنَي خُوُطَ بـانْ   ذَا مَهَـزٍّ نَضْـرِ[1]
عَابَثَتْهُ يَـدانْ   للصَّبَـا والقَطْرِ

* * *

(١) فوات الوفيات : ج ١ ص ٤٢٦ .

(١) الخوط : الغصن الناعم .

ليس لي منك بُدْ خُذْ فؤادي عن يَدْ
لم تَدَعْ لي جَلَدْ غيرَ أنّي أجْهَدْ
مُكْرَعٌ من شُهُدْ واشتياقي يَشْهَدْ

ما لِبنتِ الدِّنَانْ ولِذاكَ الثّغْرِ ؟
أين مَحْبَيّا الزمانْ من حُمَيّا الخمْرِ ؟

* * *

بي هَوىً مُضْمَرُ ليتَ جُهْدِي وَفْقُهُ
كلّما يَظْهَرُ ففؤادي أُفْقُهْ
ذلكَ المنظرُ لاَ يُداوَى عِشْقُهُ

بأبي كيف كانْ فَلَكِيٌّ دُرّي
رَاقَ حتّى استَبانْ عُذْرُهُ وَعُذْري

* * *

هل إليكَ سبيلْ أوْ إلى أن أَيْأسَا ؟
ذُبْتُ إلاَّ قليلْ عَبْرَةً أو نَفَسَا
ما عسَى أن أقولْ ؟ ساءَ ظَنّي بعَسَى !

وانْقضَى كلُّ شانْ وأنَا أَسْتَشْرِي
خَالِعاً من عِنانْ جزَعِي أو صَبْرِي

* * *

ما على مَن يلومْ لو تَنَاهَى عَنّي ؟
هل سوى حُبِّ رِيمْ دِينُهُ التّجَنّي
أنا فيهِ أهِيمْ وهو بي يُغَنّي

قد رَأيتــكْ عيــانْ آشْ عليكَ ؟ سَا تَدري
سَا يطولُ الزمــانْ وتُجرِّبْ غَيْــري [1]

إن موشحة التُّطيْلي هنا تلتقي مع موشحة عبادة بن ماء السماء في طبيعة غزلها الماديّ الذي لا ينبع من عاطفة صادقة أو تجربة نفس سعدت أو شقيت بالحب فعبّرت عنه كما أحسته في كلتا الحالتين ، ولكنها تفترق عنها في أنها أكثر منها دلالةً على أنها نظمت للغناء.

نقول ذلك ، لأن التُّطَيْلي وإن لم ينظم موشحته على أحد أوزان الخليل ، فإنه نظم كُلاًّ من أقفال موشحته وأسماطها على تفعيلتين من تفعيلات الخليل على نسق معين التزم به ، ومع ذلك نجد فيها أكثر من بيت مكسور لا يُجبَر كسره إلاّ بالتلحين أو إشباع حركة حرف يتولد منها حرف مدٍّ يستقيم به الوزن .

هذا شيء ، وشيء آخر أن المصراع الأخير من الدور الذي يسبق خرجة الموشحة ، وردت به كلمة « يغني » وقد أجمع مؤرخو الموشحات على أن من أقوى الأدلة على أن الموشحات إنما اخترعت من أجل الغناء أن الدور الذي يسبق الخرجة في الموشحات الغنائية غالبا ما يتضمن اللفظ « شدا » أو « أنشد » أو « غنّى » . وشيء ثالث أن خرجة الموشحة ملحونة عامية . فهذه الأمور التي تضمنتها الموشحة كافية للدلالة على أن التُّطَيْلي قد نظمها أصلا للغناء .

• ثم ننتقل إلى موشحة ابن بَقِيّ معاصر التُّطَيْليّ ، وهي غنائية أيضا ، وفيها يقول :

عبِثَ الشوقُ بقلبي فــاشتكَى ألَمَ الوَجْدِ فَلَبّتْ أدْمُعي

* * *

(1) جيش التوشيح : ص ١٦ ، وآش : بمعنى أي شيء .

أيهـــا الناسُ فؤادي شَغِفُ
وهْو مِن بَغْيِ الهوَى لا يُنصَفُ
كم أداريــهِ ودمعي يَكِــفُ

أيهـــا الشادنُ مَـــن علّمَكا ... بسِهام اللحظِ قتلَ السَّبُعِ ؟ [1]

بَدْرُ تِمٍّ تحت ليلٍ أغْطَـــشِ [2]
طالعٌ في غُصْنِ بانٍ مُنْتَشِي
أهيفُ القَـــدِّ بِخَـــدٍّ أرْقشِ [3]

ساحرُ الطرفِ وكم ذَا فتكَا ... بقلوب الأسْدِ بين الأضْلُعِ

* * *

أيُّ رِيمٍ رُمْتُـــه فاجتَنَبَـــا
وانثنَى يَهتَـــزُّ من سُكْـــرِ الصِّبَا
كقضيبٍ هَـــزّهُ رِيحُ الصَّبَا ؟

قلتُ : هَبْ لي يا حبيبي وَصْلَكا ... واطّرِحْ أسبابَ هَجْرِي ودَعِ

* * *

قالَ : خَدّي زَهْرُهُ مُـــذْ فَوَّفَا [4]
جَرَّدَتْ عَيْنايَ سَيْفاً مُرْهَفَا
حَذَراً منه بـــأنْ لا يُقْطَفَا

إنَّ مَن رَامَ جَنَاهُ هَلَكَـــا ... فأزِلْ عنك عِلالَ الطّمَعِ [5]

* * *

(١) الشادن : ولد الظبية إذا قوي وطلع قرناه واستغنى عن أمه . (٢) أغطش : مظلم .
(٣) حسن مزين . (٤) مذ فوف : مذ صار أبيض مشرباً بحمرة
(٥) علال الطمع : استحلابه .

ذَابَ قلبي في هوَى ظَبي غَرِيــرْ
وَجْهُه في الدَّجْنِ صُبحٌ مستنــيرْ [1]
وفؤادي بــين كفَيْــهِ أسيرْ

لم أجِدْ للصــبر عنه مَسْلَكاً فانتصاري بانْسِكَابِ الأدْمُعِ [2]

وتختلف موشحة ابن بَقيّ هذه عن موشحة التُّطَيْلي السابقة من حيث النوع والوزن ، فموشحة التُّطَيْلي غنائية متنوعة الوزن ، على حين موشحة ابن بَقيّ شعرية التزمت وزنا واحدا من أوزان الخليل هو « الرمل » ثم تتفقان في تصوير معاني الغزل المطروقة، تلكالتي تقف عند حدود جمال الظاهر. دون النفوذ إلى أعماق القلوب واستلهامها .

وربما كانت موشحة إبراهيم بن سهل الاسرائيليّ الذي مات غرقا سنة ٦٤٩ ﻫ ، أقوى ما أُثر عن الأندلسيين من الموشحات الغزلية شكلا ومضمونا . وقد فُتِنَ الكثيرون من شعراء الأندلس بها فعارضوها ونسجوا على مِنوالها . ومنهم الوزير الكاتب الشاعر لسان الدين بن الخطيب الذي سنورد موشحته عند الكلام على موشحات المدح .

• وفيما يلي موشحة ابن سهل الإسرائيليّ هذه ، وهي من الموشحات الشعرية التي التزمت وزنا واحدا هو الرَّمَل :

هل دَرَى ظَبيُ الحِمَى أن قد حَمَى قلبَ صَبٍّ حَلّهُ عن مَكْنَسِ ؟[1]
فهْوَ في حَــرٍّ وخَفْــقٍ مثلمـــا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَـــا بالقَبَـــسِ

. . .

---

(١) الدجن : الظلام . (٢) نفح الطيب : ج ٥ ص ٣٦٨ .

(٣) الحمى بكسر الهاء : المكان المنيع ، وحمى الحمى : منعه ودفع عنه ، والمكنس : مأوى الظبي . والمعنى أنه اتخذ من قلبه مأوى وسكنا له وحده .

يـــا بُدوراً أطْلعتْ يـــومَ النّـــوَى   غُرَراً تسْلُكُ في نَهْجِ الغَرَرْ [1]
ما لقلبي في الهوَى ذَنْـــبٌ ســـوى   منكمُ الحسْنُ ومن عيْني النظـــرْ
أَجْتَنِي الـــلذاتِ مَكْلـــومَ الجوَى   والتذاذي من حبيبي بالفِكَـــــرْ
كلّمـــا أشكـــوهُ وَجْداً بَسَمَا   كالرُّبَـــا بالعارضِ المُنْبَجِسِ
إذْ يُقِيمُ القَطْـــرُ فيهـــا مَأتَمـــا   وهْيَ من بَهْجَتِهَـــا في عُرُسِ

* * *

غالبٌ لـــي غـــالبٌ بـــالتُّـــؤَدَهْ   بأبي أفْدِيــهِ من جَافٍ رَقيـــقْ
مـــا رأيْنـــا مثلَ ثَغْـــرٍ نَضّـــدَهْ   أُقحُوانـــاً عُصِرَتْ منـــه رَحيقْ
أخَذَتْ عَيْنـــاهُ منـــه العَرْبَـــدَهْ   وفؤادي سُكْرُهُ مـــا إنْ يُفيقْ
فَاحِمُ الجُمّـــةِ مَعْسولُ اللّمَى   أَكْحَلُ اللحْظِ شَهِيُّ اللّعَسِ [2]
وَجْهُهُ يَتْلـــو الضُّحَى مُبْتَسِمَا   وهْو من إعراضِهِ في عَبَسِ [3]

* * *

أيُّهـــا السائلُ عـــن ذُلّي لَدَيْـــهْ   لي جَزاءُ الذنْبِ وهْو المذْنِبُ
أَخذَتْ شمسُ الضُّحَى من وَجْنَتَيْهْ   مَشْرِقـــاً للصّبِّ فيـــه مَغرِبُ [4]
ذهبتْ أَدمُـــعُ أجفـــاني عَلَيْـــــهْ   وله خَـــدٌّ بلحْظِي مُذْهَبُ [5]
يَطلُـــعُ الـــوردُ بغَرْسي كُلّما   لاحَظَتْهُ مُقلَـــتي في الخُلَسِ [6]
ليـــتَ شِعـــري أيُّ شيءٍ حَرّمَـــا   ذلك الوردَ عـــلى المغتَـــرِسِ ؟

* * *

---

(١) الغرر بضم الغين: جمع غرة وهي بياض الوجه، والغرر بفتح الغين: الخطر والتعرض للهلكة
(٢) الجمة : مجتمع شعر الرأس ، واللعس . سواد ضارب الى الحمرة في الشفة .
(٣) الضحى وعبس : من سور القرآن الكريم ، وفيهما توريتان بديعتان .
(٤) الصب : العاشق المشتاق .   (٥) خد مذهب : أي مورد كالذهب لونا .
(٦) الخلس : جمع خلسة بضم الخاء : من اختلس فلان الشيء ، إذا أخذه في نهزة ومخاتلة .

كُلّمَا أشكو إليه حُرَقي غَادَرَتْني مُقْلَتاهُ دَنِفَا [1]
تركتْ ألْحاظُه من رَمَقي أثَرَ النّمْلِ على صُمِّ الصَّفَا [2]
وأنا أشكرهُ فيما بَقي لستُ ألحَاهُ على ما أتْلَفَا
فهْو عندي عادلٌ إنْ ظَلَمَا وعَذُولي نُطْقُهُ كالخَرَسِ
ليس لي في الحب حُكْمٌ بعدَمَا حَلَّ من نَفْسِي مَحَلَّ النّفَسِ

* * *

منه للنارِ بأحْشَائي اضْطِرامْ يَلْتَظِي في كلِ حِينٍ ما يَشَا
وهْيَ في خَدَّيْه بَرْدٌ وسَلامْ وهْيَ ضُرٌّ وحريقٌ في الحَشَا
أتّقِي منه على حُكْمِ الغَرامْ أسَدَ الغابِ وأهواهُ رَشَا
قلتُ لمّا أنْ تَبدّى مُعْلَمَا وهْو من ألْحَاظِه في حَرَسِ :
أيُّها الآخِذُ قلبي مَغْنَمَا اجْعَلِ الوصلَ مكانَ الخُمُسِ [3]

وما من شك في أن موشحةَ ابن سهل هذه ترجح موشحات الغزل السابقة من ناحية تجربتها العاطفية وصياغتها الفنية .

فالتجربة هنا تجربة قلب أحب وأحسن التعبير عن مُعانَاتِه فيه ، وإن كان لم يسلم كغيره من الافتتان بتصوير الجمال الحسيّ . ومن الناحية الفنية تمتاز الموشحة بعُلُوِّ طبقة موسيقاها ، وإشراقِ ديباجتها ، وعذوبةِ ألفاظها . ورقةِ معانيها ، وصفاء خيالها . وإذا كان الشاعر قد استخدم في رسم صوره وتلوينها بعضَ الأساليب البيانية والبديعية ، من تشبيه ، واستعارة ، وجناس ، وطباق ، وتورية ، فهو استخدام استدعته طبيعة المعاني ، وليس مُقْحَماً عليها لذاته .

* * *

---

(١) الدنف بفتح وكسر : المريض . (٢) الصفا : جمع صفاة ، وهي الصخرة الملساء .
(٣) نفح الطيب : ج ٩ ص ٢٧١ ، والخمس : نصيب القائد من الغنيمة .

وبعد ... فقد ذكرنا آنفا أن الموشحات قد اختُرِعت من أجل الغناء ، ولهذا كانت الغنائيةُ منها هي الأسبقَ إلى الوجود ، وكان الغزل موضوعَها الأول لملاءة معانيه لطبيعة الغناء .

وعندما شاعت الموشحات عن طريق الغناء ، ونالت الاستحسان ، توسَّع الوشاحون فيها ، وطَوَّعُوها لفنون الشعر التقليدية ، من وصف ، ومدح ، ورثاء ، وهجاء ، وتصوف ، وغيرها ، ففي كل هذه الفنون نظموا الموشحات الشعرية التي جاءت وسطا بين الموشحات الغنائية والقصيدة .

وقد تميزت موشحات الغزل سواء ما كان منها غنائيا أو شعريا ببنائها على موضوع الغزل وحده ، كما رأينا في الموشحات الأربع السابقة .

أما الموشحات الشعرية التي نظمها شعراء الأندلس في الفنون الأخرى غير الغزل ، فقد نهجوا فيها نهجهم في القصائد ، وذلك بالمزج بين موضوعين أو أكثر في الموشحة الواحدة .

ولذلك قلَّ أن نجد موشحة شعرية تقوم على موضوع واحد ، وإنما هناك موشحات من هذا النوع تُبنَى الواحدة منها على موضوع معين كالمدح مثلا ، ثم يأتي فيها ممتزجا بالغزل أو وصف الطبيعة أو الخمر أو غير ذلك .

* * *

وفيما يلي منتخبات من الموشحات الشعرية توضح ذلك ، وتُظهرنا على أساليب وشّاحيها وطرائقهم المختلفة في تناول موضوعاتها .

١

• الوزير أبو بكر بن عيسى الداني من شعراء بني عباد في القرن الخامس ، وفي موشحته التالية يمزج المدح بالغزل . قال :

في نرجس الأحداقْ وسَوْسَنِ الأجيادْ
نَبْتُ الهوى مَغروسْ بين القَنَا الميّادْ

* * *

وفي نَقا الكافورْ والمَنْدَلِ الرَّطْبِ والهودجِ المَزْرُورْ بالوَشْي والعَصْبِ[1]
قُضْبٌ من البلور حُمِينَ بالقُضْبِ نادَى بها المهجورْ من شدة الحب[2]
أذابتِ الأشواقْ رُوحي على الأجسادْ
أعارها الطاووسْ من رِيشها أبرادْ[3]

* * * *

كواعبٌ أترابْ تشابهتْ قَدّاً عضّتْ على العُنّابْ بالبَرَدِ الأنْدَى
أوصتْ بيَ الأوصابْ وأغرتِ الوَجْدا وأكثرُ الأحبابْ أعدَى من الأعدا
تفترُّ عن أعلاقْ لآلىءٍ أفرادْ
فيه اللّمى محروسْ بألْسُنِ الأغمادْ

* * *

مِن جوهر الذكرَى أعطى نُحورَ الحُورْ وقلّدَ الدُّرّا سُلالةَ المنصورْ
جاوِرْ به البحرَا واخرِقْ حجابَ النورْ وقلْ له شعرا بفضلِك المشهورْ
جمعتَ في الآفاقْ تنافرَ الأضدادْ
فأنتَ ليثُ الخِيسْ وأنت بدرُ النادْ[4]

* * *

خرجتُ مُحتالاً أبغي سَنَا الرزقِ أقطعُ أميالاً غَرْباً إلى شَرْقِ
مؤملاً حالاً يكون من وَفْقي فقال مَن قالا وَفّاهَ بالصدق :
دَعْ قَطعَكَ الآفاقْ يا أيُّها المرتادْ
واقصِدْ إلى باديسْ خيرِ بني عَبّادْ[5]

---

(١) الكافور : غلاف العنب قبل أن ينور ، وهو كمّه أيضا بكسر الكاف وتشديد الميم ، والمندل : عود الطيب الذي يتبخر به ، والهودج : من مراكب النساء ، والعصب : ثياب مخططة .
(٢) قضب الأولى : جمع قضيب وهو الغصن ، والثانية : جمع قضيب أيضا ، وهو السيف اللطيف الدقيق .
(٣) وأبراد : جمع برد بضم الباء وسكون الراء ، وهو الثوب (٤) الخيس : موضع الاسد
(٥) جيش التوشيح : ص ٦٢ .

* ومن محاسن الموشحات الأندلسية موشحة ذي الوزارتين لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب شاعر الغنيّ بالله أحد ملوك بني الأحمر ووزيره والمتوفي سنة ٧٧٦ هـ . وقد قال لسان الدين موشحته التالية مُعارِضاً بها موشحة ابن سهل الإشبيليّ السابقة ، وفيها يمزج المدح بالغزل ووصف الطبيعة :

جَادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى ... يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكنْ وَصْلُكَ إلاَّ حُلُمَا ... في الكَرَى أو خُلْسَةَ المختَلِسِ

* * * *

إذْ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المُنَى ... نَنْقُلُ الخَطْوَ على ما تَرسُمُ
زُمَراً بين فُرادَى وثُنَا ... مثلما يدعو الحجيجَ الموْسِمُ
والحَيَا قد جَلَّلَ الروضَ سَنَا ... فثغورُ الزهرِ فيه تَبْسِمُ
ورَوَى النُّعْمَانُ عن ماءِ السَّمَا ... كيف يَرْوِي مَالكٌ عن أنَسِ (١)
فكَسَاهُ الحسنُ ثوباً مُعْلَمَا ... يَزْدهِي منه بأبْهَى مَلْبَسِ

* * * *

في ليالٍ كتمتْ سِرَّ الهوَى ... بالدُّجَى لولا شُمُوسُ الغُرَرِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهَوَى ... مُستقيمَ السَّيْرِ سَعْدَ الأثَرِ
وَطَرٌ ما فيه من عَيْبٍ سِوَى ... أنه مَرَّ كلَمْحِ البَصَرِ

(١) في النعمان تورية : معناها القريب غير المراد النعمان بن المنذر ، ومعناها البعيد المراد الأزهار المعروفة بشقائق النعمان . وفي ماء السماء تورية أخرى ، معناها القريب غير المراد أم المنذر وجدة النعمان ، ومعناها البعيد المراد هنا المطر . ومالك هو مالك بن أنس . ومعنى البيت أن روايةمالك عن أبيه أنس رواية صحيحة، كرواية زهر الشقيق عن أبيه المطر الذي منحه النماء والنضرة وبهاء المنظر .

حينَ لَذَّ النومُ شيئاً أو كَمَا هجَمَ الصبحُ هجومَ الحَرَس
غَارتِ الشُّهْبُ بِنَا أو رُبَّما أَثَّرتْ فينا عيونُ النرجسِ

* * * *

أيُّ شيءٍ لامرىءٍ قد خَلَصا فيكونُ الروضُ قد مُكِّنَ فيهْ ؟
تَنْهَبُ الأزهارُ فيهِ الفُرَصَا أَمِنَتْ من مَكْرِهِ ما تتَّقيه
فإذا الماءُ تَناجَى والحَصَا وخلاَ كلُّ خليلٍ بأخيهْ
تُبصِرُ الوردَ غَيوراً بَرِمَا يَكْتَسي من غيْظه ما يَكتَسِي
وترَى الآسَ لبيباً فَهِمَا يَسرِقُ السمْعَ بأذْنَيْ فَرَسِ

* * * *

يا أُهَيْلَ الحَيِّ من وَادي الغَضَا وبقلبي مَسْكَنٌ أنتمْ بِه
ضاقَ عن وَجْدِي بكم رَحْبُ الفَضَا لا أُبَالي شَرْقَه من غَرْبِه
فأعيدوا عهدَ أنسٍ قد مَضَى تُعْتِقُوا عبدَكُمُ من كَرْبِهِ
واتقُوا اللهَ وأحْيُوا مُغْرَمَا يَتلاشَى نَفَساً في نَفَسِ
حبَسَ القلبَ عليكم كَرَمَا أفترضَوْنَ عَفَاءَ الحُبُسِ ؟

* * * *

وبقلبي منكمُ مُقْتَرِبُ بأحاديثِ المُنَى وهْو بَعيدْ
قمرٌ أطْلَعَ منه المَغْرِبُ شِقْوَةَ المُضْنَى به وهْو سعيدْ
قد تَساوَى مُحْسِنٌ أو مُذْنِبُ في هَوَاهُ بينَ وَعْدٍ ووَعيدْ
أحْوَرُ المُقْلَةِ مَعْسُولُ اللَّمَى جالَ في النفْسِ مَجالَ النَّفَسِ
سَدَّدَ السهْمَ فأصْمَى إذْ رمَى بفؤادي نَبْلَةَ المُفْتَرِسِ (١)

* * * *

---

(١) النبلة : السهم .

إنْ يكُنْ جارَ وخابَ الأملُ ... ففؤادُ الصبِّ بالشوقِ يذوبْ
فهو للنَّفسِ حبيبٌ أوّلُ ... ليس في الحبِّ لمحبوبٍ ذُنُوبْ
أمْرُهُ مُعتَمَلٌ مُمتَثَلٌ ... في ضلوعٍ قد بَرَاهَا وقلوبْ
حكّمَ اللحظَ به فاحتَكَمَا ... لم يُراقِبْ في ضعافِ الأنفُسِ
يُنصِفُ المظلومَ ممن ظلما ... ويُجازي البَرَّ منها والمُسِي

* * * *

ما لقلبي كُلّما هبّتْ صَبَا ... عادَهُ عيدٌ من الشوق جديدْ ؟ (١)
جلبَ الهمَّ له والوَصَبَا ... فهو للأشجان في جَهْدٍ جَهيدْ
كان في اللّوْحِ له مُكْتَتَبَا ... قَولُهُ : « إنَّ عذابي لَشديدْ »
لاعِجٌ في أضْلُعِي قد أُضْرِمَا ... فهْيَ نارٌ في هَشيمِ اليَبَسِ
لم يَدعْ في مُهْجَتي إلاّ ذِمَا ... كبقاءِ الصبحِ بعدَ الغَلَسِ (٢)

* * * *

سلّمِي يا نَفْسُ في حُكْمِ القَضَا ... واعْمُرِي الوقتَ بِرُجْعَى ومَتابْ
ودَعِي ذكرَ زمانٍ قد مَضَى ... بين عُتْبَى قد تقضّتْ وعِتَابْ
واصْرِفِي القولَ إلى المَولَى الرِّضَى ... مُلْهَمِ التوفيقِ في أُمِّ الكتابْ
الكريمِ المُنْتَهَى والمُنْتَمَى ... أَسَدِ السَّرْجِ وبَدْرِ المجلسِ
يُنزَلُ النّصْرُ عليه مثلما ... يُنزَلُ الوَحْيُ بِرُوحِ القُدُسِ (٣)

* * * *

مُصطفَى اللهِ سَمِيُّ المُصطَفَى ... الغني باللهِ عن كلِّ أَحَدْ
مَنْ إذا ما عَقَدَ العهدَ وفَى ... وإذا ما فُتِحَ الخطبُ عَقَدْ (٤)

---

(١) العيد : ما اعتاده الانسان من الحزن أو الشوق ، وعاده عيد : أي تجدد ما اعتاده من الشوق .

(٢) الذما : مقصور الذماء ، وهو بقية الروح في البدن ، والغلس : الظلام .

(٣) روح القدس : جبريل .

(٤) العهد : كل ما عوهد الله عليه ، وكل ما بين العباد من المواثيق ، وعقد العهد : أبرمه .

مِن بني قيسِ بن سَعْــدٍ وكفَى حيثُ بيتُ النصرِ مَرفوعُ العَمَدْ[1]
حيثُ بيتُ النصرِ مَحْمِيُّ الحِمَى وجَنَى الفضلِ زكيُّ المَغْرِسِ
والهوى ظِــلٌّ ظليـلٌ خَيَّمَـا والنَّدى هَــبَّ إلى المُغْتَـرِسِ

* * * *

هَاكَهَــا يا سِبْطَ أنصـارِ العُلَى والذي إنْ عَثَرَ الدهرُ أقَالْ[2]
غادةً ألْبَسَهــا الحُسْنُ مُـلا تَبْهَرُ العيـنَ جلاءً وصِقَالْ
عارضَتْ لفظـاً ومَعنىً وحُلَـى قولَ من أنطقَهُ الحُبُّ فقَالْ :
« هل دَرَى ظبيُ الحِمَى أنْ قد حَمَى قلبَ صَبٍّ حَلَّهُ عن مَكْنَسِ
فهــو في حَرٍّ وخَفْــقٍ مثلمـا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بالقَبَسِ »[3]

وقد أكثر شعراء الأندلس من موشحات المدح وتوسعوا فيها ، حتى شملت التهنئات ومَدْحَ الرسول . ومن هؤلاء الشعراء أبو عبد الله بن زُمْرُك وزيرُ الغنيِّ بالله بن الأحمر بعد لسان الدين بن الخطيب . ولابن زمرك موشحات شعرية عديدة تتميز بالإسهاب والطول . ومن موشحة له زَهريّةٍ مَوْلديّة في مدح المصطفى يقول ابن رمزك :

٣

هل يُحمَّلُ الزادُ لـدار الكريمْ والمصطفَى الهـادي شفيعٌ مطاعْ ؟
فَجاهُهُ ذُخْرُ الفقير العَديمْ وحُبُّه زادي ونِعْمَ المَتاعْ
واللهُ سَمَّاهُ الرءوف الـرحيـمْ فجارُهُ المكفولُ مـاإنْ يُضَاعْ
عسَى شفيعُ الناسِ يـومَ الحسابْ ومَلجأُ الخَلْقِ لرفعِ الكروبْ

(١) بيت النصر ، هو بيت نصر الجد الأعلى لملوك بني الأحمر بغرناطة ، ومنهم الغني بالله ممدوح لسان الدين في الموشحة .
(٢) هاك : اسم فعل أمر بمعنى خذ . وهاكها غادة : أي خذها – الموشحة – كغادة .
(٣) نفح الطيب : ج ٩ ص ٢٢٥ ، ومخرجة موشحة لسان الدين ، هي مطلع موشحة ابن سهل الغزلية السابقة والتي عارضها لسان الدين .

يَلحقُني منه قبولٌ مُجَابْ يشفع لي في مُوبِقاتِ الذُّنُوبْ

* * * *

يا مُصطفيً والخلقُ رَهْنُ العَدَمْ والكونُ لم يفتقِ كِمامِ الوجودْ[1]
مَزِيّةٌ أُعْطِيتَها في القِدَمْ بها على كلِّ نبيٍّ تَسُودْ
مَوْلِدُكَ المرقومُ لمّا نَجَمْ أنْجزَ للأمةِ وَعْدَ السُّعُودْ
نَادَيْتُ — لو يُسْمَحُ لي بالجوابْ — شهرَ ربيعٍ : يا ربيعَ القلوبْ
أطلعتَ للهَدْيِ بغيرِ احتجابْ شمساً ، ولكنْ ما لها من غُروبْ[2]

٤

ومن فنون الشعر التي طَوَّعَها الأندلسيون للموشحات فنُّ الرثاء . وموشحات الرثاء كموشحات الغزل لا تُبنَى إلاّ على موضوع واحد ، وهذا أمر طبيعيّ ، إذ لا يُعقَل ولا يُقبَلَ أن تتضمّن المرثية غيرَ موضوعها .

وممن قالوا الموشح في الرثاء أبو الحسن عليُّ بن حَزْمُون أحدُ شعراء الموحِّدين ، وممن عاشوا في أواخر القرن السادس وأوائل السابع . وابن حَزْمُون هذا صاعقةٌ من صواعق الهجاء ، هجا حتى نفسَه ، وسلك طريقة ابن حجاج البغداديّ ، فأربَى فيها عليه ، ولم يَدَعْ موشحة تجري على ألسنة الناس إلاّ عمِل في عَروضها ورَوِيِّها موشحةً على طريقته المذكورة ، طريقةِ ابن حجاج الهجّاء الماجِن .

ولابن حَزْمُون موشحةٌ يرثي بها أبا الحمَلات بنَ أبي الحجّاج ، قائدَ الأعِنّة ببلَنْسِيَةَ ، وقد قتله النصارى . ويلاحظ على موشحة ابن حَزْمُون التالية أن كل قُفل منها مركب من ثمانية أجزاء ، وأن كل دور

(١) يفتق : يشق ، والكمام : الغطاء ، والمعنى : والكون لم يتكشف بعد عن المخلوقات .

(٢) نفح الطيب ج : ١٠ ص ١٤٠ — ١٤١ .

من أدوارها مركب من أربعة أسماط . يتألف كل سمط منها من فقرتين وبعد فهذه هي موشحة ابن حزمون في رثاء أبي الحملات :

يـا عينْ بَكّـي السِّراجْ الأزْهَرا النيِّـرَا اللامـعْ
وكـانَ نِعْـمَ الرِّتَاجْ فَكُسِّرا كي تُنْثَرا مَدامِعْ

* * *

مِـنْ آلِ سعد أغـرّ مثلُ الشِّهابِ المُتّقِدْ
بكَى جميعُ البَشَرْ عليه لمّا أنْ فُقِدْ
والمَشْرَفِيُّ الذَّكَرْ والسَّمْهَرِيُّ المُطّرِدْ[1]
شقَّ الصفوفَ وكرَّ على العَدوِّ مُتَّئِدْ
لو أتـه مُنْعَاجْ على الورَى مِن الثّرَى أو رَاجِعْ[2]
عادتْ لنا الأفراحْ بلاَ افْتِرَا ولاَ امتِرا تُضاجِعْ

* * *

نَضَا لِبَاسَ الزَّرَدْ وخاضَ مَوْجَ الفَيْلَقِ
ولم يَرُعْهُ عَدَدْ ذاكَ الخميسِ الأزْرقِ
والحُورُ تلثَمُ خَدّ أديمِهِ المُمَزَّقِ
وكانَ ذاكَ الأسَدْ في كلِّ خَيْلٍ يلْتَقي
إذا رأى الأعلاجْ وكَبّرا ثم انبَرَى يُمَاصِعْ[3]
رَأيْتَهم كالدجاجْ مُنَفَّرا وَسْطَ العَرَا الواسعْ

* * *

(١) السمهري : الرمح الصليب العود
(٢) منعاج : منعطف .
(٣) يماصع : يقاتل الأعداء ويجالدهم بالسيف .

جَالَتْ بتلك الفُجوجْ تحتَ العَجَاجِ الأكْدَرِ
خيولُهمْ في بُروجْ من الحديد الأخْضَرِ
يا قُفْلَ تلك الفُرُوجْ وليتَه لم يُكْسَرِ
جعلتَ أرضَ العُلوجْ مَجْرَى الجِيَادِ الضُّمَّرِ
سلكْتَ منها فِجَاجْ فلاَ تَرَى إلاَّ القُرَى بِلاَقِعْ
والخيلُ تحتَ العَجَاجْ لَهَا انبِرَى ولِلْبُرَى قَعَاقِعْ[1]

* * *

عَهْدي بتلك الجِهاتْ أبَى الهوَى أنْ أُحْصِيَهْ
يا حَادِيَ الرَّكْبِ هَاتْ حَدِّثْ لنا بمُرْسِيَهْ
أوْدَى أبو الحَمَلاتْ يا وَيْحَها بلَنْسِيَهْ
في طاعةِ اللهِ ماتْ حَاشَا له أنْ يَعْصِيَهْ
مَضَى بنَفْسٍ تُهاجْ مُصَبِّرا مُصْطَبِرا وطَائِعْ
وبَاعَهَا في الهِيَاجْ لقد دَرَى ماذا اشترَى ذَا البائِعْ

* * *

مَاءُ المدامِعِ صَابّ عليك أَوْلَى أن يَجودْ[2]
سقَى البَرِيَّةَ صَابْ رُزْءٌ أحَلَّكَ اللُّحُودْ[3]
فكلُّ خَلْقٍ أصَابْ إلاَّ النصارَى واليَهودْ
ناديتُ قلباً مُصَابْ يُجرِي على المَيْتِ العُهودْ

---

(١) البرى : جمع برة بضم الباء ، وهي كل حلقة من سوار وقرط وخلخال ، وهي أيضا الحلقة في أنف البعير ، والقعاقع : جمع قعقعة ، وهي الصوت الشديد .

(٢) صاب، بتشديد الباء : منصب ونازل .

(٣) الصاب : المر بضم الميم .

يا قلبيَ المُهْتَاجْ تَصَبَّرَا زَانَ الثّرَى مُدَافِعْ
ابنُ أبِي الحَجّاجْ فهل تَرَى لِمَا جَرَى مُدَافِعْ؟ [1]

* * *

ومن موشحات الأندلسيين ما تُبنَى على أكثر من موضوع . وهذه تكثر في الموشحات التي تَعْرِض لوصف الطبيعة . وقلما نلتقي بموشح قَصَرَهُ الوشاح على وصف بعض مجالي الطبيعة ، وإنما يأتي وصف الطبيعة في الموشح ممتزجا بالغزل ، أو بالخمر والساقي ، أو بهذين الموضوعين معا .

ولا غرابة في ذلك ، فكلٌ من هذه الموضوعات الثلاثة : الطبيعة . والغزل ، والخمر ، يستدعي بعضُها بعضا بالضرورة ، فمجالس الشراب أكثر ما تقام بين الرياض ، فإذا انفعلت شاعرية الوشّاح في موقف كهذا ، جاء موشحه انعكاسا لأثر الطبيعة والشراب في نفسه ، وقد يُذكّره مثلُ هذا الموقف بمن يحب ، فإذا الحنين اليه والتغزل به يجد طريقه إلى الموشح !

وفيما يلي نماذج من موشحات الأندلسيين ، منها ما يمتزج وصف الطبيعة فيه بالغزل ، أو بالخمر ، أو بالاثنين معا .

ه

ومن الموشحات النّادرة التي بنيت على وصف الطبيعة فقط ، ولعله مجتزأ من موشح ، قول أبيُ لحسن علي بن مُهلهل الجِلْيانيّ :

النّهر سلّ حساما على قُدودِ الغصونِ

(١) المغرب : ج ٢ ص ٢١٧

وللنسيم مَجالُ
والروضُ فيه اختيالُ
مُدَّتْ عليه ظِلالُ

والزهرُ شقَّ كِماما   وَجْداً بتلك اللحونُ

* * *

أما ترى الطيرَ صاحا
والصبحَ في الأفق لاحا
والزهرَ في الروض فاحا

والبرقَ ساقَ الغماما   تبكي بدمعٍ هتونِ ؟ (1)

٦

• ومن الموشحات التي يمتزج فيها وصف الخمر بالغزل موشح ابن زُهْر (2) المشهور ، وفيه يصف الخمر ويتغزل بساقيها فيقول :

أيُّها الساقي اليكَ المُشْتكَى   قد دَعَوْناكَ وإنْ لم تَسمعِ

* * *

(1) المغرب : ج ٢ ص ١٥١ .

(2) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأندلسي الإشبيلي ، ولد بإشبيلية ونشأ بها ، وحفظ القرآن وسمع الحديث ، وأقبل على الأدب واللغة العربية ، فبرع في ذلك كله ، وعانى الشعر فبلغ فيه الإجادة ، وكان يحفظ شعر ذي الرمة ، وانفرد بالإجادة في نظم الموشحات . وأخذ الطب عن أبيه أبي مروان عبد الملك ، وخدم بطبه دولة المرابطين في آخر عهدهم ، ثم خدم به دولة الموحدين ، وكان شديد البأس ، يحسن اللعب بالشطرنج بارعا فيه ، ولد سنة ٥٠٧ هـ وتوفي بمراكش سنة ٥٩٥ هـ . انظر في ذلك معجم الأدباء : ج ١٨ ص ٢١٧

ونــديمٍ هِمْتُ فــي غُرَّتِــهِ
وشربتُ الــراحَ من رَاحتِــهِ
كلمــا استيقظَ مــن سَكْرَتِهِ

جَذَبَ الزقَّ اليــه وَاتّكَا وسقاني أَرْبعــاً في أربعِ

غُصْنُ بَانٍ مالَ من حيثُ اسْتَوى
بَاتَ مَن يَهْوَاهُ من فَرْطِ الجوَى
خَفِقَ الأحشاءِ مَــوْهُونَ القُــوَى

كلمــا فكّرَ في البــين بكَى وَيْحَهُ يبكي لمــا لم يَقعِ !

* * *

مــا لِعَيْنِي عَشِيَــتْ بالنّظَرِ ؟
أنْكَرَتْ بَعدَكَ ضَوْءَ القمــرِ
وإذا ما شئتَ فــاسمعْ خَبَــري

عَشِيَتْ عينايَ من طول البُكَا وبكَى بَعْضِي على بَعْضِي مَعي

* * *

ليس لي صَبْرٌ ولا لــي جَلَــدُ
يا لِقَوْمٍ هَجــرُوا واجتهــدُوا
أنكروا شكــوايَ ممــا أجِــدُ

إنَّ مثلي حَقُّــه أن يشتكــي كَمَــدَ اليأسِ وذُلَّ الطَّمَعِ

* * *

كَبِــدٌ حَرَّى ودمــعٌ يَكِفُ
يعرِفُ الذنبَ ولا يَعْــتَرِفُ

أيُّهـا المُعرِضُ عمّـا أصِف

قد نَمَا حُبُّكَ عندي وزَكَا لا تقلْ في الحُبِّ إني مُدّعِي[1]

٧

• ومن الموشحات التي تمزج بين الطبيعة والخمر والحنين إلى عهد الشباب موشح أبي بكر يحيى بن بَقيّ المتوفي سنة ٥٤٠ هـ .

مـا الشوقُ إلاّ زنـادْ يُوري بقلبي كـل حِـينْ نِيرانَا
ومَـن بُلِي بالفـراقْ يَبِتْ به ليـلُ السَلـيمْ حرّانَا

* * *

يا ليتَ شعريَ هـل تَنْوِي وقد وَلّتْ إيابْ
أيامُ حبّـي الأُوَلْ إذ ملْبَسي ثوبُ الشبابْ
مُطَـرّزاً بالعَذَلْ وإذْ أقولُ لِلصّحابْ :

سِيرُوا كسَيْـرِ الجيادْ وبَـادِرُوا للمُجـونْ فُرْسَانَا
ومَـن أرادَ السبـاقْ إلى كِنـاسٍ وريـمْ فالآنـا ؟

* * *

سَلْ أيّـةً سَلَكَا عهدُ الشبابِ المستحيلْ
أضَلّ أم هَلَكَـا أم لا إليه من سَبيلْ ؟
لا تَلْحَني في البُكَـا إنْ أخذتْ مِنّي الشَّمولْ

وَجْدِي على الوَجْدِ زَادْ ذكرتُ والذكرى شُجونْ إخْوانَـا
ذَوِي حوَاشٍ رِقـاقْ عاطيتُهمْ بنتَ الكُـرومْ أزْمَانَـا

---

(١) معجم الأدباء : ج ١٨ ص ٢١٩ .

وليلـةٍ بالخَليـجْ والبدرُ قد ألقَى شُعاعْ
عليه ضَـوْءٌ بَهيجْ وفُلكُنا تجري سِراعْ
أحْسِنْ بها مِن مُروجْ نركبُها على انْدفاعْ
بَحْرٌ إذَا مَـدَّ كادْ من كثرةِ الفَيْضِ يكـونْ طُوفَانَا
أحشاؤهُ في اصْطِفـاقْ إنْ جَرَّدَتْ خيلُ النسيـمْ فُرْسَانَا

* * *

دُنْيَا تجلَّتْ عَروسْ على بِساطِ السُّنْدُسِ
فاشربْ وهاتِ الكؤوسْ فهْيَ حياةُ الأنْفُسِ
وإنْ أتَيْتَ الغُروسْ فاعْدِلْ اليها واجْلسِ
حيثُ الرِّياضُ نِجَـادْ لِصَـارِمٍ رَاقَ العيـونْ عُرْيَانَ
ولِلْكِمَـامِ انْشِقاقْ عـن زَاهـراتِ النجـومْ ألْوانَا

* * *

وصَـاحِبٍ صَلَحَا لِلأنسِ محمودِ الخِلاَلْ
تَلْقَاهُ مُصْطَبِحَا بينَ المياهِ والظِّـلالْ
وإنْ عَذُولٌ لَحَـا في القهوةِ الصَّهْباء قالْ:
سُكْرِي عـلى شَطِّ وَادْ قد عانقتْ فيـه الغُصـونْ أغْصانَا
يَعْدِلُ مُلْكَ العِـراقْ عندي ، فساعدْ يـا نديـمْ نَدْمَانَا [1]

---

(١) أورد لسان الدين بن الخطيب هذه الموشحة في كتابه جيش التوشيح : ص ٤٠ ، ونسبها الى الأعمى التطيلي ، وورد جزء منها في كتاب المغرب : ص ٢٥ منسوبا الى أبي بكر يحيى بن بقي . ولما كانت أجزاء منها تتضمن أوصافا بصرية لا تتهيأ الا لبصير ، فإننا نميل إلى نسبتها لابن بقي .

٨

* ومن موشحات محمد بن عبد الملك بن زهر ، التي يمزج فيها بين الطبيعة والخمر والغزل جميعا ؛ هذه الموشحة التي يَرِفُّ رَوْنَقُها ويَشِفُّ أَلَقُها :

شابَ مِسْكَ الليلِ كافورُ الصباحْ [(١)]
ووَشَتْ بالروضِ أعرافُ الرياحْ [(٢)]

* * *

فاسْقِنِيها قبلَ نُورِ الفَلَقِ
وغِناءِ الوُرْقِ بينَ الوَرَقِ [(٣)]
كاحمرارِ الشمسِ عند الشّفَقِ

نَسَجَ المَزْجُ عليها حينَ لاحْ
فلَكَ اللّهْوِ وشمسَ الإصْطِباحْ

* * *

وغَزال سامَني بالملَقِ
وبَرى جِسْمي وأَذكى حُرَقي
أَهْيفٌ مُذْسَلَّ سيفَ الحدَق

قصّرَتْ عنه مشاهيرُ الصِّفَاحْ [(٤)]
وانْثَنَتْ بالذُّعْرِ أغصانُ الرِّمَاحْ

* * *

---

(١) كافور الصباح : ضوؤه الشبيه بالكافور .
(٢) الأعراف : جمع عرف بفتح العين ، وهو الرائحة الطيبة .
(٣) الورق بضم الواو : الحمام ، جمع ورقاء .
(٤) الصفاح : السيوف العريضة ، جمع صفيحة ، وهي من السيوف العريض منها .

صَارَ بالذُّلِّ فؤادي كَلِفَا
وجفوني ساهرات وُطُفَا [1]
كلما قلتُ: جوى الحُبِّ انطفا

أمرضَ القلبَ بأجفانٍ صحاحْ
وسَبَى العقلَ بجِدٍّ ومِزَاحْ

* * *

يُوسُفيُّ الحُسْنِ عذبُ المُبْتَسَمْ
قمَرِيُّ الوجْهِ لَيْلِيُّ اللِّمَمْ
عَنْتَرِيُّ البأسِ عَبْسِيُّ الهِمَمْ

غُصُنِيُّ القَدِّ مَهْضُومُ الوِشَاحْ
مَادِرِيُّ الوَصْلِ طَائِيُّ السَّمَاحْ [2]

* * *

قَدَّ بالقَدِّ فؤادي هَيَفَا [3]
وسَبَا عقلي لَمَّا انعطَفَا
ليتَه بالوَصْلِ أحيَا دَنِفَا

مُسْتطارَ العقلِ مقصوصَ الجَنَاحْ
ما عليه في هَواهُ من جُنَاحْ

* * *

يا عليُّ أنتَ نُورُ المُقَلِ
جُدْ بوصلٍ منك لي يا أملي
كم أغنِّيكَ إذا ما لُحْتَ لي:

---

(١) الجفن الأوطف : المسترخي النظر الذي يتساقط منه الدمع .

(٢) مادري : نسبة الى مادر المشهور بالبخل ، وطائي : نسبة الى حاتم الطائي المشهور بالكرم .

(٣) قد بالقد : من لطائف الجناس ، فقد : قطع ، والقد : القوام .

طَرَقَتْ والليلُ مَمْــدُودُ الجَنَاحْ [1]
مَرْحَباً بالشمسِ من غيرِ صَبَاحْ [2]

٩

• وقد فُتِن شعراء الأندلس بفن الموشحات الذي استحدثوه ، فطوّعوه لشتى فنون الشعر حتّى التصوف ، الذي تُستخدَم فيه المادة رمزا للحقائق اللدنية . وممن فعل ذلك من متصوفة الأندلس الشيخ العارف محيى الدين بن عربي المتوفي سنة ٦٣٨ ه . وفيما يلي موشح له ، كنموذج للموشحات الصوفية المليئة بمصطلحات ورموز صوفية لا يفهم مدلولاتها إلاّ مَن بلغوا مرتبة الكشف الإلهيّ :

مطلع الموشح

سرائــرُ الأعيــان[3] لاحَتْ على الأكوانْ للنــــاظـــرينْ
والعاشقُ الغَيْــرانْ مــن ذاكَ في حَــرّانْ[4] يُبْــدي الأنــينْ

* * *

يقــول والوَجْــدُ أضنــاهُ ، والبُعــدُ قــد حيّــرَهْ
لمّــا دَنَــا البُعدُ لم أدْرِ مِــن بَعــدُ مَــن غَيّــرهْ
وهَيّــم العَبــدْ والواحــدُ الفَــردُ قد خيّــرهْ

في البَوْحِ والكِتْمانْ والسِّرِّ والإعــلانْ في العالَمــيْن

(١) الطروق : المجيء أو الزيارة ليلا ، وجعل لليل جناحا ممدودا ، وجعل محبوبه شمسا . وطرقت الى آخر البيت مفعول ثان للفعل (أغنيك) . (٢) معجم الأدباء : ج ١٨ ص ٢٢١ .
(٣) الأعيان : حقائق الأشياء التي تشاهد بالعين .
(٤) حران : صفة بمعنى عطشان ، واسم لقصبة ديار مضر ، وهواؤها مفرط الحرارة ، ولعله قد رمز بها إلى شدة عطشه وظمئه للاتصال بالله .

أمَــا هــوَ الدَّيّانْ يــا عابــدَ الأوثانْ[1] أنت الضنينْ [2]

* * *

كــلُّ الهوَى صعبُ عــلى الذي يَشكُــو ذُلَّ الحجــابْ [3]
يــا مَن لــه قلبُ لــو أنــه يَذكُــو عنــد الشبــابْ
قد قَــرَّبَ الــرَّبُّ لكنّــه إفْـــكُ فَانْــوِ المتَــابْ

ونَــادِ يا رَحْمَــانْ يــا ربِّ يــا مَنّانْ إني حزيـــنْ
أضْنــانيَ الهِجرانْ ولا حبيـــبٌ دَانْ ولا مُعـــينْ

* * *

فَنِيـــتُ بـــاللهِ عمّـــا تراهُ العَيْــنْ مِــن كَوْنِـــه
في موقــفِ الجاهِ وصحْتُ : أين الأيْنْ في بَيْنِـــهْ ؟
فقال يــا ساهِي : ما عايَنتْ قطُّ عَــينْ بِعَيْنِـــــهْ

أمَــا تَرَى عَيْلانْ وقَيْسَ أو مَن كانْ في الغابريـــنْ
قالوا : الهوَى سلطانْ إنْ حَــلَّ بالإنسانْ أفناهُ دِينْ ؟ [4]

* * *

كم مَرَّةٍ قَــالاَ : أنــا الذي أَهْـــوَى مَن هُو أنــا ؟

---

(١) عابد الأوثان : لعله رمز للجسد الفاني .

(٢) أنت الضنين : أي البخيل بقهر شهوات الجسد حتى تسمو الروح .

(٣) الحجاب : كل ما يستذل الإنسان ويحول بينه وبين مشاهدة الله والاتصال به .

(٤) الدين لفظة مشتركة تدل على معان كثيرة منها : التعبد ، والذل ، والطاعة ، والخضوع ، ولعله رمز بلفظة (دين) الى أحد هذه المعاني .

فلا أرَى حَالاً[1] ولا أرَى شكْوَى إلاّ الفَنَا
لستُ كمَن مَالاَ عن الذي يَهْوَى بعدَ الجَنَى

ودَانَ بالسُّلْوانْ هذا هو البُهْتَانْ للعارِفِينْ[2]
سَلُوهُمُ مَا كانْ عن حَضْرَةِ الرحمانْ والآفِكِينْ

* * *

دخلتُ في بُستانْ الأنْسِ والقربِ كَمكْنَسِهْ
فقال لي الرَّيْحانْ يَختالُ بالعُجْب فيسُنْدسِهْ :
أنَا هُوَ الإنسانْ مُطَيِّبُ الصَّبِّ فيمَجلِسهْ

جنَّانُ يا جنَّانْ[3] اجْنِ من البُستانْ الياسَمِينْ
وحَلِّ الرَّيْحانْ[4] بحُرْمَةِ الرحمانْ للعاشقَينْ[5]

---

(١) النفس عند الصوفي نفسان : نفس ناقصة فانية ظاهرة ، ونفس كاملة باقية باطنة . والطريق عندهم هو المسافة التي على النفس الأولى أن تقطعها حتى تحقق نفسها الثانية فتتحد بالحقيقة وتتشربها وتفنى فيها ، أي اتحاد ذات الصوفي بالله « الفناء في الحق » . والمواقف التي يقفها الصوفي على الطريق للاستجمام يسميها « مقامات » ، وهي عند بعضهم مقام التوبة ، ثم مقام الورع ، ثم مقام الزهد ، ثم مقام الفقر ثم مقام الصبر ثم مقام التوكل ، ثم مقام الرضا . وفي كل مقام يقف السالك فيشعر بمشاعر نفسية خاصة سموها (الأحوال) . فحال الخوف ، وحال الرجاء ، وحال الشوق ، وحال الأنس ، وحال الطمأنينة ، وحال المشاهدة ، وحال اليقين الخ ..

(٢) العارفون : شيوخ الصوفية الذين بلغوا مرتبة الكشف الإلهي .

(٣) الجنان : حارس الجنة أو صاحبها ، والجنة عند المتصوفة ترمز الى ثواب أعمالهم الصالحة.

(٤) الريحان : رمز لتجليات الله وحلوله في الانسان ، على حد قول ابن عربي في الموشحة : أنا هو الإنسان .

(٥) نفح الطيب : ج ٢ ص ٣٨٠ .

* وممن نظموا الموشحات في التصوف أيضا ، شاعر الصوفية الكبير أبو الحسن عليُّ بن عبد الله الشّشتريّ ، فله ديوان ضخم في التصوف ، خرج أكثرهُ في الموشحات والأزجال . وقد اتجه نحو التصوف الفلسفيّ ، واعتنق مذهب وحدة الوجود في صورته العارية ، وعبّر عنه في بساطة نادرة .

ولما كان معظم موشحاته قد نُظِم أصلا للإنشاد والتغنّي به في زوايا الصوفية وحلَقاتهم ، فإن هذه الموشحات قد خرجت على أوزان الخليل، ولا وزن لها إلاّ التلحينُ ، وذلك بمدٍّ حرف وقصر آخر ، وإدغام حرف في حرف آخر ، وغير ذلك من ضرورات التلحين ، والقليل النادر مما جاء من موشحاته على أوزان الخليل ، هو ما سلم من اللحن .

وفيما يلي إحدى موشحات الشّشتري ، شاعر الصوفية الكبير الذي عاش في القرن السابع ، وهي من الموشحات التي استقام لها فيها الوزن العروضيُّ ، وعلى ضوئها نستطيع أن نرى سماتِ أسلوبه ، وطريقةَ تناوله لموضوعه :

* * *

الحمدُ لله على ما دَنَا
من السرور والهَنَا والمُنَى
فقلْ لواشٍ وَشَى بينَنَا

قد ذهب البؤس وزال العَنَا وواصَلَ الخِلُّ ونِلْنَا المُنَى

* * *

وزارَ مَن كنتُ لهُ شائقَا
وأصبح الشملُ به مُونِقَا
ورَوضُ أُنسِي مُنْعِماً مُورِقَا

وطابتِ الخلوةُ عند اللقا   ودارَ كأسُ الوصلِ ما بيننا

* * *

في حضرة القدْس لدَى موئلي
وسيِّدي مُنَادِمي مُواصِلي
يمزج لي من خمرهِ الأوَّلِ
حتى إذا أسكرني قالَ لي :   اشربْ شرابَ الأنْس من قُربِنَا

* * *

قلتُ له : مولايَ مَن يغْتَدِ
بهذهِ الخمرةِ لم يَهْتَدِ
فقال لي : لاَ والهوَى ، فابتَدِ
قلتُ : مَن الساقي ؟ فقال : الذي   قال لموسَى على الطور : أنَا

* * *

أمَا اهتَدَيْتَ بالسَّنَا اللائِحِ
والنارِ لِلْمُقْتَبِسِ اللاَّمِحِ
حتى نظرتَ نظرةَ الكاشِحِ ؟
يا مُدَّعِي الحُبِّ ... أمَا تَسْتَحِي   تنظرُ بالعين إلى غيرنَا ؟

* * *

يا فانياً ... لو كنتَ لي عاشقاً
لم تُبصِرِ الاَّ الواحدَ الخالقَا
فاسمعْ كلاماً مُبتغىً فائقَا

لو كنتَ فيمـــا تَدَّعِي صـــادقًا   ما أبصرتْ عيناكَ إلاَّ أنتَـــا

* * *

أقبِلْ على الحقِّ ودَعْ مـــا مَضَى
وايْأسْ من الخلق وكُنْ مُعْرِضًا
عمّن سوانـــا وانتصِرْ بِالقَضَا

تَنَلْ رِضَانَا ، وهْو نِعْمَ الرِّضَا   وتُرفَعِ الحُجْبُ التي بَيْنَنَا [1]

---

(١) ديوان الششتري : ص ٢٥٢ – ٢٥٤ .

٣

الزجـــل الأنـــدلسيّ

نشأة الزجل وتطوره :

يلتقي الزجل مع الموشحات في أنه مثلها من فنون الشعر التي استحدثها الأندلسيون ، وعلى هذا فهو وليد البيئة الأندلسية . ومنها خرج إلى البيئات العربية الأخرى وانتشر فيها .

وإذا كان مؤرخو الشعر الأندلسي لم يشيروا من قريب أو بعيد إلى مخترع هذا الفن ، فإن منهم من عرض بالذكر لأول من أبدع القول فيه .

فعبد الملك بن سعيد المتوفي سنة ٦٨٥ ﻫ يقول عن ذلك : « قيلت — الأزجال — قبل أبي بكر بن قزمان ، ولكن لم تظهر حُلاها ، ولا انسبكت معانيها ، ولا اشتهرت رشاقتها الا في زمانه ، وكان في زمن الملثمين [١] » .

وعن ذلك أيضاً يقول ابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ ﻫ : « ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضَرِيّة من غير أن يلتزموا فيها إعراباً ، واستحدثوا فنّاً سمّوه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على منَاحيهم لهذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مَجال بحسب لغتهم المستعجمة » .

---

(١) الزجل الأندلسي للدكتور عبد العزيز الأهواني : ص ١ .

« وأول مَن أبدعَ في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان . وإن كانت قيلت قبله بالأندلس ، ولكن لم تظهر حُلاها ، ولا انسبكَت معانيها ، واشتهرت رشاقتها إلاّ في زمانه ، وكان لعهد الملثمين . وهو إمام الزجالين على الإطلاق . قال ابن سعيد : ورأيت أزجاله مَروِيّةً ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب . قال : وسمعتُ أبا الحسن بن جُحْدُر الإشبيلي ، إمامَ الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثلُ ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة [1] » .

فمن هذين الخبرين نخرج بحقيقتين : الأولى أن أبا بكر بن قزمان المتوفي سنة ٥٥٤ هـ والذي عاش في عصر المرابطين بالأندلس ، هو أول مَن أبدع في فنّ الزجل ، والثانية ، وهي ذات دلالة هامة ، أن الأزجال قيلت بالأندلس قبل زمنه .

وقد أكد ابن قزمان الحقيقة الثانية بقوله في مقدمة ديوانه : « ولقد كنت أرى الناس يلهجون **بالمتقدمين** ، ويعظمون أولئك **المقدّمين** ، يجعلونهم في السماك الأعزل ، ويَروْن لهم المرتبة العليا والمقدار الأجزل ، وهم لا يعرفون الطريق ، ويَذرُون القِبلة ويمشون في التغريب والتشريق ، يأتون بمعان باردة ، وأغراض شاردة ، وألفاظ شياطينُها غيرُ ماردة . **وبالإعراب** وهو أقبحُ ما يكون في الزجل ، وأثقلُ من إقبال الأجل ... [2] » .

* * *

من ذلك كله يتضح أن هناك من شعراء الأندلس مَن تقدموا أبا بكر بن قزمان ، وحاولوا الزجل قبله ، وإن كانوا لم يبلغوا فيه مَبلغه ، أو يجيدوه إجادته . ومن الاحتكام إلى طبائع الأشياء يمكن القول بأن الزجل الذي نَبَت في بيئة الأندلس نوعان : زجل العامة ، وزجل الشعراء المعربين .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٣ : ١ .

(٢) الزجل الأندلسي : ص ٥٢ .

أما زجل العامة أو شعر العامة ، فيتمثل في الأغنية الشعبية العامية ، والتي تنبع تلقائياً لدى بعض العامة بباعث تجربة شخصية ، أو من وَحْي حَدَث عام أو موقف معين ، ثم تشيع على ألْسُن الناس ، ويَتغَنّون بها فُرادَى وجماعات .

وإذا كان للمثقفين شعرهم الفصيح ممثَّلا في القصائد والموشحات التي لا تَرقَى اليها أفهام العامة ، فإن لهؤلاء أيضاً شعرَهم الشعبيّ ممثلا في أغانيهم الشعبية التي هي مظهر لنفسياتهم ، وحالتهم العقلية ، وآرائهم الاجتماعية ، وآدابهم وأخلاقهم .

ونحن نرى أن الأغنية الشعبية ترجع في نشأتها إلى ما قبل اختراع الموشحات في أواخر القرن الثالث ، ولعلها ظهرت في الأندلس بشيوع لغة التخاطب غير المعرَّبة بين العامة ، وعندما اخترعت الموشحات ، تأثرت ببعض أشكالها ، ثم تطورت بذلك وسميت بالزجل .

وإذا رجعنا إلى كلام ابن خلدون السابق وجدنا فيه ما يؤيد هذا الرأي ، وذلك إذ يقول : « ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور ، لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً ، واستحدثوا فناً سمّوه بالزجل » .

أما زجل الشعراء المعربين فيبدو أنه جاء تاليا في النشأة ، لزجَل العامة ، ولعل الشعراء الذين حاولوا هذا النوع من الزجل قبل عصر ابن قزمان كانوا مدفوعين اليه بالرغبة في أن تنتشر أزجالهم المصطنعة بين الطبقات المثقفة كنوع من الطرافة ، أو بالرغبة في أن يُعرَفوا لدى العامة معرفتَهم لدى الخاصة ، وذلك بوضع أزجالٍ لهم يتغنّون بها ، كما هو الشأن في عصرنا الحاضر ، حيث نرى بعض الشعراء المعاصرين يضعون الأزجال العامية للغناء . ومن يدري ، فلعل من دوافعه لدى بعض الشعراء المعربين أنهم وجدوا أنفسهم لا يقعون مع

فحول الشعراء المعاصرين لهم في شيء ، فسلكوا سبيل الزجل ليتميزوا بينهم .

ولكن هؤلاء الشعراء المعربين ممن اصطنعوا الزجل اصطناعاً لم يستطيعوا في مراحله الأولى أن يتخلّصوا فيه من الإعراب ، وهذا ما عابه عليهم ابن قزمان حين قال : إنهم يأتون بالإعراب ، وهو أقبح ما يكون في الزجل . ولم يشهد ابن قزمان لأحد من الزجالين الذين جاءوا قبله بإجادة الزجل والتفوق فيه إلاّ لزجال واحد هو الشيخ أخطل بن نُمارة ، وذلك لسلاسة طبعه ، وإشراق معانيه ، وتصرُّفه بأقسام الزجل وقوافيه [1] .

والرعيل الأول من الزجالين الذين جاءوا قبل ابن قزمان ، وسمّاهم في مقدمة ديوانه « المتقدمين » قد ظهروا في القرن الخامس ، أي في عصر ملوك الطوائف . وهؤلاء الملوك كما عرفنا من قبل كانوا يتشبهون في حياتهم الأدبية بخلفاء الأمويين في قرطبة وخلفاء المشرق من حيث رعايتُهم للشعر المعرَب وتشجيعُ شعرائه ، ومن أجل ذلك لم تَرُج عندهم أزجال هؤلاء الزجالين ومُنيت بالكساد .

* * *

وحتى الآن قد مر الزجل في تطوره بدورين : دور الاغنية الشعبية التي تأثرت إلى حدٍّ ما ببعض أشكال الموشحات ، وأطلقنا عليها اسم الزجل العاميّ ، ودور زجل الشعراء المعربين الذين ظهروا في القرن الخامس .

أما الدور الثالث من أدوار تطور الزجل ، فهو دور زجّالي القرن السادس الذي شهد نهاية عصر ملوك الطوائف وبداية عصر المرابطين في الأندلس . ولما كان ملوك المرابطين لا يتقنون اللغة العربية ، فإن شعراء القصائد والموشحات لم يلقَوا منهم تشجيعاً ، ولهذا ازدهر الزجل في هذا القرن .

ومن زجّالي القرن السادس الذين ذكرهم ابن خلدون : عيسى البليدي ،

---

(١) الزجل في الأندلس : ص ٥٣ .

وأبو عمرو بن الزاهر الإشبيلي ، وأبو الحسن المقّري الداني ، وأبو بكر بن قزمان ، إمام الزجالين على الإطلاق ، على حد قول ابن خلدون . وكان في عصرهم بشرق الأندلس الزجال يخلف الأسود .

وفي منتصف القرن السادس توفي إمام الزجالين أبو بكر بن قزمان ، وزالت من الأندلس دولة المرابطين التي عاصرها ، وحلت محلها دولة الموحّدين ، وكان عصرُها بداية الدور الرابع من أدوار الزجل ، وسابقُ حلبة الزجل في هذا العصر هو أحمد بن الحاج المعروف باسم مَدْغَلّيس الزجال .

وقد ذكره المقّري في كتابه نفح الطيب وقال عنه : « كان مَدْغَلّيس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال ، خليفةَ ابنِ قزمان في زمانه ، وكان أهل الأندلس يقولون : ابنُ قُزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ، ومَدْغَلّيس بمنزلة أبي تمام ، بالنظر إلى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان مُلتفتٌ إلى المعنى ، ومَدْغَلّيس مُلتفت للفظ ، وكان أديباً مُعرِباً لكلامه مثلَ ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجبَ اقتصر عليه [1] » .

وفي الدور الرابع من أدوار تطور الزجل والذي امتد إلى المائة السابعة ، ظهر بالاضافة إلى مَدْغَلّيس زجالون آخرون ، منهم : ابن الزيات وابن جُحدُر الإشبيلي المتوفي سنة ٦٣٨ هـ والذي فضَل الزجالين في فتح ميورِقَةَ بالزجل الذي أوله :

مَن عاند التوحيد بالسيف يُمحَق ‍ ‍ ‍ ‍ أنا بَري ممن يعاند الحق

ومنهم اليعيع تلميذ ابن جُحدُر ، وصاحب الزجل المشهور الذي أوله :

يا ليتني إن رأيت حبيبي ‍ ‍ ‍ ‍ أفتلْ أذنو بالرُّسَيلا

ليش أخذ عنُق الغزَيِّلْ ‍ ‍ ‍ ‍ وسرق فَمْ الحُجَيلا [2]

ومنهم أبو عليّ الحسن بن أبي نصر الدباغ ، وله كتاب في مختار ما

---

(١) نفح الطيب : ج ٤ ص ٣٥٦ .

(٢) ليش : لأي شيء ، أو لماذا . ؟

للزجالين المطبوعين ، اعتمد عليه ابن سعيد ، ونقل منه مختارات لزجالي المائة السابعة . ومن هؤلاء المطبوعين الذين أورد ابن الدباغ في كتابه مختارات من أزجالهم أبو بكر الحصار ، صاحب الزجل الذي مطلعه :

الذي نعشق مليح   والذي نشرب عتيق

ومنهم كذلك أبو عبدالله بن خاطب ، وأبو بكر بن صارم ، وأبو عبدالله ابن محمد بن ناجية اللورقيّ ، الذي عدّه ابن الدباغ « شيخ الزمان وخليفة ابن قزمان » . وهؤلاء الزجالون ظهروا بإشبيلية .

ومنهم أخيراً أبو زيد الحدّاد البكّازور البلنسيّ ، وأبو الحسن عليّ بن محمد الشاطبيّ ، وأبو بكر بن عمير المغربيّ ، وأبو عبدالله بن حسُّون ، وأبو الحسن سهلُ بن مالك إمام الأدب ، ويحيى بن عبدالله البحبضة ، وله أزجال على طريقة البُداة الذين يغنُّون على البوق [1] .

وقد اتجهت أزجال هذه المائة السابعة من حيث أشكالُها إلى البعد عن تعدد الفقرات ، والتقليل من القوافي . أما من حيث موضوعاتها فالغالب عليها الغزل ووصف مجالي الطبيعة الجميلة ، من مثل الرياض ونحوها .

ومع كثرة زجالي القرن السابع نسبياً ، فإنه لم يُرزَق زجّالا كبيراً كابن قزمان أو مَدْغَلّيس مثلا ، وربما رجع ذلك إلى أن بوادر مأساة الأندلس الكبرى كانت قد بدأت تلوح في الأفق ، بتساقط المدن الأندلسية في أيدي الإسبان ، فشُغِل الناس أكثر بهذا الخطر الداهم عن كل شيء آخر . ولعل السبب ذاته هو الذي أدّى إلى ميلاد نزعة التصوف بالأندلس في هذا القرن ، ثم إلى ظهور الأدب الصوفيّ فيما بعد على أيدي رجاله ، من أمثال محيى الدين ابن عربي المتوفي سنة ٦٣٨ هـ ، وابن سبعين ، وتلميذه أبي الحسن الشّشْتَريّ المتوفي سنة ٦٨٨ هـ .

---

(١) الزجل الأندلسي : ص ١١٥ - ١١٩

والشُّشْتَريُّ هو أول من استخدم الزجل في التصوف ، كما أن محيى الدين بن عربي هو أول من استخدم الموشح فيه .

والدور الخامس والأخير في تطور الزجل الأندلسيّ يقع في المائة الثامنة . وقد عرض ابن خلدون في مقدمته إلى زجالي هذه المائة بإيجاز ، وعدَّ منهم إلى عصره صاحبَه الوزير أبا عبدالله بن الخطيب ، وشهد له بأنه إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غيرَ مُدافَع ، ثم ذكر من محاسن أزجاله ثلاث مقطوعات قصيرة في الخمر والتصوف ، ومنها على طريقته الصوفية التي نَحَا فيها مَنحَى الشُّشْتَريّ قوله :

بين طلوع وبين نزولْ   اختلطت الغزولْ
ومضَى مَن لم يكن   وبقِي مَن لم يزولْ

كذلك ذكر ابن خلدون زجالا آخر من معاصري ابن الخطيب بقوله : « وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش ، وكان إماماً في هذه الطريقة » ثم أورد قطعة من زجل له مطلعه :

حل المجون يا أهل الشطارا   مُذْ حلّت الشمس في الحَمْل

وقال إنه عارض به زجلا لمَدْغَلِّيس مطلعه :

لاح الضياء والنجوم حيارَى   فقم بنا ننزع الكسلْ

ثم يتابع ابن خلدون كلامه على الزجل الأندلسيْ قائلاً : « وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العامة بالأندلس من الشعر وفيها نظمهم ، حتى إنهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر ، لكنْ بلغتهم العامية ، ويسمونه الشعر الزجليّ ، مثل قول شاعرهم :

دهرْ لي نَعشقْ جفونك وسنينْ   وانت لا شفقةْ ولا قلبْ يلينْ
حتى ترى قلبي من اجلك كيفْ رجعْ   صنعة السِّكة بين الحدادين
الدموعْ ترشرشْ والنارْ تلتهبْ   والمطارق من شمال ومن يمين

خلق الله النصارى للغـــــزو وأنت تغزو قلوب العاشقين » .

ويحدثنا ابن خلدون أيضاً عن زجال ثالث من زجالي هذا العصر المجيدين بقوله : « وكان من المجيدين لهذه الطريقة لأول هذه المائة أبو عبدالله اللوشيّ » ويورد له قصيدة زجلية طويلة من ٥١ بيتاً مطلعها :

طل الصباحْ قمْ يا نديمي نَشربــو ونَضحكو مِن بعدما نَطربــو [1]

هذا عن نشأة الزجل الأندلسيّ وتطوره ، والمراحل الّتي مرّ بها ، وأهم رجاله . والآن ننتقل للحديث عن موضوعات الزجل الأندلسي مع إيراد نماذج لها .

* * *

موضوعات الزجل :

الزجل الأندلسيّ مَثَلُه مَثَلُ الموشحات من حيث تناوله لموضوعات الشعر الّتي تناولتها القصيدة المعرّبة . والذي يتصفّح ما وصل الينا من أزجال الأندلسيين يرى أنهم قالوا الزجل في الغزل ، والمدح ، والوصف ، والخمريات ، والمجون ، والتصوف ، وغير ذلك من فنون الشعر التقليدية المعروفة .

ولعل من تمام الدراسة هنا أن نُورد بعضَ نماذجَ من أزجالهم في شتّى الأغراض والموضوعات الّتي نظموا فيها ؛ لنرى على ضوئها أشكال هذا الفنّ عندَهم ، وأوزانه ، وسِماته المميزة ، بادئين بفنّ الغزل .

والغزل تتنوع صوره في أزجال الأندلسيين ، فمن هذه الصور ما يُبنَى الزجل فيها على الغزل وحده ، ومنها ما يأتي الغزل فيها ممتزجاً بموضوع آخر أو أكثر من موضوعات القول .

---

(١) يرجع في كل ما أوردناه هنا عن ابن خلدون إلى مقدمته : ص ١١٥٦ - ١١٦٠ .

• فمن الأزجال التي بُنِيَتْ على الغزل وحده ، زجل لابن قُزمان [1] يقول فيه :

هجــرن حبيبي هجــــرْ   وأنا لَس [2] لي بعدُ صَبَرْ

لَسْ حبيبـــي إلاّ وَدُودْ   قطعْ لي قميص من صُـــدودْ
وخـــاطَ بنقــض العهــود   وحَبَّبْ إليَّ السهـــــــرْ

كان الكُستبانْ من شُجونْ   والإبَـر من سِهام الجفونْ
وكان المِقصّ المنــــــونْ   والخيط القضــا والقـــدرْ

رأى قلبي هذا المحـــالْ   مضَى لحبيبي وقـــالْ :
عسَى ثَمْ طُوَيْشر وِصالْ   وإن كان لحدّ الـــدورْ

تكون الطـرور مــن وِدادْ   واللوزا مــن الإعتقـــاد
والكابّـــه لذيــذ الرقـــادْ   فلم نرقد اليوم شَهَـــرْ [3]

• ومن الازجال التي يمتزج فيها موضوع الغزل بوصف الخمر والتعلّق بها ، زجل لأبي بكر الحصار يقول فيه :

الذي يَعشقْ مليــــحْ   والذي يَشربْ عتيـــقْ

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان ، إمام الزجالين بالأندلس في القرن السادس . ولد حوالي سنة ٤٨٠ هـ وتوفي سنة ٥٥٤ ، وذكر الحجاري أنه كان في أول نشأته مشتغلا بالنظم المعرب ، فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره ، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم ، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس . وكان ابن قزمان مقبلا على اللذات والشراب والمغامرات مع النساء والغلمان كارهاً للزواج ، ويرى فرقاً بينه وبين العشق في استثارة اللذة :

يقبل الزوج ولا يدر طيب القبل
لس يربح القبل والتعنيق غير العشيق

(٢) لس : ليس .   (٣) الزجل الأندلسي : ص ٧٥

المليحْ أبيضْ سـمينْ	والشراب أصفرْ رقيـقْ
لا شراب إلاّ قـديمْ	لا مليح إلاّ وَصـولْ
إذ تقول روحك يزيـدْ	لِش تخالف ما تقولْ ؟[1]
والدّنانْ كلّ يـوم	لا ملولْ ولا بخيـلْ
من زيارهْ بعدُ قـد	رجع بحَلْ صـديق[2]

* * *

وموضوع المدح لا يقع في الأزجال الأندلسية وحده ، وإنما يأتي فيها كثيراً ممتزجاً بموضوع آخر ، وأحياناً يأتي ممتزجاً بأكثر من موضوع . وممن جاءت أكثر أزجاله في المدح مَدْغَلّيس .

* ومن أزجاله في المدح زجل بدأه بمقدمة غزلية أجرى بينه وبين النسيم فيها حواراً يقول فيه :

لقد أقبلت يا نسيمَ السَّحَـرْ	بروائح قد بَوّرتْ للمُسُوكْ
تُوقد أنفاسك الذكية شَمَعْ	في قلوبْنا متى ما نستنشقوكْ

ومنها :

إنمـا حقاً لش وصلت ضعيفْ ؟	قال لي : دارْ ما دارْ لَكْ إذْ وَدّعوكْ
لمّـا جالي الفـراق وودّعتُهـمْ	لبّسُوني النحولْ كما لَبّسُوكْ
ذكر اللهْ مَن قد ذكـرت بخير	كذايَضّا سمعتُهمْ يذكروك[3]
قلْت : مِن حق يذكروني الملاحْ ؟	قَلْ لي : كيفْ لا ؟ نعمْ وينتظروكْ
قلتْ : إنْ كانْ ترجعْ لهم عن قريبْ	قُلْ لهم عني يَضّا إنْ سألـوك

---

(١) لش : بمعنى لماذا ؟.

(٢) المغرب : ج ١ ص ٢٧٩ ، وكلمة بحل أو بحال : بمعنى مثل أو شبيه .

(٣) يضا بفتح الياء وتشديد الضاد : بمعنى أيضاً .

غَزَّزْ شوقي لهم ووَفّي وزيـدْ   في ضماني أشْ ما تقولْ صدقوكْ(١)
أنـا لَسْ يتهموني في حبّهـم   ولا أتْ في الرسالة يتّهْموكْ (٢)
ولا يرموني في الهـوى بالملَـلْ   ولا أتْ يَضًا بالكـذب يرموكْ
أيّ زمانْ بعد؟قلْ: هو قد كانْ يجي   إنما هـوَّ في قرطبـة مملـوكْ
لأبو يَحيـى سيّـد الأمـرا   وفريد الزمانْ وزير الملوكْ (٣)

* ومن الأزجال الفريدة النادرة التي بُنيَت على المدح وحدَه ، زجل لابن قُزمان يمدح فيه القاضي ابن الحاج ، ويرسم له ولمجلسه فيه صورة واقعية بعيدة عن المبالغة . قال ابن قزمان :

وصل المظلومْ لحقٌ وانتصفْ غنَيي ومِسكينْ
يحضر الإنكار والإقـرار ويقع الفصل فِالحِـينْ
اجتمعْ فيه الثلاثة : الورعْ والعلـمْ والدّيـنْ

فيزول الحـق إذا زالْ ويـدوم الحـق إذا دامْ

* * *

وتَرى طالبْ ومطلوبْ لَسْ تَرى زُوّارْ وجُلاّسْ
إلاّ إن كانت ضرورة كلمـة كلمتين فـلا باسْ
مُرْآتْ يا قاضي الجماعة جزاكَ اللهْ خيرْ عن الناسْ

إنّ مُذْ كنت أت حاكمْ عَرفتْ شروط الأحكامْ

* * *

أيّ نهارْ نراكْ في داركْ وآت قد جلست للنـاسْ
والخصامْ يعطي ويمنعْ والزحـامْ وحَرّ الأنفـاسْ

---

(١) أش : أي شيء .   (٢) أت : أنت
(٣) الزجل في الأندلس : ص ١٠٩ - ١١٠.

وأنت تحكمْ في المناكحْ والغصبْ والدّينْ والأحباسْ
والمواريث والجنايات والنظر فِأمــوال الايتــامْ [1]

• وقد يأتي المدح ممتزجاً بوصف الطبيعة والشراب والغزل . ومن ذلك قصيدة زجلية طويلة من ٥١ بيتاً للأديب أبي عبدالله اللوشيّ يمدح فيها أحد سلاطين بني الأحمر ، ومطلعها :

طلّ الصباحّ قمْ يا نديمي نَشْربــــو
ونَضحكو مــن بعــد ما نَطَرَبو [2]

* * *

ومن الفنون التي تناولوها في أزجالهم وأكثروا القول فيها وصفُ مجالي الطبيعة في الأرض والسماء ، وهم في ذلك يقتفون أثر شعرائهم ووشّاحيهم في تصوير طبيعة الأندلس الجميلة ، والتغزّل بمحاسنها ومفاتنها .

• ومن خير أزجال الأندلسيين في وصف الطبيعة الناضرة زجل رقيق لمَدْغَلّيس يموج بالحركة والأصوات ، والعبير والألوان ، ومنه قوله :

ثلاث أشيــا في البساتــينْ   لَسْ تُجَدْ في كــلّ موضعْ
النّسيمْ والخضرَ والطيرْ   شـمْ وَاتْنَزّه وإسْمَعْ
قُمْ تَرَى النّسيم يُوَلْوِل   والطيورْ عَلَيهْ تغَــرّدْ
والثمارْ تُنْثُرْ جوَاهــرْ   في بِسَاطْ مِن الزُّمُــرُّدْ
وبِوَسْطِ المرجِ الأخْضَرْ   سقْيِ كالسيفِ المُجــرَّدْ
شُبّهــتْ بالسيــف لَمّــا   شُفِتْ الغَديــر مــدرَّعْ

* * *

(١) الزجل في الأندلس : ص ٢٠١ ، حرف الجر « في » أحيانا يكتفي منه في الزجل الأندلسي بحرف الفاء متصلا بالاسم المجرور ، ومثاله هنا هو (فأموال) : أي في أموال ، و (فالحين) أي في الحين .

(٢) يرجع إلى هذه القصيدة الزجلية في مقدمة ابن خلدون : ص ١١٥٨ .

وزَذاذاً دقٌّ يِنْـــزِلْ وشعاعِ الشمسِ يِضْرَبْ
فترَى الواحِدْ يِفَضَّضْ وتَرى الآخرْ يِذَهَّبْ
والنباتْ يشربْ ويسْكَرْ والغصونْ تُرقصْ وتِطرَبْ
وتِرِيــدْ تِجِــي إليْنَـــا ثُمَّ تِستَحي وِتِرْجَعْ [1]

* ومن أزجالهم في وصف الخمر والتغنّي بها زجل لابن قزمان يقرر فيه أن الحياة إنما هي في اللهو والشراب والعشق، وأن ما عدا ذلك من الدنيا لا قيمة له في نظره .

دنيا هي كما تراها فاجتهدْ واربحْ زمانَــكْ
كلَّ يوم وكلَّ ليلة لا تُخلّي مهرجانَك
واشتفي عليهَ من قبل أن يجيء الموت في شانكْ
لَسْ ذي عندك مصيبة والدنيـــا حَيَّـــا ؟

* * *

ساعَ دون شُرَيبَ عندي لا شَكَل ولا ملاحــه [2]
وأشَّ يوم بــلا رقاعه وأشَّ يوم بــلا وقاحه ؟ [3]
لَسْ نعــدَّ اللذّ لذه ولا يَذّ الراحَ راحه [4]
حتّى تدخل شفة الكاسْ بالشراب بين شفتيّــــا [5]

* ولابن قزمان زجل آخر ، يجمع فيه بين وصف الطبيعة والخمر ، ومنه قوله :

والثمــارْ تنشــرْ حليّـــــه بثياب بحَــلْ زبَرْجَدْ [6]
والرياضْ تلبسْ غِــلاّلاَ من نبات فَحَــلْ زُمــرُّدْ

(١) المغرب : ج ٢ ص ٢٢٠ .
(٢) الشكل عنده : الحسن . (٣) أش : أي شيء .
(٤) يذ بتشديد الذال أو تسكينها : تؤدي أحياناً معنى (أيضا) ، وهي هنا بهذا المعنى .
(٥) الزجل في الأندلس : ص ٩٠ . (٦) بحل : بمعنى مثل أو تشبه .

والبُهـــارْ مــع البنفســـجْ يـــا جمـــال أبيض فِـــأزرقْ

* * *

والنـــدَى والخيـــر والآسْ والـــراحْ والظـــلُّ وَالْمـــا
والمليحْ خلطـــي مُهـــاوِدْ والرقيـــب أصمّ أعمـــى
وزُميـــرْ مـــن فـــمّ ساحـــرْ وغُنا من كـــفّ سلمـــى
والزجـــاجْ مِلِـــحْ مِجـــزَّعْ والشـــرابْ أصفـــرْ مـــروّقْ

* * *

يا شرابًا مُرّ ما أحـــلاك! علقم أتَّ ممزوج بسكّرْ (١)
بالـــذي رَزَقْـــنَ حبّـــكْ من نثرْ عليـــك جوهـــر ؟
وتـــرى لشْ تشتكي ضُرّ ؟ لشْ نراك رقيق أصفر ؟ (٢)
مـــا أظـــن إلاَّ ألـــمْ بِيـــكْ أو مليحْ لا شك تَعشـــقْ (٣)

* * *

كذلك قالوا الزجل في موضوع التصوف ، وقد أشرنا من قبل إلى ظهور نزعة التصوف بالأندلس في القرن السابع ، والأسباب التي أدت اليها . ومن شعراء الصوفية ، كما سبق أن ذكرنا ، أبو الحسن الشّشتَري الذي ولد في الأندلس وعاش فيها صباه وشبابه ، ثم رحل إلى إفريقية والمشرق ومات في مصر سنة ٦٨٨ هـ .

وللشّشتَري ديوان كبير يضم قصائده وموشحاته وأزجاله التي تصور مذهبه التصوفيَّ القائم على القول بوحدة الوجود . وقيمة هذا الشاعر الكبير تتمثل في غزارة أدبه الصوفيّ المنوع الأشكال ، وفي أنه الناقل الحقيقي للزجل

---

(١) أت : أنت . (٢) اش : لماذا ؟ .
(٣) المغرب : ج ١ ص ١٦٩ .

من الموضوعات الدنيوية المحسّة كالعشق الحسيّ والغزل في الغلمان والخمر ، إلى جوٍّ سام هو تمجيد الله والهيام في حبه [1] .

* ومن أزجال أبي الحسن الشّشتَريّ في التصوف هذا الزجل الذي يقول فيه :

لله لله هامُوا الرِّجــــــالْ في حُــــب الحبيـــــبْ
اللـــهْ اللـــهُ معـــي حاضِرْ فـــي قـــلبي قريـــــبْ
إدَّلَّلْ يا قلبي وافرحْ حبيبكْ حضَــرْ
واتْنعّمْ بذِكْر مولاكْ وقُصّ الأثـــرْ
واتْهَنَّى وعِشْ مُدَلّلْ بين البشَـــرْ
دَعُوني دَعُرني نَذكُرْ حبيبي بذكُـــــــرُو نطيـــــبْ
اللـــهْ اللـــهُ معـــي حاضِرْ فـــي قـــلبي قريـــبْ

* * *

أشْ نعمَلْ في ذي الْقضيّا وأنا عَبدُكمْ
نَراني نَخْلعْ عِذاري علىَ حُبّكـــمْ [2]
وروحي وأشْ ما بقي لي نَهَبْـــه لكـــمْ
إسمعُوا إسمعُوا يأهلِ المحبّهْ حبيـــب مُجيـــبْ
اللـــهْ اللـــهُ معـــي حاضِرْ فـــي قـــلبي قَريـــبْ

* * *

مَن وَهَبْ رُوحولمـولاهْ ربَحْ وانتفعْ
ومِنه للسُّلّم العالي طَلَــعْ وارتفـــعْ

---

(١) الزجل الأندلسي : ص ١٣١ .

(٢) في العامية الأندلسية يكون الفعل المضارع للمتكلم الواحد بالنون بدلا من الهمزة ، وعلى هذا فالفعلين المضارعين (نراني ونخلع) هما بمعنى (أراني وأخلع) .

واتْمسّكْ بأهل التصوف ولاذْ واستمعْ

وشاهَدْ وشاهَدْ معنى الجمالْ والحُسْـــنِ العَجيـــبْ

الـــهْ اللـــهُ معـــي حاضـرْ فـــي قـــلبي قريـــبْ

* * *

أنا هُ معنى المعاني وسرًّ الوجـــودْ [1]

فاتنزهْ في لطف صُنْعي واحفظْ الحُدودْ

واخْرُجْ عمّنْ سَوائي تحظى بالشُهُودْ

تَدخُلْ تَدخُلْ حضْرةْ صَفائي جـــوارَ الحَبيـــبْ

اللـــهْ اللـــهُ معـــي حاضـرْ في قـــلبي قريـــبْ [2]

* * *

وبعد ... فماذا عن أشكال الأزجال وأوزانها وسماتها ؟ إن المتأمل في نماذج الزجل السابقة يرى أنها جمعت بين القصائد والموشحات من حيث الأشكال والأوزان .

فالقصائد الزجلية ، والتي هي أول صورة ظهرت لهذا الفن العامي المستحدث تتفق مع القصائد المعرَّبة التقليدية في التزام الوزن الواحد ، والقافية الواحدة ، والمطلع المصرَّع ، ولا تختلف عنها في شيء غير اللحن والإعراب واللغة .

وعن ذلك يقول صفي الدين الحلّي : « وأول ما نظموا الأزجال جعلوها قصائد مقصدة ، وأبياتاً مجردة في أبحر عروض العرب ، بقافية واحدة كالقريض ، لا تغايره بغير اللفظ ، وسمّوها القصائد الزجلية [3] » . كذلك قال ابن خلدون إنهم نظموا بلغتهم العامية في سائر البحور الخمسة عشر ،

---

(١) الضمير (هو) يرد كثيراً في الأزجال مختصراً على هذه الصورة (ه) أي هاء مضمومة بدون الواو

(٢) ديوان الششتري : ص ٨٨ .

(٣) كتاب العاطل الحالي : ص ١٧ - ١٨ .

وسمّوه الشعر الزجلي ، أي القصائد الزجلية .

ومن حيث الأشكال والأوزان أيضاً تتفق الأزجال مع الموشحات في الأجزاء الأساسية التي تُبنَى عليها من مطلع وأغصان وأسماط وأقفال وأدوار وخرجة ، ثم تختلف هي عن الموشحات في البعد عن تعدد فقرات بعض الأجزاء ، وفي التقليل من قوافي الفقرات الداخلية ، ثم في التزام خرجة واحدة عامية دائماً .

وإذا كان المتقدمون على ابن قزمان من أمثال ابن نمارة هم أول من نحَوا بالزجل مَنْحى الموشح في أشكاله وأوزانه، وذلك بالتصرف في أقسامه وقوافيه، فإن ابن قزمان هو أول مَن طوَّر هذا الاتجاه وأبدع وتفنّن فيه ، وأظهر حُلاه .

ولم يقف تأثر الأزجال بالقصيدة العربية عند شكلها الخارجي وأوزانها ، وإنما تجاوز ذلك إلى سائر تقاليدها الفنية الموروثة ، فأغراض القول واحدة ، وافتتاح المديح بالنسيب واحد ، وذرائع الانتقال من النسيب إلى المديح واحدة ، والمعاني التي طرقها الزجالون في شتى الأغراض ، وأساليب التعبير البيانية التي استخدموها كالتشبيه وضروب المجاز تذكرنا في جملتها بمعاني وأساليب الشعراء المعربين ، حتى ليصح القول بأن كل ما هنالك من فرق بين القصيدة العربية القديمة والأزجال هو في اللغة فقط ، فالأولى تنظم بلغة مُعرَبة ، والثانية تنظم بلغة عامية .

* * *

وإذا شئنا أن نقيِّم فنَّ الزجل الذي نشأ أصلاً في بيئة الأندلس ، ثم انطلق منها إلى البيئات العربية الأخرى ، فإن قيمته ليست في تنوع أشكاله وأوزانه ، ولا فيما استلهمه أو استعاره من معاني شعراء العربية وأساليبهم البيانية والبديعية التقليدية .

وإنما تكمن قيمته الحقيقية فيما استمده من واقع حياة العامة ، ممثّلا في الجديد من معانيهم وحكمهم وأمثالهم . وفي المبتكر من تشبيهاتهم وغيرها من أنواع المجاز ، وفي الشائع المألوف من ألفاظهم وصيغهم العامية . كما يكمن في تصوير حياتهم العامة بجدّها وهزلها ، وأفراحها وأحزانها ، واهتماماتها وهمومها ، ولعل ذلك هو ما يكسب الزجل صفة الشعبية ، ويسلكه في الأدب الشعبي كفنٍّ من فنونه .

وفي يقيننا أن الدراسة العلمية الجادة لفنون الأدب الشعبيّ ، والزجلُ واحد منها ، كفيلة بأن تظهرنا على نَبْعٍ لا ينضب مَعينُه من أساليب البيان المبتكرة ، ومن المعاني الجديدة ، ومن الحكم والأمثال التي تَمخّضت عنها عبقرية عامة الشعب ، وعبّرت عن فلسفتهم في الحياة ونظرتهم اليها وموقفهم منها

ومثلُ هذا العَطاء الشعبيّ لو أُتيح يوماً وأضيف إلى الفُصْحَى لأثرَى أدبها ، وفتح آفاقاً جديدة أمام أدبائها وشعرائها للتجديد في معانيهم وأساليبهم .

٣

شعـــر الاستغـــاثـــة

وشعر الاستغاثة أو الاستنجاد هو أحد فنون الشعر الّتي استحدثها شعراء الأندلس بالإضافة إلى الموشحات والزجل . وهو شعر يقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب العربيّ في المحل الأول ، وهمم المسلمين في شتّى أقطارهم ، كي يَنْهَضُوا بباعث الأخوّة الإسلامية لنجدة إخوانهم بالأندلس ، ومَدّ يد العون لهم في جهادهم ضد أعدائهم من نصارى الأندلس الذين أطمعهم ضعف ملوك المسلمين بها ، فراحوا يضاعفون من إغاراتهم على مدنهم ويهددون أهلها بالاكتساح الشامل .

ومنذ القرن السادس فصاعداً ، وبسبب تخاذل ملوك الأندلس ، وتفرق كلمتهم ، وإسرافهم على أنفسهم في اللهو والمجون ، وانشغالهم عن أمور الجهاد بمحاربة بعضهم بعضاً ، أخذ العدو يتجرأ عليهم ، ويباغتهم بالإغارة من وقت لآخر والاستيلاء على أطراف بلادهم شيئاً فشيئاً ! وكلما مر الزمن ازداد المسلمون ضعفاً ، وازداد الأعداء تبعاً لذلك قوة وجرأة عليهم !

وكان شعراء الأندلس كبقية مسلميها يشاهدون تساقط قواعدهم ومدائنهم تباعاً في يد النصارى ، كما يشاهدون محوَ معالمها الاسلامية ، وطردَ أهلها منها ، والافتنانَ في صور تعذيبهم ، فيستولي عليهم الأسى والذهول ، ولا

يملكون إلاّ أن يجأروا بشعر الاستغاثة ، يخاطبون به قلوب ملوك المسلمين عامة ، وملوك المغرب العربيّ خاصة من مرابطين وموحدين ومَرِينيين ، فيستجاب لصريخهم حيناً ، وتَصَمُّ الآذان عنه أحياناً ؛ إما لانشغال هؤلاء الملوك بأحداث وهموم بلادهم ، وإما ليأسهم من أهل الأندلس أنفسِهم ، ولما عانَوه معهم من قبلُ ، وما عَرَفوه عنهم من تآمر بعضهم مع أعداء البلاد عليهم وعلى إخوانهم بالأندلس ، في مناسبات سابقة !

وقد كثر شعر الاستغاثة هذا في الأدب الأندلسيّ ، حتى صار بكثرته وتنوع صوره فنا جديداً في الشعر الأندلسي بل في الشعر العربيّ كله ، لأنه نابع من صميم مأساة الأندلس ، التي لم يكن لها نظير من قبل في تاريخ الإسلام .

ومن شعراء الأندلس مَن كان بعيد النظر ، فتنبأ بالمأساة الكبرى قبل وقوعها ، فراح ينعَي في شعره على ملوك الأندلس تخاذلهم أمام أعداء البلاد ، وجَوْرَهم في الرعية وتهاونَهم في أمور الدين وإسرافَهم في حياة الترف والمجون ، لعلهم يستفيقون ويستقيمون ويرتفعون لمستوى مسئوليتهم كملوك ، ولكنّ أحداً منهم لم يُفِق على صرخة هؤلاء الشعراء ولم يُصغ اليها ، وكأنما كانت صرخةً في واد !

وقد مرَّ بنا نماذج من هذا الشعر لشاعرين : هما عبدالله بن فرج اليَحْصُبيّ ، وأبو القاسم بن الجد [1] . ومنهم أيضاً الكاتب الشاعر أبو عبدالله محمد بن الفازازي الذي يقول :

الرومُ تضرب في البــلاد وتَغنَـــمُ	والجورُ يأخذ ما بَقِي والمَغرَمُ !
والمالُ يُورَدُ كلــه قَشْتَالَــةً	والجندُ تَسقُط والرعية تُسْلَــمُ
وذوو التَّعَيّن ليس فيهم مُسْلِــمٌ	إلاّ مُعينٌ في الفســادِ مُسَلِّــمُ
أسفي على تلك البــلادِ وأهلِهـــا	اللهُ يلطُف بالجميــع ويَرحمُ !

(١) انظر صفحة : ١٠١ من هذا الكتاب .

قيل : إن هذه الأبياتَ وُجِدت برُقعةٍ في جيب هذا الشاعر يوم وفاته ، ولما رُفِعت إلى سلطان بلده واطّلع عليها قالَ بعد ما بكى : صدق رحمه الله ، ولو كان حيّاً ضربتُ عُنقه ! [1] .

* * *

وبعد فهذه نماذج من شعر الاستغاثة والاستنجاد الذي استحدثه الأندلسيون من واقع مأساتهم التي تبدلت بها حياتهم من عز إلى ذل ، ومن أمن إلى خوف ، ومن حرية إلى رق ، ومن غنى إلى فقر ، ومن سعادة إلى شقاء !

إنه شعرٌ نابع من وحي قلوب تنزف ألماً وحسرة ويأساً ، وقيمته ليست في أساليبه ، بمقدار ما هي في عاطفته المشبوبة ، ومشاعره الصادقة ، وصوره الشاجبة الباكية . وصرخاته التي تستجدي العَوْن من ملوك المسلمين ، حتى إذا لم تجد منهم سميعاً أو معيناً ، راحت تلتمسه من الله !

* ومن هذه النماذج أبيات لأبي جعفر الوَقْشيّ البَلنسيّ يصف فيها حال الأندلس ويدعو إلى الجهاد ، وهي من قصيدة يمدح بها أمير المسلمين أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ أحد ملوك الموحِّدين ، والذي دام حكمه من سنة ٥٥٨ إلى ٥٨٠ هـ :

ألاَ ليت شعري هل يُمَدّ ليَ المَدى — فأبصرَ شمْلَ المشركين طريدا ؟
وهل بعدُ يُقضَى في النصارى بنُصرةٍ — تغادِرُهمْ للمرهَفاتِ حصيداً ؟
ويغزو أبو يعقوب في شَنْتِ ياقبٍ — يُعيد عميدَ الكافرين عميدا ؟
ويُلقي على إفرنْجهم عِبْءَ كَلْكَلٍ — فيتركَهم فوق الصعيد هجودا ؟
ويَفْتَكّ من أيدي الطّغاة نواعِماً — تَبدّلْنَ من نَظْم الحُجول قيودا ؟ [2]

---

(١) نفح الطيب : ج ٦ ص ٢١١ .
(٢) الحجول : جمع حجل بفتح الحاء أو كسرها مع سكون الجيم : الخلخال .

وأقبلْنَ في خُشْنِ المسوح وطالَمـا سَحبْنَ من الوَشْي الرقيق بُرودَا[1]
وغيّر منهنَّ التّرابُ تَرائِبـاً وخدَّدُ منهنَّ الهجيرُ خدودا
ويا لهفَ نفسي من مَعاصمَ طفلـةٍ تجاور بالقِدِّ الأليم نهودَا [2]
ووَاهاً بمَدِّ الصوت مُنتحِباً عـلى خُلُوِّ ديارٍ لو يكون مفيداً ! [3]

* * *

* وفي أخريات عصر الموحدين حاصر ملك برشلونة مدينة بَلَنْسية ، ولما اشتد الحصار عليها استغاث قائد الأعنّة الأميرُ زيّان بن أبي الحجاج بن مَرْدَنيش ملك شرق الأندلس ، استغاث بسلطان تونس أبي زكريا بن أبي حفص ، وأوفدَ عليه كاتبه وشاعره أبا عبدالله بن الأبّار القضاعي ، فقام بين يدي السلطان منشداً قصيدته السينية الفريدة الطويلة والّتي منها :

أَدْرِكْ بخيلكَ خيلِ الله أَنْدَلُسَا إن السبيل إلى مَنجاتِهـا دَرَسَا
وهَبْ لها منعزيز النصرمَاالْتمَسَتْ فلم يزل منك عِزُّ النصر مُلْتَمَسَا
يا لِلجزيرة أضحى أهلُها جَزَراً للحادثات ، وأمسَى جَدُّهاتَعِسا [4]
في كل شارقة إلمـامُ بَائِقـةٍ يعود مَأْتَمُها عند العِدَا عُرُسَا !
وفي بَلَنسيـةٍ منهـا وقُرْطُبـةٍ ما يَنسِفُالنفسَ أو ما ينزف النّفَسَا
مدائنٌ حَلّها الإشراكُ مُبتسمـاً جذلانَ ، وارتحلَ الإيمان مُبْتَئِسَا
وصيـرّتْها العوادي العائثاتُ بهـا يَستوْحِشُ الطّرْفُمنهاضِعفَمَاأَنِسا
يا لِلْمساجدِ عادتْ للعِدَا بِيَعـاً وللنداء غدَا أثناءَهَا جَرَسَا
لَهْفي عليها إلى استرجاعِ فائِتِهـا مَدارساً للمثاني أصبحتْ دُرُسَا [5]

(١) المسوح : جمع مسح بكسر الميم وسكون السين : الكساء .
(٢) الطفلة بفتح الطاء : الغادة أو الفتاة الناعمة ، والقد بكسر القاف : السير من الجلد يربط به الأسير .
(٣) نفح الطيب : ج ٦ ص ٢٢١ .
(٤) الجزر : كل شيء مباح للذبح ، والجد : البخت والحظ .
(٥) المثاني : القرآن

وَأرْبُعاً نَمْنَمَتْ أيدي الربيع لها ... ما شئتَ من خِلَعٍ مَوْشِيّةٍ وكُسَا
كانتْ حدائق للأحداق مُونِقَةً ... فصَوَّحَ النضْرُ من أدواحِها وعَسَا[1]
سرعانَ ما عاثَ جيشُ الكفرِ واحربَا ... عَيْثَ الدَّبي في مغانيها التي كبسَا[2]
فأين عيشٌ جنيناهُ بها خَضِراً ... وأين غُصْنٌ جَنَيْنَاهُ بها سَلِسَا ؟
مَحَا محاسِنَها طاغٍ أُتيحَ لها ... ما نامَ عن هضمها حِيناً وما نعَسَا

* * *

صِلْ حبلَها أيها المولى الرحيمُ فما ... أبقَى المِراسُ بها حبلاً ولا مَرَسَا
وأَحْيِ ما طمَسَتْ منها العُداة كما ... أَحْيَيْتَ من دعوةِ المهديّ ما طمَسَا[3]
أيامَ سِرتَ لنَصْرِ الحق مُسْتَبِقاً ... وبتَّ من نور ذاكَ الهَدْيِ مُقتبِسَا
وقمتَ فيها بأمر الله منتصراً ... كالصارِمِ اهتَزَّ أو كالعارِضِ انبجَسَا

* * *

هذي رسائلُها تدعوك من كَثَبٍ ... وأنت أفضلُ مرجوٍّ لمَن يَئِسَا
تَؤُمُّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي ... حفصٍ مُقبِّلةً من تُرْبِه القُدُسَا
يا أيها الملكُ المنصورُ أنت لها ... علياءَ تُوسِعُ أعداءَ الهُدَى تَعَسَا
وقد تواترتِ الأنباءُ أنك مَن ... يُحيى بقتل ملوكِ الصُّفْرِ أندلُسَا
طَهِّرْ بلادك منهم إنهم نَجَسٌ ... ولا طهارةَ ما لم تَغسِلِ النَّجَسَا[4]
وأَوْطِىءِ الفَيْلَقَ الجرَّارَ أرضَهم ... حتى يُطأطِىءَ رَأْساً كلُّ مَن رَأَسَا
وانصرْ عبيداً بأقصى شَرْقِها شَرِقَتْ ... عيونُهم أدْمُعاً تَهْمِي زَكاً وخَسَا[5]
هُمْ شيعةُ الأمرِ وهْيَ الدارُ قد نُهِكَتْ ... داءً ، متى لم تُبَاشِرْ حَسْمَه انتكَسَا

---

(١) صوح : يبس ، وعسا : جف .

(٢) الدبي : الجراد . وكبس : غطى

(٣) طمس : درس وامحى .

(٤) النجس : القذر من الناس ومن كل شيء ، وهو يكون للواحد وللاثنين والجمع .

(٥) زكا وخسا : أي شفعا ووترا ، أوزوجا وفردا .

فاملأْ هنيئاً — لك التأييدُ — ساحتَها   جُرْداً سَلاهِبَ أوخَطِّيّةً دُعُسا[1]
واضربْ لها مَوعِداً بالفتح ترقبُه   لعلَّ يومَ الأعادي قد أتى وعَسى[2]

وقد اهتز الملك ارتياحاً لهذه القصيدة ، ولشغفه بها وحُسْنِ موقعها منه ، أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غيرُ واحد . ثم بادر السلطان بإعانة أهل بلنسية بأساطيله التي لم تكد تصل للنجدة حتى كان الطاغية ملك برشلونة قد تغلب على بلنسية وأخذها صلحاً سنة ٦٣٧ هـ ، وحال بينها وبين أساطيل سلطان تونس .

* ومن قصيدة أخرى طويلة يستغيث فيها صاحبها أيضاً بأبي زكريا بن أبي حفص سلطان تونس ، لما أُخِذت بلنسية :

نَادتْكَ أندلسٌ فلَبِّ نِداءَهَا   واجعلْ طَواغيتَ الصليب فداءَهَا[3]
صرختْ بدعوتكَ العَليّةِ فاحْبُها   مِن عاطفاتكَ ما يَقِي حَوْباءَهَا[4]
وبها عبيدُكَ لا بقاءَ لهم سوى   سُبُلِ الضّراعة يسلكون سَواءَهَا
دُفِعُوا لأبكار الخطوب وعُونِها   فهمُ الغَداةَ يصابرون عَناءَهَا
تلكَ الجزيرةُ لا بقاءَ لها إذا   لم يضمنِ الفتحُ القريبُ بقاءَهَا
أشفي على طرَف الحياة ذَماؤُها   فاستبقِ للدِّين الحنيفِ ذَمَاءَها[5]
حاشاكَ أن تَفنَى حُشَاشَتُها وقد   قصَرَتْ عليك نِداءَها ورجاءَها

* * *

إيهِ بلنسيةٌ وفي ذكراكِ ما   يُمري الشئونَ دماءَها لا ماءَها

---

(١) جردا : أي خيلا جردا ، جمع أجرد ، وهو من الخيل القصير الشعر ، وذلك من علامات الخيل الكريمة ، وسلاهب : جمع سلهب ، وهو الطويل من الخيل ، والخطية : أي الرماح الخطية ، ودعس بسكون العين ، وحرك بالضمة هنا للشعر ، جمع أدعس ، يقال : رمح أدعس : أي غليظ شديد لا ينثني . (٢) نفح الطيب : ج ٦ ص ٢٠٠ .

(٣) الطواغيت : جمع طاغوت وهو الشيطان وكل معبود من دون الله .

(٤) الحوباء : النفس .   (٥) الذماء : بقية الروح في البدن .

بأبي مدارسُ كالطلول دوارسٌ   نَسخت نواقيسُ الصليب نداءَها
ومصانعٌ كسفَ الضلالُ صَباحَها   فيخالُه الرَّائي اليه مَساءَها
أمّا العلوجُ فقد أحالوا حالَها   فمَن المطيقُ علاجَها وشفاءَها ؟
مولايَ هاكَ مُعادةً أنباءَها   لتُنيلَ منك سعادةً أبناءَها
جَرِّدْ ظُبَاكَ لِمَحْوِ آثار العِدَا   تقتلْ ضراغمَها وتَسْبِ ظِباءَها
واستدعِ طائفةَ الإمام لِغزْوِها   تسبِقْ إلى أمثالها استدعاءَها

ومنها :

هُبّوا لها يا معشَر التوحيد قد   آنَ الهبوبُ وأَحرِزُوا علياءَها
أَوْلُوا الجزيرةَ نُصْرةً إن العِدَا   تبغي على أقطارها استيلاءَها
نَقَصَتْ بأهل الشرك من أطرافها   فاستحفِظوا بالمسلمين نَمَاءَها
خُوضُوا إليها بحرَها يُصبحْ لكم   رَهْواً وجُوبوا نحوَها بَيْداءَها (١)
وَافَى الصريخ مُثوِّباً يدعو لها   فلْتُجمِلوا قصدَ الثواب ثَواءَها(٢)
دارُ الجهاد فلا تَفُتْكم ساحةٌ   ساوت بها أحياؤُها شهداءها (٣)

وعلى هذا النحو يسترسل الشاعر في قصيدته مصوراً أحوال أهل الأندلس البائسة حيناً ، ومستنجداً بسلطان تونس حيناً آخر ، ثم يختمها بمدح مُسهَب فيه .

* وفي سنة ٦٧٤ هـ أغار الإسبان بقيادة الأذفنش صاحب قشتالة على مملكة غَرناطة واكتسحوا البسائط وعاثوا في البلاد ، وانتزعوا كثيراً من المدن والحصون من يد المسلمين . وإزاء هذا الخطر الداهم ، استغاث الفقيه محمد الثاني بن الأحمر ملك غَرناطة بسلطان المغرب يعقوب بن عبد الحق المرينيَ

---

(١) رهوا : أي ساكنا لا يتحرك .
(٢) مثوبا : مرة بعد أخرى .
(٣) نفح الطيب : ج ٦ ص ٢٢٣ .

وكان على ولاء معه ، فأمده يعقوب بجيش كبير بقيادة ابنه ، تلاه خروجه هو من المغرب إلى الأندلس بجيش أكبر ، وهناك التقى الجيشان في معركة كبرى كان النصر فيها للمسلمين .

ولما اعتزم السلطان يعقوب العودة إلى المغرب خاطبه ابن الأحمر بقصيدة استغاثة من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط . ومن هذه القصيدة قوله :

هل من معين في الهوى أو منجد ... من متهم في الأرض أو من منجد ؟
هذي سبيل الرشد قد وضحت فهل ... بالعدوتين من امرئ مسترشد ؟[1]
هذا الجهاد رئيس أعمال التقى ... خذ منه زادك لارتحالك تسعد
هذا الرباط بأرض أندلس ، فرح ... منه لما يرضي إلهك واغتد
من ذا يطهر نفسه بعزيمة ... مشحوذة في نصر دين محمد ؟

ومنها :

كم جامع فيها أعيد كنيسة ... فاهلك عليه أسى ولا تتجلد !
أسفاً عليها أقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسجد !
كم من أسير عندهم وأسيرة ... وكلاهما يبغي الفداء فما فدي !
كم من عقيلة معشر معقولة ... فيهم تود لو انها في ملحد
كم من تقي بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى ... ما بين حدي ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... وبكى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردى أو من ردي ؟[2]
أكذا يعيث الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر لم تتقلد ؟
أبني مرين أنتم جيراننا ... وأحق من في صرخة بهم ابتدي

---

(١) المراد بالعدوتين : الأندلس والمغرب .

(٢) الردى بفتح الدال : الهلاك ، والردى بكسر الدال : الهالك .

ابني مرين والقبائلُ كلُّها — في المغرب الأدنى لنا والأبعدِ
كُتِبَ الجهادُ عليكمُ فتبادروا — منه إلى الفرضِ الأحقِّ الأوكدِ
هذي الثغُور بكم اليكم تشتكي — شكوَى العديمِ إلى الغنيِّ الأوجدِ
ما بَالُ شَمْلِ المسلمين مُبَدَّداً — فيها ، وشَمْلُ الضدِّ غيرَ مُبَدَّدِ ؟
أنتم جيوش الله مِلءُ فضائه — تأسَوْن للدِّين الغريبِ المفرد
ماذا اعتذارُكمُ غداً لنبيِّكم — وطريقُ هذا العُذْرِ غيرُ مُمهَّدِ ؟

وقد أجابه السلطان يعقوبُ المرينيّ بقصيدة من نظم شاعره عبد العزيز : « لَبَّيْكَ لا تخشَ اعتداء المعتدي » الخ ، وأجاب عنها أيضاً مالك بن المرحّل بقوله : « شهد الإله وأنتِ يا أرض اشهدي » الخ ، فأجابهما أبو عمر بن المرابط بقوله : « قل للبُغاةِ وللعُداة الحسّدِ »[(1)]

* * *

* وفي محرم سنة ٧٦١ هـ وفد سلطان بني الأحمر الغنيُّ بالله على السلطان أبي سالم إبراهيم بن عليّ المرينيّ في فاس فارّاً من وجه أخيه إسماعيل الذي اغتصب منه الملك ، فاحتفل أبو سالم بمقدمه — لما بينهما من العهد — في مجلس غاصٍ بشيوخ فاس وأعيانها . وفي هذا المجلس قام لسان الدين بن الخطيب وزيرُ الغنيّ بالله ، والذي رافقه في خروجه إلى المغرب ، فأنشد بين يدي السلطان قصيدة يستعطفه لسلطانه ويستنجده لإعادته لملكه ، حتى أبكى الحاضرين . ومن هذه القصيدة قوله :

زَجَرْنا بإبراهيم ملءَ هُمومِنَا — فلما رأينا وجهَه صدقَ الزَّجْرُ
بمنتخَبٍ من آل يعقوبَ كلما — دَجَا الخطب ، لم يكذب لعزمته فجرُ
قصدناك يا مولى الملوك على النّوَى — لتُنصفَنَا مما جنَى عبدُكَ الدهرُ
وأنت الذي تُدعَى اذا دَهِمَ الردَى — وأنتَ الذي تُرجَى إذا أخلفَ القَطْرُ

---

(١) خلاصته تاريخ الأندلس لأرسلان : ص ١٢٧ .

وهذا ابنُ نَصْرٍ قد أتى وجَناحُـه كسيرٌ ، ومن علياكَ يلتمسُ النصرُ
غريبٌ يُرَجّي منك ما أنت أهلُـه فإنْ كنتَ تبغي الفخرَ قد جاءكَ الفخرُ
فعُدْ يا أمير المؤمنين لبَيْعَـة مُوثّقَة قد حلّ عُقْدَتَها الغدْرُ
أعِدْهُ إلى أوطانه عنك ثانياً وقلّدْهُ نَعْماكَ التي ما لها حَصْرُ

وبقي ابن الأحمر محمد الغنيّ بالله ووزيرُه ابن الخطيب في حاضرة ابن مرين إلى أن ارتجع محمد ملكه سنة ٧٦٣ هـ .[1]

* وهناك قصيدة طويلة من ١٤٤ بيتاً مجهولٌ صاحبُها مجهولٌ زمنُ كتابتها ، وإن كان أحد المؤرخين المحدّثين يرجح أنها نُظمت بعد سقوط غَرناطة بنحو ست أو سبع سنين ، أي سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ هـ .

وهذه القصيدة تجمع بين رثاء الأندلس والاستغاثة بالمسلمين في شتى أقطار الأرض للعمل على استعادة الأندلس من أيدي مغتصبيها الذين غلبوا عليها ، وكأن ذلك كان حلماً لا يزال يُراود أهلها ، رغم ضَياعها من أيديهم !

والقصيدة التي نحن بصددها ، قد استوعبتْ معظم الاتجاهات والمعاني التي طرقها شعراء الأندلس في رثاء المدن والاستغاثة معاً ، هذا بالإضافة إلى نصاعة العبارة ، ورصانة الأسلوب ، وحرارة العاطفة ، وروح الإيمان القويّ المتغلغل في نسيجها .

وأهميتها ليست في قيمتها الأدبية فحسب ، بل هي أيضاً فيما تضمنته من الإشارات التاريخية لحوادث المأساة الأندلسية ، والتعبيرِ عنها شعرياً في صورة باكية مُبكية ! ! وفيما يلي مقتطفات من هذه القصيدة :

أحقّاً خَبَا من جوِّ رُندةَ نُورُها وقد كُسِفتْ بعدَ الشموسِ بُدورُها ؟
وقد أظلمتْ أرجاؤُها وتَزلْزَلتْ مَنازِهُها ذاتُ العُلا وقُصورُها ؟

---

(١) خلاصة تاريخ الاندلس لأرسلان : ص ١٤٧ .

أحقاً خليلي أنَّ رُندةَ أقفرتْ ... وأزعِجَ عنها أهلُها وعشيرُها ؟
وهُدَّتْ مبانيها وثُلَّتْ عروشُها ... ودارتْ على قطب التفرّق دورُها ؟
تسلَّمَها حزبُ الصليب وقادَها ... وكانت شَروداً لا يُقادُ نفورُها
فبادَ بها الإسلام حتى تقطّعتْ ... مناسبها واستأصلَ الحقَّ زُورُها
وأصبحت الصلبانُ قد عُبِدَتْ بها ... تماثيلُها دُون الإلهِ وصُورُها [1]
أحقاً أخلاَّئي القضاءُ أبادَكم ... ودارتْ عليكم بالصروف دُهورُها؟
فمقتلٌ وأسرٌ لا يُفادَى وفُرقةٌ ... لدى عرَصاتِ الحشر يأتي سفيرُها
لعمرُ الهدى ما بالحشَا لفراقكم ... سوى حُرَقٍ سُحْمٍ تلظَّى سعيرُها
ونفسٍ على هذا المصاب حزينة ... يذوب ـ كما ذاب الرصاص ـ صبورُها
فواحسْرتَا كم من مساجدَ حوَّلَتْ ... وكان إلى البيت الحرام شُطورُها !
فمِحرابُها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتُها تشكو الفراقَ وسُورُها

وعلى هذا النحو يمضي الشاعر في التعبير عن أساه لتعطيل شعائر الإسلام واستبدال شعائر المسيحية بها ، حتى إذا بلغ من ذلك غايته ، انتقل إلى تصوير الفظائع التي ارتكبها أهل الشرك مع أهل التوحيد بعد إخراجهم من ديارهم فيقول :

وكم طفلة حسناءَ فيها مصونة ... إذا سفَرتْ يسبي العقولَ سُفورُها
فأضحتْ بأيدي الكافرين رهينةً ... وقد هُتِكَتْ بالرغم منها سُتورُها
وقد لَطمتْ ـ واحرَّ قلبي ـ خُدودَها ... وقد أسبلتْ ـ وادَمْعَ عيني ـ شعورُها
وإنْ تَستغثْ بالله والدين لا تُغثْ ... وإنْ تَستَجِرْ ذا رحمةٍ لا يُجيرُها !
وقد حيل ما بين الشفيق وبينها ... وأسلمها آباؤها وعشيرُها
وكم من صغيرٍ حِيزَ من حِجْرِ أُمِّه ... فأكبادُها حرَّاءُ لفْحٌ هجيرُها !
وكم من صغيرٍ بدَّلَ الدهرُ دِينَه ... وهل يتبع الشيطانَ إلاَّ صغيرُها

(١) الصور : اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بتاء التأنيث في آخره ، وعلى هذا فواحدته هنا صورة .

كروبٌ وأحزانٌ يَلِينُ لها الصَّفَــا عواقبُها محذورةٌ وشُرورُهــا
ويا غُربةَ الإسلام بــين خِلالهـا ويا عَثْرةً أنيَّ يُقالُ عُثورُهــا ؟

وإلى هنا تختلط أحلام العودة لدى الشاعر بواقع المأساة التي تعيشها الأندلس بكل مَن فيها وما فيها فيقول :

ويا مِلّةَ الإسلامِ هل لكِ عَــودةٌ لأرجائها يشفي الصدورَ صُدورُها ؟
وهل تسمع الآذانُ صوتَ الأذانِ في معالمها يعلو بذاك عَقِيرُهــا ؟
ويــا لَعزاء المؤمنين لِفَاقَــة ... على الرغم أغنَى مَن لديها فقيرُهـا
لأندلسَ ارتجّتْ لها وتَضَعْضَعَــتْ وحَقَّ لدَيْها مَحْوُها ودُثُورُهـا
مَنازِلُها مَصْدورةٌ وبِطاحُهــا مدائنُها مَوْتُورةٌ وثُغُورُهــا
تَهائِمُها مَفجوعــةٌ ونُجودُهـا وأحجارُها مَصدوعةٌ وصُخورُهـا
وأحياؤُها تُبدي الأسَى وجَمادُهـا يكاد لفَرْطِ الحُزنِ يَبدو ضميرُهـا
على فُرْقة الدِّين الذي جاءَهـا بـه بشيرُ الأنامِ المصطفى ونذيرُهــا

فإذا ما فرغ الشاعر من رثاء رُندةَ انتقل ، وبالأسلوب السابق ، إلى رثاء مَالَقَةَ فبَلّشَ ، فالمُنكَّب فغرناطة ، فوادي آش ، فبَسْطةَ ، فالمَرِيّة وطنِه الأول ، وإلى هنا لا يسع الشاعرَ إلاَّ أن يعترف بأن مسئولية ضياع الأندلس لا تقع إلاَّ على عاتق أهلها الذين أضاعوا دِين الله فأضاعهم الله . وفي ذلك يقول :

أَضَعْنا حقوقَ الربِّ حتى أضاعنـا وقُضَّتْ عُرَى الإسلام الاَّ يسيرُها
ومِلّتُنا لم نَعرِف الدهرَ عُرْفَهــا من النُّكْرِ ، فانظرْ كيف كان نكيرُها
بِشِقْوَتِنا الخِذْلانُ صاحَبَ جَمْعَنا وبؤْنَا بأحوال ذَميمٍ حُضورُهــا
بعِصْيانِنا استولَى علينا عَدُوُّنــا وعَاثتْ بنا أُسْدُ العِدَا ونُمورُهـا
نَعمْ سلبوا أوطانَنا ونُفوسَنــا وأموالنا فَيْئاً أُبِيحَتْ وُفورُهــا
عَلَوْها بلا مَهْرٍ وما غُمِزَتْ لهــم قَناةٌ ، ولا غارتْ عليهم ذُكورُهـا
وقد عَوّتِ الإفرنجُ من كلِّ شاهقٍ علينا ، فوَفَّتْ للصليبِ نُذورُهــا

وجاءتْ إلى استئصال شأفَــةِ ديننا　　　جيوشٌ كموج البحر هَبّتْ دَبُورُها

ومع ذلك كله فالشاعر لم يستسلم إلى اليأس من استعادة الأندلس ، ولهذا يستغيث بمعاشر أهل الدين ويستنفرهم ، ويُهيب بهم أن يستعدوا للجهاد ونُصرة دين الله ، لأن الله لا يخذل أمّة تدين بدين الحق . وفي ذلك يقول أيضاً :

مَعاشرَ أهلِ الدين هُبُّوا لِصَعْقَــةٍ　　　وصاعقةٍ وَارَى الجسومَ ظُهورُهــا
أصابتْ مَنارَ الدِّين فانْهدَّ رُكْنُـهُ　　　وزعزعَ من أكنافهِ مُستطيرُهــا
ودَبّتْ أفاعيها إلى كلِّ مؤمــنٍ　　　وعَضّ بأكباد التُّقاة عَقُورُهــا
أُنادي لها عُجْمَ الرجال وعُرْبَهــا　　　نِداءَ سُراةِ القَفْرِ إذْ ضلّ عِيرُها
وأستنفرُ الأدنى فالادنى فريضــةً　　　على زُمَرِ الإسلام جلّتْ أُجورُهــا
ألاَ وارجعوا يا آلَ دِينِ محمــدٍ　　　إلى الله يغفر ما اجترحتُم غَفُورُها
ومن كلِّ ما يُرْدِي النفوسَ تطهّروا　　　فليس يُزَكّي النفسَ إلاّ طَهورُها
ألاَ واستعدوا للجهــاد عزائمــاً　　　يَلوحُ على ليلِ الوغي مُستطيرُهــا
بأسْدٍ على جُرْدٍ مــن الخيل سُبَّقٍ　　　يَدُعُّ الأعادي سَبْقُها وزئيرُهــا
بأنفسِ صدق مُوقِناتٍ بأنهــا　　　إلى الله من تحت السيوف مَصيرُهــا
يَمينُ هُدًى إنْ تتقوا اللهَ تُنْصروا　　　وتَحْظَوا بآمالٍ يَشوق غَريرُهــا
فلا يَخذلُ الربُّ المهَيْمن أُمّــةً　　　تدين بدينِ الحقِّ وهو نصيرُهــا
وإن أنتــمُ لــم تفعلــوا فترقّبُوا　　　بوادرَ سُخطٍ ليس يُرجَى فُتورُهـا
وأيامَ ذُلٍّ واهتضــامٍ وفُرْقــةٍ　　　يطاول آناءَ الزمان قصيرُهــا

ويبدو أن الشاعر قد راجع نفسه فأدرك من شواهد الأحوال السابقة إن مثل هذه الاستغاثة لا جَدوى منها ، وأنها كالاستغاثات الكثيرة التي تقدمتها لن تلقَى من ملوك المسلمين سميعاً أو مجيباً ، ولهذا عدل عنها إلى الاستغاثة بالله مناجياً إياه بقوله :

إلهَ الورى ندعوكَ يا خيرَ مُرتجًى　　　لكالحةٍ هَزَّ الصليبَ سرورُهــا

وليس لها يا كاشفَ الكَرْب ملجأٌ إذا لم يكن منك التلافي ظهيرُها

أغثْ دعوات المستغيثين إنهم ببابك موْقوفو الحُشاشات بُورُها

دعَوناك ، أمّلْناك ، جئناك خُشّعاً بأنفسٍ استولى عليها قُصورُها

فأرسلْ على هذا العدوِّ رَزِيّةً يروح ويغدو بالبوارِ مُبيرُها

يُشَتِّتُ شملَ الكفرِ تشتيتَ نقمةٍ ويَنظِم شَمْلَ المسلمين حصيرُها[1]

---

(1) ارجع إلى القصيدة كاملة في مجلة « الرسالة » المصرية العدد : ١٣١ بتاريخ ٦ يناير سنة ١٩٣٦ من السنة الرابعة ، وانظر كذلك تعليق الأستاذ محمد عبد الله عنان على هذه القصيدة في العدد ١٣٣ من مجلة « الرسالة » المذكورة .

الباب الرابع

النثر الفني في الأندلس

* النثر العربيّ بين المشارقة والأندلسيين
* فنون النثر الأندلسيّ :
  - الخطـــابة
  - الرســائل وأنواعهــا
  - المنــــاظرات
  - المقامـــات



الفصل الأول

النثر العربي بين المشارقة والأندلسيين

لم يقتصر أدب الأندلسيين على تأثر شعرهم بشعر المشارقة ، وإنما امتد هذا التأثر إلى نثرهم أيضاً . وعلى هذا فالحديث عن النثر الأندلسيّ يستأدينا الحديث أولا عن نثر المشارقة ، إذ على ضوء ذلك نستطيع أن نتبيّن مدى ما أفاد النثر الأندلسيّ من أخيه المشرقيّ ، ومدى ما أضاف اليه أو تميّز به .

والنثر العربيّ منذ نشأته في المشرق ، قد تطور تطورا كبيرا ، ومَرَّ بستّ مراحل محدّدةِ المعالم من حيث أساليبُه وفنونُه . وقبل الشروع في توضيح هذه المراحل ، تجدر الإشارة إلى حقيقة لها دلالتُها وأثرُها في الأدب العربيّ : شعرِه ونثرِه على السواء .

ومُفَادُ هذه الحقيقة أن العربيّ بذوقه الفطريّ وحِسّه الموسيقيّ يميل إلى السجع في الكلام ، وبخاصة ما أتى منه عفوَ الخاطرِ ، فإن لم يكن سجعٌ استعاض عنه بالمزاوجة ، لقرب موقعها من موقعه على الأذن .

والدارس أو المتصفح للشعر الجاهليّ والإسلاميّ من الناحية البديعية ، يرى أن ذلك الشعر لم يَخلُ من بعض أنواع البديع التي أتت لشعرائه تلقائيا باستدعاءٍ من المعنى لا تكلّفَ فيه ، ثم ظل الأمر كذلك حتى ظهرت في العصر العباسيّ الأول مدرسةُ شعراءِ البديع وعلى رأسهم أبو تمام ، فأغرقوا الشعر

بالبديع الذي غلبت الصنعة فيه على الطبع ، حتّى بدا وكأنه عندهم مطلبٌ بلاغيٌّ في حد ذاته .

وقد حدث للنثر العربيّ من هذه الناحية ما حدث للشعر . ففي مراحله الأولى نرى فيه سجعا مطبوعا أو مزاوجة مطبوعة من غير التزام ، وظل حالُ النثر كذلك حتّى وصل الى ابن العميد فختمه بالسجع الملتزم ، ثم تمسك بهذا الالتزام مَن احتذاه من كتّاب عصره ، ثم بالغ فيه وتكلّفه تكلفاً مَن جاء بعدهم من أمثال القاضي الفاضل ومدرسته .

* * *

• وإذا انتقلنا بعد ذلك الى الحديث عن المراحل المختلفة التي مرّ بها النثر العربي في المشرق ، فإن المرحلة الأولى منها تتمثل في نثر صدر الإسلام والدولة الأموية ، أو بعبارة أخرى تتمثل في خطب وأقوال الخلفاء الراشدين وخلفاء الأمويين وأمرائهم وبلغاءِ عصرهم ، حيث يتراوح الأسلوبُ فيها بين السجع والمزاوجة والترسل .

ومن خصائص النثر العربيّ في هذه المرحلة الميلُ الى الجمل المتقطعة ، والإيجازُ التام ، وتزيينُ الأسلوب بالسجع والمزاوجة ، والاعتمادُ على الجمل القصار ووضعُها في إطار محكم ، والإتيانُ بالجملة مردفةً بجملة أخرى تشبهها أو تقاربها ، والاقتباسُ أحيانا من القرآن الكريم ، وكلٌّ هذا مع جمال في المعنى واللفظ .

• وقد كان ظهور عبد الحميد بن يحيى الكاتب في أواخر الدولة الأموية بدايةَ المرحلة الثانية في النثر العربيّ ، ذلك أنه طلع على الناس بطريقة جديدة في الكتابة . فهو أولُ مَن أطنب في موضوع الكتابة وفصّله وجعل من الكتابة موضوعا يشرحه ويُولّد معانيَه حتى يأتيَ على آخره . وهو أولُ مَن جعل من الترسل فنّاً قائماً بذاته أخذه المترسلون عنه ولزموه ، وأولُ مَن أطال الرسائل واستعمل التحميدات في صدورها ، وأولُ مَن جعل من الكتابة الديوانيـــة

صناعةً من الصناعات ، وذلك بوضع أنماط لها في الشئون الخاصة بتدبير الملك . وقد تميز أسلوبه بالترسل والموازنة ، أي بالجمل المبنية من كلمات تتقارب في العدد والصيغ ، كما تميّز بالخلوِّ من زخرف اللفظ ومحسناته إلاَّ ما جاء عفوَ الخاطر ، وعدمِ التزام السجع ، وإن أتى في كتابته عَرَضا . ومفهومُ الكتابة عنده يستفاد بوضوح من رسالته التي سَنّ فيها للكتابة تقاليدَ وللكتّاب آدابا [1] .

* والمرحلة الثالثة في النثر العربيّ هي المرحلةُ التي سادت فيها طريقةُ ابن المقفع في الكتابة، وهي طريقة تُعنَى ببَسْط المعاني وتَوكيدِها، وتكريرِ الجمل المتقاربة في معناها ، مع العناية بالتحليل النفسيّ ، والتجارب الأخلاقية ، وتطويع اللغة للمعاني المستحدثة ، وعدمِ الحفاوة بالسجع إلا ما جاء منه تلقائيا بدون تكلف .

* وتقترن المرحلة الرابعة في النثر العربيّ باسم الجاحظ [1] ، الذي طلع على عصره بطريقة جديدة في الكتابة ، تأثّر بها الكثيرون من كُتّاب المشرق والأندلس .

وتتميز طريقته الكتابية بالجمل القصار ، والفقراتِ المتقابلة ، وتعدُّدِ النعوت للشيء الواحد ، وإجادةِ استخدام حروف الجرِّ متتابعةً متغايرةً في دقة وحُسْن استعمال ، واستقصاءِ كلِّ أجزاء المعنى ، وتأديتِه بعدة جمل تبدو في الظاهر ترادفا وتكرارا ، ولكنها في الواقع تجسيمٌ للمعنى ، وتفنُّنٌ في إبرازه ، واستيفاءٌ لكل ظلاله .

كذلك تتميز طريقته بالفكاهةِ والسخرية ومزجِ الجد بالهزل ، والإطنابِ

---

(١) ارجع الى هذه الرسالة في كتاب تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ : ج ١ ص ٧٢٩ .

(٢) الجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ولاء البصري مولدا ، والمتوفي سنة ٢٥٥ ﻫ ، وهو من كبار العلماء الأدباء في القرن الثالث ، واليه يرجع الفضل الأول في تأسيس علم البلاغة العربية .

غير المملِ في الكلام ، وإدخالِ الدعاء في كتابته بصيغة المخاطب ، والاستطرادِ المروِّح عن النفس ، بإيراد طريف الأخبار والنوادر ، والتغلغلِ في وصف ما يُعنَى بشرحه أو الاحتجاج له ، والتلطُّف في تعظيم الصغير حتّى يعظُم ، وتصغير العظيم حتّى يصغُر ، وجعْلِ كلِّ شيء يصلح لأن يكون أدبا ، وذلك بتوَخِّي الموضوعات المحببة إلى النفوس ، أو التي لم يسبق اليها كاتب ، أو الأمورِ الحقيرة التي لا يخطر على البال أن يُؤلَّف فيها كلام بليغ ، وعدمِ تعَمُّد المحسِّنات البديعية ، باستثناء السجع الذي يظهر في كلامه أحيانا طبعا لا تكلُّفا . وكلُّ ذلك مع إشراق الديباجة ، وسهولة العبارة وتقطيعها ، وجزالة الألفاظ ، وأسلوبٍ تظهر فيه شخصيتُه ظهورا تامّاً ، حتى ليستطيع المرءُ أن يميزَه ويعرف أيَّ الكتب له ، وأيها ليست له .

• وقد شهد القرنُ الرابع مرحلةَ النثر العربيّ الخامسة ، وكان ذلك على يد ابن العميد [1] الذي استنَّ في الكتابة طريقة وُسِمتْ باسمه . وأهمُّ السمات التي تميزت بها طريقته توخِّي السجع القصير الفقرات ، والاقتباسُ من القرآن الكريم وأحاديثِ الرسول ، وتضمينُ الأمثال السائرة ، ونثرُ الأبيات الحكيمة ، والإشاراتُ التاريخية . والإكثارُ من أنواع البديع في كتابته .

وممن أُعجب بطريقته هذه وحاكاه فيها من فحول عصره في الكتابة : الصاحبُ بن [2] عبّاد ، والخوارزميّ [3] وبديع [4] الزمان الهمذانيّ ، وإن

---

(١) هو الأستاذ الرئيس والوزير أبو الفضل محمد بن الحسين العميد المتوفي سنة ٣٦٠ هـ ، كان في عصره يعد كاتب المشرق . وقد وزر لآل بويه.

(٢) هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني المتوفي سنة ٣٨٥هـ وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب ابن العميد ، فقيل له صاحب بن العميد ، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة لآل بويه ، وبقي علما عليه ، وسمي به كل من ولي الوزارة من بعده .

(٣) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الكاتب الشاعر والمتوفي سنة ٣٨٣ هـ .

(٤) هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني المتوفي سنة ٣٩٨ هـ . كان شاعرا وكاتبا ولغويا ، وهو صاحب الرسائل والمقامات المعروفة باسمه ، والتي على منوالها نسج الحريري مقاماته .

كان ابن العميد أقلّهم التزاما بالمسجوع وأقربَهم الى المطبوع .

ويُعَد ابن عبّاد في الكتابة ثانيَ ابن العميد في حلبته ، وأبلغَ مَن سلك طريقته ، وإن كان أُولِـع أكثر من أستاذه بالسجع حتى في الكلام فضلا عن الكتابة ، وقيل فيه : « إنه لو رأى سجعة تنحلّ بموقعها عُروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة لما هان عليه التخلّي عنها » !

وإذا كان كلٌّ من أبي بكر الخوارزميّ وبديع الزمان الهمذانيّ قد جرى على طريقة ابن العميد في الكتابة ، فإن الخوارزميّ قد تميّز عنه بجزالة الألفاظ ، والاحتفال بصحة المعاني والميل الى الغريب ، كما تميز عنه بديع الزمان أيضا بسهولة العبارة ونصاعتها ، وقِصَر السجع غير المتكلف .

* أما المرحلة السادسة والأخيرة من مراحل النثر العربيّ في المشرق ، فتتمثّل في طريقة القاضي (1) الفاضل التي استحدثها وبناها على أصول طريقة ابن العميد ، مع التوسُّع فيها .

وأهمُّ الأصول التي تعتمد عليها الطريقة الفاضلية هي : التزامُ السجع الطويل المُنمَّق غالبا ، والتشبيهُ ، والاستعارةُ ، والغلوُّ المفرط في التورية والجناس ، والإكثارُ من أنواع البديع الأخرى كالطباق ، ومراعاة النظير ، والتوجيه : الذي هو احتمال الكلام وجهين من المعنى احتمالا مطلقا من غير تقييد بمدح أو غيره .

وبهذه الطريقة صارت الكتابة صناعية محضة ، تجري مع مناسبات الألفاظ أكثر من جريانها مع إصابة الغرض والبلاغة . ومع كل هذه القيود التي قيّد

---

(1) هو أبو علي عبد الرحيم البيساني ، ولد بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين سنة ٥٢٩ هـ ، ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية وتعلم وعمل فيها . وظل يرقى في وظائف الكتابة حتى صار وزيرا لصلاح الدين الأيوبي ، ثم وزر من بعده لولده العزيز ، ثم لأخيه الأفضل . وتوفي سنة ٥٩٦ هـ بالقاهرة .

بها القاضي أسلوبَه ؛ كانت كتابتُه بليغةً في ذاتها ، لِسَعة اطلاعه ، وغزارة علمه ، وسرعة بديهته ، وصفاء خاطره .

وقد خدعت هذه الطريقةُ مَن جاء بعده من المنشئين في مصر والشام ، وبَهرَتْ بما فيهـا من زُخْرُف اللفظ البرّاق العيونَ الكليلة والقرائحَ الناضبة ، فاقتفاها عُبّادُ الصنعة اللفظية من أشباه الكُتّاب ، فأساءوا إلى الأدب العربيّ ، وجنَوْا عليه بما أنتجوه من كلام غريب ، لا يعجب ولا يلَذّ ، ولا يؤثر ولا يفيد !

* وكغيرها من طرائق المشارقة الكتابيّة غرَّبت الطريقة الفاضلية إلى الأندلس ، كما سنرى فيما بعد ، فتكلف الجريَ عليها هناك كلُّ قليـل البضاعة من الأدب ، معتمدا على تعمُّل البديع الذي لا يُكلِّف صاحبَه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعا منه ، وبهذا ظهرت سيئات هذه الطريقة في الشرق والغرب معاً ، ابتداء من القرن السابع الهجريّ فصاعدا .

⁂

تلك هي حالةُ النثر العربيّ في المشرق ، والأطوارُ التي مرّ بها ، ومدارسُه التي ظهرت في كل عصر من عصوره ، والخصائصُ الأسلوبية التي تميزتْ بها كلٌّ مدرسة منها .

وكانت حالةُ النثر في الأندلس كحالته في المشرق ، تقريباً ، فكلٌّ جديد كان يطرأ على نثر المشارقة سرعان ما كان يجد طريقه إلى الأندلس ، ويتردد صداه هناك ، ويأخذ به الأندلسيون في كل ما ينشئون في فنون النثر .

وكان الانتقال من فن الى آخر يكاد يكون مُتَتَبِّعاً نفسَ التطور الذي حدث في المشرق ؛ فالمكاتباتُ التي تصدر عن أمراء قرطبة وخلفائها المروانيين تشبه تلك التي كانت تصدر عن الخلفاء الأمويين في المشرق . وعندما تطورت الكتابة بعضَ الشيء الى تحليل نفسي وغزارةِ معنىً كالذي عند ابن المقفع . رأينا

مثلَ ذلك يظهر في كتابات ابن حزم الأندلسيّ القرطبيّ .

وكان الجاحظ بخاصة في عصره وبعدَ عصره ذا شهرة لدى الأندلسيين ، فقد وصلت كتبه اليهم في حياته ، مثل رسالة التربيع والتدوير ، وكتابِ البيان والتبيين ، كما كان يقصده بعضُهم طلباً لعلمه ، حتى لقد امتدت تلمذة أحدهم عليه عشرين سنة ، وهو أبو خلف سلاّم بن يزيد [1] . وما أكثر الأندلسيين الذين أعجبوا بالجاحظ واحتذَوْا أسلوبه ، ومن هؤلاء ابن زيدون ، فرسالتُه الهزلية التي يسخر فيها من ابن عبدوس منافسِه في حب ولاّدة بنت المستكفي المروانيّ ، تذكّرنا برسالة التربيع والتدوير التي كتبها الجاحظ في أحد كُتّاب عصره ، وهو أحمد بن عبد الوهاب .

ولما بلغهم طريقةُ ابن العميد ومدرسته في الكتابة ، ووجدوها توافق أذواقهم ، رحّبوا بها ثم أخذوا ينسجون على منوالها في رسائلهم وكتبهم المؤلفة . وإذا نحن تصفّحنا ما صدر عنهم من كتب التاريخ والتراجم في القرنين الخامس والسادس من أمثال : المقتبَس في أخبار الأندلس لابن حيّان القرطبيّ « ٤٦٩ هـ » وقلائد العقيان ، ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان « ٥٣٥ هـ » والذخيرة لابن بسّام « ٥٤٢ هـ » ، رأينا شبها قويا بين أساليب هؤلاء الكُتّاب وأسلوب ابن العميد ، ولاسيما في التزام السجع الذي قلّ أن يشذ .

ومع التزام السجع من قِبَل هؤلاء الكُتّاب الأندلسيين وغيرهم من معاصريهم ، فإنهم كانوا أقدرَ وأحذقَ من المشارقة على حُسْن استخدام هذا الأسلوب البديعيّ ، والتصرُّفِ فيه ، فهو يأتي لهم سائغا عَذْباً قصير الفقرات ، وقد استطاعوا بحسِّهم وذوقهم الأدبيّ أن يُطوِّعوه لأغراضهم ، وأن يُعبِّروا به عن أدقِّ المعاني ، دونَ أن تضطرهم السجعة إلى نقص أو خفاء في التعبير .

---

(١) انظر في ذلك معجم الأدباء لياقوت : ج ١٦ ص ١٠٥ – ١٠٦ .

وعندما وصلت مقاماتُ بديع الزمان الهمذانيّ ورسائلُه إلى الأندلس في أواخر القرن الرابع ، تأثر الأندلسيون كثيرا بهذا الفن الذي استحدثه بديعُ الزمان ، ومن ثَمّ راحوا يقلدونه في مقاماته ، ويحاكون أسلوبَه في نثرهم الوصفيّ . وكذلك كان الشأنُ عندما وصلت اليهم فيما بعدُ مقاماتُ الحريريّ ، فقد أقبلوا عليها يدرسونها ويشرحونها ويعارضونها، كما سنفصل ذلك فيمابعدُ.

وأخيرا نرى الطريقة الفاضلية في أواخر القرن السادس وأوائلِ السابع تُغَرِّب إلى الأندلس ، فيتكلّفُ الجريَ عليها هناك كلُّ قليل البضاعة من الأدب ، معتمدا على تَعَمُّل البديع الذي لا يكلف صاحبه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعا . وقد أسرف كتاب الأندلس المتأخرون في اتباع الطريقة الفاضلية والالتزام بزخارفها اللفظية وسجعها المتكلف بل المتعسّف ، حتى أصبح من غير المستطاع أن يجد الإنسان مَن يكتب نثرا غير مسجوع ! وكأني بهم كانوا ينظرون إلى كتب المشارقة في العصور المتأخرة ، من مثل كتاب « الفيْح القُسّي في الفتح القدسي » للعماد [1] الأصفهاني ، ويتخذون منها نماذج لهم يحاكونها في كل ما يكتبون ويؤلفون . وبهذا ، ومنذ القرن السابع الهجريّ ، بدأت تظهر سيئاتُ الطريقة الفاضلية وجنايتُها على النثر العربيّ في المشرق والمغرب معا !

∴

ذلك بإيجاز عرض للجوانب التي تأثر فيها نثر الأندلسيين بالنثر العربيّ في المشرق ، ولكن يبقى بعد ذلك أن هناك جوانب ابتكار سبقوا المشارقة اليها ، ووسعوا بها مجالات النثر العربيّ ، كما أن هناك خصائص تميز بها نثرهم عن أخيه المشرقيّ.وهذه وتلك سنعرض لها بالذكر عند الكلام على فنون النثر الأندلسيّ.

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن صفي الدين ، الملقب عماد الدين الأصفهاني ، والمتوفي سنة ٥٩٧ هـ . عاش في العصر العباسي الرابع ، وتولى ديوان الإنشاء في العربية والفارسية بدمشق ، وكان مقربا لدى صلاح الدين الأيوبي ، واشتهر بالإنشاء المسجع على عادة كتاب عصره ، ومن كتبه أيضا « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » وهو كتاب في تراجم معاصريه من أدباء القرن السادس الهجري .

الفصل الثاني

فنون النثر الأندلسي

عرفنا من الفصل السابق كيف تنوعت في المشرق مذاهبُ النثر العربيّ وطرقُه ، انطلاقاً من نثر صدر الإسلام والدولة الأموية ، ومرورا بمذهب وطريقة كلٍّ من عبد الحميد الكاتب ، فابنِ المقفع ، فالجاحِظ ، فابن العميد ، فالقاضي الفاضل . كذلك عرفنا كيف كان تأثرُ الأندلسيين في جميع العصور بهذه المذاهب والطرق الكتابية ، ومحاكاتُهم لها ، مع التوسع والتفنن فيهـــــا .

وقد قال الأندلسيون في كل فنون النثر التقليدية التي عرفها العرب ، وزادوا عليها ما اقتضته ظروف حياتهم الخاصة. وهم في هذا وذاك قد أضفوا على نثرهم طابعا مميزا ، هو وليدُ أمزجتهم وثقافتهم وأوضاع مجتمعهم وشاعريّتهم. ونقول « شاعريّتهم » لأن أكثرَ أدباء الأندلس كانوا يَجمعون بين النثر والشعر ، ولهذا كان لديهم القدرةُ على التمييز بين الموضوعات التي تصلح للشعر والتي تصلح للنثر .

وسأقصر الكلام هنا على أربعة من فنون النثر الأندلسيّ ، هي : الخطابة ، والرسائل على اختلاف أنواعها ، والمناظرات الخيالية، والمقامات، وفيما يلي عَرْضٌ لحالة كل فنٍّ من هذه الفنون عند الأندلسيين .

- ١ -

الخطـــابـــة

الخطابةُ هي الحديثُ المنطوق تمييزا لها عن الحديث المكتوب ، وهي تحتاج إلى خيال وبلاغة ، ولذلك تُعَدُّ من قبيل الشعر ، أو هي شعر منثور وهو شعر منظوم .

وكان للبلاغة وقع شديد في نفوس عرب الجاهلية ، وقد اقتضت المنازعات بينهم أن يتفاخروا ويتنافروا فاحتاجوا إلى الخطابة في الإقناع والإثارة .

وكانت الخطابة فيهم قريحةً مثلَ الشعر ، وكانوا يُدرِّبون فِتيانَهم عليها منذُ الحداثة لاحتياجهم الى الخطباء في إيفاد الوفود حاجتَهم إلى الشعراء في الإشادة بالأمجاد والدفاع عن الأعراض .

وفي الجاهلية كانوا يُقدِّمون الشاعر على الخطيب ، وظلَّ الأمر كذلك حتى جاء الإسلام فصار الخطيب مقدَّما على الشاعر لحاجتهم اليه في الإقناع وجمعِ كلمة الأحزاب واستنهاضِ الهمم الى الجهاد .

وكان غالبيةُ خطباء الجاهلية من شيوخ القبائل وحكمائها ، وتتميز خطبهم بتخير الألفاظ الرقيقة والمعاني المألوفة ، ومن خطبهم القصارُ والطوال ، والقصارُ كانت أكثرَ وأشيعَ وأفضلَ لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ، ويتناقلونها في الأعقاب ، ويُسمُّونها بأسماء خاصة .

وفي صدر الاسلام تطورت الخطابة عما كانت عليه من قبلُ بفعل الإسلام ، فقد زادها القرآن الكريم بلاغة وحكمة ، بما كان يتوخاه الخطباء من محاكاة أسلوبه والاقتباس من آياته تمثلاً أو إشارةً أو وعيداً .

وفي العصر الأمويّ ظلت الخطابة مزدهرةً لكثرة دواعيها دينيّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً ، وقد شارك فيها حتى الزهادُ والنساك . وكان الخلفاء والأمراء

يخشَوْن الخطباءَ خشيتَهم للشعراء ، لما في أقوالهم من التأثير في نفوس العرب الحسّاسة .

وكان خطباء هذا العصر يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة ، ولكنْ سرعانَ ما أخذت روحُ الخطابة القوية تضعف فيهم بعد الفراغ من الفتوح ، وما تلا ذلك من حياة الدَّعة والراحة التي يَشيع فيها الترف ، ولهذا تحوّلتِ الخطابةُ تدريجيا من الحماسة إلى المواعظ ، ثم الشكاية .

* * *

تلك نبذة عن نشأة الخطابة العربية وتطورها حتى الفتح العربيّ للأندلس . ولما كان هدفُنا دراسةَ الخطابة الأندلسية ، فإننا نسأل : ماذا كان حالُ هذا الفن القوليّ في الأندلس ؟

من الأمور المسلّم بها بالنسبة للخطابة أنها تقوَى بتوافر دواعيها وتضعف تبعاً لقلة هذه الدواعي وفتورها . وإذا نحن ألقَيْنا نظرةً على تاريخ المسلمين في الأندلس من بدايته إلى نهايته ، رأينا أنه كان هناك العديدُ من الدواعي التي تهيِّىء للخطابة العربية النهوضَ والازدهار في هذا القطر الذي فتحه العرب للإسلام .

فالعرب الفاتحون لم تكن تنقُصهم بلاغةُ الكلمة وفصاحتُها التي تعتمد عليها الخطابة ، فهم ككل أبناء جنسهم يتكلمون العربية عن سليقة ، وبالتالي فهم مفطورون على البلاغة والفصاحة ، معروفون بحضور البديهة وسرعة الخاطر والقدرة على القول ارتجالا .

والغزواتُ المتتابعة التي قاموا بها لاستكمال فتح الأندلس ، كانت تستدعي الخطباء لاستنهاض الهِمَم وإذكاء روح الحماسة للجهاد في سبيل الله. والعصبيةُ القبليةُ التي أحياها المضريّون واليمنيّون منذ أن وطئت أقدامُهم أرضَ الأندلس، كانت بحاجة إلى خطباء يدعون إلى إماتة روح هذه العصبية البغيضة !

وانتصاراتُ المسلمين على أعدائهم كانت تتطلب مَن يقفون في المحافل العامة للإشادة بهذه الانتصارات تشجيعا على المزيد منها . وملوكُ الإسبان الذين قُوِّضت عروشهم كانوا لا يملُّون السعيَ إلى تفريق كلمة المسلمين وتمزيق شملهم ، ولا يكفُّون عن الإغارة عليهم في مواقعهم وحصونهم كلما سنحت الفرصةُ أمامهم . وهذه حالٌ كانت تستوجب قيامَ الخطباء بالدعوة إلى جمع الكلمة ، ولَمِّ الشمل ، والصمود في وجه الأعداء .

وتمزُّقُ البلاد بين ملوك الطوائف ، والتناحرُ فيما بينهم ، واستعانةُ بعضهم على بعض بالأعداء أحيانا . كلُّ هذه الأمور وأمثالها كانت تُهيب بالخطباء ليقرعوا آذان هؤلاء المتناحرين بكلمتهم ، إنذارا وتخويفا من مغبَّة السير في الطرق المُردية .

ومن ثَمَّ فقد كان من المتوقع بسبب تلك الدواعي وغيرها أن تشهد الأندلس خطابة مزدهرة متنوعة الأغراض ، ولكن ما حدث هو العكس ، هذا إذا ما حكمنا على أساس النزر القليل الذي وصل الينا من خطابة الأندلسيين .

وقد اختلف مؤرخو الأدب حولَ تعليل هذه الظاهرة : ففريق منهم يرى أن الخطابة الأندلسية كانت راقية مزدهرة في العصور الأولى الى عصر ملوك الطوائف . وأنها كانت تُقدَّم على الشعر في المحافل العامة ، ولشرفها تلقَّبَ علماؤهم بالخطيب كما تلقبوا بالفقيه ، وأن الضعفَ الذي أصابها في أواخر أيام العرب بالأندلس لم يكن مقصورا عليها وحدها ، وإنما كان ضعفا عاما شمل الشعر والنثر الفنيَّ كما شملها ، بفعل الأحداث السياسية والاجتماعية السيئة التي ألحّتْ على البلاد وأهلها في العهود الأخيرة .

ويُرجِع هذا الفريقُ قِلّةَ ما وصل الينا من خطب الأندلسيين الى سببين : تعذُّرِ تدوينِ الكثير منها ، لاعتمادها على الارتجال والطول ، واحتمالِ ضياع ما دُوِّنَ منها مع ما ضاع من تراث العرب الفكريّ الذي أباده الإسبان عندما تمَّ لهم الاستيلاء على الأندلس .

أما الفريق الآخر فيرى أن الخطابة بالأندلس لم تنل من العناية ما يناسب قدرها . لاعتماد الولاة والخلفاء والملوك على السيف دون الكلمة ، وقضائهم على المعارضة السياسية ، وتوجيه الأنظار الى الاشتغال بالعلوم والآداب والفنون ، وانصراف الأدباء إلى الشعر والكتابة . ولذلك ضاقت مجالات الخطابة الأندلسية ، وأصبحت مقصورةً على الخطابة الدينية ، وحلَّ محلّها في الأمور العامة المنشوراتُ الّتي كان يتولّى الكتّاب تحريرَها .

* * *

وأيّاً ما كان الرأيْ بشأن هذه الظاهرة ، فالثابتُ أنه لم يبلغنا من خطب الأندلسيين إلاَّ النزرُ القليل ، على الرغم مما كان في حياتهم من دواعيهـــا الكثـــيرة .

وإذا نظرنا في أسلوب ما بين أيدينا من خطبهم القليلة ، رأيناه في عصورهم الأولى يتميز بالسهولة والوضوح والإيجاز ، والبُعد عن التكلف ، والخلوّ من الزخرف اللفظيّ إلاَّ ما أتى منه طوعَ الخاطر .

أما في عصورهم المتأخرة فإن الغالب على أسلوب خطابتهم هو الإطالة في الجمل ، والإطنابُ في الخطب ، والتكلفُ في السجع والجناس والتورية وغيرها من أنواع البديع وحُلاَه . وكانوا في ذلك متأثرين إلى حد بعيد بأساليب المشارقة البديعية الّتي شاعت بينهم ، ولاسيما أسلوب القاضي الفاضل ومدرسته . ولعل في النماذج التالية من خُطب الأندلسيين ما يوضح كل ذلك .

* لما اشتد الكرب بين يدي الأمير عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهريّ ، ورأى شدة مقاساة أصحابه خطبهم قائلا :

« هذا اليومُ هو أُسُّ ما يُبنَى عليه : إمّا ذُلُّ الدهر وإمّا عِزُّ الدهر . فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بقية أعماركم فيما تشتهون [١] » .

---

(١) نفح الطيب : ج ٤ ص ٤٢ .

* وخطب الأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بعد وفاة والده ودفنه ومبايعة الخاصة والعامة له فقال :

« الحمد لله الذي جعل الموت حتْمـاً من قضائه ، وعزماً من أمره ، وأجرَى الأمور على مشيئته ، فاستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذلَّ خلقَه فماهم نجاة من الفناء ، تباركَ اسمُه ، وتعالى جَدُّه ، وصلّى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسليما . وكان مصابُنا بالإمام — رحمه الله — مما جلّت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل إلهامَ الصبر . وإليه نرغب في كمال الأجر والذخر . وعهدَ الينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ، ولسنا ممن يخالف عهده ، بل لكم لدينا المزيدُ إن شاء الله[1] » .

* ووفد على الخليفة الناصر رُسُلُ ملكِ الروم وصاحبِ القسطنطينية سنة ٣٣٨ هـ بقصر قرطبة ، يطلبون المسالمَة ويحملون الهدايا . فاحتفل الناصر باستقبالهم احتفالا تاريخيا ، وقام الخطباء والشعراء بين يديه يعظمون أمرَ الإسلام والخليفة . وقدَّم الحكمُ بن الناصر أستاذَه أبا عليّ القالي ليخطب الحفل . فقام أبو عليّ فحمِد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وسلم ، ثم أُرتج عليه . فانقطع وبُهِت ووقف ساكتا . فلما رأى ذلك منذرُ بن سعيد — وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء — قام غيرَ مَدْعُوٍّ ، فوصلَ افتتاح أبي عليّ لأول خطبته بكلام عجيب ، كأنما كان قد أعدَّه وحفِظه من قبلُ . ومن خطبته في هذا الموقف قوله :

« أما بعدَ حمْدِ الله والثناء عليه ، والتّعداد لآلائه ، والشكر لنعمائه ، والصلاةِ والسلام على محمد صفيِّه وخاتَم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مَقاما ، ولكل مَقام مَقالا ، وليس بعد الحق إلاّ الضلال . وإني قد قمتُ في مقام كريم ، بين يدَيْ ملك عظيم ، فأصغُوا إليّ مَعشرَ الملأ بأسماعكم ، وافقهوا عني بأفئدتكم .

(١) البيان المغرب : ج ٢ ص ١٣٥ .

إن من الحق أن يقال للمُحِقِّ صدقت ، وللمُبطل كذبت ، وإن الجليل تعالى في سمائه ، وتقدَّس بصفاته وأسمائه ، أمرَ كليمَه موسى صلى الله على نبيِّنا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يُذكِّر قومَه بأيام الله جل وعزَّ عندهم ، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسوة حسنة .

وإني أذكِّركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمَّتْ شعثكم (١) ، وأمَّنَتْ سِربكم (٢) ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلاً فكثَّركم ، ومستضعفين فقوَّاكم ، ومستذَلِّين فنصَركم . ولاَّهُ الله رعايتَكم ، وأسند اليه إمامتَكم ، أيامَ ضَربت الفتنةُ سُرادِقَها على الآفاق ، وأحاطت بكم شُعَلُ النِّفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير (٣) ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيُمْن سياسته إلى تمهيد كَنَف العافية بعد استيطان البلاء .

أَنْشُدُكم بالله معاشرَ الملأ : ألم تكن الدماءُ مسفوكةً فحَقَنَها ، والسبلُ مخوفةً فأمَّنَها ، والأموالُ منتهَبَةً فأحرزَها وحصَّنَها ؟ ألم تكن البلادُ خراباً فعمرَها ، وثغورُ المسلمين مُهتضَمةً فحماها ونصرَها ؟ فأذكروا آلاءَ الله عليكم بخلافته ، وتلافيَهُ جمعَ كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب اللهُ عنكم غيظَكم ، وشفَى صدورَكم ، وصرتم يداً على عدوِّكم ، بعد أن كان بأسُكم بينكم .

فأنْشُدُكُمُ الله : ألم تكن خلافتُه قُفْلَ الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها ؟ ألم يتلافَ صلاحَ الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ، ولم يَكِلْ ذلك إلى القوَّاد والأجناد ، حتى باشرَهُ بالقوة والمُهجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطويّة صحيحة ، وعزيمة صريحة ... مُتَحملاً للنَّصَب ، مستقلاً

(١) أي متفرقكم . (٢) طريقكم . (٣) مثل يضرب في حقارة الشيء وقلته .

لمَا نالَه في جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدّتِها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حِدَّتِها .... فأصبحتم بنعمة الله إخوانا ، وبِلَمّ أمير المؤمنين لِشَعَثِكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفودُ الروم وافدةً عليه وعليكم ، وآمال الأقصَيْنَ والأدنَيْنَ مُتَّجِهةً اليه واليكم ، يأتون من كل فَجٍّ عميق ، وباد سحيق ، للأخذ بحبلٍ بينَه وبينكم جملةً وتفصيلاً ، ليقضيَ الله أمراً كان مفعولا ، ولن يُخلِفَ الله وَعدَه ، ولهذا الأمر ما بعده .... »

« .... فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم وابنِ عَمِّ نبيّكم ، صلى الله عليه وسلم ، فإن مَن نزعَ يداً من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومَرَق من الدِّين ، فقد خَسِر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .... وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين ، الساعين في شَقِّ عصاكم ، وتفريق مَلاَكُم . الآخذين في مخاذلة دينكم ، وهَتْك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيِّكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيِّين والمرسَلين . أقولُ قولي هذا ، وأختِم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً اللهَ الغفورَ الرحيم ؛ فهو خير الغافرين [1] » .

* ومنذ عصر المرابطين بدأت تظهر في الأدب الأندلسيّ القصائد والخطب

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٤٥ . ومنذر صاحب هذه الخطبة هو : منذر بن سعيد البلوطي المتوفي سنة ٣٥٥ هـ ، خطيب مصقع وشاعر بليغ . وقد لفتت هذه الخطبة نظر عبد الرحمن الناصر اليه ، فولاه بعد ذلك الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ، ثم قضاء الجماعة بقرطبة . ذكروا أن الناصر بعد سماع خطبته قال لابنه الحكم : « لقد أحسن ما شاء ، فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار ، فيتلافى الوهي فإنه لبديع من قدرته واحتياطه ، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته ، فإنه لأعجب وأغرب !

التي تتضمن التورية بأسماء سور القرآن ، وهذا لونٌ من النظم والنثر تفرَّدَ به الأندلسيون في عصورهم المتأخرة .

ومن ذلك خطبة للقاضي عياض المتوفي سنة ٥٤٤ هـ ، وهي خطبة باديةُ التكلف ، التزمَ فيها القاضي عياض التوريةَ والسجعَ ، والمبالغة غيرَ المقبولة في طول الجمل ، ومنها على سبيل المثال قوله :

« الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامَه . وبيّن في سورة البقرة أحكامَه . ومدَّ في آل عمرانَ والنساءِ مائدةَ الأنعامِ ليُتمَّ إنعامَه . وجعل في الأعراف أنفالَ توبةِ يونُسَ وألر كتابٌ أحْكِمتْ آياتُه بمجاورة يوسف الصديق في دار الكرامة . وسبح الرعدُ بحمده ، وجعل النار برداً وسلاما على إبراهيمَ ؛ ليؤمن أهلُ الحِجْر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه ، فلا كهفَ ولا ملجأَ إلاَّ إليه ، ولا يُظلمون قُلامَةَ . وجعل في حروف كهيعص سِرّاً مكنوناً قدَّمَ بسببه طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليُظهر إجلاله وإعظامه . وأوضح الأمر حتى حَجَّ المؤمنون بنور الفرقان ، والشعراءُ صاروا كالنمل ذُلاً وصَغاراً لعظمته وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم ، وأيقنوا أنه كلامُ الحيّ القيوم ، نزل به الروح الأمين على زين مَن وَافى القيامة [1] » . وعلى هذا النحو من التكلف والتعسف مضى القاضي عياض في التورية بأسماء سُوَر القرآن إلى النهاية !

• ويبدو أن هذا النوع من الخطب قد راق بعض خطباء الأندلس ، فأخذوا في محاكاته ومعارضته . وممن فعل ذلك الخطيب سعيد بن أحمد المقّرِيّ في خطبة له ، منها :

« الحمد لله الذي افتَتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ، ليصطفيَ من آل عمرانَ رجالاً ونساء فضَّلَهم تفضيلا . ومدَّ مائدةَ أنعامه ورزقه ، ليُعرَفَ أعرافُ أنفالِ كرمِه وحقِّه على أهل التوبة ، وجعل ليونسَ في بطن الحوت

(١) نفح الطيب : ج ١٠ ص ١٩٢ .

سبيلا . ونجّى هوداً من كربه وحزنه ، كما خلّص يوسفَ من سجنه وجبّه ، وسبح الرعد بحمده ويُمْنه ، واتخذ الله إبراهيمَ خليلا ، الذي جعل في حِجْر الحجر من النحل شراًبا نوَّع باختلاف ألوانه ، وأوحى اليه بخفيٍّ لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفاً قد شيّد بنيانه ، وأرسل روحه إلى مريَم فتمثّل لها تمثيلا .... الخ [1] » .

ومن الخطب الدينية ما أخذتْ في التكلُّف والصنعة طريقاً آخرَ غيرَ طريق التورية بأسماء سُوَر القرآن . وممن فعل ذلك الخطيب الصوفيّ المشهور أحمد بن الحسن بن علي الزيات المتوفي سنة ٧٢٨ هـ ، فله خطبة أُلغيَت الألف من حروفها ، على كثرة تردُّدِها في الكلام وتصرُّفِها ، مع التزامه السجعَ فيها .

* ومن هذه الخطبة قوله : « حمدتُ ربي جلَّ من كريم محمود ، وشكرتُه عزَّ من عظيم موجود ، ونزّهْتُه عن كل مُلْحد كفور ، وقدّستُه عن قول كل مُفسد غَرور .... لو فُهِمتْ له كيفيّةٌ لَبَطُلَ قِدَمُه ، ولو عُلِمت له كيفيّة لحصَل عَدَمُه . ولو حَصَره طَرْفٌ لقُطِع بتجسُّمِه .... موجودٌ من غير شيء يُمْسِكه ، معبودٌ من غير وَهْمٍ يُدركه .... قويٌ من غير سبب يَجمعُه ، عليٌ من غير سبب يرفعه ، لو وُجِد له جنسٌ لَعُورِض في قَيُّوميَّتِه ، ولو ثبت له حِسٌ لنُوزِع في دَيْموميَّته [2] » .

فهذه النماذج من الخطابة الدينية في العصور المتأخرة يبدو عليها ، كما نرى ، التكلُّف والتعسُّف ، والضعفُ والركاكة ، ومحاولةُ الإيهام من صاحبها بأنه ذو فصاحة وبلاغة وبيان ، وهي في حقيقتها أبعد ما تكون عن جوهر الفصاحة والبلاغة والبيان ! ولست أدري ماذا يفهم السامعُ من مثل خطبة أحمد ابن الحسن الزيات ؟ وبأي موعظة يخرج من عباراتها المتكلفة الغامضة ؟

* وخطبَ الوزيرُ لسانُ الدين بن الخطيب المتوفي سنة ٧٧٦ هـ ، في الاستنجاد والحضِّ على الجهاد . فقال :

---

(١) نفح الطيب : ج١٠ ص١٩٤ ، والروح ، هنا : جبريل (٢) الإحاطة في أخبار غرناطة : ص ٢٩٨ .

« أيها الناسُ رحمكم الله تعالى. إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهَم [1] العدوُّ -- قصمه الله تعالى -- ساحتَهم ، ورام الكفرُ -- خذلَه اللهُ تعالى -- استباحتَهم . وزحفت أحزابُ الطواغيت اليهم . ومدَّ الصليبُ ذراعيه عليهم ، وأيْدِيكُم بعزة الله تعالى أقوى ، وأنتم المؤمنون أهلُ البرِّ والتقوى ، وهو دينُكم فانصروه ، وجِوارُكم الغريب فلا تُخفروه [2] ؛ وسبيلُ الرشد قد وضح فلْتَبصروه .

الجهادَ الجهادَ فقد تعيّن ، الجارَ الجارَ فقد قرَّر الشرعُ حقّه وبيّن . اللهَ اللهَ في الإسلام . اللهَ اللهَ في أمة محمد عليه الصلاة والسلام . اللهَ اللهَ في المساجد المعمورة بذكر الله . اللهَ اللهَ في وطن الجهاد في سبيل الله . قد استغاث بكم الدِّين فأغيثوه . قد تأكد عهدُ الله وحاشاكم أن تَنكثوه .

أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله عند الشدائد ، جدِّدوا عوائدَ الخير يَصِلِ اللهُ تعالى لكم جميلَ العوائد ، صِلُوا رَحِمَ الكلمة ، وآسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائفَ المسلمة ، كتابُ الله بين أيديكم ، وألسنةُ الآيات تناديكم ، وسُنّةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قائمةٌ فيكم ، واللهُ سبحانه يقول فيه « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تُنجيكم » ومما صحَّ عنه صلى الله عليه وسلم « مَن اغبرَّتْ قدَماهُ في سبيل الله حرَّمَهما اللهُ على النار » « لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم » « مَن جهزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا » .

أدركوا رَمَقَ الدِّين قبل أن يفوت ، بادروا عليلَ الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهَكم مع الله تعالى يومَ يسألُكم عن عباده ، جاهدوا في الله بالألْسُن والأقوال حقَّ جهاده .

ماذا يكــون جوابُكم لِنبيّكــمْ   وطريقُ هذا العذرِ غيرُ مُمهّدِ

---

(١) دهم ساحتهم : غشيهم .   (٢) لا تخفروه : لا تنقضوا عهده .

إنْ قال : لِمْ فَرَّطتمُ في أُمتي ... وتركتموهم للعدوِّ المعتدي ؟
تالله لو أنَّ العقوبة لم تُخَف ... لكفَى الحَيَا من وجه ذاك السيِّدِ

اللهم اعطفْ علينا قلوب العباد ، اللهم بُثَّ لنا الحَميّة في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد . اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبابك وأوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم أفرغْ علينا صبراً وثبِّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً » [1] .

— ٣ —

الرسائل وأنواعها

الرسالة قطعة من النثر الفنيّ تطول أو تقصر تبعاً لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه . وقد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سبباً ، وقد يكون هذا الشعر من نظمه أو مما يَستشهد به من شعر غيره ، وتكون كتابتها بعبارة بليغة ، وأسلوب حسَنٍ رشيق ، وألفاظٍ منتقاة ، ومعانٍ طريفة .

والنثر الفنيّ الأندلسيُّ يتمثل أكثر مما يتمثل في الرسائل التي أنشأها كتّابُه . وقد حَظِيَت كتابةُ الرسائل الأدبية بكُتّاب معظمُهم من فرسان الشعر الأندلسيّ .

وإذا بدا تأثرُ هؤلاء الكتّاب في نثرهم بأساليب النثر العربيّ ومذاهبه المختلفة ، فإنهم استطاعوا بما أُوتوا من موهبة شعرية ، وذوق أدبيّ ، ولُطفِ خيال أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم وأن يَفتنُّوا فيها ، حتى ليبدو بعضُ نثرهم وكأنه شعر منثور ، لا يَنقصه غيرُ الوزن والقافية ليكون شعراً .

---

(١) نفح الطيب : ج ٨ ص ٢٧١ .

وقد استطاعوا بما لهم من حرية الكلمة أن يجولوا برسائلهم في كل مَجال ، وأن يعالجوا من الموضوعات كلَّ قريب وبعيد ، وأن يطيلوا ما شاءوا ، وأن ينهج كل كاتب منهم في صناعته النهجَ الذي يرتضيه ويُلبّي ميولَه .

ولم تلبث الكتابة الأدبية بالأندلس أن أصبحت على أيدي كبار كُتّابها أداةَ تعبير وعَرْضٍ لشتّى الموضوعات ، حتى لقد فاقت الشعر في ذلك بفضل ما في صناعة النثر من المرونة والتحرر من قيود الوزن والقافية .

ولما كانت رسائلُهم الأدبية قد تنوَّعت بتنوُّع أغراضها ومراميها ، فسوف نعرض فيما يلي لأهم أنواع هذه الرسائل عندهم ، مع نماذج لها توضح أساليب منشئيها ومقدارَ تأثرهم فيها بأساليب كُتّاب النثر العربيّ في المشرق .

الرسائل الديوانية :

والرسائل الديوانية ، ويقال لها أحياناً « السلطانية » هي التي كانت تصدُر عن ديوان الخليفة أو الملك يوجّهها إلى وُلاته وعُمّاله وقادةِ جيوشه ، بل وإلى أعدائه أحياناً مُنذراً متوعّداً . وقد كان لكل خليفة أو ملكٍ كاتبُه الذي يتولّى الكتابة عنه في كل مَهام الدولة وشئونها من رسائلَ ومنشورات وعهودٍ ومبايعات وغيرها . ولم يكن يَرقَى إلى منصب الكتابة لدى الخلفاء والملوكِ الا كبارُ الأدباء والشعراء في عصرهم .

ومع ذلك فهذا النوع من الرسائل مهما بولغ في إجادته الفنية ، فإنه لا يخرج عن كونه مُتّصلا بحادث أو أمرٍ عارض ، وقلما تكون له صفة الدوام التي تهم الناس في كل زمان ومكان .

• ومن نماذج الرسائل الديوانية ، رسالة لأبي حفص بن برد [1] الاصغر

---

(١) هو الوزير أبو حفص أحمد بن محمد بن احمد بن برد المتوفي سنة ٤٢٨ هـ، وهو من كتاب ديوان

على لسان مَن كان يكتب له من العامريين ، وهي موجهة لقوم طلبوا الأمان من مولاه :

« أما بعد ، فإنكم سألتم الأمان أوانَ تلمّظَتْ السيوفُ اليكم ، وحامت المنايا عليكم ، وهمّتْ حظائرُ الخِذلان أن تُفرَج لنا عنكم ، وأيدي العِصيان أن تُتحِفَنا بكم .

ولو كِلْنا لكم بصاعكم ، ولم نرعَ فيكم ذِمّةَ اصطناعكم . لضاق عنكم مَلْبَسُ الغفران ، ولم ينسدل عليكم سترُ الأمان . ولكنا علمنا أن كهولكم الخُلوفَ [٢] عنكم ، وذوي أسنانكم المعاصين لكم . ممن يهاب وَسْمَ [٣] الخلعان ، ويخاف سَطْوَ السلطان ....

ولولا تَحَرُّجُنَا أن نقطع أعضادَهم بكم ، ورجاؤنا أن يكون العفو على المقدرة تأديباً لكم ، لَشربَتْ دماءَكم سباعُ الكُماة ، وأكلتْ لحومكم ضِباعُ [٤] الفَلاة . وقد أعطيناكم ، بتأميننا إيّاكم ، عهدَ الله وذِمّتَه ،

الإنشاء في دولة العامريين . قال عنه ابن بسام في الذخيرة : « كان أبو حفص أحمد بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر ، ومثلها السائر ، نفث فيها بسحره ، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره ، وله اليها طروق ، وفي عروقها الصالحة عروق ، إذ كان جده ابو حفص – أحمد – الأكبر واسطة السلك، وقطب رحى الملك بالحضرة العظمى قرطبة » . وقال عنه الفتح بن خاقان في المطمح : « إنه غذي بالأدب ، وعلا الى أسمى الرتب ، وما من أهل بيته الا شاعر كاتب ، ملازم لباب السلطان مراقب ، ولم يزل في الدولة العامرية بسبق يذكر ، وحق لا ينكر . وهو بديع الإحسان ، بليغ القلم واللسان ، مليح الكتابة ، فصيح الخطابة ، وشعره مثقف المباني ، مرهف كالحسام اليماني » . وهو الذي كتب عهد هشام المؤيد بن الحكم بن الناصر لأبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر بأن يكون ولي عهده (نفح الطيب : ج ١ ص ٤٠٠).وقد أوردنا نماذج كثيرة من شعره في باب الشعر الأندلسي في هذا الكتاب. (٢) الخلوف : الغيب بضم الغين وتشديد الياء. (٣) وسم الخلعان : أثر نقض العهد.

(٤) الضباع : جمع ضبع بفتح الضاد وضم الباء ، وهو ضرب من السباع ، أنثى

ونحن لا نخفرهما أيامَ حياتنا إلاَّ أن تكون لكم كرَّة ، ولغدْرتكم ضرَّة ، فيومئذ لا إعذارَ لكم ، ولا إقصارَ عنكم ، حتى تحصدَكم ظُبَاةُ السيوف ، وتقتضي دُيونَ أنفسكم غُرَماءُ الحتوف [1] » .

*

* ونموذج آخر لابن بُرْدٍ الأصغر ، وهو كتابُ مبايعة يقول فيه :

« بايعَ الإمامَ عبدَالله فلانٌ بانشراحِ صدرٍ وطيبِ نفْسٍ ونَصاحةِ جَيْب وسلامةِ غَيْب ، بَيْعةَ رِضاً واختيار ، لا بيعةَ إكراهٍ وإجبار ، على السمع والطاعة ، والمؤازرة والنُّصْرة ، والوفاء والنصيحة ، في السرِّ والعلانيَة ، والجهر والنيّة ، والعمل على مُوالاة مَن وَالاه ، ومُعاداةِ مَن عاداه ، من بعيد وقريب ، وغريب ونسيب .

ويُقسم على الوفاء به والقيامِ بشروط بيعته ، بالذي لا إله إلاَّ هوَ الرحمن الرحيمِ ، عالمِ الغيب والشهادة ، والقائمِ على كل نفسٍ بما كسبت ، ويعطيه على ذلك كلِّه ذِمّةَ الله وذمةَ محمدٍ رسولهِ وذِمةَ الأنبياء والمرسلين ، والملائكةِ المقربين ، وعبادِ الله الصالحينَ .

ومتى خلعتَ رِبْقةً بَختْرٍ [2] أو غَدْر ، أو طَوَيْتَ [3] كَشْحاً على نَكْث [4] أو حِنْث [5] ، فعليك المَشْيُ إلى بيت اللهِ الحرام ببَطحاءِ مكةَ من مُستَقرِّك ثلاثين حِجّةً ، نَذْراً واجباً لا يقبل اللهُ تعالى إلاَّ الوفاءَ به .

وكلُّ زوجةٍ لكَ مَهيرة [6] ، أو تَنكِحُها إلى ثلاثين سنةً فطالقٌ تحتَكَ طلاقَ الحَرَج ثلاثا . وكلُّ أَمَةٍ أو عَبدٍ لك أو تملكه فأحرارٌ لوجه الله العظيم .

---

(١) الذخيرة : ١ / ٢ ص ٣٢ .
(٢) الختر : الخديعة .
(٣) طوى الرجل كشحه على كذا : أضمره وعزم عليه .
(٤) النكث : نقض العهود .
(٥) الحنث : الخلف في اليمين .
(٦) الزوجة المهيرة : الغالية المهر ، أي الصداق .

وكلُّ مالٍ لك من صامت أو ناطقٍ أو تملكه إلى ثلاثين سنةً غيرَ عشرةِ دنانيرَ أو قدرَها ، فصدقةٌ على الفقراء والمساكين . وقد برِىءَ اللهُ تعالى منك ورسولُه وملائكتُه . والله بجميع ما انعقد عليك في هذه البَيْعةِ شهيد ، وكفى بالله شهيداً ، وعلى الأعمال والنيات مُثيباً[1] » .

∴

* ومن الرسائل الديوانية أيضاً رسالة للوزير الكاتب لسان الدين بن الخطيب ، كتبها على لسان سلطانه محمد الغنيّ بالله بن الأحمر ، يبشر فيها بالفتح ، قال لسان الدين :

« أيها الناس ، ضاعف اللهُ بمزيد النِّعَم سُرورَكم ! وتكفّلَ بلُطْفه الخفيِّ في مثل هذا القطرِ الغريب أمورَكم !

أُبَشِّركم بما كتب به سلطانُكم السعيدُ اليكم ، المترادفةُ بيُمنِه وسعادته نِعَمُ الله عليكم ! أمتعَ اللهُ الإسلامَ ببقائه ! وأيّدَه على أعدائه ! ونصرَه في أرضه بملائكة سمائه !

وأن الله تعالى فتح له الفتح المُبين ، وأعزَّ بحركة جهادِه الدِّين ، وبيّضَ وجوهَ المؤمنين ، وأظفرَهُ بِطَرْيرَ[2] البلد الذي فجعَ المسلمين بأسْرِهم فجيعةً تُثير الحَميّة ، وتُحرِّك النفْسَ الأبيّة ، فانتقم الله تعالى منهم على يده ، وبلّغَه من استئصالهم غايةَ مَقصدِه ، فصدقَ من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوعدُ والوعيد ، وحكمَ بإبادتهم المبدىء والمعيد ، « وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إذا أخذَ القُرَى وهي ظالمةٌ ، إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شديد » .

وتحصّل من سَبْيه بعدما رَوِيَت السيوف من دمائهم آلافٌ عديدة ، لم يُسمَع بمثلها في المُدَدِ المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصَب من إخوانكم المسلمين عددٌ يُذكَر ، ولا رَجلٌ يُعتبَر .

---

(١) الذخيرة ١ / ٢ ص ٣٠ .

(٢) البطرير : الطاغية المتمادي في غيه .

فتحٌ هنيّ ، وصُنعٌ سَنيّ ، ولُطفٌ خفيّ ، ووَعْدٌ وَفِيّ . فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته ، وقِفُوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نِعَمَه بالشكر يَزِدْكم ، واستبصروا في الدفاع عن دينكم ينصرْكمويؤيدكم ، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التي لم تَعْدَمُوا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً [1] ، ولا رأياً مُصيباً ، ولا نصراً عزيزاً ولا فتحاً قريباً ، وتضرّعوا في بقائها ، ونصْر لوائها ، إلى مَن لم يزل سمعياً للدعاء مُجيباً . واللهُ عزّ وجلّ يجعل البشائر الفاشيةَ فيكم عادة ، ولا يُعْدِمُكم [2] ولا أولى الأمر منكم توفيقاً وسعادة . والسلامُ الكريم يَخصُّكم ، ورحمةُ الله تعالى وبركاته من مُبلِغكم ذلك فلان [3] » .

**

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أسلوب الرسائل الديوانية لا يسير على وتيرة واحدة ، ولا يلتزم نَمَطاً معيناً ، وإنما هو يتفاوت بتفاوت الأغراض ومقتضيات الأحوال . فالغرض مثلاً من رسالة ابن برد الأولى هو الإنذار والتهديد ، ولهذا استخدم له الأسلوب الذي يَرُوع ويُخيف بالكلمة المشبعة بالوعيد ، مع الاستعانة بجزالة التراكيب ، والسجع الذي لم يلتزمه ، والاستعارات التي تجسم المعاني ، والكنايات التي تومىء ولا تصرح بما يُبيِّتُ لهم إن هم غدروا .

أما رسالته الثانية ، وموضوعها المبايعة ، فإن قيمة الأسلوب فيه ليست في صوره البيانية ، وإنما هي في شروط البيعة الغريبة التي بلغت حدّ التعجيز ، ودلّت في الوقت ذاته على عقل كاتبها . والرسالة كما نرى خالية من الأساليب البيانية والبديعية ، لأن المقام مَقامُ عهدٍ ومبايعة ، وبلاغتُها تتطلب استخدام الألفاظ في معانيها الحقيقية لا المجازية ، حتى لا تحتمل التأويل والتفسير ، ومع ذلك فالذي يرجع إلى رسائل ابن العميد الديوانية يستطيع أن يرى مقدار تأثر ابن برد بأساليبها .

---

(١) لم تعدموا : لم تفقدوا بفتح التاء .

(٢) لا يعدمكم : لا يفقركم بضم الياء .

(٣) نفح الطيب : ج ٩ ص ٤١ .

أما أسلوب لسان الدين بن الخطيب في رسالته التي يبشّر فيها بالفتح ، فيبدو فيه التأثر بأسلوب القاضي الفاضل من حيث التزام السجع ، والإكثارُ من صيغ الدعاء . وغيرُ ذلك مما تميّزت به الطريقة الفاضلية .

* * *

الرسـائل الإخوانيـة

والرسائل الإخوانية هي تلك الرسائل التي تدور بين الإخوان والأصدقاء والخلصاء ، ومنها أيضاً الرسائل التي يرسلها الكاتب إلى مَن يريد أن يخطب مَودّتَه ، أو يلتمس منه أمراً من الأمور . وهذا النوع من الرسائل ميدان فسيح للإبداع يتبارى فيه الكتاب والأدباء ، ويُتيح لأقلامهم وقرائحهم أن تنطلق على سجيتها ، وأن يعبّر أصحابُها عن عواطفهم الشخصية في لغة مصقولة منتقاة ، وأساليب قوية مُوَشّاة .

وقد اعترف النقاد بقيمة الرسائل الإخوانية ، لاشتراك الكافة في الحاجة اليها . وإذا كان الكاتب ماهراً متمرّساً بالكتابة ، تَسهّلَ له فيها ما لا يكاد أن يتسهّل في الكتب التي لها رسومٌ وصِيَغٌ لا تتغير .

والرسائل الإخوانية أنواع شتى أوصلَها صاحب كتاب « صبح الأعشى » إلى سبعة عشر نوعاً هي : التهاني ، والتعازي ، والتهادي ، والشفاعات ، والتشوق ، والاستزارة ، واختطاب المودة ، وخِطبة النساء ، والاستعطاف ، والاعتذار ، والشكوى ، واستماحة الحوائج ، والشكر ، والعتاب ، والسؤال عن حال المريض ، والأخبار ، والمداعبة . وبعض هذه الأنواع يندرج تحتها أضربٌ كثيرة .

ولأدباء الأندلس وكُتّابه في الإخوانيات رسائلُ كثيرة أجادوا فيها واحتفلوا بأساليبها ، ومنها القصير والطويل الذي يستوعب صفحات . وقد

طرَقوا في رسائلهم هذه موضوعات شتى ، كالعتاب ، والشكوى ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء ، والتعازي ، والتهاني ، والشوق ، والاستزارة ، والاستعطاف ، والشفاعة ، والمداعبة ، والإشادة ببلاغة بعضهم .

وفيما يلي بعض نماذج من رسائلهم الإخوانية للاستدلال بها على طبيعتها وأساليبها وطرق معالجتهم لها وتناولهم لموضوعاتها :

* ومن رسائل أبي حفص ابن برد الأصغر المتوفي سنة ٤٢٨ هـ ، رسالة في عتاب صديق يقول فيها :

« أظلم لي جوُّ صفائك ، وتوَعَّرتْ عليَّ أرضُ إخائك ، وأراك جَلْدَ الضمير على العتاب ، غيرَ ناقِعِ الغُلّة [1] من الجفاء . فليت شعري ما الذي أقسَى مُهجَتَكَ ذلك الوُدّ ، وأذْوَى زهرةَ ذلك العهد ؟

عَهْدي بكَ وصِلَتُنا تفْرَقُ من اسم القطيعة ، ومودَّتُنا تَجِلُّ عن صفةِ العتاب ونِسبة الجفاء ، واليومَ هي آنَسُ بذلك من الرضيع بالثَّدْي ، والخليع بالكأس . وهذه ثُغْرَةٌ إن لم تَحرُسْها المراجعة ، وتُدْرِكَ فيها عيونُ الاستبصار ، تَوجّهَتْ منها الحِيَلُ على هَدْمِ ما بَنَيْنا ، ونَقْضِ ما اقْتَنَيْنا ، وتلك نَاعِيَةُ الصفاء ، والصارخةُ بموت الإخاء .

لا أنتبذُ [1] — أعزك الله — من الكتاب [2] اليك . وإن رَغِمَ أنفُ القلم ، وانْزَوَتْ أحشاءُ القِرطاس ، وأُخرِسَ فَمُ الفِكْر ، فلم يَبقَ في أحدِها إسْعادٌ لي على مكاتبتك ، ولا بَشاشةٌ عند محاولة مخاطبتك ، لِقَوارِصِ عِتابك . وقَوارعِ مَلامِك ، التي قد أكَلَتْ أقلامَك . وأغَصَّتْ كُتبَكَ ، وأضجرَتْ رُسُلَك .....

وكثيراً ما يكون عِتابُ المُتصافِيَيْن حِيلَةً تُسْبَر المودَّة بها ، وتُستثارُ دَفائنُ

(١) نقع الغلة : أروي العطش .

(١) لاأنتبذ من : لا أنتحى وأكف عن .   (٢) والكتاب هنا : مصدر بمعنى الكتابة .

الأخُوَّةِ عنها، كما يُعرَضُ الذهبُ على اللهب، وتُصَفّقُ[1] المُدامُ بالفَدام[2]. وقد يَتخلَّصُ الوُدُّ على العَتْب خَلاصَ الذهب على السَّبْك. فأمّا إذا أُعيدَ وأُبْدِي، ورُدِّدَ ووُلِيَ، فإنه يُفسِدُ غَرْسَ الإخاء، كما يُفسِدُ الزرعَ تَوالي الماء[3]».

∴

* ومن رسائل الفتح بن خاقان الذي كان يعيش في عصر المرابطين رسالةٌ بعث بها إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين، وفيها يشكو اليه وزيرَه أبا العلاء زُهر بن عبد الملك بما صُورَتُه:

«أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجَلّ سامعاً للنداء، دافعاً للتطاول والاعتداء، لم ينظم الله تعالى بلَبّتك[4] المُلكَ عِقداً، وجعل لك حَلاّ للأمور وعَقدا، وأوطأ لك عَقِبا، وأصارَ من الناس لِعَوْنك مُنتظِرا ومُرتقِبا، إلاّ أن تكون للبرية حائطاً، وللعدل فيهم باسطاً، حتى لا يكون فيهم مَن يُضام، ولا ينالَ أحدَهم اهتضام، ولِتقصرَ يدَ كلِّ مُعْتدٍ في الظلام.

وهذا ابن زُهر الذي أجررتَه رَسَنا[5]، وأوضحتَ له إلى الاستطالة سَنَنا ..... لمّا علمَ أنك لا تُنكر عليه نُكْراً، ولا تُغيِّر له متى مكَرَ في عباد الله مكْراً، جرَى في ميدان الأذيّة ملْءَ عِنانه، وسرَى إلى ما شاء بعُدْوَانه، ولم يراقب الذي خلقَه، وأمَدَّ في الحُظوة عندك طلَقَه[6]، وأنت بذلك مُرْتَهَنٌ[7] عند الله تعالى لأنه مَكّنك لئلا يتمكّن الجَوْر، ولِتَسكُنَ بك الفَلاةُ والغَوْر.

فكيف أرسلتَ زِمامَه حتى جرَى من الباطل في كل طريق، وأخفقَ به

---

(١) تصفق: تصب، وتحول من إناء إلى إناء. (٢) الفدام: المصفاة التي توضع على فم الإبريق.
(٣) الذخيرة: ١ / ٢ ص ٣٣. (٤) اللبة: وسط الصدر والمنحر.
(٥) أجررته رسنا: أي تركتهيفعل كيف شاء. (٦) الطلق بفتح اللام: الشوط.
(٧) مرتهن: موقوف ومؤاخذ.

كلُّ فريق ، وقد علمت أن خالقَكَ الباطشَ الغَيور ، يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفِي الصدور ، وما تخفَى عليه نَجْواك ، ولا يستتر عنه تَقلُّبك ومَثْواك ؟

وستقف بين يدي عَدْلٍ حاكم ، يأخذ بيد كلِّ مظلوم مِن ظالم ، قد علم كلَّ قضية قضاها ، ولا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها . فَبِمَ تحتجُّ معي لديه ، إذا وقفتُ أنا وأنت بين يديه ؟ أتَرى ابنَ زُهْرٍ يُنجيك في ذلك المَقام ، أو يَحميكَ مِن الانتقام ؟ وقد أَوْضَحت لك المَحَجّة [١] ، لتقومَ عليك الحُجّة [٢] ، والله سبحانه النصير ، وهو بكل خَلْق صير ، لا رَبَّ غيرُه ، والسلام [٣] » .

∴

* ومن رسائل الوزير لسان الدين بن الخطيب المتوفي سنة ٧٧٦ هـ ، رسالة طويلة استوعبت نحو ست صفحات ، وقد بعث بها إلى صديقة ابن خلدون في الشوق اليه ، ومنها بعد استهلالها بقصيدة من اثني عشر بيتاً :

« أما الشوقُ فحدِّثْ عن البحر ولا حَرَج ، وأما الصبرُ فسَلْ به أيّةَ دَرَج ، بعد أن تجاوز اللِّوَى والمُنْعَرَج ، والمؤمن يَنشَق من رَوْحِ الله الأرَج . وأنّي بالصبر على إبَر الدَّبْر [٤] ، لا بل الضرب الهَبْر [٥] ، ومُطاوَلَةِ اليوم والشهر ، حتى حكَم القَهر ؟ وهل للعين أن تَسْلُوَ سُلُوَّ المقَصِّر ، عن إنسانها المُبصر ، أو تذهَلَ ذهولَ الزاهد ، عن سِرِّها الرائي والمشاهَد ؟ وفي الجسد مُضْغَةٌ يصلح إذا صلحت ، فكيف حالُه إن رَحَلَتْ عنه ونَزَحَتْ ؟ وإذا كان الفِراقُ هو الحِمامَ الأوَّل ، فعَلامَ المُعَوَّل ؟ أَعْيَتْ مُراوضةُ الفِراق ، على الراق ، وكادت من لَوْعة الاشتياق ، أن تُفضيَ إلى السياق [٦] .

---

(١) المحجة : الطريق .
(٢) والحجة : البرهان والدليل .
(٣) نفح الطيب : ج ٣ ص ١٤ .
(٤) الدبر : النحل والزنابير .
(٥) الضرب الهبر : الذي يقطع اللحم ويفريه .
(٦) السياق : نزع الروح .

تركتموني بعد تشييعكـــم أوسعُ أمرَ الصبر عِصيانا
أقرع سِنّي نَدَماً تارةً وأستميحُ الدمع أحيانا [1]

∴

وإذا كان ابن زيدون المتوفي سنة ٤٦٣ هـ قد عُرِف بشعره العاطفيّ الرقيق ، ويُنظَر إليه على أنه شاعر الغزل الأول في الأندلس ، فإنه قد عُرِف كذلك بنثره الفائق الذي يقع معظمه في باب الرسائل الإخوانية .

ومن رسائله هذه : الرسالة الجِدِّية ، والرسالة الهزلية ، والرسالة البكرية ، والرسالة المظفّريّة ، والرسالة العامرية ، والرسالة العبّادية [2] .

وأهم هذه الرسائل رسالتاه الشهيرتان : الجدِّية ، والهزلية ، كتب الأولى وهو في السجن لأبي الحزم بن جهور أمير قرطبة أيام الفتنة ، وفيها يعتب ابنُ زيدون ويستعطف ، ويتبرّأ مما اتُّهِم به .

أما الرسالة الهزلية فقد كتبها على لسان وَلاّدةَ بنت المستكفي لمنافسه في حبها الوزيرِ أبي عامر بن عَبدوس ، وفيها يَسخَر ابن زيدون منه سخرية بلغتْ في بعض أجزاء الرسالة حدَّ الهجاء .

* ومن رسالة ابن زيدون الجدِّية في عتاب أبي الحزم بن جهور واستعطافِه قولُه :

« يا مولاي وسيدي الذي وِدادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي به ، وامتدادي منه ، ومَن أبقاه اللهُ تعالى ماضيَ حَدِّ العزم ، وَارِيَ زَنْد الأمل ، ثابتَ عهدِ النعمة .

إنْ سلبتني — أعزّكَ الله — لِباسَ إنعامك ، وعطّلتَني من حَلْيِ إيناسك ،

---

(١) نفح الطيب : ج ٩ ص ٩٤.
(٢) انظر هذه الرسائل في ديوان ابن زيدون : ص ٦٣٤ — ٧٧٦ ، تحقيق الأستاذ علي عبد العظيم

وأظمأتني إلى بَرُود [1] إسعافك ، ونفضت بي كفَّ حياطتك ، وغَضَضْتَ عني طَرْفَ حمايتك – بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصمُّ ثنائي عليك ، وأحسَّ الجمادُ باستنادي اليك – فلا غَرْوَ [2] : قد يَغَصُّ بالماء شاربُه [3] ، ويقتلُ الدواءُ المستشفيَ به ، ويُؤتيَ الحَذِرُ من مأمنه ، وتكون مَنيّةُ المتمنّي في أُمْنيتِه ، والحَيْنُ قد يَسبق جُهدَ الحريص :

كلُّ المصائب قد تَمرُّ على الفتى وتهونُ غيرَ شماتة الحُسّادِ

ومنها : « وأعود فأقول : ما هذا الذنبُ الذي لم يسَعْهُ عَفوُك ؟ والجهلُ الذي لم يأتِ من ورائه حِلمك ؟ والتّطاولُ الذي لم يستغرقه تَطوُّلُك [4] ؟ والتحاملُ الذي لم يفِ به احتمالُك ؟ ولا أخلو من أن أكونَ بريئاً فأين العدل ؟ أو مُسيئاً فأين الفضل ؟

إلاَّ يكنْ ذنبٌ فعدلُك واسعٌ أو كان لي ذنبٌ ففضلُك أوسَعُ

حَنانَيْك [5] ! قد بلغ السيل الزُّبَى [6] ، ونالني ما حسبي به وكفَى ! وما أراني إلاَّ لو أني أُمِرتُ بالسجود لآدمَ فأبيْتُ واستكبرت [7] وقال لي نوح : « اركبْ معنا » فقلت : « سآوي إلى جبل يعصمني من الماء » وأُمِرتُ ببناء الصرح لعلّي أطلعُ إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديتُ في السبت ، وتعاطيت فعقرت .... » .

« فكيف ؟ ولا ذنبَ لي إلاَّ نميمةٌ أهداها كاشح [8] ، ونبأٌ جاء به

---

(1) البرود : البارد . (2) لا غرو : لا عجب .

(3) قد هنا للتقليل ، والمعنى : إن الماء الذي يزيل الغصة قد يكون هو سببا للغصة .

(4) التطاول : الترفع والكبر ، والتطول : التفضل والإحسان .

(5) حنانيك : أسألك حنانا بعد حنان . (6) مثل يضرب لكل ما جاوز الحد .

(7) أخذ ابن زيدون يعدد هنا بعض كبار الذنوب ويقول : لو أني ارتكبتها جميعا لكفاني ما نلته من عقابك ، وقد ابتدأ بذكر إبليس وتكبره عن السجود لآدم عصينانا منه لأمر الله .

(8) الكاشح : الذي يضمر العداء .

فاسقٌ [1] ، وهم الهمّازون المشّاءون بنميم [2] ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا [3] ، والغُواةُ الذين لا يتركون أديما [4] صحيحاً ، والسُّعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال : «ما ظَنُّك بقومٍ الصدقُ محمودٌ إلاَّ منهم » .

حلَفتُ فلم أترك لِنفسك ريبةً   وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهـــبُ

والله ما غشَشْتُك بعد النصيحة ، ولا انحرفتُ عنك بعد الصاغية [5] ، ولا نَصبتُ لك بعد التشيُّع فيك ..... ففيم عَبِثَ الجفاءُ بأذِمّتي [6] ، وعاثَ العقوقُ في مَوَدَّتي ؟ وتمكّنَ الضَّياعُ من وسائلي ؟ ولِمَ ضاقتْ مذاهبي ، وأكْدَتْ مطالبي ؟ ... وأنّى غلبني المغَلَّب ؟ وفخر عليّ العاجز الضعيف ؟ ولطمتْني غيرُ ذات سوار [7] ؟ وما لك لا تَمنَع منّي قبل أن أُفترس ، وتُدركُني ولمّا أُمزَّق ؟ [8] ... الخ » .

∴

ومن رسالة ابن زويدون الهزليةِ التي كتبها على لسان ولاَّدة يسخر فيها من ابن عَبدوس منافِسه في حبها قولُه :

« أما بعد أيُّها المصابُ بعقله ، المُوَرَّطُ بجهله ، البَيِّنُ سَقَطُه ، الفاحشُ غلَطُه ، العاثرُ في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقطُ سقوطَ الذباب على الشراب ، المتهافتُ تهافتَ الفَراش إلى الشِّهاب ، فإن العُجْبَ أكذب ، ومعرفةَ المرءِ نفْسَه أصوب .

---

(1) الفاسق : الخارج عن طاعة الله .

(2) النميم والنميمة : السعي بين الناس بالفتنة ، ونقل الأحاديث المثيرة الكاذبة بقصد الوقيعة بين الناس .

(3) صدع العصا : كناية عن تفريق الجماعة .

(4) الأديم : الجلد .

(5) الصاغية الى الشيء : الميل اليه .

(6) الأذمة : جمع ذمام ، وهو الحرمة وصلة المودة والقربى .

(7) معنى العبارة : ظلمني من ليس كفئا لي .

(8) الرسالة كاملة في ديوان ابن زيدون ص ٦٨٠ .

وإنك راسلتني مُستهدياً من صِلتي ما صَفِرَتْ منه أيدي أمثالك ، مُتصدِّياً من خُلّتي [1] لِمَا قُرِعَتْ دونه أنوفُ أشكالك ، مُرسلاً خليلتَكَ مُرْتادَةَ ، مُستعملاً عشيقتك قَوَّادَةَ ، كاذباً نفْسَكَ أنك ستنزل عنها إليَّ ، وتَخلُف بَعدَها عليَّ :

ولستَ بأوَّلِ ذي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لما ليس بالنَّائِلِ

ولا شك أنها قَلَتْكَ إذ لم تَضِنَّ بك ، ومَلَّتْكَ إذ لم تَغَرْ عليك ، فإنها أعْذَرَتْ في السِّفارة لك [2] ، وما قصَّرتْ في النيابة عنك ، زاعمةً أن المروءةَ لفظٌ أنت معناه، والإنسانيّةَ اسمٌ أنت جِسْمُهُ وهُيُولاه [3] ! قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال ، واستأثرتَ بالكمال ، واستعْلَيتَ في مراتب الجلال ، واستَوْلَيْتَ على محاسنِ الخِلال ، حتى خَيَّلَتْ أن يوسفَ عليه السلام حاسَنَكَ فغَضَضْتَ منه [4] ، وأنَّ امرأةَ العزيز رأتك فسَلَتْ عنه ! وأن قارونَ أصابَ بعضَ ما كَنَزْتَ .... ، وكسرى حمل غاشيتَكَ [5] ، وقيصرَ رعَى ماشيتك ، والاسكندرَ قتل دَارَا [6] في طاعتك ، .... وأن إياسَ [7] ابن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك ، وسحبانَ إنما تكلم بلسانك .... وأن الحجَّاجَ تقلّد ولايةَ العراق بجَدِّك ، وقتيبةَ [8] فتح ما وراء النهر بسعدك ، والمهلّبَ [9] أوْهَنَ شَوكةَ الأزارقة بأيْدِك ، وفرَّقَ ذات بينهم بكَيْدِك ... وأن أفلاطون أوردَ على أرِسْطَاليسَ ما نَقَلَ عنك » ... الخ

---

(١) خلّتي : صداقتي ومودتي . (٢) السفارة : المشي في الصلح .

(٣) الهيولي : الصورة المعنوية التي يصب الجسم على مثالها ، والمعنى : إن الانسانية تجسمت فيك بمعناها ومبناها . (٤) حاسنك : باراك في الحسن ، وغضضت منه : نقصت من قدره .

(٥) الغاشية : غطاء السرج أو المظلة .

(٦) دارا : ملك الفرس الذي حاربه الإسكندر الأكبر وقتله وضم مملكته اليه .

(٧) كان إياس بن معاوية مشهورا بحدة الذكاء وسداد الإجابة .

(٨) هو قتيبة بن مسلم الباهلي ، كان واليا على خراسان من قبل عبد الملك بن مروان .

(٩) هو المهلب بن أبي صفرة الذي كان له شأن في محاربة الخوارج .

وهَبْنِها لم تُلاحِظْكَ بعينٍ كليلةٍ عن عيوبك ، مِلؤُها حبيبُها ، وحسَنٌ فيها مَن تودّ ، وكانت إنما حلّتْكَ بحُلاكَ ، ووَسَمَتْكَ بسيماك.... ، ولم تكن كاذبةً فيما أثنتْ به عليك ، فالمُعَيديُّ تسمع به خير من أن تراه .

هجينُ القَذال [1] ، أرعنُ السبال [2] ، طويل العنق والعلاوة [3] ، مُفرط الحمق والغباوة ، جافي الطبع ، سَيِّىءُ الجابةِ [4] والسَّمْع ، بغيضُ الهيئة ، سخيفُ الذّهاب والجَيْئَة ، ظاهرُ الوَسواس ، مُنْتِنُ الأنفاس ، كثير المعايب ، مشهورُ المثالب ، كلامُكَ تَمتمة ، وحديثُك غَمْغَمَة ، وبيانُك فَهْفَهَة ، وضِحْكُك قَهْقَهَة ومَشيُك هرولة، وغناك[5] مسْألةٌ ، ودينُك زندقة ، وعلمُك مَخرَقَة [6] :

مَعانٍ ، لو قُسِمْنَ على الغواني   لما أُمْهِرْنَ إلاّ بالطلاقِ [7] ...الخ

∴

وإذا أمعنا النظر في أساليب الرسائل الإخوانية التي أوردناها حتى الآن ، رأينا تأثر أصحابها بأساليب كتّاب المشرق . فابن بُرد وابن خاقان كلاهما متأثر بأسلوب ابن العميد وتلاميذ مدرسته الكتابية ، من أمثال الصاحب بن عباد ، وأبي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذانيّ، وابن زيدون يَقْفو غالباً أثر الجاحظ في أسلوبه ، ولسانُ الدين بن الخطيب ينحو منحى القاضي الفاضل في أسلوبه .

ومن الممكن إدراك أهم الخصائص الأسلوبية لهؤلاء الكتاب الأندلسيين من واقع النموذج الذي اخترناه لكل واحد منهم .

---

(١) هجين القذال : لئيم النسب .   (٢) أرعن السبال : أحمق الشارب .
(٣) العلاوة : أعلى الرأس ، والعرب يعدون طول الرأس والعنق من دلائل الحماقة .
(٤) الجابة : الإجابة ، وفي الأمثال : « أساء سمعا فأساء جابة » .
(٥) غناك مسألة : أي من سؤال الناس واستجدائهم .   (٦) مخرقة : اختلاق .
(٧) الرسالة كاملة في ديوان ابن زيدون : ص ٦٣٤ .

فأسلوب أبي حفص بن برد الأصغر في رسالته يتميز بسهولة الألفاظ وحُسْن اختيارها ، وقِصَر الجمل ، واستخدام التشبيه ، وتجسيم المعاني عن طريق الاستعارة ، ولطف الخيال ، وقوة العاطفة ، والمراوحة بين السجع والازدواج ، وإن كان السجع هو الغالب .

وأسلوب الفتح بن خاقان يتميز كذلك بسهولة ألفاظه ، وقِصَرِ الجمل . مع التنويع فيها بين الخبرية والإنشائية ، واستخدام صيغ الدعاء ، والتشبيه ، والتزام السجع ، والاستعانة ببعض أنواع البديع الأخرى كالجناس والطباق .

وأسلوبُ لسان الدين بن الخطيب يلتقي مع أسلوب ابن خاقان في تنوع الجمل بين الخبرية والإنشائية ، والتزام السجع ، واستخدام التشبيه والجناس ، وصيغ الدعاء ، مع الإكثار منها ، ثم يفترق عنه في طول الرسائل إلى حد الإملال ، والإكثار من الاستعارات والكنايات . والجمع بين شعره ونثره في رسالة واحدة ، ومع الاستشهاد في ثناياها ببعض أشعار الآخرين . وعلى الإجمال فأسلوبه شديد الشبه بأسلوب القاضي الفاضل .

أما أبو الوليد بن زيدون فأسلوبه يذكِّر بأسلوب الجاحظ . فأسلوبه في الرسالة الجِدية يجتمع مع أسلوب الجاحظ في صيغ الدعاء وتنوعها ، وتعددِ النعوت للشيء الواحد ، واستخدامِ حروف الجر متتابعةً متغايرة ، واستقصاءِ أجزاء المعنى ، وتأديته بعدَّة جمل قصار متتابعة تبدو في الظاهر ترادفاً وتكراراً ، وهي في الواقع استيفاءٌ لكل ظلال المعنى .

كذلك يلتقي الأسلوبان في دماثة الألفاظ وعذوبتها ، وفي غزارة المعاني ، والمراوحة بين السجع والازدواج ، وبين الخبر والإنشاء ، ثم ينفرد أسلوب ابن زيدون بعد ذلك بالإكثار من الإشارات التاريخية ، والاقتباس من القرآن ، وتضمين الأمثال والأشعار .

أما أسلوب الرسالة الهزلية فيشترك مع أسلوب الرسالة الجِديَّةفي كثير من سماته ، ثم يزيد عليها في التشبيهات والاستعارات ، وفي استخدام سمةٍ جاحظية هي

السخرية التي تستخرج أشدَّ الضحك ، والتي يخرج بها أحياناً إلى حدِّ الهجاء المقذع لابن عَبدوس .

والواقع أن هذه الرسالة تذكّرنا برسالة « التربيع والتدوير » التي كتبها الجاحظ في السخرية والتهكم بأحد كتاب عصره ، وهو أحمد بن عبد الوهاب ، فهو فيها يهزأ بجسمه ، ويَنسُب اليه سخريّةً علمَ كل شيء ، إلاّ أن رسالة ابن زيدون أدق وأوجع ، وهي تدل على علم واسع بأحداث التاريخ ، وقدرة في التهكم بها على ابن عبدوس منافسه في الحب والسياسة . وقد يكون من الملائم هنا أن نورد بعض فقرات من رسالة « التربيع والتدوير » لتوضيح المشابهة التي بين الأسلوبين .

* قال عمرو بن بَحر الجاحظ :

« كان أحمدُ بنُ عبد الوهاب مُفرِط القِصَر ، ويَدَّعي أنه مُفرِطُ الطول ! وكان مُرَبَّعاً ، وتحسبه لِسَعَة جُفْرَتِه [1] واستفاضة خاصرته مُدَوَّرا ! وكان جَعْدَ [2] الأطراف قصيرَ الأصابع . وهو في ذلك يَدَّعي السَّبَاطَةَ [3] والرشاقة ، وأنه عتيقُ [4] الوجه ، أخمصُ [5] البطن ، معتدلُ القامة ، تامُّ العظم ! .

وكان طويلَ الظّهر قصيرَ عَظْمِ الفَخِذ ، وهو مع قِصَرِ عَظْم ساقه يَدَّعي أنه طويلُ البادّ ، [6] رفيعُ العماد ، عاديُّ القامة ، عظيمُ الهامة ، قد أُعطِيَ البَسطةَ في الجسم ، والسَّعَةَ في العلم !

وكان كبيرَ السِّنِّ ، مُتقادمَ الميلاد ، وهو يَدَّعي أنه معتدلُ الشباب ، حديثُ الميلاد ! وكان ادّعاؤه لأصناف العلم على قدر جهلِها بها ، وتكلُّفِه

---

(١) سعة جفرته : عظم كرشه المستدير .
(٢) جعد : قصير .
(٣) السباطة : الطول .
(٤) عتيق الوجه : جميله .
(٥) أخمص البطن : ضامر البطن .
(٦) الباد بتشديد الدال : باطن الفخذ : أو هو الفخذ .

للإبانة عنها ، على قدر غباوته فيها ! وكان كثير الاعتراض لَهِجاً بالمراء ، شديدَ الخلاف ، كَلِفاً بالمجاذبة ! ....

فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهودَ مِنّا ، وكدنا نعتاد مذهبَه ، ونألف سبيلَه ، رأيت أن أكشف قناعَه ، وأبدي صفحته للحاضر والبادي ، وسُكّان كل ثغر وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها ، وأُعرِّف الناس مقدار جهله ، وليسألَه عنها كل من كان في مكة ليكُفّوا عنا من غَرْبه ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به ....

« بسم الله الرحمن الرحيم » . أطال الله بقاءك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك . قد علمتَ — حفظك الله — أنك لا تُحسَد على شيء حسدَك على حُسْنِ القامة ، وضِخَم [1] الهامة ، وعلى حَوَرِ العين ، وجَوْدة القَد ، وعلى طِيب الأحدوثة ، والصنيعة المشكورة ، وأن هذه الأمور هي خصائصك التي بها تَكَلّف ، ومعانيك التي بها تَلْهَج . وإنما يَحسُد — أبقاك الله — المرءُ شقيقَه في النسب ، وشفيعه في الصناعة ، ونظيرَه في الجِوار على طارِف قدره ، أو تالد حظه ...

وأنت تزعم أن هذه المعانيَ خالصة لك ، مقصورة عليك ، وأنها لا تليق إلاّ بك ، ولا تَحسُن إلاّ فيك ، وأن لك الكُلّ وللناس البعض ، وأن لك الصافيَ ولهم المَشوب ، هذا سوى الغريبِ الذي لا نعرفه ، والبديع الذي لا نبلغه [2] » ... الخ

*

وقد كان أبو حفص بن برد الأصغر أسبق من ابن زيدون في تأثره بأسلوب الجاحظ التهكميِّ الساخر . ويظهر هذا التأثر عنده في رسالتين من رسائله الإخوانية هما : « رسالة في النخلة » ورسالته التي سماها « بالبديعه » .

---

(١) ضخم الهامة : غلظ الرأس وكبرها .

(٢) رسائل الجاحظ : ص ٨٢ .

أما رسالته في النخلة فيذكّرنا أسلوبها الهزليُّ الساخر بأسلوب رسالة « التربيع والتدوير » الجاحظية . في هذه الرسالة يعاتب ابنُ برد بخيلا كنى عنه بأبي عبدالله . كان قد وعده بأن يُهدي اليه قليلاً من جَنَى نخلته ثم أَخلَّ بوعده . وفيما يلي فقرات منها توضح تأثره بالجاحظ في تهكمه وسخريته . قال ابن برد :

« أما بعد : جعلَكَ اللهُ من المؤثرين على أنفسهم والمُوَقَّيْن شُحَّها ، والمنجزين لمواعيدهم والمعَطيْن صدْقَها . فقد علمت ما سلف لنا في العام الفارط من عتابك ، ولَبِسْنا شكّتَه من مَلامَك ، لمّا كتمتنا صِرامَ[1] النخلة التي هي بأرضنا إحدى الغرائب ، وفريدةُ العجائب ، هَرَباً من أن نَلزمَكَ الإسهامَ في رُطَبِها ، وحرصاً على تمام لذة الاستبداد بها ، وقلتَ ، وقد سألناك مِن جَناها قليلا ، ورجَوْنا أن تُنيلَنا منها ولو فتيلا : « لو علمتُ أن لكم به هذا الكَلَف ، واليه هذا النزاع ، لأمسكتُه عليكم ، وجعلت حُكْمَ جَذاذِه[2] اليكم ، ولكنها إن شاء الله في العام الآنف غَلَّتُكم ، عَتادٌ نفيس لكم ، وذُخْرٌ حَبيس عليكم » .

فأما نحن فرَسَمْنا تلك العِدَةَ في سُوَيْداواتِ قلوبنا ، ووَكَّلْنا بها حَفَظَةَ خواطرنا ، وأما أنت فهِلْتَ عليها التراب ، وأسلمتها إلى يد البِلَى . حتى إذا أخذت النخلةُ زُخرُفَها ، وازَّيّنتْ زِينتَها ، وبلغتْ غايتَها ، وأشبعَ القمرُ صَبْغَها ، وأحكمتِ الشمس نُضْجَها ، دَبَبْتَ اليها الضَّراءَ[3] بصَرامِك ، ومشيْتَ نحوها الجهرَ بجِرابك ، على حينِ نامَ السمّارُ ، وغفلَت الجارة والجار ، وأبْتَ[3] بها إيابةَ الأسد بفريسته ، وتحكّمتَ فيها تحكمَه في عُنَيْزته !

---

(١) صرام النخلة : وقت قطع ثمارها .

(٢) جذاذه بفتح الجيم : قطعه .

(٣) دببت اليها الضراء : أي مشيت اليها مستخفيا فيما يواري من الشجر مخاتلة ومكرا .

(٣) أبت بها : عدت ورجعت بها .

ولما رأينا على ذلك طلائع الرُّطَب في الأسواق، والجَنِيَّ من بِكْر النخيل على الأطباق ، هزتْ جوانحَنا ذِكرُ العِدَة [1] ، وقلقل أحشاءَنا حَذَرُ الخيبة ، فركَضْنا الهماليج [2] إلى حُرمتك ، وجعلنا نشتد طمعاً في لقائك... »

وعلى هذا النحو يمضي ابن برد في تصويره الساحر ، حتى يأتي على ذكر حديث الرسول القائل : « نِعْمتِ العَمّةُ لكم النخلة » فيعلق عليه بقوله : « والخطابُ لجميع المسلمين . وأنت قد استوليتَ على عمّة من عمّاتهم ، تستبدُّ بخيرها دونهم ، وتُمسك معروفَها عنهم . ونحن رجالٌ من بني أخيها أتينا نعتفيها [3] ، فإن أنت سَوَّيْتَنا مع نفسك فيما تَدِرُّ به عليك ، وتملأ منه يديك ، وإلاّ نافرناك [4] إلى السلطان ، وألّبْنا [5] عليك أبناء الزمان . ونستغفر الله ونسأله أن يُبَدِّلَنا من بخلك نَوالا ، وبمَطْلِك [6] إعجالا [7] » .

●أما «البديعة » رسالةُ ابن برد الثانية، فهي في تفضيل أُهُبِ [8] الشّاءِ على ما يُفترَشُ من الوِطاء ، وهي بموضوعها وأسلوبها تذكرنا برسالة سهل بن هارون ، أو بمعنى أصح بالرسالة التي كتبها الجاحظ على لسان سهل بن هارون ، في الرد على مَن ذَموا مَذهبَه في البخل.

فابن برد في رسالته « البديعة » يرد على من عابه باستعمال جلود الشّاءِ [9] بأسلوب أشبه بأسلوب الجاحظ في الرد على مَن عاب سهل بن هارون بشدةَ الحرص والتدقيق في التدبير وإنفاق المال .

ولعل في الفقرتين التاليتين ما يوضح مدى التماثل بين أسلوب الكاتبَيْن وطريقةِ تناولهما للموضوع . فابن برد يقول في رسالته « البديعة » :

« جلَّ مالَه عِبْتَ ، وفيه قلتَ ورَدَّدْتَ ، وبه أبدأت وأعدت ، من

---

(١) العدة : الوعد . (٢) الهماليج : جمع هملاج ، وهو البرذون .
(٣) نعتفيها : نطلب فضل رطبها . (٤) نافرناك : حاكمناك . (٥) ألب بتشديد اللام : أثار .
(٦) المطل : التسويف . (٧) الذخيرة : ١ / ٢ ص ٤٤١ .
(٨) جمع إهاب : وهو الجلد . (٩) جمع شاة .

إيثاري في الصيف والشتاء ، أهبَ الشاء ، ومراوحتي منها في البرد والحر ، بين البطن والظهر . وأيٌّ بساط منها أدَلُّ على التواضع وأعربُ عن القناعة ، وأدفأ في السَّبْرة [1] ، وألينُ في المَسِّ ، وأخفُّ في الحَمْل ، وأمكنُ للنَّقْلة ، وأوفقُ لمقدار الحاجة ، وأجدرُ بطول المُتعة ، وأبقَى على حَدَثِ الدهر ، وأغنَى عن تكلُّف التبطين ، ومراعاةِ أوقاتِ الترقيع ، والمحافظةِ على الطيِّ والنَّشْر ؟ [2] » ... الخ

والجاحظ في رسالته على لسان سهل بن هارون يقول : «وعبتموني بخَصْف [3] النِّعال ، وبتصدير [4] القميص ، وحين زعمتُ أن المخصوفةَ أبقَى وأوطأ وأوْقَى ، وأنفَى للكِبْر وأشبهُ بالنُّسْكِ ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماعَ مع الحفظ . والتفرّقَ مع التَّضييع ... فترقيعُ الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلافُ ذلك يجمع مع الإسراف التكبُّر . وقد زعموا أن الإصلاح أحدُ الكَسْبَيْن ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارَيْن [5]»... الخ

*

ومن قبيل الرسائل الإخوانية رسائل الاستغاثة التي كان يوجهها الأندلسيون إلى إخوانهم ملوك المغرب وغير المغرب في العهود الأخيرة ، لعل فيهم مَن يصغي إلى صريخهم فيَمُدَّ لهم يدَ العون ، ضِدَّ عَدوٍّ عقدَ العزم على استئصالهم جميعاً من الأندلس .

ومن أمثلة ذلك الرسالة التي كتبها لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه الغنيّ بالله بن الأحمر إلى سلطان مصر المنصور أحمد بن قلاوون ،

---

(١) السبرة : برد الصباح . (٢) انظر الرسالة كاملة في الذخيرة : ١ / ٢ ص ٤٤٦ .
(٣) خصف النعال : ترقيعها . (٤) تصدير القميص : تبطينه لتقويته .
(٥) كتاب البخلاء للجاحظ : ص ٢٤ .

يُعلِمه فيها بأحوال الأندلس ويطلب منه العون على استحياء .

والرسالة طويلة مسجوعة ، وهي مشحونة بالنعوت والأدعية ، فالكل اسم ومكان ذُكِرَ فيها نعوتٌ وأدعية تصل في كثرتها إلى حد السأم والإملال ، ثم تنتهي أخيراً أخيراً إلى الغرض منها ، فتعبِّر عنه في كلمات يغلب عليها التلميح لا التصريح ، وذلك إذ تقول :

« ... فإن ذمام الإسلام موصول ، وفروعَه تجمعها في الله أصول ... والملّة – والمِنّةُ لله – واحدة ، والنفوسُ لا منكرةٌ للحق ولا جاحدة ، والأَقدار معروفة ، والآمال إلى ما يُوصِّل إلى الله مصروفة . فإذا لم يكن الاستدعاء ، أمكن الدعاء ، والخواطرُ فعّالة ، والكُلُّ على الله عالة ، والدين غريب والغريبُ يَحِنُّ إلى أهله ، والمرء كثيرٌ بأخيه على بُعدِ مَحِلِّه [1] »

– ٣ –

المنـــاظرات

ومن فنون النثر الفنيّ التي خاض فيها كتّاب الأندلس بأقلامهم وأكثروا القول فيها « فنُّ المناظرات » – وهو فنٌّ يهدِف الكاتب من ورائه إلى إظهار مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية في الموضوع الذي يكتب فيه .

ومن المناظرات ما يأتي على صورة رسالة يدور الحوارُ فيها بين شيئين أو أكثر ، أو بين شخصين حول موضوع مُعَيّن ، ومنها ما يأتي على صورةٍ أشبهَ بالمقالة الحديثة ، ويُبنَى على التفاخر والمباهاة بشيءٍ ما ، بقصد الإشادة به ، وبيان فضائله ومَناقبه .

وهذا الفنُّ ليس من مستحدثات الأندلسيين ، فقد سبقهم اليه المشارقة من

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٣٠٠ .

أمثال الجاحظ في رسائله ، وذلك مثلُ رسالتِه في مناقب الترك ، ورسالتِه في فخر السودان على البيضان ، ورسالتِه في مفاخرة الجواري والغلمان .

ومناظرات الأندلسيين التي نحن بصدد الحديث عنها ، منها مناظرات خيالية ، ومناظرات تستمد موضوعاتها من الحقيقة والواقع ولا علاقة لها بالخيال ، وفيما يلي بيانٌ لذلك .

المناظرات الخيـــالية :

ومن مناظرات الاندلسيين الخيالية ما جاءت على صورة رسالة ، ومن ذلك رسالتان لابن برد الأصغر : الأولى موجهة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد العامريّ . وفيها يعقد مناظرة بين السيف والقلم ، والثانية موجهة إلى أبي الحزم بن جهور ، وفيها يُقدِّم الورد ويفضِّله على سائر الرياحين [١] .

ومن ذلك أيضاً رسالة لابن حسَداي في تفضيل النرجس ، ورسالتان أخريان في تقديم البَهار على غيره من الأزهار : إحداهما لأبي عمر الباجيّ ، والثانية لحبيب الحِمْيَريّ . ومن جميع هذه الرسائل التي تعتمد المناظرة والحوار أسلوبَ تعبيرٍ عن موضوعها ، نكتفي هنا بالكلام على رسالة ابن برد في «السيف والقلم» كنموذج لهذا النوع .

* ففي هذه الرسالة يُجري ابن برد المناظرة والحوار بين السيف والقلم ، مُقَدِّماً لذلك بذم الحسد مع الإيحاء بأن شر الحسد ما قام بين الناس . وفي ذلك يقول : « أما بعدَ حمدِ الله بجميع محامده وآلائه ، والصلاةِ على خاتم أنبيائه ، فإن التسابق من جَوَادَيْن سَبَقَا في حَلْبة ، وقضيبَيْن نُسِقَا في تُرْبة ، والتحاسدَ من نجمَيْن أنارَا في أفق ، وسَهْمَيْن صارا على نَسَقٍ ، والتفاخرَ من زهرتَيْن تفتّحتَا من كِمامة ، وبارقتَيْن توَضَّحتَا من

---

(١) انظر رسالة ابن برد الخاصة بتفضيل الود في كتاب نهاية الأرب : ج ١١ ص ١٩٦ .

غَمامة ، لأحمدُ وجوهِ الحسد ، وإن كان مذموماً مع الأبد » .

ثم ينتقل إلى موضوعه فيقول : « وإن السيف والقلم لمّا كانا مصباحَيْن يَهْدِيان إلى القَصْد ، مَن بات يَسري إلى المجد ، وسُلّمَيْن يُلحِقان بالكواكب ، مَن ارتقَى لساميات المراتب .... وشَفيعَيْن لا يؤخّر تشنيعهما ، ومُجتمِعَيْن لا يُفرِّق تجميعُهما ، جرَّرَا أذيال الخيلاء تفاخرا ، وأشمّا بأنف الكبرياء تَنافُرا ، وادّعى كلٌّ واحد منهما أن الفوز لقِدْحه ، وأن الوَرْيَ لِقَدْحِه ... وحين كشف الجدالُ قِناعَه ، ومَدّ الخصامُ ذراعَه .. قاما يتباريان في المقال ، ويتساجلان في الخصال ، ويصف كلٌّ واحد منهما جلالَ نَفْسِه ، ويذكر فضلَ ما اجتنى من غرسه ، ....

فقال القلم : ها ! الله أكبر ! ... خيرُ الأقوال الحق ، وأحمد السجايا الصدق . والأفضل من فضّله اللهُ عزّ وجلّ في تنزيله ، مُقْسِماً به لرسوله ، فقال : « ن . والقلمِ وما يَسْطُرُون » وقال : : « اقرأ وربُّكَ الأكرم الذي علّم بالقلم » فجَلّ من مُقْسِمٍ ، وعزّ من قسَمْ ! فما تَراني وقد حللْتُ بين جَفْنِ الإيمان وناظره ، وجُلْتُ بين قلب الإنسان وخاطره ؟ لقد أخذتُ الفضلَ برُمّتِه ، وقُدتُ الفخرَ بأزِمّته » .

فقال السيف : عَدّنا من ذكر الشريعة ، إلى ذكر الطبيعة ، ومن وصف الملّة ، إلى وصف الخَصلة ، لا أُسِرُّ ولكن أُعلن ، قيمةُ كلِّ امرىء ما يُحسِن . إن عاتِقاً حملَ نجادي لسعيد ، وإن عَضُداً باتَ وِسادي لسديد ، وإن فتىً اتخذني دليلَه لمَهْدِيّ ، وإن امرَأً صيّرني رسيلَه [1] لمَفْدِيّ ، يُشَقّ مني الدُّجَى بمصباح ، ويُقابَل كلُّ بابٍ بمفتاح . أُفصِحُ والبَطَلُ قد خَرِس ، وأبتسِم والأجلُ قد عبَس ، أقضي فلا أُنصف ، وأمضي فلا أُصْرَف . أُزْرِي بالوفاء ، وأهتك اللأْمَةَ [2] هَتْكُ الرِّداء ! » .

وعلى هذا النحو يمضي الحوار ويجيء بينهما مرات ، وفي كل مرة يحاول

(١) رسيله : رفيقه في النضال . (٢) اللأمة : الدرع .

كلٌ منهما أن يَحُطَّ من مناقب الآخر ويُعلي من مناقب نفسه بمثل هذا الأسلوب الرشيق الأنيق ، دون أن يستسلم له .

عندئذ يقول ابن برد : « ولمَّا كثُر تعارضُهما ، وطال تَراوُضُهما ... تبادرا إلى السِّلمِ يعقدانِ لواءها ، وإلى المؤالفة يَرِدانِ ماءها ، وقالا : إن من القبيح أن تَتشتَّتَ أهواؤنا ، وتتفرَّقَ آراؤنا ، وقد جمعنا اللهُ في المأْلَف الكريم ، وأحلّنا بمحَلٍّ غير ذميم ، بأعلى يد نالت آمالها ، ووافت المطالب في أوطانها ، ولم تقابل باباً مُغلقاً إلاّ قرعته ، ولا حجاباً مُضْلِعاً إلاّ رفعته ،... تلك يد الموفّق أبي الجيش مولى المعالي ومُسْتَرِقِّها ، ومستوجب المكارم ومُسْتَحِقِّها .... فإذْ قد عدَل بيننا بحكمه ، يومَ وَغاهُ ويومَ سلْمِه ... ولم يَثنكَ حتى بلغ مُناه ، ولم يثنِي حتى وافق هواه ، ولم يُقصِّرْ بي عن غاية بلّغَكَ إليها ، ولم يُقدِّمْكَ إلى مرتبة أخّرَني عنها .... فأهدَى سبيلٍ نقصدُه ، وأصفَى منْهَل نَرِدُه ، مُؤالَفَةٌ نُجرِّرُ ذَيْلَها ، ونَميل مَيْلَها .... » .

ثم اتفقا أخيراً على أن يُبْرِمَا عَقْداً ، يستظهر به بعضُهم على بعض ، «فقد يَدِبُّ الدهرُ بعقاربه ، بين المرء وأقاربه» وعلى أن يكون ذلك العَقد أو المعاهدة شعراً لا نثراً ، لأن « الشعر شَدْوُ الحادي ، وزاد الرائح والغادي » .

وعلى هذا وطبقاً لما تعاقدا عليه يختم ابن بُرد رسالته بقصيدة مدح لمجاهد العامريّ يقول في مستهلها :

قد آنَ لِلسيف ألاّ يَفضُلَ القلما ... مُذْ سُخِّرَا لفتىً حازَ العُلا بهما
إن يُجتنَى المجدُ غَضّاً مِن كمائمه ... فإنما يُجتنَى من بعض غَرْسِهما
ما جارَيَا أملاً أو وافيَا أمَداً ... إلاّ وكانت خصالُ السَّبْق بينهما

ثم يختمها بقوله :

يا أيّها الملك السّامِي بهمَّتِه ... إلى سماءِ عُلاً قد أَعْيَتِ الهِمَما

لولا طِلابي غريبَ المَدحِ فيك لما ... وصفتُ قبلَ عُلاك السيفَ والقلما
وإنما كان تعريضاً كشَفتُ به ... من البلاغة وَجْهاً كان مُلْتَثِما[1] ».

وبعد ، فهذه الرسالة كما يقول ابن برد في مدح مجاهد العامري ، ومعانيها كما يبدو مستوحاة من واقع الحال في عصر الطوائف ، حيث كان التميُّز فيه للجند ، لا لأهل الفكر .

ومع أن موضوع الرسالة هو المدح ، فإننا نلمح في ثناياها شكوى مُبطَّنة من هذه التفرقة ، لم يشأ الكاتب أو لم يستطع أن يصرِّح بها ، وإنما رمز بالسيف فيها لرجال الجيش وبالقلم لأرباب الفكر ، ثم أجرى الحوار بينهما ، وانتهى فيه بالإيحاء إلى ضرورة العدل في المعاملة بين الطائفتين ؛ لأن الدول إنما تبقى وترقى ، طالما كان هناك تضافر بين رجال السيف وأرباب القلم ، ولن يتحقق ذلك إلاّ بالعدل بينهما في الرعاية والتقدير .

المناظرات غير الخيالية :

وهذا النوع من المناظرات منه ما يدور حول الإشادة والفخر بمناقب الأندلس ، وتفضيلها على ما عداها في كل شيء ، ومنها ما تجري المناظرة فيه بين مدن الأندلس ، حيث تفخر كل مدينة بما خصّها الله به من مزايا ومحاسن لا توجد في غيرها .

ومن ذلك رسالة للوزير أبي محمد عليّ بن حزم المتوفي سنة ٤٥٦ هـ ، يبيِّن فيها فضائل علماء الأندلس ، ويرد بها على رسالة لابن الربيب القيرواني ذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسِيَرِ ملوكهم [2] .

---

(١) انظر رسالة السيف والقلم كاملة في الذخيرة : ١ / ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) نفح الطيب : ج ٤ ص ١٥٤ .

ومنها مناظرة قامت بين أبي الوليد إسماعيل الشقندي المتوفي سنة ٦٢٩ هـ ، وأبي يحيي بن المعلم الطنجي ، فضل الأول فيها الأندلس ، وفضّل الثاني برّ المغرب [(١)] .

ومنها أيضاً رسالة أديب الأندلس أبي بحر بن إدريس إلى الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ ، والتي بناها على مناظرة بين مدن الأندلس ، تقول كل مدينة فيها : أنا أحق بالأمير وأولى . [(٢)]

* فإذا أخذنا الرسالة الأخيرة كنموذج لهذا النوع من المناظرات ، فإننا نرى أبا بحر بن إدريس يستهلّ رسالته بدعاء للأمير مسجوع يقول فيه : « مولاي ، أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه ، كما ضم على حُبك أحناءَهم [(٣)] وأحناءَه ، وأوصل لك ما شئت من المَنّ والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لَبَّة الدهر نظم الجمان ... ألبستَ الرعية بُرود التأمين ، فتنافست فيك من نفيس ثمين ... فكم للناس ، من أَمْنٍ بك وإيناس ، وللأيام ، من لوعة فيك وهيام ، وللأقطار ، من لُبانات لديك وأوطار . وللبلاد ، من قِراع على تملُّكِك لها وجِلاد ، .... ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوف على حُبِّك والاقتصار ، كلُّها يُفصح قولا ، ويقول : أنا أحق وأولى ، ويُصيخ إلى إجابة دعوته ويُصغي . ويتلو إذا بُشِّر بك : ذلك ما كنا نبغي ، تميّزت حِمص ُغيظاً [(٤)] ، وكادت تفيظ فيظاً [(٥)] ، وقالت :

« ما لهم يَزيدون ويَنقُصون ، ويَطمعون ويَحرِصون ؟ إنْ يتّبعون إلاَّ الظنَّ وإن همْ إلاَّ يخرُصون [(٦)] . ألَهُم السّهمُ الأسَدّ ، والسّاعدُ الأشدّ ، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمد ؟ أنا مصرُ الأندلس والنيل نهري ، وسمائي التأنُّس والنجوم زَهري . إن تجاريتم في ذلك الشرف ، فحسبي أن

---

(١) نفح الطيب : ج ٤ ص ١٧٧ .
(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ١٥٩ .
(٣) الأحناء : الصدور ، واحدها حنو .
(٤) تميزت غيظا : تمزقت بسبب غيظها .
(٥) كادت تفيظ فيظا : كادت تموت موتا .
(٦) يخرصون : يكذبون .

أُفيضَ في ذلك الشرف [1] ، وإن تبجّحتم بأشرفِ اللبوس ، فأيُّ إزارٍ اشتملتموه كشنتبوس ؟ لي ما شئت من أبنية رحاب ، وروض يُستَغنَى بنُضْرته عن السحاب ، قد ملأتْ زهراتي وِهاداً ونِجادا ، وتوشّح سِيفُ [2] نهري بحدائقي نِجادا ، فأنا أَوْلاكم بسيدنا الهمام وأحقّ ، الآن حَصْحَص الحق » .

فنظرتها قرطبةُ شَزْرًا [3] ، وقالت : لقد كثّرتِ نزْرا [4] ، وبذرتِ في الصخر الأصمّ بِزرا ، كلام العِدَى ضربٌ من الهَذَيان ، وأَنّيَ للإيضاح والبيان ؟ متى استحال المستقبَح مُستَحْسَنا؟ ومَن أودعَ أجفان المهجور وَسَنا؟.... إن ادّعيتم سَبْقا ، فما عند الله خير وأبقَى . لي البيت المطهّر الشريف ، والاسم الذي ضرب عليه رِوَاقَه التعريف ، في بقيعي محلُّ الرجال الأفاضل ، فلْيرغم أنفُ المناضل ، وفي جامعي مَشاهدُ ليلة القدر ، فحسبي من نَبَاهة القدر ، فما لأحد أن يستأثر عليّ بهذا السيد الأعلى ، ولا أرضى له أن يُوطِيء غيرَ تُرابي نعلاً ، فأقِرُّوا لي بالأبوّة ، وانقادوا لي على حُكْم البُنوّة ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة ، وكُفُّوا عن تباريكم ، ذلكم خيرٌ لكم عند باريكم [5] » .

ثم يأتي بعد ذلك على التوالي دَوْر خمس مدن أخرى هي : غَرناطة ، ومالَقة ، ومُرسية ، وبَلنسية ، وتُدمير ، فتُباهي كل واحدة منها بمحاسن بها ترى أنها أحقُّ وأولَى ، بهذا السيد الأعلى ، وإلى هذا الحد تنتهي المناظرة ، فيختم الكاتب الرسالة كما بدأها بدعاء طويل مسجوع للأمير .

---

(١) الشرف الأول : رفعة القدر وعلو المنزلة ، والشرف الثاني : بلد بحذاء إشبيلية يحتوي على قرى كثيرة عليه أشجار الزيتون ، وإذا أراد أهل إشبيلية الافتخار قالوا : الشرف تاجها ، لكثرة خيره .

(٢) سيف النهر بكسر السين : ساحله وشاطئه .

(٣) نظرتها شزرا : أي نظرتها بإعراض كنظر المعادي المبغض ، وأكثر ما يكون النظر الشرز في حال الغضب .

(٤) النزر : الفاقة ، والمعنى صيرت القليل كثيرا .

(٥) نفح الطيب : ج ١ ص ١٥٩ .

ولما كان صاحب هذه الرسالة من كتّاب عصر الموحدين . فإنها تمثل حالة النثر الأندلسيّ في هذا العصر الذي غلبت على الكتّاب فيه طريقة القاضي الفاضل بكل سماتها وخصائصها . وما من شك في أنها من الناحية الفنية أقلُّ مستوًى من رسالة ابن برد في السيف والقلم .

— ٤ —

المقامات الأندلسية

المقامة لغة : المجلس ، والسادة . ويقال للجماعة من الناس يجتمعون في مجلسٍ « مقامةٌ » كذلك . ومقاماتُ الناس مجالسُهم .

وقد استعمل لبيد بن ربيعة « المقامة » بمعنى الجماعة من الناس ، وذلك إذ يقول :

ومقامةٍ غُلْبِ الرقاب كأنهم ... جِنٌّ لدى باب الحصير قيامُ (١)

واستعملها زهير بن أبي سلمى بمعنى « السادة » في قوله :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهم ... وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ

ذلك كان مفهوم « المقامة » في الجاهلية ، ثم تطور هذا المفهوم حتى أصبحت « المقامة » تعني « الأحدوثة من الكلام » . يقول القلقشنديّ : « وسُمِّيت الأحدوثة من الكلام مقامة ، كأنها تُذكَر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها (٢) » .

ويحدثنا القلقشنديُّ كذلك عن نشأة « المقامة » كفَنٍّ من فنون النثر العربيّ فيقول : « واعلم أن أول مَن فتح عمل المقامات ، علاّمةُ الدهر وإمامُ الأدب

---

(١) غلب الرقاب غلاظ الرقاب والأعناق ، يقال : عنق ، أغلب ، أي غليظ . والحصير هنا : الملك
(٢) صبح الأعشى : ج ١٤ ص ١١٧ .

البديع الهمذانيُّ « ٣٩٨ هـ » ، فعمل مقاماته المشهورةَ المنسوبة اليه ، وهي في غاية البلاغة ، وعُلوِّ الرتبة في الصنعة ، ثم تلاه الإمامُ أبو محمد القاسمُ الحريريُّ « ٥١٦ هـ » فعمل مقاماته الخمسين المشهورة ، فجاءت نهايةً من الحُسْن ، وأقبل عليها الخاص والعام[1] » .

وعن سَبْق بديع الزمان في باب « المقامات » وتأثر الحريريِّ به في هذا الفن يقول ابن خلكان : « بديع الزمان هو صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة ، وعلى مِنواله نسجَ الحريريُّ مقاماته ، واحتذَى حَذْوَه واقتفَى أثرَه ، واعترف في خطبته بفضله ، وأنه هو الذي أرشده إلى سلوك هذا النهج[2] » .

كذلك يحدثنا ابن خلكان عن الحريري بقوله : « وكان — الحريري — أحدَ أئمةِ عصره ، ورُزِقَ الحظوة التامة في عمل المقامات ، واشتملت على شيء كثير من كلام العرب ، من لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها . ومَن عرفهاحَقَّ معرفتها استدلَّ بها على فضل هذا الرجل، وكثْرة اطلاعه وغزارة مادته[3] » .

مما تقدم يُرَى أن « المقامات » طراز من النثر الفنيّ ، ظهر أولا في المشرق على يدِ بديع الزمان الهمذانيّ، ثم حَذَا الحريريُّ حَذْوَه فيه ، وعن طريقهما انتشرفي شتى البيئات العربية ، ومنها بيئةُ الأندلس .

والمقامة كما وضع تقاليدَها بديعُ الزمان ونسج على منوالها الحريريُّ : هي قطعة من النثر الفنيّ على صورة حكاية قصيرة، تنتهي في مغزاها إلى عبرة أو عظة أو طُرْفة ، يَرويها شخص واحد خياليٌّ لا يتغير ، هو عيسى بن هشام عند بديع الزمان ، وهو الحارث بن همّام عند الحريريِّ . وبطلُ كلِّ حكاية

---

(١) صبح الأعشى : ج ١٤ ص ١١٧ .
(٢) وفيات الأعيان : ج ١ ص ٥٤ . (٣) المرجع السابق : ص ٥٩٨ .

شخصٌ آخر خياليٌّ أيضاً ، هو أبو الفتح الإسكندريُّ في مقامات بديع الزمان ، وهو أبو زيد السَّرُوجيُّ في مقامات الحريريّ . وأبرزُ صفات البطل في مقامات هذين الأديبين هي : البلاغة والفصاحة ، وحلاوة النادرة ، وسرعة الخاطر ، وسعة الحيلةُ والكُدية ، أي الإلحاح في الاستجداء وسؤال الناس .

ولم يمض طويلُ عهدٍ بعدَ البديع والحريريّ حتى ظهر من المشارقة مَن خرج بالمقامة عن رسومها المعروفة عندهما ، وراح ينظر اليها على أنها قطعة من النثر المسجوع ، يتأنّق الكاتب في لغتها وأسلوبها وصياغتها الفنية ، وتشتمل في الوقت ذاته على موعظة أخلاقية ، وبذلك صارت أقرب إلى المقالة منها إلى المقامة .

ولعل مقامات الزمخشريّ خيرُ ما يمثّل هذا الاتجاه ، فليست فيها شخصيات تَرْوِي أو يُرْوَى عنها ، وليس فيها كُدْيَةٌ أو استجداء ، وكلُّ ما أبقت عليه من رسومِ مقاماتِ البديع والحريريّ هو الموضوعُ الذي قصره الزمخشريُّ على الزهد والنصائح ، وجمالُ الأسلوب المسجوع الذي لا تكلف فيه . ومن أمثلة ذلك قوله في « مقامة المراشد » مخاطباً نفسَه :

« يا أبا القاسم : إن خصال الخير كتُفّاح لُبْنان ، كيفما قلّبْتَها دعَتْك إلى نفسِها ، وإن خصالَ السُّوء كحَسَك السّعْدان [1] أنيَّ وجّهْتَها نهتْك عن مَسِّها . فعليك بالخير إن أردتَ الرُّفولَ [2] في مَطارف [3] العزِّ الأقْعَس [4] ، وإياك والشرَّ فإن صاحبَه مُلْتفٌّ في أطمار [5] الأذَلِّ الأتْعَس [6] » ... الخ

---

(١) حسك السعدان : شوكه ، والسعدان نبات ينمو متفرشا على الأرض .

(٢) الرفول في الثوب الضافي : التبختر فيه .

(٣) المطارف : جمع مطرف بضم الميم وفتح الراء : ثوب من خز مربع له أعلام .

(٤) الأقعس : الثابت .

(٥) الأطمار : جمع طمر : وهو الثوب البالي الخلق بفتح الخاء واللام .

(٦) مقامات الزمخشري : ص ١١ .

وقد تأثر كثير من الكتاب في جميع العصور بالمقامات ، فمنهم مَن احتذاها ونسج على منوالها ووقف بها عند الحد الذي رسمه لها البديع والحريريّ، ومنهم مَن تحرَّر بعضَ الشيء ، ونحا بها مَنحَى الزمخشريّ ، ولكنهم جميعاً عُنُوا بالصياغة والأسلوب وإظهارِ المقدرة البلاغية ، وبذلك جمّدت المقامة ولم تتطور مع الزمن .

ولو أنهم نَوَّعُوا في موضوعاتها ، وتفنّنوا في مضمونها بمقدار تفنُّنهم في براعة الأسلوب والصناعة اللفظية ، لكان من الممكن أن تكون هذه المقاماتُ نواةً وأساساً لبناء القصة القصيرة في الأدب العربيّ .

∴

هذا عن نشأة « المقامات » التي استحدثها المشارقة في القرن الرابع الهجريّ ، وأضافوا بها إلى فنون النثر العربيّ فناً جديداً .

أما عن انتقال هذا الفن إلى الاندلس منذ ظهوره ، فيحدثنا عنه الدكتور أحمد مختار العبّادي [1] بما ملخصه أن الأندلسيين سرعان ما عرفوا فنَّ المقامات عن طريق مَن رحلوا منهم إلى الشرق في ذلك الوقت طلباً للعلم ، فقد درسوا هذا اللون الجديد من الأدب في جملة ما درسوه من العلوم والفنون ، ثم عادوا إلى بلادهم مُحَدِّثين به ناشرين إياه بين مواطنيهم .

فمقامات البديع الهمذاني ورسائله انتشرت بوجه خاص أيامَ ملوك الطوائف بالاندلس ، حيث قام بعض أدباء ذلك العصر بمعارضتها وتقليدها ، فيروي ابن بسام أنه في أيام المعتضدبن عَبَّاد « ٤٣٤ — ٤٦١ هـ » وضع الأديب أبو عبدالله محمد بن شرف القيرواني مقامات «عارض بها البديع في بابه، وصبَّ فيها على قالبه [2] » .

---

(١) انظر مقال الدكتور العبادي بعنوان « مقامة العيد » بمجلة المعهد المصري بمدريد : ص ١٥٩ سنة ١٩٥٤ .

(٢) الذخيرة : ٤ / ١ ص ١٥٤ .

ويروي ابن بسام كذلك أن الشاعر أبا المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفي حوالي عام « ٤٢٠ هـ » عارض رسالةً لبديع الزمان في وصف غلام [١] .

وفي موضع آخر أورد ابن بسام أجزاء من مقامتين : إحداهما لأبي حفص عمر الشَّهيد [٢] ، والأخرى لأبي محمد بن مالك القرطبيّ . [٣] وكلا الأديبين عاشا في عهد المعتصم بن صُمادح بالمَرِيّة « ٤٤٣ — ٤٨٤ هـ » .

وفي أوائل عهد المرابطين بالأندلس ظهرت مقامات الحريريّ بالمشرق . ثم لم تلبث أن انتشرت بالمغرِب انتشاراً كبيراً ، وعُنِيَ بها في حياة مؤلفها نفسِه . فيروي ابن الأبّار أن كثيراً من الأندلسيين سمعوا من الحريريّ مقاماتِه الخمسين في بُستانه ببغداد ، ثم عادوا إلى بلادهم حيث حدَّثوا بها عنه ، ونذكر من هؤلاء الحسنَ بنَ عليٍّ البطليوسيّ « ٥٦٦ هـ » وأبا الحجاج يوسفَ القُضاعيّ الأنديّ « ٥٤٢ هـ » .

وبعد موت الحريري استمرت مقاماتُه تُدْرَس على يد تلاميذه الذين أجازهم بالرواية عنه ، منهم ابنه أبو محمد ، والأدباء : أبو القاسم عيسى بن جهور بقرطبة ، وأبو الحجاج القُضاعي السابق الذكْر بالمَرِيّة وغيرهم .

فعلى هؤلاء ومن رَوَى عنهم درس الأندلسيون أيام المرابطين والموحدين مقاماتِ الحريريّ ، ولم يكتفوا بدراستها وروايتها فحسب ، بل تناولوها بالشرح والمعارضة بطريقة أثبتت مقدرتهم في هذا اللون من الأدب .

وممن تأثر بمقامات الحريري الأديب أبو طاهر محمد التميمي السرقسطي المتوفي بقرطبة سنة ٥٣٨ هـ ، فله « كتاب الخمسين مقامة اللزومية » وهي المعروفة « بالمقامات السرقسطية » وقد عارض بها مقامات الحريريّ الخمسين ،

---

(١) الذخيرة : ١ / ١ ص ١١٧ .

(٢) المرجع السابق : ١ / ٢ ص ١٨٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٤٦ .

ولزم في نثرها المسجوع ما لا يَلزَم ، ولعلَّه كان في ذلك متأثراً بالمعريّ في لُزومِيَّاته [١] .

كذلك يشير ابن الأبّار إلى أن الأديب محارب بن محمد الوادي آشي الذي عاش في القرن السادس وضع مقامة في مدح القاضي عياض بن موسى السبتي [٢] « ٥٤٤ هـ » وأن الأديب أبا عبدالله محمد بن القرطبي اللبلي وضع مقامة سماها « المقامة العياضية الغزلية[٣] » ، وذكر المقّري أن الفقيه عبد الرحمن بن القصير « ٥٧٦ هـ » كانت له مؤلفات كثيرة منها خطب ورسائل ومقامات [٤] .

واستمر الأندلسيون يزاولون كتابة المقامات حتّى أواخرِ عهدهم بالأندلس أي إلى أيام بني الأحمر في غَرناطة . ومن كتّاب هذا العصر ممن لهم مشاركةٌ في هذا الفن الوزير لسان الدين بن الخطيب « ٧٧٦ هـ » فله مقامات عديدة منها : معيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار ، [٥] وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف [٦] ، ومقامة السياسة .

ثم هناك في ذلك العصر غيرُ لسان الدين أديبُ الأندلس الفقيه عمر الزجّال ، فله مقامة ساسَانيّة [٧] سمّاها « تسريح النِّصَال إلى مقاتل الفُصَّال » وهي عبارة عن قصيدة نونية طويلة من ٨٣ بيتاً وطّأَ لها بنثر وجعل الجميع مقامة ساسانية يغلب عليها المجون . ويقول المقريّ إنها كانت عند العامة محفوظة وعند الخاصة مرفوضة [٨] .

---

(١) مخطوط بالفاتيكان رقم : ٣٧٢ ، وباستانول رقمي : ١٩٢٨ ، ١٩٣٣ .
(٢) ابن الأبار : التكملة : ص ٤٠٧ (رقم ١١٧٣) . (٣) المرجع السابق : ص ٢٣٣ رقم (٧٦٢)
(٤) أزهار الرياض للمقري : ج ٣ ص ١٥ .
(٥) هذه المقامةعبارة عن وصف لأهم مدن المغرب الأقصى ، مع وصف ٣٤ مدينة من مملكة غرناطـــة .
(٦) وهي عبارة عن وصف رحلة تفتيشية قام بها السلطان الغرناطي أبوالحجاج يوسف (٧٣٣ـ ٧٥٥هـ) في أنحاء المملكة الغرناطية مصطحبا معه وزيره ابن الخطيب .
(٧) ساسان آخر ملوك الفرس ، وقد جرت عادة الأدباء أن يسموا أهل الكدية بأبناء ساسان ، نسبة الى رجل اسمه ساسان ، كان حاذقا في الاستعطاء ، دقيق الحيلة في الاستجداء
(٨) نفح الطيب : ج ٦ ص ٣٤٥ .

ومن كتّاب المقامات في القرن الثامن أيضاً الشاعر الأديب الغرناطي أبو محمد عبدالله بن إبراهيم الأزدي المتوفي سنة ٧٥٠ هـ، والمعروف بابن المرابع. فله مقامة ساسانية تدعى « مقامة العيد » كتبها إلى حاكم مالَقة الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر يستجديه أُضْحِيةً بمناسبة العيد (١) .

ولم يؤثّر فن المقامات في الأدب الاندلسيّ فحسب، بل أثّر أيضاً عن طريقه في الأدب الإسباني العبريّ وربما المسيحيّ كذلك ، وهناك من العرب والمستشرقين الإسبان من أثبت بدراسته هذا التأثُّر . (٢)

⁂

ومن دراسة المقامات الأندلسية التي انتهت إلينا تتجلّى عِدَّةُ حقائق عن أنماط هذه المقامات وطبيعتها . فمن كُتّاب المقامة الأندلسية مَن اقتَفوا أثر بديع الزمان أو الحريري في معظم رسوم مقاماته ، وهؤلاء هم القِلّة . أما الغالبية العظمى منهم فقد خرجوا بالمقامة إلى صورة أشبه بالرسالة . أو بما نسميه حديثاً بالمقالة ، ولم يُبقوا على شيء من تقاليد المقامة المعروفة غيرِ عنصر السجع الملتزم وعنصر الكدية والاستجداء في المقامات الساسانية . والمقامات التي بُنِيت على المدح .

ومن الحقائق أيضاً أننا لا نجد بين أدباء الأندلس مَن تفرَّغ للمقامة وعُرِف بها معرفةَ البديع أو الحريري ، اللهم إلا السرقسطيّ الذي عارَض مقامات الحريريّ الخمسين « بكتاب الخمسين مقامة اللزومية » أما مَن عداه فلا نجد للواحد منهم إلاّ مقامة أو مقامتين أو بضع مقامات .

ولا تخرج موضوعاتُ ما هو معروف من مقاماتهم عن : النقد الأدبيّ ، والسياسة ، والمدح ، والهجاء ، والغزل ، والمجون ، ووصف المدن أو

---

(١) انظر هذه المقامة في مجلة المعهد المصري بمدريد : ص ١٦٨ سنة ١٩٥٤ .

(٢) المرجع السابق .

الرحلات . وسوف يتضح ذلك في عرضنا التالي لبعض ما وصل الينا من هذه المقامات .

⁂

مقامة أبي عبدالله محمد بن شرف القيرواني :

لابن شرف القيرواني مقامات عارض بها البديع في بابه ، وصب فيها على قالبه ، ومنها المقامة التي نحن بصدد الحديث عنها ، وهي مقامة فيها بعض طول ، لكنه غير مملول ، وموضوعها النقد الأدبي لطائفة من الشعراء .

وينبئنا ابن شرف في مستهل مقامته هذه أنه ضمه وشخصا يُدعَى « أبا الريّان» مجلس ذكرا فيه الشعراء ومنازلهم في الجاهلية والإسلام فقال أبو الريّان: عددُ الشعراء أكثر من الإحصاء، وأشعارُهم أبعدُ من شُقّة[1] الاستقصاء . فقال له ابن شرف : لا أُعْنِتُك بأكثر من المشهورين ، ثم سمّى له نحو ستين شاعراً من شعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسي ومنهم بعضُ شعراء الأندلس .

فقال أبو الريّان : لقد سمّيْتَ المشاهير ، وأبقيت الكثير . فقال ابن شرف : بلى ، ولكن ما عندك فيمن ذكرت ؟

عندئذ بدأ أبو الريّان يبدي رأيه فيمن سَمّاهم ابن شرف من الشعراء . وفيما يلي ثلاثة نماذج من هذا النقد توضح طبيعته وأسلوبه :

* قال أبو الريّان في امرىء القيس : « الضلّيلُ مؤسس الأساس ، وبُنيانُه عليه الناس . كانوا يقولون « أَسيلَةُ الخد » حتى قال « أسيلةُ مَجرَى الدمع » . وكانوا يقولون « تامّةُ القامة ، وطويلةُ القامة ، وجَيْداءُ وتامّةُ العنق » حتى قال « بعيدةُ مَهْوَى القُرْط » .

(١) طول

وكانوا يقولون في الفرس السابق « يلحق الغزال والظليم » وشِبْهَه ؛ حتى قال « قَيْدُ الأوابد » . ولم يكن قبلَه مَن فَطِنَ لهذه الإشارات والاستعارات غيرَه فامتثلوه بعده ، وكانت الأشعار قبلُ سواذج ، فبقِيَتْ هذه جُدُداً وتلك نواهج ، وكل شعر بعدُ ما خلاها فغير رائق النسج ، وإن كان مستقيم النهج » .

* وقال في البحتريّ : « وأما البحتريّ : فلفظُه ماءٌ ثَجّاج [1] ، ودُرٌّ رَجْراج ، ومعناه سراج وَهّاج ، على أهدَى مِنهاج . يَسبِقُه شعرُه ، إلى ما يجيش به صدرُه ، يُسْرَ مُراد ، ولِينَ قياد . إن شربتَه أرواك ، وإن قَدَحْتَه أَوْرَاك . طبعٌ لا تكلُّفَ يُعْنِيه ، ولا العنادُ يَثْنيه ، لا يُمَل كثيرُه ، ولا يُستكَفُّ غزيره ، لم يَهِفُ أيامَ الحُلُم ، ولم يَصِفْ زمنَ الهَرَم » .

* وقال في ابن عبد ربه : « وأما ابنُ عبدِ رَبِّه القرطبيّ : وإن بَعُدَتْ عنّا ديارُه ، فقد صَاقَبَتْنا أشعارُه ، وَوقفنا على أشعار صَبْوَته الأنيقة ، ومُكَفِّراتِ تَوْبته الصدوقة ، ومدائحه المروانية ، ومطاعنه في العبّاسية . وهو في كل ذلك فارسٌ ممارس ، وطاعن مُداعِس [2] . وأطلعَنا في شعره على علم واسع ، ومَادّةِ فهمٍ مضيء ناصع . ومن تلك الجواهر نظمَ عِقْدَه ، وتركه لمن تجمّلَ بعدَه » .

وعلى هذا النحو مضى أبو الريّان يُبدي رأيه في مَن ذُكِر له مَن الشعراء حتى استوفاهم جميعاً ، ثم ختم كلامه بقوله : « هذا ما عندي في المتقدمين والمتأخرين ، على احتقار المعاصر ، واستصغار المجاور ، فحاشَ لله من الاتصاف بقلة الإنصاف ، للبعيد والقريب ، والعدو والحبيب » . فقال ابن شرف : يا أبا الريّان ، وُقِيتَ مُرورَ الحدَثان . فلقد سُكِبتْ فهما . وحُشِيتَ علماً [3] » . وإلى هنا تنتهي المقامة .

---

(١) ثجاج : شديد الانصباب .

(٢) مداعس : طعان بتشديد العين .

(٣) الذخيرة : ٤ / ١ ص ١٥٤ .

ذلك نموذج من أسلوب ابن شرف القيرواني ، ومن آرائه النقدية في بعض مشاهير شعراء الجاهلية والإسلام التي أطلقها على لسان أبي الريان . ولسنا هنا لنناقش هذه الآراء أو نعلق عليها ، لأن المقام مقامُ عرضٍ وتأريخ لا مقام نقد وتعليق . ولابن شرف مقامة أخرى يغلب عليها المجون ، ويمكن من شاء الرجوعُ اليها في الذخيرة [1] .

مقامة أبي المطرف عبد الرحمن بن فَتُوح :

أوردها ابن بسّام في ذخيرته على أنها حديث من أحاديث ابن فَتُوح عن نفسه ولم يُسمّها مقامة ، مع أنها لا تخرج عنها في طابعها ورسومها . وقد بُنِيَت ، كمقامة ابن شرف السابقة ، على موضوع « النقد الأدبيّ » ولكن النقد فيها مقصور على شعراء الأندلس وحدَهم .

في هذه المقامة يقص ابن فَتُوح حادثة وقعت له ، وهو يطوف بالمسجد الجامع بالمَرِيّة ذات ليلة من رمضان سنة ٤٣٠ هـ . وخلاصة الحادثة أنه كان أثناء طوافه يردّد بيتاً من الشعر ، فسمعه فتىً حسَنُ المنظر ، فسلّم عليه سلاماً ارتاحت له نفسُه ، فردَّ عليه ردَّ مَن توسم فيه الفهم ، فقال له الفتى : « بحُرمة الأدب الاّ أعدْتَ عليّ البيت » فأعاده وأنشده سائر الأبيات ، فقال : الشعر إثْم ، وأنت إنما أخذته من قول العباس بن الأحنف :

وأحسنُ أيام الهوَى يومُكَ الذي تُروَّعُ بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سُخْط ولا رِضاً فأين حلاواتُ الرسائل والكتْب ؟

ثم سأله عن السبب الموجب لترديده البيت ، فأخبره أن ذلك كان لفراق حبيب مُولَع بخلافه ، فدعا له الفتى بقوله : « قلّب الله لك قلبَه ، وجنّبك عَتْبُه » ثم ولّى عنه « وقد غرس في كبده ثمرةَ وُدّه » .

---

(١) الذخيرة : ٤/١ : ص ١٦٥ .

وإلى هنا يحكي ابن فَتُوج قائلاً : « فبِتُّ الليلةَ مستأنساً بخياله ، جذلانَ بوصاله ، حتى رأيت غُرَّة الفجر .... ، فلم ألبث أن سمعته ينْشُد ويطلب منزلي ، فقرع الباب وأذنت له فدخل ، فرحَّبْتُ به ، وقمتُ اليه ، وأقبلتُ عليه ، فقال لي : يا ابن الكرام ! إن هذا يومٌ قد بكى ماءُ غيمه ، ونبضَ عِرْقُ بَرْقِه ، وخفق قلبُ رعده ، وأغْرَوْرَقَتْ مُقلةُ أُفُقِه ، ونحن لا نجد الخمر ، ففيمَ نقطع تأويبَه [1] ؟ فقلتُ : الرأيُ إلى سيدي أبقاه الله ، فقال لي : كيف ذِكْرُك لرجال مصرك ، ووقوفُك على شعراء عصرك ؟ قلت : خيرُ ذِكْر . فقال : مَن أعذبُهم لفظاً ، وأرجحُهم وزناً ؟ قلت : الرقيقُ حاشيةِ الظرف ، الأنيقُ ديباجةِ اللطف ، أبو حفص بن بُرْد . قال : فمَن أقواهم استعارات ، وأصحُّهم تشبيهات ؟ قلت : البحرُ العجّاج ، والسراج الوهّاج ، أبو عامر بنُ شُهَيْد . قال : فمَن أذكرُهم للأشعار ، وأنظمهم للأخبار ؟ قلت : أبو الوليد بنُ زيدون . قال : فمن أكلفُهم بالبديع ، وأشغفُهم بالتقسيم والتتبيع [2] ؟ قلت : « الراتعُ في روضة الحسَب ، المستطيلُ بمَرْجِه الأدب ، أبو بكر يحيى بن إبراهيم الطُّبْنِي ، فأنشد :

وخاطبَ قُسّاً في عكاظٍ مُحاوِراً على البُعد سَحبانُ فأفحَمه قُسُّ [3]

مقامة أبي حفص عمر بن الشَّهيد :

ومقامة ابن الشَّهيد هي في وصف رحلة قام بها هو وبعض إخوانه في رُفقة الفقيه ابن الحديد . وهذه المقامة لم تصل الينا كاملة ، وإنما أورد ابن بسام بعض فصولها وحذف بعضها الآخر لطولها .

وقد صدَّرها بنُبذة عن صنعة الكتابة بيّن فيها قيمتها وفائدتها الخاصة

---

(١) نقطع تأويبه : نمضي وقته .

(٢) التتبيع والاستتباع : هو أن يذكر الناظم أو الناثر معنى مدح أو ذم أو غرض من أغراض الشعر ، فيستتبع معنى آخر من جنسه يقتضي زيادة في وصف ذلك المعنى .

(٣) الذخيرة : ١/٢ ص ٢٨٦

والعامة ، وعن ذلك يقول : « إن صنعة الكتابة مِحنة من المِحَن ، ومِهنة من المِهَن ، والسعيدُ مَن خدمتْ دولةَ إقباله ، والشقيُّ مَن كانت رأسَ ماله ، والعاقلُ مَن إذا أخرجها من مثالبه ، لم يُدخلها في مناقبه ، لا سيما وقد تناولها يدُ كثير من السُّوَق [1] ، وباعوها بيعَ الخَلَق ، فسلبوها تاجَ بهائها ، ورداءَ كبريائها ، وصيّروها صناعةً يكاد الكريم لا يُعيرها لحظة ، ولا يُفرغ في قالبها لفظة ، إذ الحظ أن يَعثُر الكرام إذا وَليَ الأعلاج ، وأن تستنعج الآسادُ إذا استأسدت النعاج ، .... وما عسى أن يصنع ذو مكانة وحَسَب ، إذا اتفق يومُ سرور وطرب ، ورغِبَ رغبةَ كريم ، أن يُؤرِّخ له بمنثور ومنظوم ؟ » .
ثم ينتقل من ذلك إلى وصف البايغ وما يجده من تعب وعناء في مهنته ، فيشبهه بالجوهريِّ مرة ، وبالصائغ مرة أخرى . وبالعُقاب مرة ثالثة .

ثم يدخل في وصف الرحلة فينبئنا بأنها كانت في زمن الربيع الذي فيه « قامَ وزنُ الزمان واعتدل ، وأخذ آذارُ على ما اعتاد ، فحَلّى الوِهادَ والنِّجاد ، وخلع على ظهور المروج ، ضروب الدبابيج ، وأثقلَ صدور الأشجار ، بحُلَى النوّار ، واطّبَى [2] نفوس الأطيار ، بنضارة الثمار ، فبعثتْ أشجانها ، تُرَجِّع ألحانها ، فما شئت من رُمّان تملأ كفَّ العميد من أمثال النهود ، تحت القلائد والعقود ، وتَفتّقُ عن أمثال الجَمْر ، إن وُصِفَتْ فكاللّثات الحُمْر ، أو ارتُشِفت فكالرُّضاب الخَصِر [3] أو الخمر ..»... الخ

وتبدأ الرحلة في وقت الفجر ، وفي المرحلة الأولى منها طالعَهم وهم على الجياد « منزل بَدَوِيّ، ذي هيئة وزِيّ، فمالوا اليه، فهَشَّ وبَشّ ، وكنس منزله ورَشّ ، وصيّر عيالَه إلى ناحية ، وجمع أطفاله في زاوية » . ثم يصف المنزل على بساطة ما فيه وصفاً يُشعر بأنه قصْر ، ويدرك البدويُّ ما في هذا الوصف من السخرية فيقول :

---

(١) السوق بفتح الواو : جمع السوقة .
(٢) اطبى بتشديد الطاء : استهوى .
(٣) الخصر : البارد .

يا أخي نحن على أنّا نَتاجٌ بَدَوِيّ
سادةٌ ناسٌ لنا في هذه الدنيا دَوِيّ
عندنا إنْ جاء ضيفٌ شِبَعٌ جَمٌّ ورِيّ
وسريرٌ حَشْوُهُ رِيشُ الفراريج وَطِيّ
وكراماتٌ كثيراتٌ وهَيْئاتٌ وزِيّ

ثم قام من مكانه ، ودعا بصبيانه ، وأغراهم بديك لههَرِم ليذبحه في طاعة الكرم . وأدرك الديك ما يُبَيَّت له من الشر ، فوقف خطيباً يذكِّر أهل البيت بأفضاله عليهم قائلاً : « أيها السادة الملوك! فيكم الشابُّ مُتِّع بالشباب ، والأشيبُ نَوَّر شيبُه مع الكواعب والأتراب . وقد صَحِبتكم مُدَّة ، وسبّحتُ الله تعالى على رءوسكم مِراراً عِدَّة ، أوقظكم بالأسحار ، وأؤذّن بالليل والنهار ، وقد أحسنتُ لدَجاجكم سِفَاداً ، ورَبّيْتُ لكم من الفراريج أعداداً ؛ فالآن حين بَلِيَ في خدمتكم تاجي أُنْعَى إلى دَجاجي ، وتُنحَى الشَّفرة على أوادجي[1]؟ » ... الخ

ثم غُشِيَ عليه ، فرقَّت له أنفس القوم ، وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم ، ولكنه أصرَّ على أن يذبحه ، وأن تُضرَم تحته النيران ، وتشبعَ من لحمه الضيفان. عندئذ عاد الديك إلى الكلام فأثنىَ على صاحبه قائلاً : «أما إنه لعلى خلق عظيم ، كريمٌ ابنُ كريم . غير أنه لَؤُم في أمري وأفرط ، وغلِطَ ما شاء أن يغلَط . أما علم أن هَرِمَاتِ الديوك ، ليست من مطاعم الملوك ؟ ... وأن له في بَنِيَّ ، ما لا يجده فيَّ ، من طيب المَشَم ، ولذة المطعم » ؟ .

« فزكّى قولَه ، كلُّ مَن حوله ، ... وصرف البدويُّ من ألطافه ، ما أحسنَ به قِرَى أضيافه ، وختم نَوْبَةَ بِرِّه ، بالرغبة في بَسْطِ عذره » فسمعوا منه ، ورحلوا سحَراً عنه .

وفي فصل آخر من المقامة يطرُق آذانَهم صوتُ ناقوس في دَيْر قِسِّيس ، ويقتربون من قرية آنة « دار البطاريق ، وملعب الكاس والإبريق ، سائمتُها

---

(١) تنحى : تعرض ، والشفرة : السكين العريضة ، والاوداج : ما أحاط بالحلق من العروق .

الخنازير ، وحياضُها المعاصير ، ومياهُها الأنبذةُ والخمور » . ويبدو أن أحدَهم كان قد سبق له زيارتُها ، فأخذ يُطنب في وصف جمال نسائها بمثل قوله : « نباتُها غصونٌ من قُدود ، تهتز في أوراق من بُرود [1] ، وتُثمر رُمَّاناً من نُهود ، وتُفاحاً من خدود ... وفيها مُدام من رُضاب ، وسُقاةٌ من كواعب أتراب ، ... وخَنَثٌ [2] في ألفاظ ، ومواعيدُ بألحاظ ، وقلوبٌ تَكلَف وتُشغَف ، ونفوسٌ تنشأ وأخرى تتلَف . فلما أكثر مُحدِّثُنا بحضرة الفقيه ، من هذا التشبيه ، ومن هذه المحاسن ، المحركاتِ لكثير من السّواكن ، قطَّبْنا له وجوه الاستكراه ، وعَضَضْنا له على الشفاه . فبينا نحن كذلك نُكثِر لغَطًا ، ونرى الحلولَ بالمسيحيين غلَطا ، إذ نظرنا إلى اطراد صفوف ، من أعطافٍ خَنِثَة وخصور هيف [3] ، ومن شموس وأقمار ، على أفلاك جيوب وأزرارٍ ، لا سيوفَ إلاَّ من مُقَل ، ولا درقَ [4] إلاَّ من خجل ، ولا عارضَ [5] إلاَّ من خَلُوق [6] ، ... ولا اسمَ غيرُ عاشق ومعشوق ، فتشفّع القِسّيس بحُسْنِ خدودهم ، وأقسم بنعمة قدُودِهم ، إلاَّ أجزلتم المِنَّة ، وثنيتمُ الأعِنَّة ، تعريجاً الينا ، وتحكّماً في المال والولد علينا ، فكرُمَتِ الشفاعة ، وقلنا : السمعُ والطاعة ، وجُلْنا جوَلانَ الزنانير ، على هيف الخصور ، حتى وافينا الباب ، وأنخنا الركاب ، وتولَّى تَوليِّ الحُرّ ضروباً من البِرّ ، وقضانا من الإكرام نافلةً وفَرْضا ، وشدَدْنا الجيادَ عنه رَكْضاً » .

وعلى الطريق واجهتهم كنسية قديمة عارية الأطلال ، فشجَتْ خيال ابن الشّهيد ، وهيّجت له ذكراً ، فنظم قصيدة في وصف حالها . ثم استأنفوا السير

---

(١) برود بضم الباء : جمع برد بضم الباء وسكون الراء : وهو : الثوب أو الرداء .
(٢) خنث : لين وحلاوة .
(٣) هيف بكسر الهاء : جمع أهيف وهيفاء ، وخصور هيف : أي ضامرة رقيقة .
(٤) الدرق : التروس ، نوع من السلاح . (٥) العارض : السحاب .
(٦) الخلوق بفتح الخاء : نوع من الطيب تغلب عليه الحمرة والصفرة ، وهو من طيب النساء خاصة .

مسرعين ، حتى أتوا إلى مروج تسرح السائمة فيها كالعذارى بين كلأ نضير ، وماء نمير ، وهناك شرب ابن الشّهيد الكثير من اللبن ، وفي ذلك يقول : « وما زلت أُرْوَى بالرائب (١) والمَيْس (٢) ، حتى كاد كِياني ينقلب إلى كِيان التَّيْس » !

وعندما رحلوا تذكروا الطراد والصيد فانطلقوا اليه مستعدين ببازٍ وكلاب ، فصادوا الكثير من طيور الماء البيضاء المعروفة « بالبُرَك » ثم وردوا ماءً في رقة النسيم ، ولذاذة بنت الكروم ، وهناك شربوا وطعِموا ، وقرَوْا سباع الفلاة ، مما فَضَل عنهم ، ونقش ابن الشَّهيد على مرمرة بيضاء ، ساعة ورودهم ذلك الماء ، قصيدة وصف فيها بعض ما كان من أمرهم في ذلك اليوم .

ولما غادروا الماء ، الذي نزلوا عليه واستأنفوا مسيرهم تلقاهم شابٌ وَسِيمٌ على ظهر جواد ، وعبراتُه تنسكب على نِجاد سيفه ، وأخبرهم بأنه مُنقلبٌ من السجن ، وآبقٌ من الحِصْن ، وعائذ من ظلمات الغَواية ، بنور الهداية ، ومن ذُلٍّ عبادة الأوثان ، بعز عبادة الرحمن ، وأنه يريد أن يعتنق الاسلام ، بعد أن عبدَ الطواغيت وقرعَ الناقوس ، وفعلَ كلَّ ما قرَّتْ به عينُ إبليس (٣) .

وبعد ، فهذه خلاصة لما أورده ابن بسّام من مقامة ابن الشَّهيد ، وإذا كانت قد خرجت عن رسوم المقامة المعروفة ، فإن قيمتها تكمن فيما تضمنته من تصوير شائق جميل لبعض مغامراتهم في هذه الرحلة أو النزهة . ولعل ابن الشَّهيد أراد أن يُشعر الفقيه ابن الحديد من طرف خفيّ بفضل الكتابة والكتّاب ، فلو لم يكن معهم في هذا اليوم السارّ لما سمع أحدٌ به ، ولما وجدَ مَن يؤرخ له ويخلّده بمنثور الكلام ومنظومه ، كما فعل .

---

(١) الرائب : اللبن بعد المخض وإخراج الزبد .

(٢) الميس : الزبيب ، والمراد شرابه .

(٣) انظر المقامة في الذخيرة : ١ / ٢ ص ١٨٤ .

مقامة أبي محمد بن مالك القرطبيّ :

ومقامةُ ابنِ مالك مثلُ مقامة ابن الشُّهيد السابقة لم تصل إلينا كاملة ، ويبدو أنه أطال فيها وأطنب ، لأن ما أورده ابنُ بسّامٍ منها مُنتزَعٌ من خمسةَ عشرَ فصلاً من فصولها ، وهي تُعرِب عن حفظ كثير . وقد خاطب بها أحدَ ملوك الطوائف ، المعتصمَ بنَ صُمادح ، صاحب المريّة والمتوفي سنة ٤٨٤ هـ .

وينبئنا ابن بسام أن أبا محمد أقام مدة بالمَريّة تحت ضَنْك معيشة ، يشكو تعريضاً وتطييباً كقوله من قصيدة :

وما نذكر الإعدام إلاَّ تخيلاً	لكثرة ما أغنى نداه وما أقْنَى
وأكثر ما نخشاه طغيانُ ثروةٍ	فإنا نرى الإنسان يطغَى إذا استغنَى

فقال له بعض أصحابه : ومن أين هذا الغنى وأنت تشكو الفقر . ومضَوْا معه إلى منزله ، فما وجدوا عنده غيرَ قُلّةِ فَخّارٍ وقَدَحٍ للماء ، ونحوَ ثمانية أرطالِ دقيقٍ في مِخْلاة !

**

ويفهم من فصول هذه المقامة التي أوردها ابن بسام ، أنها كُتِبَت عقب عودة المعتصم بن صُمادح ظافراً من معركة التحم فيها مع أعدائه .

وقد افتتحها ابن مالك بمدح المعتصم وإعلان البشرى والتهنئة لدولته بما رزقه الله من « فتح تفتّحت له أزاهيرُ النجاح » ثم انتقل من ذلك إلى وصف يوم من أيام المعركة ، بما في ذلك جيشُ ممدوحه الذي بالغ وأطنب في وصف رجاله وألْبِسَتهم وأسلحتَهم من الدروع والسيوف والرماح ، ووَصْفِ الخيل بألوانها المختلفة من مُبْيَضٍّ ومُسْوَدٍّ . ووَرْدٍ ، وأصفر ، ومُحَجَّل ، وعقّبَ على ذلك الوصف بالثناء على المعتصم بسلامة الرأي في أخذ الأعداء بالشدة عند أول بادرة من غدرهم « لأن الداء يبرَأ إذا حُسِم ، والخَطْبَ

يستشري كلما قَدُم ، وأنهم إن تُركوا في اليوم كُراعاً [١] ، صاروا في الغد ذراعاً » . ثم يُشير إلى استسلام العدو بقوله : « ولما علم أنه إما شَرِقٌ وإما غَرِق ، وعاينَ الموتَ مُحْمرَّةً أظافرهُ ، مُوفيةً مواردُه ومصادرُه ، ... رَمَى بيده صاغِراً إلى السَّلْم ، ثقةً بعفوٍ كظلِّ المُزنة الممدود ، وكرم كشطِّ اللُّجَّة المورود ، فلولا حلمٌ كالجبال رصين ، وجودٌ كالسحاب هتُون ، لَبادوا خلال الديار ، كما بادتْ جديسُ في وَبار » . ولا يفوته أن يحذر الأعداء من الاغترار بخُلُق ممدوحه الفضفاض ، وكرمه الفيّاض « فهو جَدْبٌ وربيعٌ مُعرِق ، وليل ونهار مُشرق ، فيه الصابُ والعسَل ، وفيه السهل والجبل ، له خاطر على خواطر الحوادث مُرسَل ، وطَرْفٌ بأطراف البلاد مُوكَّل. فأنَّي بعِنادِ مَن تَميد الأرضُ إذا وَجِم ، ويَرِقُّ نسيمُ الهواء إذا ابتسم ؟ » .

فإذ بلغ من كل ذلك غايته ، التفتَ إلى نفسه ، فجرَّدَ منها شخصاً ، ثم راح يخاطبه ويُقنعه بأنه كان على حق في إيثار المعتصم واختصاصه بمدحه ، وفي ذلك يقول : « ... لم أكن ممن غرَّه السَّراب ، حين أعوزَه الشراب ،... كلاَّ ! إن مملوككَ ألقَى أَرْوَاقَه [٢] ، حيث مَدَّ المجدُ رِواقَه [٣] ، بحيث يُعتَصر الندَى من عُوده ، ويُرتشَف صِرفُ الجود من ناجوده [٤] ، فانتقَيْتُ الجار قبل المنزل ، وأنزلتُ رَحْلي في المحل المُبْقِل [٥] ، ورتعتُ في أثَر الغمام المُسْبِل ، .... ولولا ذلك لكان لي في الأرض العريضة مسارح ، وفي أبناء الكرام مَنادح ، غيرَ أني عن أكثر المراتع عَزوف ، ولأكثر المشارع

---

(١) الكراع من الإنسان : ما دون الركبة الى الكعب ، ومن الدواب : ما دون الكعب .

(٢) ألقى أرواقه : أي ألقى همومه ونفسه .

(٣) الرواق : سقف يمد في مقدم البيت ، أو ستر يمد دون الرواق .

(٤) الناجود : الخمر ، وقيل : جيدها .

(٥) المبقل : أي الذي ينبت البقل بفتح الباء وسكون القاف : والمراد أنه أنزل رحله بالمكان الخصيب .

عَيوف ، وأني كالسيف لا يَحمَد كلَّ مَن حمَلَه، وكالرمح لا يُسَرُّ بكل مَن اعتقلَه، وما كلُّ عجيب في عيني بعَجيب، ولا كلُّ غريب في نفسي بغريب . أنسانيَ اللهُ رُشْدي يومَ أنساه ، وأبْدَلَنيه يومَ أستبدل سواه ، ما وصلَ أو قطع ، ورفض أو اصطنع ، وما ضرَّ أو نفع ...» .

ويجرُّه هذا الحديث الذي أعرب فيه لنفسه عن صدق فراسته في المعتصم وأمله فيه الى مزيد من مدحه ، فيصفه بالسماحة ، والحلم ، والندَى ، والكمال ، وصفاء الخُلُق ، والوفاء بالوعد ، والوقار ، والطهر ، وطِيب الأصل ، ونقاء العِرْض ، وصواب الرأي ، وعذوبة اللفظ ، وبأنه هو « ثالثُ القَمَرَيْن ، وسراجُ الخافقين ، وعِمادُ الثَقَلَيْن [1] » شافعاً كل ذلك بالدعاء له .

وفي ختام مقامته نرى ابن مالك يُبدي اعتذاراً مُسَبَّباً لعدم خروجه في جيش المعتصم والمشاركة في معركته المظفَّرة ، وفي ذلك يقول : « ويا لهَفي ألاّ تكونَ معونتي له إلاّ باللسان دون السِّنان، أُطاعِنُ أمامَه دِرَاكا، وأُزاحِمُ قُدّامَه الأقران لِكاكا [2] ! ولولا أفْرُخٌ كزُغْبِ القَطا ، يَدِبُّون في نائله عندي دبيبَ الكَرَى ، فيَستَشفُّون عُلالتي [3] ، ويستنزفون بُلالَتي [4] ، لامتطيتُ مِن جَدْوَاه اليَعْبُوب ، وتقلّدْتُ من نَداه الصَّارمَ الرَّسُوب [5] ، واعتقلتُ من عَطائه الصَّعْدَةَ [6] السَمراء ، وادَّرَعْتُ من حِبائه الفضفاضة [7] الجَدْلاء [8] ، فيُبصرُ هنالك ، مملوكه ابنَ مالك ، يُلاعب الأسنّةَ كعامر بن مالك ، فينظرُ أحسَنَ منظر ، ويَبلُو أفضلَ مَخبَر ، رَبَّ القصائد والقَنا المتقصِّد [9] ، فطوراً ضرباً بالمُنصُل، وطوراً ارتجالاً بالخطبة الفَيصَل، كخطبة

---

(١) الثقلين : الجن والإنس . (٢) اللكاك : الزحام .
(٣) العلالة بضم العين : بقية قوة الشيخ . (٤) بلالتي : مائي وحيويتي .
(٥) الرسوب : الماضي، أي الذي يمضي في الضريبة ويغيب فيها.
(٦) الصعدة : القناة التي لا تحتاج الى تثقيف . (٧) الفضفاضة : الدرع الواسعة
(٨) الجدلاء : المحكمة النسج . (٩) المتقصد : المتكسر

قيس بن سِنان ، في حَمالةِ عَبْسٍ وذُبيان ، خطبةٌ تُباري الريحَ في هُبوبها ، من لَدُن طلوع الشمس إلى غروبها ، حَضّاً على السَّلْم والمحاجزة . ونَهْياً عن الحرب والمناجزة . فلو شهِدَ هنالك لشهِدَ أمراً مُعجبًا ، وأبصر خطيبا مُسْهِبًا ... [1] » .

⁂

وبعد ... فهذه خلاصة ما وصل الينا من مقامه ابن مالك ، وقد أتينا في هذه الخلاصة على بعض نماذج من المقامة للاستدلال بها على أسلوبه وطريقة تناوله لموضوعاتها . ونُضيف إلى ذلك نموذجاً أخيراً له في وصف الرماح ، وهو قوله : « من كلِّ مُثَقَّفِ الكعوب ، أصمِّ الأنبوب ، كأنما سلَبَ من الروم زُرقتَها ، واجتلب من العرب سُمْرتَها ، وأخذ من الذئب عَسَلانَه . ومن قلب الجبان خفقانَه ، ومن رَقْراق السّراب لمَعانَه ، أو استعارَ من العاشق نحولَه ، ومن العليل ذُبولَه ... » .

والمقامة كما رأينا متعددة الأغراض ، ولا يجمعها بالمقامة غيرُ الاسم لخلوها من تقاليدها ، ولهذا فهي أقرب شبهاً بالرسالة ، وألفاظها لا تخلو من الغريب . ومعانيها منتزعة من الشعراء والكتّاب السابقين ، ثم أعيد صياغتها في أسلوب لا يرقى إلى أساليب أصحاب المقامات السابقة .

وقد أدرك ابن بسّام ذلِك ، فعقّب على المقامة بقوله : « مَدَّ ابن مالك في رسالته هذه أطنابَ الإطناب ، وشَنَّ الغارة فيها على عدّة شعراءَ وكتّاب ، من جاهليين ومخضرمين ، ومحدّثين ومعاصرين ، ولو ذكرتُ من أين استلبَ واختطف ، جميعَ ما وصف ، وانصرفَ إلى كلِّ أحدٍ كلامُه : نثرُه ونظامُه ، لحصَل هو ساكِتا ، ووقف باهِتا [1] » .

---

(١) الذخيرة ١ / ٢ ص ٢٤٦ .

(١) المرجع السابق: ١ / ٢ ص ٢٥٧ .

مقامة ابن الخطيب :

وللوزير لسان الدين بن الخطيب المتوفي سنة ٧٧٦ هـ مقامةٌ في « السياسة » يقول إنه أملاها في ليلة واحدة [١] ، وهي مقامة طويلة مسجوعة تبلغ خمس عشرة صفحة [٢] .

وقد بنَى ابن الخطيب مقامتَه هذه على حِوارٍ بين بطلين هما : الخليفة هارون الرشيد ، وحكيمٌ فارسيُّ الأصل عربيُّ اللّسان ، ولعله اصطنع هذا الأسلوب تشويقاً إلى قراءتها للإفادة مما اشتملت عليه من قِيَم سياسية . وهذه القِيَمُ التي أطلقها ابن الخطيب على لسان الحكيم الفارسيّ ليست في الواقع إلاّ خلاصة آرائه وتجاربه الشخصية فيما ينبغي أن تكون عليه سياسة الحكم الذي يُرجَى له النجاح والدوام .

ولكي نُلِمّ بأسلوب ابن الخطيب في هذه المقامة ومَدْخَلِه اليها نُورد هنا مقدمتها التي يقول فيها : « سهِر الرشيد ليلــة ، وقد مال في هجر النبيذ مَيْلَه ، وجَهِد ندماؤه في جلب راحته ، وإلمامِ النوم بساحته ، فشَحّتْ عِهادُهم [٣] ، ولم يُغنِ اجتهادُهم ، فقال : اذهبوا إلى طُرُق سمّاها ورسَمها ، وأمهاتِ قسَمها ، فمَن عثرتم عليه من طارِق ليل ، أو غُثاءِ سَيْل [٤] ، أو ساحبِ ذيل ، فبلّغوه ، والأمَنَةَ [٥] سَوّغوه ، واستدعوه ، ولا تَدَعُوه .

فطاروا عَجالَى [٦] ، وتفرّقوا رُكباناً [١] ورِجالا [٢] ، فلم يكن إلاّ

---

(١) الإحاطة : ص ٧٥ .

(٢) انظر هذه المقامة كاملة في نفح الطيب : ج ٩ ص ١٣٤ – ١٤٩ .

(٣) العهاد في الأصل : المطر ، وشحت : بخلت ولم تنزل ، والعبارة مجاز عن أنهم لم يبلغوا ما أرادوه .

(٤) غثاء سيل : عبارة عن أرذال الناس وسقطهم بفتح السين والقاف .

(٥) الأمنة : الأمن .

(٦) عجالى : جمع عجلان ، وهو السريع .

(٧) ركبان : جمع راكب .

(٨) رجال هنا : جمع راجل ، وهو الماشي على رجليه .

ارتدادُ طَرْف أو فُوَاقُ [1] حَرْف ، وأتَوْا بالغَنيمة التي اكتسحوها ، والبضاعة التي رَبِحُوها ، يتوسّطُهم الأشعثُ الأغبر ، واللُّج [2] الذي لا يُعبَر ، شيخٌ طويل القامة ، ظاهرُ الاستقامة ، .... فلما مثَل سَلّم ، وما نَبَس [3] بعدها ولا تكلّم .

فأشار اليه الملك فقعد ، بعد أن انشمر [4] وابتعد ، وجلس ، فما استرق النظر ولا اختلس ، .... فابتدره الرشيد سائلاً ، وانحرف اليه مائلاً ، وقال : ممن الرجل ؟ فقال : فارسيُّ الأصل ، أعجميُّ الجنس عربيُّ الفصل ، قال : بلدُك وأهلُك وولدُك ؟ قال : أما الولد فولد الديوان ، وأما البلد فمدينة الإيوان ، قال : النِّحْلَة ، وما أعملت اليه الرحلة ؟ قال : أما الرحلةفالاعتبار ، وأما النِّحْلة فالأمور الكبار ، قال : فَنُّك الذياشتمل عليه دَنُّك؟ فقال : الحكمة فَنِّي الذي جعلتُه أثيراً ، وأضجعتُ فيه فِراشا وَثيراً ، وسبحان الذي يقول «ومَن يُؤْتَ الحكمة ، فقد أُوتِيَ خَيْراً كثيراً » وما سوى ذلك فتَبَع . ولي فيه مُصطافٌ ومُرْتَبَع .

قال : فتعاضد [5] جَذَلُ الرشيد وتوفّر ، وأغشَى [6] وجهَه قطعةٌ من الصبح إذا أسفر ، وقال : ما رأيتُ كالليلة أجمعَ لأملٍ شارد ، وأنعمَ بمؤانسة وارد ! يا هذا إني سائلك ، ولن تخيبَ بعدُ وسائلك . فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بحمْل أعبائه . ومُنِينا بمراوضة إبائه [7] .

فقال : هذا الأمر قِلادةٌ ثقيلة ، ومن خُطة العجز مُستقيلة ، ومفتقرةٌ لِسَعَة الذَّرْع [8] ، ورَبْطِ السياسة المدنية بالشرع ، يُفسده الحكمُ في غير

---

(١) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت ، والحرف بفتح الحاء وسكون الراء : الناقة .

(٢) اللج : البحر . (٣) نبس : تفوه بتشديد الواو ، أو نطق .

(٤) انشمر : تهيأ للأمر . (٥) تعاضد هنا : ظهر وبان .

(٦) أغشى : غطى بتشديد الطاء .

(٧) منينا بمراوضة إبائه : أي دفعنا إلى تذليل صعبه وتيسير مشقاته .

(٨) الذرع في الأصل : الطاقة . وسعة الذرع هنا : يراد بها سعة الخلق بضم الخاء واللام على المثل .

محلّه ، و يكون ذريعة إلى حلّه ، ويُصلحه مُقابلةُ الشكل بشكله ، ومَن لم يكن سَبُعاً آكلاً تداعت السباع لأكله !

فقال الملك : أجملتَ ففصِّلْ ، وبَرّيْتَ فنصِّلْ ، وكِلْتَ فأوصِلْ ، وانثر الحَبَّ لمَن يُحَوْصِلْ ، واقسم السياسة فنونا ، واجعل لكل لقب قانونا ، وابدأْ بالرَّعيّة ، وشروطها المَرْعيّة » .

∴

تلك فاتحة المقامة التي مهّد بها الكاتب للدخول في موضوعها السياسيّ . وأسلوبُه ، كما نرى من هذا النموذج ، يتميز بالسهولة والسلاسة ، وقد اعتمد فيه على التزام نوعين من البديع هما : السجع والجناس الناقص .

ومن فاتحة هذه المقامة انطلق حكيم ابن الخطيب إلى الكلام على « السياسة » التي هي موضوعها ، فبيّن الشروط المرعية في الرعية ، وخِلالَ الوزير الصالح ، وأحوالَ الجند ، وما يجب من تعويدهم على حُسْنِ الانقياد ، وتوفير الجراية لهم ، وأحوالَ العمال ووجوبَ حُسْنِ اختيارهم بتوفر الكفاية والأمانة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى شرح السياسة التي ينبغي اتباعُها في تربية الأبناء وتنشئتهم ، ومع الخدم والحُرَم اللائي « هُنَّ مغارسُ الوُلْد ، ورياحين الخُلْد » .

وقد أفاض بعد ذلك في آداب الخليفة والصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها والتي ينأى عنها . فأوصاه بالعدل وحذّره من مغَبّة الغضب « فاحذر أن يعدل بك غضبُك عن عدل تُزري منه بضاعة ، أو يَهجُمَ بك رضاك على إضاعة ، ولْتكن قدرتُك وَقفاً على الاتصاف ، بالعدل والانصاف » .

وأوصاه بصيانة المال « ولا يُزهِّدَنَّك في المال كثرتُه ، فتقلّ في نفسك أثَرتُه ، وقِسْ الشاهدَ بالغائب ، واذكر وقوعَ ما لا يُحتَسب من النوائب ، فالمال المصون ، أمنع الحصون ، ومَن قلّ مالُه ، قَصُرتْ آمالُه » .

وحبّبَ اليه العلماء بقوله : « واعلم بأن مواقعَ العلماء من مُلْكِك مواقعُ

المشاعل المتألِّقة ، والمصابيح المتعلِّقة ، وعلى قدرِ تُعَاهُدِها تَبذُلُ من الضياء ، وتجلو بنورها صور الأشياء .... » .

وحدَّثه عن عمارة البلدان ، وخير الملوك ، والجور والعدل ، والشريعة ، والثقة بالله والثقة بالقوة ، وأوقات الهدنة ، والمعلمين ، والحُجّاب .

وفي كل ذلك يقول : « واعلم أن بقاء الذِّكْر مشروط بعمارة البلدان ، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدَّان ... ، وأن خير الملوك مَن ينطق بالحجة وهو قادر على القهر ، ويبذُل الإنصاف في السر والجهر ، مع التمكن من المال والظّهر ، ويسارُ الرعيّة جمالٌ للمُلْك وشَرف ، وفاقتهم من ذلك طرف .

واعلم أن كرامة الجَوْر داثرة ، وكرامةَ العدل متكاثرة ... ، واعلم أن حُسْنَ القيام بالشريعة يَحسِم عنك نِكايةَ الخوارج ، ويسمو بك إلى المعارج ، .... ، ولْتكنْ ثقتُك بالله تعالى أكثرَ من ثقتِك بقوة تجدها ، وكتيبةٍ تُنجدها ، فإن الإخلاص يمنحك قُوًى لا تُكتَسَب ، ويمهِّد لك مع الأوقاتِ نصراً لا يُحتسب ، .... ، وتشاغلْ في هُدْنَة الأيام بالاستعداد ، واعلم أن التراخيَ مُنذرٌ بالاشتداد ...

وحَذِّرْ على المدرسين والعلماء والمتكلمين حَمْلَ الأحداث على الشكوك الخالجة ، والمزلاّت الوالجة ، فإنه يُفسد طباعَهم ، ويُغري سباعَهم ، ويَمُدُّ في مخالفة المِلّة باعَهم ، وسُدَّ سبيلَ الشفاعات فإنها تُفسد عليك حُسْنَ الاختيار ، ونفوس الأخيار ...

واعلم أنك مع كثرة حُجّابك ، وكثافة حِجَابك ، بمنزلة الظاهر للعيون ، المطالَبِ بالدُّيون ، لشدة البحث عن أمورك ، وتعرُّف السرِّ الخفيِّ بين أمرك ومأمورك ، فاعملْ في سِرِّك ما لا تستقبحُ أن يكون ظاهراً ، ولا تأنفُ أن تكون به مجاهراً .... »

⁂

وقد ختم ابن الخطيب مقامته بخاتمة طريفة يقول فيها : « ثم لما رأى — الحكيم — الليلَ قد كاد ينتصف ، وعمودَه يريد أن ينقصف ، ومجالَ الوصايا أكثرَ ممّا يصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، بحرُ السياسة زاخر ،

وعمرُ المتمتع بناديك مستاخر [١] ، فإن أذِنتَ في فنٍّ من فنون الأنس يَجذب بالمَقَاد إلى راحة الرقاد ، ويُعتق النفس بقدرة ذي الجلال ، من ملكة الكلال[٢] .

فقال : أمَا والله وقد استحسنّا ما سَرَدْتَ ، فشأنك وما أردت .

فاستدعي عُوداً فأصلحه حتى حَمِدَه، وأبعدَ في اختباره أمَدَه، ثم حرّك بِمَه ، وأطال الجسَّ ثَمّة ، ثم تغنّى بصوت يستدعي الإنصات ، ويصدع الحَصَاة [٣] ، ويستفزُّ الحليم عن وَقاره ، ويستوقف الطيرَ ورِزْقُ بَنيه في منقاره ، ثم قال :

صَاحِ ما أعطرَ القبولَ بِنَمَّـــــه ... أتُراها أطالت اللُّبْثَ ثَمّةْ [٤]
هي دار الهوى مُنَى النفس فيهـــا ... أبدَ الدهر والأمانيُّ جَمّةْ [٥] ...الخ

ثم أحال اللحنَ إلى لون التنويم ، فأخذ كلٌّ في النُّعاس والتهويم ، ... فخاطَ عيونَ القوم ، بخيوط النوم ، .... ، ثم انصرف ، فما علم به أحدٌ ولا عرَف ! ولما أفاق الرشيد جدَّ في طلَبِه ، فلم يَعلم بمُنقلَبِه ، فأسف للفراق ، وأمر بتخليد حِكَمِه في بطون الأوراق ، فهي إلى اليوم تُتْلَى وتُنقَل ، وتُجلَى القلوب بها وتُصقَل ، والحمد لله ربِّ العالمين » .

***

وبعد ... فهذا عَرْض لمقامة الوزير لسان الدين بن الخطيب في « السياسة » . ولعل فيما أوردناه منها في ثنايا العَرْض ما يكفي لا للتعريف بأسلوبه وفكره السياسيّ فحسب ، بل للإبانة أيضاً عن مقدرته الفائقة في تطويع الأدب للسياسة والسياسة للأدب .

وحبذا لو وجدت هذه المقامةُ طريقَها إلى ساستنا فأفادوا منها ، وإلى طلاب العلوم السياسية من أبنائنا ، ليروا على ضوئها إلى أيِّ مدىً من النُّضْج والعمق ، بلغ الفكر السياسيُّ العربيُّ في القرن الثامن الهجريّ ، والرابعَ عشرَ الميلاديّ .

---

(١) مستاخر : أصلها مستأخر وسهلت الهمزة . (٢) الكلال : التعب والاعياء
(٣) الحصاة ، هنا : القلب . (٤) اللبث : الإقامة ، وثمة : أي هناك .
(٥) جمة : كثيرة .

فهرس الموضوعات

الباب الرابع

النثرُ الفنيُّ في الأندلس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com